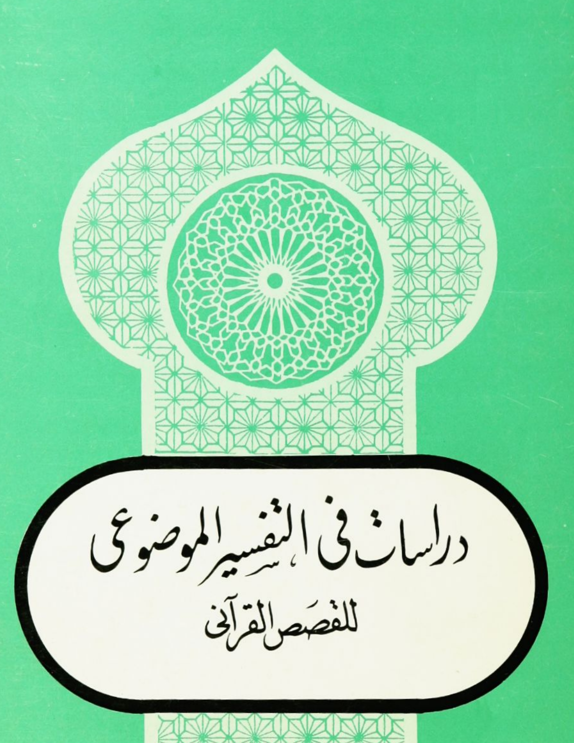
الدكتور أحمد جمال العمري



دراسات في التفسير الموضوعي
للقصص القرآني

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

دراسات في التفسير الموضوعي

للقصص القرآني

تأليف

الدكتور أحمد جمال العمري

أستاذ الدراسات القرآنية والبلاغية المساعد

بكلية الآداب - جامعة الزقازيق

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

مطبعة المدنى

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الموضوع وأهميته

نزل القرآن الكريم منجّما على حسب المناسبات ، وما تقتضيه الظروف والأحوال ، وكان الشأن إذا اقتضت الحالة أو دَعَت الحاجة إلى التعريف بأمر من الأمور المتعلقة بنبيّ من الأنبياء ، أو رسول من الرسل ، أو المتصلة بالعقيدة أو الشريعة ، أو الأخلاق الحميدة ، أن تنزل الآية أو الآيات التى تدعو إليها وتوضحها . ثم إذا تجددت الحاجة إلى التعريف بأحدهما بعد فترة من الزمان ، نزلت آية أخرى ، أو آيات كسابقتها فى **الموضوع نفسه** ، تزيده وضوحا ، أو تتمه ، أو تنسخه ، أو غير ذلك حسب حاجة الناس ، وملابسات الدواعى والأغراض .

وفيما يتصل **بالقصص** – نجد أن القرآن العظيم يقص علينا أنباء الغيب ، التى جرت بين رُسُل الله وأممهم ، وما حصل بينهم من طاعة أو عصيان . وكيف كانت عاقبة المكذّبين ، مصححا ما نقله التاريخ خطأ ، أو زاد فيه على الحاصل ، فى دقة متناهية ، وتفصيل معجز . كما يقص علينا أيضا من أحوال الماضين ما فيه عبرة للحاضرين ومن بعدهم ، وهو فى كل هذا يشير إلى **موضع العبرة** من سَوْق القصة ، كاشفا وجه الحكمة فى الإخبار بها ، من البشارة أو النذارة ، أو التدليل على صِدْق القرآن ومنزّله جلّ ذكره ، وصِدْق الرسول – ﷺ – وأنه آية على نبوّته ، وإرساله من قِبَل الحق جل وعلا .

ولعل ذلك من الأسباب التى من أجلها تكررت قصص الأنبياء فى القرآن . فذكرت **قصة نوح** عدة مرات ، بالإطناب أحيانا ، وبالإيجاز أحيانا ،

وذكرت **قصة إبراهيم** عدة مرات ، وذكرت **قصة موسى** – عدة مرات ، وذكرت **قصة عيسى** عدة مرات ، وإنه يبدو بادى الرأى أن ذلك من مكرور القول . **فما وجه البلاغة فى هذا التكرار لقصص الأنبياء ؟**

إننا إذا نظرنا نظرة فاحصة تليق بمقام القرآن ، ومكانته فى البيان العربى ، نجد أن **التكرار** فيه له مغزى ، ذلك أن القرآن ليس كتاب قصص ، وليس كالروايات القصصية ، التى تذكر الحوادث المتخيّلة أو الواقعة . إنما قصص القرآن – وهو قصص لأمور واقعة – يساق للعبر ، وإعطاء المثلات ، وبيان مكان الضالين . ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال ، وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقاوم به النبيون ، ووراءهم كل الدعاة للحق . فهو قصص للعبرة بين الواقعات ، لا لمجرد المتعة من الاستماع والقراءة . ولذلك قال الله تعالى فى آخر قصة نبى الله يوسف : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾
[الآية : ١١١]

كما أن القصص القرآنى لون من **تصريف البيان القرآنى** ، وتغير أشكاله ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا في هَذَا القُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾
[الكهف : ٥٤]

إن القصص القرآنى فيه **العبرة** ، وما ذُكرت قصة إلّا كان معها عِبرة أو عبر ، وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها بيان ما نزل بالأقوياء ، الذين غرهم الغرور ، والجبابرة الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، والله من ورائهم محيط .

وإن القصص فيه **إيناس صاحب الرسالة المحمدية** ، بأخبار إخوانه من المصطفين الأخيار ، وإثبات قوله ، فقد كانت تلك الأخبار الصادقة . ما كانت

لتُعلم إلّا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها ، وهو لا يزال فى بطن الغيب ، كما قال سبحانه وتعالى ، **فى قصة موسى** – عليه السلام – ووقائعها :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغَرْبِىّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ولكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وما كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوماً ما أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قبلِكَ لَعَلَّهُم يَتَذَكَّرُون ﴾

[القصص : ٤٤ – ٤٦]

وكما قال عز شأنه **عقب قصة مريم** :

﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُون أَقْلَامَهُم أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

لم يكن محمد – ﷺ – مشاهداً الأحداث التى جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهى صادقة وثابتة فى الصادق من أخبار النبيين فى كتبهم ، التى يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف ، ولم يكن بمكة مدرسة لاهوت . بل لم يكن **بمكة** يهود ولا نصارى إلا خمّار ألحدوا بأن النبى – ﷺ – أخذ منه كذبا وبهتانا ، فقال الله ردًّا عليهم :

﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُون إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾

[النحل : ١٠٣]

وكانت مكة بلداً أُمياً ، ليس به علم ، ولا رياسات إلا مباريات رياسية فى البيان ، وكان محمد – ﷺ – أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال الله تعالى ، وهو أصدق القائلين :

﴿ وَماَ كُنْتَ تَتْلُواْ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بيَمينِكَ إِذًا لارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨]

لذلك نقول .. إن القصص القرآنى ذاته **فيه إعجاز** ، ذكره الكتاب ، جاء على لسان أُمىّ ، لا يقرأ ولا يكتب ، إذ هو النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل .

ويتساءل أى تالٍ للقرآن .. من أين جاء محمد بهذا القصص الحق ، وهو لم يشاهد وقائعه ، ولم يقرأها . لأنه لم يكن قارئا ؟... **إنه من عند الله ، العزيز الحكيم ، علاّم الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق من التحدى ، ومن هنا تأتى أهميته .**

أضف إلى ذلك ، أن الله تعالى **ذكر الحقائق الإسلامية** فى القصص ، فلم يكن عِبْرة فقط ، بل كان بيانا لحقائق الإسلام ، فنجد فيه بيانا **لعقيدة التوحيد** ، والبرهان عليها ، جاء فى سياق القصص عن النبيين السابقين . فقد كانت **قصة إبراهيم الخليل** – عليه السلام – دعوة إلى التوحيد . وكيف أنه أبطل عبادة الأوثان ، بأنها لا تضر ولا تنفع ، وأنه جعلها جذاذاً إلّا كبيراً لهم ، وأنهم أرادوا عقوبته بالحرق بالنار ، فجعلها الله تعالى ﴿ بَرْداً وسَلَاماً علَى إبْراهِيم ﴾

واقرأ بعض القصص عن **نوح** – الأب الثانى للبشر ، تر الأدلة على التوحيد ، بأن تجد فى بعضها أدلة التوحيد تُساق للضالين ، ويوجه أنظارهم إلى الكون وما فيه [(١)] . وسوق الأدلة على التوحيد – فى سياق قصة – يجعله يسرى إلى النفوس من غير مقاومة ، وتكراره يجعله يخط فى النفس خطوطا ، وتتعمق الخطوط ، فيكون **الإيمان** .

وليس القصص القرآنى فيه إثبات أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبطلان عبادة الأوثان التى هى أسماء ، سمّوها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من

---

(١) اقرأ سورة نوح من الآية ٢ إلى الآية ٢٠ .

سلطان – بل فيه **إثبات الوحدانية** أمام الذين يدّعون ألوهية المسيح – عليه السلام .

واقرأ **قصة عيسى** ، فإن فيها الدليل على أنه ليس إلّا عبداً لله تعالى ، ولقد قال الحق سبحانه فى ذلك :

﴿ ياأَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِى دِينكم ، وَلاَ تقُولُوا عَلَى اللهِ إلَّا الحَقَّ ، إنّماَ المَسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله وَكَلَمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْه .. ﴾ الآيات [1]

ونرى من هذا أن ذِكْر **قصة عيسى** ، أو ذِكر جزء منها ، اقترن ببيان وحدانية الله ، وإثبات بطلان أن الله تعالى ثالث ثلاثة ، وساق الدليل ، وهو أن الله تعالى خالق كل شيء ، وله ما فى السموات والأرض ، وصلة كل مخلوق كمثيله ، وإن اختلف طريق غيره ، فصِلَة المسيح – عليه السلام – بالله من حيث الخلق والتكوين كصِلَته بأى مخلوق سواه ، ولا يؤثر فى هذه الصلة التكوينية أنه عبد ممتاز ، وأنه رسول من رب العالمين ، وإن كانت طريقة تكوينه أنه وُجِد من غير أب ، فإن ذلك لا يجعله إلها أو ابن إلٰه .

وإنه مما جاء فى القصص ، **أن دعوة النبيين – عليهم الصلاة وأتم السلام – جاءت للخير إلى حسن التعامل ، وإصلاح الأرض** ، وأن إصلاح الأعمال والنفوس ومنع الفساد فى الأرض ، من أعظم المقاصد فى الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى ، والإيمان باليوم الآخر ، وإذا كان ذلك ضمن قصة ، استمكنت فى النفس ، واتجهت إلى مداخلها من غير تعويق من ملاحاة جديدة ، غير ما كان فى عهد النبى الذى ذكرته القصة .

---

(١) سورة النساء الآيات ١٧١ ، ١٧٢

ففى **قصة شعيب** [(١)] ، نرى دعوة صريحة إلى ناحية عملية ، تتصل **بالإصلاح الاجتماعى** ، ومنع الفساد فى الأرض ، والقيام بحق الأمانة فى التعامل . وفى موضع آخر من قصة شعيب ، نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالإصرار على الشر ، وكيف كان الإصرار عليه إلى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدى إلى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى حكاية لقول شعيب :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلاَ تَنْقُصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إِنِىِّ أرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ويَا قَوْمِ أَوْفُوا المِكيَالَ والميزَانَ بالقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم وَلاَ تَعْثُوا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِين . بَقِيّتُ اللهِ خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين ﴾ [هود : ٨٤ – ٨٨]

وبطريق القصص القرآنى ، يبين الله سبحانه **أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق** – وألا يجعل القاضى ، أو الحاكم للهوى سلطانا فى الحكم ، فإن كان الهوى كان الشطط فى الحكم ، ومظنّة الوقوع فى الظلم ، وإن كان الحاكم لابد أن يكون مدركا للحق ، فلابد من عنصر **العلم وإبعاد الهوى** . وقد وضح هذا الجانب فى **قصة داوود** – عليه السلام – الذى أعطاه الله الملك والحكمة ، وسجل القرآن أحداثها [(٢)] .

وبطريق القصص القرآنى كذلك ، **يبين الله سبحانه بعض الأحكام الشرعية** ، فإنّ ذلك يثبت هذه الأحكام ويدعمها ، لأنها تكون أحكاما متفقا عليها فى كل الشرائع السماوية ، وبيان أنها غير قابلة للنسخ ، وأنها مؤكدة ثابتة ،

---

(١) الأعراف الآيات : ٨٥–٨٧ .

(٢) سورة ص الآيات من ٢١ إلى ٢٦ .

وفى القصة تكون حكمة شرعيتها قائمة ، والغاية منها ثابتة ، ولنذكر من ذلك **قصة قابيل وهابيل** ولدى آدم [١] .

ولقد امتاز القرآن الكريم ، بأنه حين يعرض لموضوعاته ، يعرض لها بطريقة لم يسبق إليها ، فلا يستطيع أن يسلكها سالك ، أو أن ينتهجها ناهج . فهو فى عرضه يتخذ له أسلوبا يختص به ، أعجز الإنس والجن عن معارضته ، فتراه حين يعرض . **يأتى بوجوه متعددة ، وأساليب متنوعة ، وأفانين متجددة** ، يراعى المقام فى كل موقف من مواقفه ، ويطابق جميع مقتضيات الحال فى كل عبارة من عباراته ، فله فى كل مقام مقال . وفى كل موضوع مجال ، طُرُق فى الأداء لا عهد للبشر بها فى أبلغ كلام ، ولا مثيل لها فى أفصح بيان ، غاية فى البلاغة ، ليس لها نهاية ، ونهاية فى الفصاحة . لا يجاوز الفصحاء مبتداها . ثم هو فيما يعرضه من **موضوعات شتى** ، خاصة فى القصص القرآنى ، لا يهمل جانب النظر ، ولا يغضّ من شأنه ، بل يحث عليه ، ويدعو إليه ، ويتحاكم إلى العقول ، فى كشف الحق ، وبيان الصدق ، يشفع حكمه ببيان حكمته ، وتوجيه شرعته ، ثم يدع للسامع الحرية ، وحسن الاختيار ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وإن تعجب فعجب عرضه **للموضوع الواحد** ، ذى المعنى المتحد ، والهدف المشترك ، فإنك تجده مع تفرّقه فى القرآن فى أماكن عدة ، ومع تباعد أوقات نزوله ، وتباين أزمان وصوله ، ليس بين آياته مفارقة ، ولا تلفيق ، ولا تشويه ، ولا تناقض ، بل هى وحدة واحدة ، مترابطة متناسقة ، تكون لنا صورة واحدة ، فى أحسن تقويم ، وتعطينا منظراً متآلفا فى أبدع تنظيم ، وتصور لنا كائنا متناسق الأعضاء ، مترابط الأجزاء ، متكامل البناء ، جيد السبك ، قوى المعنى ،

---

(١) سورة المائدة من ٢٧ إلى ٣١

متين النظر ، لا تناكر بين معانيه فى العقول والأفهام ، ولا تباين بين مبانيه فى الأسماع والآذان ، بل يكمل بعضه بعضا . ويأخذ بعضها بعجز بعض ، كل جزء يستدعى الآخر ، وكل لفظ يقع من الثانى موقعه ، وبالجملة فالقرآن العظيم فى عرضه لموضوعاته ، فريد فى بابه .

من هذا المنطلق كان اختيارى لموضوع القصص القرآنى لكى يدرس دراسة موضوعية .

فى هذا القصص – الذى قصدنا إلى دراسته وتوضيحه – حاولنا أن نبين الوزن الحقيقى لهذا **التفسير الموضوعى** ، والقيمة العلمية التى يهدف إليها ، حتى يبرز للناس هدايته فى أيسر أسلوب ، وأوضح عبارة ، ويقرّب كتاب الله إلى قلوب المؤمنين ، بأقصر سبيل ، وأوضح طريق .

٢ – المنهج

ليس الهدف من دراسة القصص القرآنى ، وتفسيره موضوعيا ، أن نُلِمّ بكل جزئيات القصص وعناصره ، وإنما هدفنا فى هذا المنهج أن **نركّز على حدث معين** من الأحداث ، أو **واقعة محددة** من الوقائع ، التى وقعت فى حياة رسول من الرسل ، أو نبى من الأنبياء .. فنحن لا نقصد بدراستنا كل ما اشتملت عليه حياة الرسل ، ولكننا ندرس موضوعاً معينا ، دراسة مركزة مكثّفة ، تبرز مضمونه ، وتوضح ملامحه ، وتحكى حقيقته ، ثم نتناول العبرة أو العبر من وراء هذا الحدث .

فليس الهدف من هذه الدراسة – **حَصْرِيّا** – بمعنى أن نتناول كل ما حدث فى حياة الأنبياء والرسل ، وإنما الهدف إلقاء الضوء على أبرز حدث واجه الرسول أو النبى ، ونتائج هذا الحدث .

• فعلى سبيل المثال ، حين درسنا **قصة آدم** – عليه السلام – كان تركيزنا على **قضية الاستخلاف** ، ولماذا كان الاستخلاف ، وما الأسباب والدواعى التى دعت إلى ذلك ، ثم توضيح الحكمة الإلهية ، التى من أجلها خلق الله آدم بيديه ، ثم جعله خليفة فى الأرض .

• وحين درسنا **قصة هابيل وقابيل** ، كان هدفنا إبراز قضية هامة ، وهى **ظلم الإنسان لأخيه الإنسان** ، وحسده له ، والطمع فيما بين يديه ، ذلك الطمع الذى أدى إلى قتل الأخ لأخيه ، للتخلّص منه ، وما أعقب ذلك من ندم وحسرة ، وضياع وتشتت ، وكان ذلك الحدث سببا فى تدخل عناية الحق – سبحانه – بتشريع **مبدأ القصاص** .

هذا المنهج فرض علينا أن تكون الموضوعات **مكثفة مركزة** ، لا مجال فيها للإسهاب ، وإنما هو اعتماد دقيق على القرآن والسنة ، واستنطاقهما بكل ما يرتبط بموضوع التفسير من نصوص ، وما جاء فيها مرتبطا بذلك من أحكام الله .

وهذا المنهج فرض أيضا أن يكون البحث مقسَّماً إلى فصول عدة وإن جمعته **الوحدة الموضوعية ، والغاية المشتركة** ، يتقدمها دراسة تمهيدية توضح الغاية من هذه الدراسة ، وتتناول بعض جوانب العملية التفسيرية .

ولقد خصصنا **الفصل الأول** : لدراسة أنبياء الله ورسله .

وخصصنا **الفصل الثانى** : لدراسة آدم – أبو البشر – وقضية الاستخلاف .

ودرسنا فى **الفصل الثالث** : قصة قابيل وأخيه هابيل .

ودرسنا فى **الفصل الرابع** : قصة نوح – عليه السلام – وسفينته والطوفان .

ودرسنا فى **الفصل الخامس** : قصة الذبيح .

ودرسنا فى **الفصل السادس** : قصة ذى القرنين وبناء سديأجوج ومأجوج .

ودرسنا فى **الفصل السابع** : قصة الصديق يوسف – عليه السلام – ومحنة المراودة .

ودرسنا فى **الفصل الثامن** : قصة نبى الله شعيب مع أصحاب الأيكة .

ودرسنا فى **الفصل التاسع** : قصة نبى الله موسى مع صاحبه الخضر.

ودرسنا فى **الفصل العاشر** : قصة قارون وكنوزه وكيف خسفت بهما الأرض .

ودرسنا فى **الفصل الحادى عشر** : قصة نبى الله داوود وقضية الابتلاء .

ودرسنا فى **الفصل الثانى عشر** : قصة المسيح عيسى ابن مريم والمائدة .

ودرسنا فى **الفصل الثالث عشر** : قصة أصحاب الكهف ورحلتهم الإيمانية .

ودرسنا فى **الفصل الرابع عشر** : قصة رسول الله – ﷺ – مع المشركين والمنافقين كما أوردها القرآن .

وختمنا بحثنا هذا بخلاصة تفيد أهم نتائجه وما احتواه من موضوعات .

المصادر :

أما المصادر العلمية التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة ، فهى تنقسم بحسب طبيعة الموضوع والمنهج إلى مجموعات :

(أ) – مصادر دينية .

(ب) – مصادر تاريخية .

(ج) – مصادر لغوية وأدبية .

فأما **المصادر الدينية** ، ففى مقدمتها – بطبيعة الحال – كتب الله المقدسة ، القرآن الكريم ، والتوراة ، والإنجيل ، وكتب الصحاح الستة ، ثم كتب التوحيد ، وكتب العقائد ، يضاف إليها مجموعة ضخمة من التفاسير ، كتفسير الطبرى ، وتفسير ابن كثير ، وتفسير الرازى ، وتفسير الزمخشرى ، وتفسير الشوكانى ، وتفسير المنار ، وتفسير الشيخ سيد قطب ، والتفسير الواضح ، ويلحق بهذه التفاسير كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكذلك الجواب الصحيح ، واقتضاء الصراط المستقيم ، والعقيدة الواسطية ، وكتاب تلبيس إبليس لابن الجوزى وغيرها .

* وأما **المصادر التاريخية** : فهى كثيرة ، فى مقدمتها سيرة ابن هشام ، والروض الأنف للسهيلى ، وبلوغ الأرب للألوسى ، والأصنام لابن الكلبى ، والمحبر لابن حبيب . إلى جانب كتب التاريخ المختلفة ، كتاريخ الطبرى ، وتاريخ اليعقوبى ، وتاريخ أبى الفداء ، وتاريخ بغداد ، والتاريخ الصغير للبخارى ، والبداية والنهاية لابن كثير ، وكتب الطبقات والتراجم ، وقصص الأنبياء لابن كثير ، وقصص الأنبياء للنيسابورى الثعلبى .

* وأما **المصادر اللغوية** : ففى مقدمتها معاجم اللغة ، لسان العرب ، والتاج ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط ، ومفردات القرآن للأصفهانى وغيرها . وبالإضافة إلى هذه المصادر اللغوية رجعنا إلى مجموعة من الدراسات الأدبية والعلمية ، التى تتصل بموضوعنا ، فى مقدمتها : التفسير الموضوعى للدكتور محمد البهى ، والدراسة القيمة التى ألفها الأستاذ محمد قطب فى كتابه دراسات قرآنية ، وكالتفسير الموضوعى للدكتور الكومى ، والإسرائيليات والموضوعات للشيخ محمد أبى شهبة ، بالإضافة إلى الدراسات التى كتبها الدارسون والباحثون حول

القصص القرآنى ، والتفسير والمفسرون .. مثل : دراسات الأستاذة الدكتورة عائشة عبد الرحمن عن التفسير البيانى . ودراسات الدكتور شوقى ضيف عن سورة الرحمن وقصار السور ، ودراسات الدكتور محمد عبد الله دراز عن الدين ، كما انتفعنا بكتابات الأستاذ العقاد عن الله ، وعن إبراهيم أبى الأنبياء ، وعن مطلع النور . وانتفعنا كذلك بكتاب الأساطير العربية قبل الإسلام للدكتور محمد عبد المعين خان .. إلى غير ذلك من الكتب والمصادر التى أفادتنا إفادة كبيرة فى بحثنا ، مما هو مدرج فى هوامش البحث ، وفى الثبت الأخير منه .

وبعد ، فهذه محاولة لدراسة جانب من الجوانب الدينية ، تتصل بالقصص القرآنى وبالتفسير الموضوعى ولعلها تكون مفيدة ، فإذا كان فيها شيء من القصور أو النقص ، فلأن الكمال لله وحده .. وإنما حسبى أننى أخلصت النية ، وبذلت الجهد ، والله أسأل أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه ، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه . فهو حسبى وهو نعم الوكيل .

جدة فى ربيع الأول سنة ١٤٠٥ هـ الدكتور / أحمد جمال العمرى

تمهيد

فى التفسير ومناهجه

قرر العلماء أن دراسة القرآن الكريم وتفسيره ، أشرف عمل يتعاطاه الإنسان ، باعتبار أن هذه الدراسة موضوعها : **كلام الله تعالى** ، وغرضها : **التوصل إلى ما أودعه رب العالمين ، فى قرآنه من معان وحِكَم** .. وقد فسروا لفظ « **الحكمة** » الوارد فى القرآن ، بأنها « **تفسير القرآن** » [1] .

• أخرج **ابن أبى حاتم** ، وغيره ، عن **ابن عباس** – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى :

﴿ يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾
[البقرة : ٢٦٩]

• قال فى تفسير **الحكمة** : **المعرفة بالقرآن** ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحلاله وحرامه ، وأمثاله .

• وأخرج أيضا عن **أبى الدرداء** فى قوله تعالى ﴿ يؤتى الحِكْمَةَ .. ﴾ الآية ، قال : قراءة القرآن والفكرة فيه .

• **يقول الراغب الأصفهانى فى مقدمه تفسيره** :

« أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان **تفسير القرآن وتأويله** ، وذلك أن الصناعات الحقيقية إنما تَشْرُف بأحد ثلاثة أشياء : إما **بشرف موضوعها** ،

---

(١) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ج٢/١٧٥

نحو أن يقال : الصياغة أشرف من الدباغة ، لأن موضوعها هو الذهب والفضة ، أشرف من جلد الميتة ، الذى هو موضوع الدباغة .

وإما **بشرف صورها** ، نحو أن يقال : طبع السيوف أشرف من طبع القيود .

وإما **بشرف غرضها** ، **وكمالها** ، كصناعة الطب ، التى غرضها إفادة الصحة ، فإذا ثبت ذلك .. **فصناعة التفسير قد حصل** لها الشرف من جهاتها الثلاثة ، وهو أن **موضوع المفسّر** : كلام الله تعالى ، الذى هو ينبوع كل حكمة ، ومعدن كل فضيلة ، **وصورة فعله** : إظهار خفيات كل ما أودعه منزّله من أسراره ، ليدبّروا آياته ، وليذكر أولوا الألباب ، **وغرضه** : التمسك بالعروة الوثقى ، التى لا انفصام لها ، والوصول إلى السعادة الحقيقية ، التى لا فناء لها ، ولهذا أعظم الله محلّه ، بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً ﴾ قيل : **هو تفسير القرآن** [١]

ولقد وردت لفظة (**تفسير**) فى القرآن الكريم لتعطى معنى **الكشف والإيضاح** . قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاَّ جِئْنَاكَ بالحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ [الفرقان : ٣٣]

وجاء فى **القاموس** : الفَسْر : الإبانة وكشف المغطى . [٢]

وفى لسان العرب : الفَسْر : البيان . فسّر الشىء يفسِّره بالكسر ، ويفسُره بالضم ، فسراً ، وفسّره : أبانه . والتفسير مثله . ثم قال : الفسر : كشف المغطى . والتفسير : كشف المراد عن اللفظ المشكل ، أى توضيحه [٣] .

---

(١) مقدمة تفسير القرآن ص ٤٢٢ من كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن ، للقاضى عبد الجبار .
(٢) القاموس المحيط ٢/١١٠
(٣) ابن منظور ٦/٣٦١

• **ويقول الأستاذ أمين الخولى** – رحمه الله – تلتقى مادتا (ف س ر) ، (س ف ر) ، فى معنى الكشف المالى ، والفسر : الكشف المعنوى والباطن ، والتفعيل منه : التفسير : كشف المعنى وإبانته [١] .

ويقول **الراغب الأصفهانى** : التفسير والفسر يتقارب معناهما لتقارب لفظيهما ، لكن جُعِل الفَسْر **لإظهار المعنى المعقول** ، وجُعِل السَّفر لإبراز الأعيان للأبصار .

هذا عن معنى التفسير فى اللغة .

*** أما التفسير – اصطلاحا – فقد اختلفت فى تحديده أساليب العلماء .**

• فمنهم من أطال فى تعريفه – كالسيوطى – فقال :

« هو علم نزول الآيات ، وشئونها وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، وبيان محكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها . وأمرها ونهيها ، وَعِبَرِها وأمثالها ، ونحو ذلك [٢] .

• ومنهم من توسط – كأبى حيان – فقال : « هو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب . وتتمات لذلك [٣] ... ثم أخذ فى شرح تعريفه .

---

(١) مناهج تجديد فى النحو ص ٢٧١

(٢) الإتقان فى علوم القرآن ٢/٢٧٤

(٣) البحر المحيط : ج١ المقدمة .

وهذا التعريف – فى رأيى – **غير جلى ولا واضح** ، وكذلك لم يصرح بالغرضين الأهمين ، اللذين نزل لهما القرآن ، **وهما : كونه كتاب الهداية البينة** ، التى هى أوضح الهدايات وأقومها ، والتى لو اتبعها البشر لحققت لهم السعادتين ، الدنيوية ، والأخروية . **وكونه الكتاب السماوى المعجز** ، **فهو** المعجزة العظمى ، والآية الكبرى ، الباقية على وجه الدهر ، لنبينا المصطفى – ﷺ – .

وقال الزركشى : التفسير علم يفهم به كتاب الله ، المنزّل على نبيّه محمد – ﷺ – وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه ، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو ، والتصريف ، وعلم البيان ، وأصول الفقه ، والقراءات ، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ [1] .

ومن العلماء من أوجز فى التعريف ، فقال : هو علم يبحث فيه أحوال القرآن الكريم ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية [2] .

والمراد **بأحوال القرآن الكريم** ، من حيث كونه كتاب الهداية الأقوم ، وكتاب العربية الأكبر ، والمعجزة الخالدة للنبى – ﷺ – .

هكذا فهم العلماء الأقدمون مضمون علم التفسير وعرّفوه .. وتاريخ تفسير القرآن الكريم زاخر بمئات الدراسات التى قام بها هؤلاء العلماء الدارسون ، فى عصور متتابعة . حول تفسير آياته ، والكشف عما فيها من أسرار البيان التعبيرى ، من إعجاز ، وما فيها من أحكام ومعان ، ومبادىء فى العقيدة والتشريع ، والحكمة والاجتماع ، وغيرها مما لا ينتهى القول فيه .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن ج١ص١٣ بحث التفسير .
(٢) منهج الفرقان فى علوم القرآن ج٢ص٦ .

وإن السبب الأول فى اهتمام العلماء الأول ، بتفسير كل كلمة فى القرآن ، إنما يرجع إلى أنه هو نفسه الذى بين أيدينا . والذى ظل منذ أُوحى به ، دون تحريف أو تبديل ، هو كلام الله ، وكلمته الأخيرة . الموحى بها إلى البشرية ، ولاشك أن كلام الله لا بد أن يحتوى من الحكم والأسرار ، مالا يمكن أن يشابهه فيه كلام البشر .

هكذا آمن المسلمون على مر عصورهم ، وعن هذا الإيمان انبعثت جهودهم فى تفسيره ، محاولة للكشف عن أسراره .

رأى العلماء الأول أن تفسير القرآن معناه – **معرفة كل شىء ، لأنه يحتوى كل شىء .**

• **قال ابن أبى الفضل المرسى** : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، حتى قال بعض السلف : « لو ضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى »

• **وقال أبو بكر ابن العربى** : « علوم القرآن خمسون علما ، وأربعمائة علم ، وسبعة آلاف علم . وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن ، مضروبة فى أربعة ، إذ لكل ظهر وبطن ، وحَدّ ومطلع .

ومن المعروف ، أن كل الطوائف والفرق ، والاتجاهات المنتسبة إلى الإسلام ، اتخذت من تفسير آيات القرآن الكريم – أو بعضها – وسيلة أساسية ، لتأييد ما تقول به من آراء ، ومعتقدات ، وأحكام .. **من هنا – فإن التصدى لتفسير القرآن ، كان مجالا رئيسيا ، التقت عليه كل الطوائف والاتجاهات ، والنزعات الإسلامية أو المنتسبة إلى الإسلام ...**

• ذلك أن المبدأ ، أو الحكم ، أو الرأى الذى تؤيده آيات القرآن ، يحظى على الفور بصفته استحقاق القبول من جماهير المسلمين .. كما أن الرأى الذى

تعارضه آيات القرآن ، مكانه الرفض المطلق منهم . أما الرأى الذى يعجز أصحابه عن تأييده بآية من آيات القرآن ، فإن عجزهم دلالة أكيده على بُعد هذا الرأى عن روح الإسلام ومقرراته . ومن ثمّ فإن كل الاتجاهات التى تبحث عن شاهد حاسم ، وتأييد يقينى ، قد سارعت إلى القرآن وآياته ، تبحث فيها عما يؤيد ما تقول به .

ولما كان القرآن كتابا جامعا ، فيه العقيدة ، والتشريع ، والهداية ، والاعتبار ، والحجج ، والقصص ، والتاريخ ، وآيات الإعجاز العلمى فى الطبيعة .

ولما كان إلى جانب ذلك كتابا عربيا ، لم يقاربه كتاب آخر ، أو كلام فى إعجازه التعبيرى البلاغى واللغوى ، **فإننا لا نعجب حين تطالعنا فى مكتبة القرآن الكريم ، تفاسير جمة** :

(أ) – تفاسير اتجه أصحابها إلى الأحكام الفقهية ، مثل :

أحكام القرآن لأبى بكر الجصّاص (ت٣٧٠هـ)

وأحكام القرآن لأبى بكر ابن العربى (ت٥٤٣هـ)

والجامع لأحكام القرآن للقرطبى (ت٦٧١هـ)

(ب) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى الروايات المأثورة فى التفسير ، مثل :

جامع البيان للطبرى (ت٣١٠هـ)

(ج) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى الرأى والاجتهاد ، مثل :

مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى (ت٦٠٦هـ)

(د) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى وجهة سُنّية ، مثل :

تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٤٦هـ)

(هـ) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى وجهة شيعية ، مثل :

مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسى (ت٣٥٨هـ)

(و) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى وجهة صوفية ، مثل :

تفسير القرآن الكريم لسهل التسترى (٢٨٣هـ)

(ز) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى وجهة اعتزالية ، مثل :

تفسير الكشاف للزمخشرى (ت٥٢٨هـ)

(ح) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى تجلية الإعجاز البيانى .

(ط) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى استخلاص آيات الإعجاز العلمى .

(ى) – وتفاسير اتجه أصحابها إلى دراسة النحو ، أو تسجيل القراءات .. [١]

هكذا فهم العلماء الأقدمون – قيمة التفسير ، وأدركوا غايته ومضمونه ، وقدّروا قيمته .

● وإذا كان هذا هو مفهومهم للتفسير ، وهذا هو مجهودهم الذى أخرج مئات التفاسير على اختلاف ألوانها .

فإننا نجد فى العصر الحديث بعض العلماء ، من يرفض تعريفات السابقين للتفسير [٢] ، ولا يرتضى مفهومهم ، ولا دراساتهم الواسعة المتنوعة ، التى احتوتها كتب التفسير ، ويرى أن مجهودهم هذا ، مجهود لا مبرر له ، لأن القرآن الكريم **لا يحتاج إلى تفسير شامل واسع** ، كما فهم الأقدمون ، **فإنما يحتاج إلى توضيح بعض الألفاظ الغريبة على القارىء** ، وهنا عليه أن يستعين عليها بالمعاجم اللغوية لتبيينها ، أو بالأحرى تقريبها .. وإلى بعض آيات الأحكام والمجملات المبيّنَة بالسُنّة المطهرة الصحيحة ، فإنها تُفَصّلها ، وتوضح بالعمل والقول مراميها وغايتها ، وماعدا ذلك .. فإنه لا يحتاج إلى بيان – إلّا أن يكون متشابها لم يُعرف بيانه بسُنّة

---

(١) انظر كتاب : التفسير والمفسرون – للدكتور محمد حسين الذهبى .

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة ، المعجزة الكبرى ص ٥٣٤

ثابتة السند ، فإن هذا لا تفسير له . ومن الحق أن يقول فيه القارىء لكتاب الله .. ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ ، كما قال تعالى فى الراسخين فى العلم :

﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الأَلْبَابِ . رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : ٧ ، ٨]

هذه وجهة نظر بعض العلماء المحدَثين المعاصرين :

وقد استند هؤلاء العلماء – فى وجهة نظرهم هذه – إلى سند من القرآن الكريم نفسه ، **فقد وُصِف بأنه (مُبِين) أى بَيّن ، والبيّن لا يحتاج إلى تبيين .** من مثل قوله تعالى .

- ﴿ الَر . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ ﴾ [يوسف : ١]
- ﴿ الَر . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴾ [الحجر : ١]
- ﴿ طَس . تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [النمل : ١]
- ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ العَالَمِين . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ المُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٢–١٩٥]

كما وُصِفت آياته بأنها بَيِّنَات ، فقال تعالى :

- ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبائنا إِنْ كُنْتُم صَادِقِين ﴾ [الجاثية ٢٥]

﴿ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ ﴾ [النور : ٣٤]

فإن هذا كله يدل على أن القرآن (**بَيِّن**) ، وكيف يحتاج الكلام البَيِّن إلَى مَنْ يُبَيّنه ، إنه يُبيِّن نفسه ، وهذا بخلاف **المجمل من آيات الأحكام** ، فإنه قد جاء النص ببيان أن النبى – ﷺ – قد فسّره ، فقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤]

• هذه النظرة العلمية قد يكون لها ما يبررها ، ذلك أن المفسرين القدماء قد توسعوا توسعا كبيرا فى عرض القضايا النحوية والصرفية ، وحشوا تفاسيرهم بالعديد من المسائل ، التى أثقلت التفسير ، بحيث جعل القارىء يتوه فى خضم هذه الآراء ، والتحليلات ، والمناقشات الفقهية .. إلى آخر هذه المسائل .

• كما أنهم تورّطوا تورطا شديداً ، حين نقلوا الكثير من **الإسرائيليات** المدسوسة فى مصنفاتهم استناداً إلى الرخصة التى منحها لهم رسول الله – ﷺ – بقوله :

« لا تُصَدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد » [1]

هذه الإسرائيليات كانت سببا فى إفساد المعنى ، الذى يبدو بادى الرأى من الآيات الكريمات . أضف إلى ذلك ، أن بعض كتب التفسير القديمة ، التى أخذت ذلك المأخذ ، واتجهت إلى الإكثار من القصص والأساطير الإسرائيلية ، وضعت ستاراً كثيفا بين الآيات الكريمة ، ونُورانيَّاتها المشرقة .

فهؤلاء العلماء المحدثون ، يريدون أن يجد تالى القرآن الإشراق والنور ، من غير حجب يحجبها ، من روايات ما أنزل الله بها من سُلطان .

والذى لاشك فيه ، أن لرأيهم هذا وجاهته ، فإننا بلا شك لو تتبعنا أكثر آيات القرآن ، التى لم تتعرض **للأحكام العملية** ، نجدها واضحة بينة ، وإن استبهمت علينا بعض الكلمات لبقايا العجمة فينا ، فإن المعاجم اللغوية تحل لنا إشكالنا ، وهو لنَقْص فينا – وليس إبهام فى القرآن ، ينافى وصفه بأنه ﴿ **مُبِين** ﴾ ، وآياته ﴿ بَيِّنات ﴾ . وإذا كان ثمة موضع للتفسير ، فإنه يكون بتوجيه الأنظار لأسرار القرآن البيانية ، والمرتبة العليا البلاغية ، التى لا تناهد ولا تسامى ، وليس فى قوة أحد من البشر أن يأتى بمثلها .

---

(١) البخارى : كتاب التفسير ١٢٠/٨ من فتح البارى .

ولقد حاول بعض العلماء القدماء ذلك فى تفاسيرهم ، ووصلوا فى كثير من الآيات إلى توجيه القارىء إلى الأسرار البلاغية ، ونحن نرى أن هذه محاولات ناجحة فى جملتها ، وفى كثير من آيات الكتاب ، ولكنا لا نحسب أنها وصلت إلى الغاية ، أو أنهم أدركوا النهاية ، فإن كتاب الله العزيز الحكيم لا تتناهى معانيه ، ولا يحاط بكل مغازيه ، وإن تلك المحاولات مفاتيح للنور ، ولكنها ليست النور .

* وإلى جانب الذين قالوا : إن القرآن مبين بذاته ، ولا يحتاج إلى من يُبَيّنه ويفسره .. هناك فئة أخرى ، ترى **أن القرآن يُتَعَبّد به ، ويتلى تلاوة ، ولا تتعرف معانيه إلا بتعريف من النبى** - ﷺ - **هذا ما ذكره القاضى عبد الجبار - فى كتابه** [1] - **واستدل على بطلانه** ، يقول : « الذى قدمناه الآن يدل على فساد قولهم ، أى أننا لا نطلب دلالة القرآن ، لأنا قد بيّنا أنه يقع منه تعالى على وجه يدل على المراد ، كوقوعه من أحدنا إذا تكامل على شرط دلالته ، ألا يصح منه تعالى أن يخاطب به ، وهو موضوع لفائدة إلا وهو يريدها ، وإلا كان فى حكم العابث .

وقد ذكر **شيخنا أبو هاشم** - رحمه الله - أنه لو كان كذلك لوجب ألا تنفصل حاله ، وهم عرب بين أن يكون عربيا ، أو أعجميا ، لأنه إذا لم يكن معنى يستدل به عليه ، أو به وبغيره ، فلا فرق بين كونه على هاتين الصفتين ، وبين أن يكون الكلام من المخاطب بهذه الصفة ، أى أنه إذا لم يكن له دلالة فلا فرق بين أن يكون عربيا ، أو أعجميا من يقرؤه .

• ثم يقول : ولا خلاف بين المسلمين ، أن القرآن يدل على الحلال والحرام ، والكتاب قد نطق بذلك ، لأنه تعالى قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَلا يَتَدبَّرُونَ القُرْآن ﴾ وقال تعالى ﴿ مَا فَرَّطْنَا في الكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْء ﴾ وقال تعالى : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ .. إلى غير ذلك ، مما بيّن به أنه يفيد ، **فيكف يصح مع ذلك ما قالوه** ؟

---

(١) المغنى ج١٦ ص٣٥٦

• **ومضمون كلام القاضى عبد الجبار** ، أن ثمة من الناس ، من يرى أن القرآن للتلاوة ، والتعبّد بتلاوته وقراءته فى الصلاة ، كما يفعل الأعاجم ، الذين لا يعرفون العربية ، وإنه يسوق الأدلة لبطلان هذا القول ، فيقول :

« وبيّن شيوخنا أنه **لو لم يكن له معنى لا يكون معجزاً** ، **لأن إعجازه هو بما يحصل من المزيّة والرتبة فى قدر الفصاحة** ، ولا يكون الكلام فصيحا إلا بحسن معناه وموقعه واستقامته ، كما لا يكون فصيحا إلا بجزالة لفظه ، ولو أن واحداً من المتكلمين ألّف من الكلام المهمل جملة ، وتكلم بها فى غير مُواضعة لم يعد من الكلام الفصيح ، كما لو كان فى معناه ركاكة لم يكن منه ، وكما لَوْ رَكَّ لفظه لم يعد فى ذلك ، فكيف لمن أقرأنه معجز ، أن يزعم أنه لا معنى له ، وأنه لا فائدة منه » [1]

فهذا الكلام يدل على أنه يوجد من يقول : **إن القرآن لا يطلب معناه** ، وأن القصد منه التعبد بالتلاوة فى الصلاة ، وخارج الصلاة .

• ويبدو أن الذى دفع هؤلاء إلى ذلك القول : — إن صحّ نقله — أنهم يتوقّفون خشية أن ينحرف بهم الفكر ، فيصرفوا معانى القرآن إلى غيرها لانحراف فى التفكير ، أو تزيّد عليه ، **فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد بها** ، **واقفين عند ذلك الحدّ** ، **حتى لا يقولوا على الله بغير علم** .

ومهما يكن من أمر ، **فإن ذلك الرأى مرفوض تماما ولا يؤخذ به** .

إن الذى لاشك فيه ، أن القرآن العظيم ، مقصود بمعانيه ، وبتلاوته ، وترطيب الأسماع به ، وبالتعبد به وبألفاظه ، فكل ما اشتمل عليه مقصود لِذَاتِهِ ، لا بالتبعيّة لغير ، فهو مأدبة الله تعالى ، **فإذا كان ذلك كذلك** — **فما مكان التفسير فى ذلك** ؟ لأن التفسير لا يكون إلا عند الحاجة للتبيين ، والقرآن الكريم

---

(١) المغنى ٣٥٧/١٦

– كما أشرنا من قبل – كتاب مبين ، وقرآن مبين ، وبلسان عربى مبين .. **وهل يُستغنى عن التفسير كما ذكر بعض العلماء المحدثين ؟**

إن الذى يبدو – لى – أن العربى الأصيل ، الذى لم تفسد لغته بعُجْمة ، ولم تُلْو لغته برطانة غير عربية ، ويفهم اللغة العربية ويتكلمها سليقة وطبعا ، لا يحتاج إلى تفسير .. إلاّ فى الآيات التى تتعلق بالتكليف العملى ، والأحكام العملية ، وما يستنبط من القرآن ، وإنها لتتفاوت فى ذلك تفاوتا كبيراً .

ومهما يكن من أمر ، **فإن التفسير علم قديم ، كان أستاذه الأول رسول الله** – ﷺ – وكان علما يدرس ، أقرّ به الصحابة ، وتدارسوه ، ومارسوه ، وكان على رأسهم حَبْر الأمة – **عبد الله بن عباس** – رضى الله عنهما – **وابن مسعود ، وأبىّ بن كعب ، وعلى بن أبى طالب** ، وغيرهم كثيرون . وظل هذا العلم قائما يتوارث ويتناقل ، منذ عهد الصحابة والتابعين ، تشهد بذلك المصنفات الضخمة ، التى صُنِّفت فى التفسير ، سواء **بالمأثور والرواية ، أو بالمنقول والدراية** ، وغير ذلك من التفاسير العقائدية التى حفلت بها مكتبة القرآن ، وهذا ما جعل العلماء يقنّنون لها القوانين ، ويحدّدون لها التعريفات .

والذى لا ريب فيه ، أن لعلم التفسير فوائد جمة ، وغايات جُلّى ، إن سلك المفسِّر الطريقة المثلى ، وجعل مرامى القرآن هى المقصودة ، ولم يتجه بكتاب الله إلى تحريف المعانى ، والإنحراف عن المقاصد . وهذا ما يدفعنا إلى القول :

إن العملية التفسيرية التوضيحية لا بد أن تشمل أموراً ضرورية ، فى مقدمتها :

١ – **العمل على ربط معانى القرآن بما ورد فى السنة المطهرة الصحيحة من بيانه .**

وفى ذلك استعانة بالمبين للقرآن ، وهو الحديث ، ووضعه فى مواضعه حتى لا تضلّ الأفهام فى فهم معانى الأحكام ، أضف إلى ذلك – أن بعض الألفاظ لها أكثر من مدلول ، والسنة النبوية هى التى تحدد المدلول المراد .

٢ – **مراعاة القراءات** .. إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض : فالقرآن الكريم له عدة **قراءات متواترة** ، وكل قراءة قرآن ، وهى متلاقية فى معانيها ، وليست يقينا متضاربة ، بل إن بعض القراءات تزيد معانى عن القراءة الأخرى ، أو توجه معناها .

● ففى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : ١٢٨]
– **فقد قُرئت بِضَمّ الفاء وفتحها .**

فبضم الفاء : تدل على أن الرسول – ﷺ – من العرب أنفسهم ، وليس غريبا عنهم .

وبفتح الفاء : تدل على أنه من أعلاهم نسبا وخُلقا ، ومكانة وشرفا ، وبضم القراءتين يكون المعنى : أن الرسول – ﷺ – من أعلى العرب .

٣ – **إبراز الجوانب الجمالية .. البيانية والبلاغية للقرآن** ، وهذه من الأمور الممتعة ، التى تربط قارىء القرآن بمعانى القرآن ، وبالقيم الجمالية فيه ، وقد نهج هذا المنهج من قبل **الزمخشرى** – فى كشافه ، فأتى بتفاسير جيدة محببة إلى النفس ، لولا ظهور الجانب الاعتزالى المسيطر عليه بين ثنايا التفسير .

٤ – **معرفة أسباب النزول** .. إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية .

٥ – **معرفة علم القصص** .. لأن معرفة القصة القرآنية تفصيلا ، يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

٦ – **معرفة الناسخ والمنسوخ** .. وبه يعلم المحكم من غيره ، ومن فقد هذه الناحية ربما أفتى بحُكم منسوخ ، فيقع فى الضلال والإضلال .

٧ - **علم الموهبة** : والموهبة علم يورثه الله تعالى - لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة فى القرآن ، بقوله تعالى : ﴿ واتَّقُوا اللهَ ويُعَلِّمُكُمُ اللهُ ﴾
[البقرة : ٢٨٢]

وبقول الرسول - ﷺ - « من عمل بما علم ورَّثه الله علم ما لا يعلم »

يقول السيوطى : « ولعلك تستشكل علم الموهبة ، وتقول : هذا شيءليس فى قدرة الإنسان ، وليس الأمر كما ظننت من الإشكال ، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد ، قال صاحب البرهان : « اعلم أنه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحى ، ولا تظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة ، أو كِبْر ، أو هوى ، أو حُبّ دنيا ، أو وهو مصرّ على ذنب ، أو غير متحقق بالإيمان ، أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله ، وهذه كلها حُجُب وموانع بعضها آكد من بعض . يقول الحق سبحانه : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِى الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ ﴾
[الأعراف : ١٤٦]

قال ابن عيينة : « أنزع عنهم فهم القرآن » . [١]

• هذه هى العلوم التى اعتبرها العلماء أدوات ووسائل لفهم كتاب الله تعالى . ولا يخفى أن هذا العدد ليس حاصراً لجميع العلوم التى يحتاج إليها التفسير ، فإن القرآن الكريم قد اشتمل على **أخبار الأمم الماضية** ، **وسيرهم وحوادثهم** ، وهى أمور تقتضى الإلمام بعلمى **التاريخ** ، **وتقويم البلدان** ، لمعرفة العصور والأمكنة ، التى وجدت فيها تلك الأمم ، ووقعت فيها هذه الحوادث .

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ١٨٠/٢

هذا وقد قدم **الشيخ رشيد رضا** لتفسيره بمقدمة نفيسة ، وضع فيها بعض الإضافات ، والتفسيرات الدقيقة ، التى استقاها من دروس أستاذه **الشيخ محمد عبده** ، قال فيها : « **للتفسير مراتب ، أدناها** : أن يبيّن بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير ، وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد .

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧]

أما المرتبة العليا : **فهى لا تتم إلّا بأمور** :

أحدها : **فهم** حقائق الألفاظ المفردة ، التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقبول فلان ، وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن ، قريب أو بعيد ، من ذلك لفظ « **التأويل** » ، اشتهر بمعنى التفسير مطلقا ، أو على وجه الخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى ، كقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٥٣]

• **فما هذا التأويل** :

يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبّع الاصطلاحات التى حدثت فى المِلّة . ليفرق بينها ، وبين ما ورد فى الكتاب ، **فكثيرا ما يفسر** المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملّة بعد القرون الثلاثة . **فعلى المدقّق أن يفسر القرآن بحسب المعانى ، التى كانت مستعملة فى عصر نزوله** ، والأحسنَ أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه ، وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة ، كلفظ « **الهداية** » وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ، وقد قالوا : « **إن القرآن يفسر بعضه بعضا** » . وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة

معنى اللفظ ، موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

ثانيا : الأساليب .. فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه .

نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله – تعالى – كله على وجه الكمال والتمام ، ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة ، ويحتاج فى هذا إلى **علم الإعراب ، وعلم الأساليب** (المعانى والبيان) ، ولكن مجرد العلم بهذه الفنون ، وفهم مسائلها ، وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب .

ثالثا : علم أحوال البشر ، فقد أنزل الله هذا الكتاب ، وجعله آخر الكتب ، وبين فيه ما لم يبين فى غيره ، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق ، وطبائعهم ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقصّ علينا أحسن القصص عن الأمم ، وسيرها الموافقة لسنّته فيها . فلابد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر ، فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم ، من قوة وضعف ، وعز وذُلّ ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، عُلْويّه وسُفْليّه ، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة ، من أهمها **التاريخ بأنواعه** .

أجمل القرآن الكلام عن **الأمم** ، وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكّر ، والسير فى الأرض لتفهّم إجماله بالتفصيل ، الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكُنّا كَمَنْ يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر ، القائم بهذا الفرض الكفائى ، أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة ، من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى – ﷺ – بعث به لهدايتهم وإسعادهم ، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة ، أو ما يقرب منها – إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه .

خامسا : العلم بسيرة النبى – ﷺ – وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل ، وتصرف فى الشئون دنيويها وأخرويها .[1]

– ٢ –

• أين مكان التفسير الموضوعى ؟

إن التفسير – كما ذكرنا – علم وضعه الأوائل ، **القصد منه : تبيين مراد الله تعالى بذلك القرآن** . وذلك الذى يوصل إليه هذا العلم لهذا القرآن ، إنما هو بقَدْر ما تصل إليه القدرة المدركة للبشر ، وليس هناك من سبيل للجزم بأن ما يصل إليه إنسان من معنى القرآن ، أن ذلك هو **مراد الله** قطعا ، ولكن البحث حول ذلك المراد **مداه أن يصل إلى ظن قوى ، وإدراك راجح** .

وحيث أن مفهوم التفسير – كما حدده العلماء – يدور حول بيان المعنى المراد لذلك اللفظ ، كان لزاما على من يسلك السبيل إلى التفسير أن يكون مايذكره من المعنى للفظ ، مستلزما لذكر اللفظ أولا ، وبيان معناه ثانيا ، ذلك لأن

---

(١) تفسير المنار ٢١/١-٢٤ بتصرف

التفسير بمثابة الترجمة عن ذلك اللفظ ، الذى جاء به القرآن ، بلفظ آخر يكون أيسر للفهم ، وأبين للمعنى من نفس اللغة .

أما الترجمة ، فهى بيان معنى اللفظ بلفظ أخر من لغة آخرى . وكما لا بد للمترجم من متابعة لفظ الأصل ، لا بد للمفسر من متابعة ذلك اللفظ وبيانه بلفظ آخر .

فإذا كان ذلك كذلك — كان المفسر للقرآن متابعا لألفاظه وجمله بيانا لمفرداتها ، ثم جمعا لتراكيبها . ومن هذين المقصدين ، وَذَيْنِك الغرضين ، يصل الإنسان إلى المعنى المراد من تراكيب القرآن الكريم .

ولما كان القرآن ترتيبا خاصا من حيث التلاوة ، ونظما مميزاً من حيث الصياغة والكتابة ، وكان هذا الترتيب ، وهذا النظم له اعتبار من التعبّد بتلاوته ، وحصول الثواب من قراءته .. فقد دأب المفسرون منذ نزول القرآن على متابعة ألفاظه وجُمله ، متابعة لا تخرجه عن نظمه فى التلاوة ، ولا عن وضعه الثابت فى المصحف ، بل إنهم حرصا على ذلك **النظم** ، وتدعيما لذلك **الترتيب** ، كان من جملة أبحاثهم التى أعدُّوها ، ومضوا وراء تحقيق أهدافها ، البحث عن إبراز **مناسبات النزول** ، والكشف عما عساه أن يكون من تلك الارتباطات ، بين آى القرآن بعضها مع بعض فى سورها . وعن السور بعضها مع بعض فى جملتها ، ومن جهة تعلّق سابقها بلاحقها ، ومتأخرها بمتقدمها .

بل إنهم كثيرا ما يذكرون أن بيان المقصود من اللفظ ، لا يكون متجلّيا إلا بمعرفة السياق ، حتى يشع اللفظ السابق على اللآحق بضوء يكشف غامضه وحتى يستوجب اللاحق للسابق نظرة يستشف ما حال دونه ، وحجب غصونه .

بيد أن المفسّر للقرآن الكريم على هذا النهج ، تارة يكون **متمهّلا ممعنا** ، وتارة يكون **مسرعا متعجّلا مُجمِلا** .

ومن البديهى لدارس القرآن وتاليه ، أن يعلم من الآيات المتفرقة فى سوره ، والمنتشرة فى أنحائه ، ما يكون متعلقا **بموضوع واحد** ، وتكون تلك الآيات متعددة فى أمكنتها من القرآن ، موزعة فى سوره . وهى مع تعددها وتفرقها **متحدة الموضوع ، مشتركة فى نوعية البحث ، لكن النظم القرآنى وفقا للترتيب الإلهى** ، استوجب توزيعها لذكرها فى مناسباتها ، واستلزم تفريقها حتى تطلب عند الحاجة إليها ، وعند وجود الدافع إلى استخراجها وذكرها .

• من ذلك على سبيل المثال ، ما يتعلق بموضوعات : **الخمر** ، **والجهاد فى سبيل الله** ، **والدعوة إلى الله** ، وأيضا **الزواج والطلاق** ، **وقصص الأنبياء** ، .. إلى آخر الموضوعات التى اشتمل عليها القرآن .

• **فمما يتعلق بالخمر ، فى الآيات المكية :**

قوله تعالى فى **سورة النحل** : ﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ والأَعْنَابِ تتخذُون مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَنًا ﴾ [الآية : ٦٧]

• **ومما يتعلق بها – فى الآيات المدنية ، ما جاء فى عدد من السور :**

• **ففى سورة البقرة** ، قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ والمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِير وَمَنافِع للنَّاسِ وإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما ﴾ [البقرة : ٢١٩]

• **وفى سورة النساء** ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُم سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ماَ تَقُولُونَ . ﴾ [الآية : ٤٣] .

• **وفى سورة المائدة** ، قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّماَ الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الآية : ٩٠]

ولعل ما يستوجب ذلك التفرق للآيات ذات الموضوع الواحد ، ما يكون من **أسباب النزول** ، لكل جزء من أجزاء الموضوع ، ويتضح هذا الأمر أكثر مايتضح فى **الآيات . التى تتعلق بمسلك الرسول ودعوته** . من مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً ﴾
[الرعد : ٣٨]

• حين قالوا : لا هَمَّ له إلا النساء .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠]

• حين قالوا : ﴿ مالِهَذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاق ﴾
[الفرقان : ٧]

• **ويتضح هذا الأمر أيضا ، فى الآيات التى توضح التدرّج فى التشريع – كما فى قضية الرِّبا**

• كقوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِباً لِيَرْبُوا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ ﴾ [الروم : ٣٩]

• ثم قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّباَ أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً ، واتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكم تُفْلِحُون ﴾ [آل عمران : ١٣٠]

• ثم قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تُبتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩]

• ويتضح كذلك ، عند تكرير التنبيه حتى ترسخ العقيدة ، **كالآيات المتعلقة بالألوهية**

ومن ذلك ما يكون مستوجبا الخوف تارة ، والرجاء تارة أخرى ، **كالآيات التى تتعلّق بالوعد والوعيد** . أو ما يكون تكراره لإيراد الموضوع الواحد بعبارات مختلفة ، وأساليب متغايرة .

• ومن ذلك أسلوب القرآن فى القصة الواحدة ، **وهذا كثير فى القصص القرآنى ، حيث تتكرر القصة الواحدة فى أماكن كثيرة . فقصة موسى – عليه السلام – مع فرعون** ، تشتمل على عناصر عدة ، وقد ذُكرت فى مواضع كثيرة .

• **فقصة ولادته وإرضاعه .**

وردت فى سورة القصص من الآية ٧ إلى الآية ١٣ .

وفى سورة طه من الآية ٣١ إلى الآية ٤٠

• **وتربيته فى بيت فرعون**

وردت فى سورة الشعراء من الآية ١٨

• **وخروجه من مصر إلى أرض مدين .**

ورد فى سورة طه من الآية ٤٠

وفى سورة القصص من الآية ١٥ إلى ٢١

• **ونزوله بأرض مدين**

ورد فى سورة القصص من الآية ٢٢ إلى ٢٥

• **ووجوده بالوادى المقدس**

ورد فى سورة طه من الآية ٩ إلى ٢٣

وفى سورة القصص من الآية ٤٤ إلى ٤٦

وفى سورة النمل من الآية ٧ إلى ١٢

- **وبعثته عليه السلام**

ورد ذكرها فى سورة طه من الآية ٣٤ إلى ٣٦ ، ٤٢ – ٤٧
وفى سورة الشعراء من الآية ١٠ إلى ١٦
وفى سورة النازعات من الآية ١٥ إلى ١٩

- **وعودة موسى إلى مصر ودعوته إلى فرعون**

ورد ذكرها فى سورة الأعراف من الآية ١٤٠ إلى ١٥٠
وفى سورة الشعراء من الآية ١٧ إلى ٢٢

- **ومناجاة موسى لفرعون فى ربوبية الله**

وردت فى سورة طه من الآية ٤٨ إلى ٥٥
وفى سورة الشعراء من الآية ٢٣ إلى ٢٨

- **ومعجزة العصا واليد**

ورد الحديث عنها فى سورة الأعراف من الآية ١٠٦ إلى ١٢٦
وفى سورة يونس من الآية ٧٩ إلى ٨٧
وفى سورة طه من الآية ٥٧ إلى ٧٦
وفى سورة الشعراء من الآية ٢٩ إلى ٥٢

- **والائتمار بموسى لقتله**

ورد فى سورة غافر من الآية ٢٨ إلى ٤٦

- **وانطلاق بنى إسرائيل وغرق فرعون**

ورد ذكره فى سورة الأعراف من الآية ١٣٦ – ١٣٧
وفى سورة يونس من الآية ٩٠ إلى الآية ٩٢
وفى سورة الإسراء من الآية ١٠٣ إلى ١٠٤
وفى سورة طه من الآية ٧٧ إلى الآية ٧٩
وفى سورة الشعراء من الآية ٥٢ إلى الآية ٦٨
وفى سورة الدخان من الآية ١٧ إلى الآية ٣١

من هنا نرى أن قصة موسى ، التى عنى بها القرآن الكريم ، وجاء بالقول الفصل فيها ، ذكرت فى عدة مواضع ، وبأساليب مختلفة فى الإجمال والتفصيل . وكل سورة ذكر فيها شيء عن القصة ، وبعض السور اشتركت فى بعض العناصر المهمة ، وكل موضع ذكر فيه شيء عن موسى ، فالمذكور مناسب تماما لسياق الآيات السابق واللاحق . ومن هنا كانت قصة موسى آية على قدرة الله .

• وهكذا نجد القرآن الكريم فى المكان الواحد يتنوع ، وهو مخبر ومبشّر ، وآمر وناه ، إلى غير ذلك ، فبملاحظة **ترتيب التلاوة** ، **ورسم المصحف** ، **وجد ألوان من التفسير** :

اللون الأول : التفسير التحليلى .

اللون الثانى : التفسير الإجمالى .

اللون الثالث : التفسير الموضوعى .

* * *

١ - التفسير التحليلى

فى هذا اللون من التفسير ، يمضى المفسر فى تفسيره للقرآن مع **النظم القرآنى** ، على ما هو موجود مرتب فى المصحف ، محللا آية بعد آية ، وسورة بعد سورة ، متتبعا معانى المفردات ، ذاكراً ما تضمنته المعانى فى جملها ، وما ترمى إليه فى تراكيبها ، منقبا عن المناسبات بين مفاصلها ، ذاكراً وجه الربط بين مقاصدها مستعينا على الوصول إلى ما تهدف إليه ، وتدل عليه ، بذكر أسباب النزول ، وما أُثر عن النبى - ﷺ ، أو نقل عن صحابته والتابعين . وقد يضيف المفسر إلى ذلك ما تستلهمه قريحته ، أو توصله إليه ثقافته اللغوية والنحوية والفقهية .

وهذا اللون من التفسير - يتفاوت فيه المفسرون بين الإطناب والإيجاز ، كما يتباينون من حيث المنهج .

• فمنهم من التزم فى تفسيره النقل عن السلف ، مازجاً بين ما نُقِلَ عن الرسول - ﷺ - وصحابته وتابعيه ، وقد التزم بذلك تماما ، وحرم على نفسه أن يأتى بمعنى من عنده مستحدث ، وتمسك بذلك ، حتى وضع الحواجز بين العقل والقرآن ، ومنع غيره من التفكير فى القرآن ، واتجاهاته . وحرم القرآن من أن تبرز مكنوناته ، وأن يفيض على العقول بكشف مستوراته ، وقد فاته .. أن ذلك القرآن نزل ليكون مورد كل عصر ، ومعين كل مصر ، ومهيعا واسعاً للفكر ، ومجالا خصيبا للبحث والنظر .

• ومن هؤلاء المفسرين القدماء ، من أفسح لنفسه المجال فى أن يكون **مؤرخا** ، يشبع نهمه من البحث التاريخى ، ويملأ رغبته من **الجانب القصصى** . بيد أن بعض هؤلاء المفسرين أسرفوا فى حشو تفسيرهم **بالقصص الخرافية** ، **والأساطير القديمة** ، بالإضافة إلى أمور وأخبار ليس لها سند صحيح من نقل ،

ولا يقبلها عقل . وهؤلاء جرّوا شراً كثيرا إلى عقائد المسلمين وقرآنهم ، وذلك بما ذكروه – بين ثنايا التفسير – من الإسرائيليات ، التى استقوها من أهل الكتاب ، ونسبوا بعضها إلى الأنبياء زوراً وبهتانا [١]

• ومن المفسرين المحللين من نصب نفسه **باحثا كونيا** ، **أو فيلسوفا عقليا** ، يتلمس من النصوص القرآنية ما يكون له ظل من نظرياته ، أو يكون له نوع اتصال عن قُرب ، أو بُعد بما يتمشى مع أفكاره ، مستنطقا النصوص بما يؤيد رأيه ، أو يدعم فكرته من القرآن ، وحتى يكون لما طار به تفكيره ، وسرح به نظره ، مستمداً من وحى السماء ، وذلك كتأويل القائلين بأن النعيم والعذاب روحيان ، وكالقائلين بالتناسخ ، إلى غير ذلك .

ولاشك أن هذا اللون من **التفسير العلمى** ، هو إيهام القارئين والسامعين ، بأن صاحب هذا التفسير والتفكير ، قد وصل إلى مالم يصل إليه الأوائل ، وأكبر مثال على هذا النوع من التفسير ، ما جاء فى كتاب **الفخر الرازى** فى القديم ، وتفسير **الشيخ طنطاوى جوهرى** فى الحديث .

وعلى هذا النمط من التفسير وجدنا منهم من كتب فى الفروع ، مستطرداً **لمسائل الفقه كالقرطبى** ، ومن كتب متأثرا بالنحو **كأبى حيان** ، ومن كتب متناولا **القضايا البلاغية كالزمخشرى** ، أو متأثرا **بالمذاهب الكلامية كالفخر الرازى** ، **أو بالتصوف كابن عربى** .

ومن المتأخرين من جمع فى تفسيره ألوانا متعددة من تلك العلوم والثقافات **كالألوسى** . والذى لاشك فيه أن مثل هذه التفسيرات ، وإن كان الطابع العام

---

(١) انظر ما كتبه الدكتور محمد أبو شهبة عن الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير – طبع مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧١

لها هو **الطابع الموسوعى** العلمى ، المشتمل على الفنون المتنوعة ، والثقافات المتعددة .. إلّا أن صورتها النهائية – أو قُل **وزنها الفنى** ، بوصفها تفسير لكتاب الله الكريم ، **يجعلها بعيدة عن الهدف المقصود** ، نائية عن الغرض المنشود ، الذى أراد رب العزة من إنزال كتابه هداية للبشر .

هذا اللون من التفسير ، وإن جمع بين **مناهج عدة** ، يسمى **التفسير التحليلى** ، الذى يعتمد على وحدة الآية . ويندرج تحته ما هو معروف من تفاسير القدماء .

* * *

٢ – التفسير الإجمالى

اللون الثانى من التفسير .. هو الذى يعمد فيه الباحث المفسر ، إلى الآيات القرآنية ، على ترتيب تلاوتها ، أو وضعها فى المصحف ، فيقصد إلى معانى جملها ، متتبعا ما ترمى إليه من مقاصد ، وما تهدف إليه الجمل من أهداف ، ويتوخى المفسر فى عرضه لهذه المعانى ، وضعها فى إطار من العبارات ، التى يصوغها من ألفاظه ، ووضعها فى قوالب تقربها من الأفهام ، وتجعلها مفهومة متداركة من القارئين أو السامعين .

والمفسر – فى هذا المنهج الإجمالى ، إذ يسير على نهج القرآن فى ترتيبه ، يجعل المعانى بعضها متصلا ببعض . وهو إذ يلفظ بعبارته التى صاغها من ألفاظه ، يأتى بين الحين والحين بلفظ من ألفاظ القرآن ، حتى يشعر السامع أنه لم يكن بعيداً – فى تعبيره – عن سياق القرآن ، وحتى يحقق التفسير من جانب ، ويكون رابطاً نفسه بنظم القرآن من جانب آخر ، ويكون فى الموضوع الذى يغرب ، أو يصعب فيه لفظ القرآن ، آتيا بلفظ يكون أوضح عند السامعين ، وأيسر فى الفهم عند القارئين ، وفى المواضع التى يعبر فيها بألفاظ القرآن تكون تلك الألفاظ واضحة المعنى ، بيّنة المقصود ، وبذلك يكون فيما جاء به من ألفاظ موضحا للمقصود .

وهذا اللون من التفسير الإجمالى ، أشبه ما يكون **بالترجمة المعنوية** ، التى لا يتقيد فيها المترجم بالألفاظ والجمل ، وإنما يقصد بها إلى توضيح المعنى ، وإبراز مراميه وتجليتها فى بيان المقصود من جملها وتراكيبها .

وقد يضيف إلى ذلك تلميحات من إيجاز لحادثة تاريخية ، أو سبب نزول ، أو حديث نبوى ، أو أثر عن السلف ، حتى يحقق بهذه الإضافات الفائدة المرجوّة من تفسيره .

وهذا النوع من التفسير **شفهى فى معظمه** ، وأكثر المفسرين على هذا النمط هم المحدِّثون ، **روّاد الإذاعة والتليفزيون** ، خاصة فيما يتصل بتقدمة التلاوة . والقصد منه ، إعطاء فكرة إجمالية عما سيتلوه القارىء من القرآن الكريم ، حتى يكون السامع للقرآن مدركا لمعانيه ، واعيا لمقاصده ، ملمًّا بأطرافه ، مدركا لمغزاه ، وبذلك لا يكون سماع القرآن مقصورا على جمال المقاطع ، وإيقاع النغم ، وإنما يكون المستمع واعياً بالمقروء ، وإن كان إجمالا ، وهذا التفسير الإجمالى **وليد العصر الحاضر** . ومن أمثلته فى القديم تفسير الجلالين للسيوطى ، وتفسير محمد فريد وجدى فى الحديث .

* * *

٣ – التفسير الموضوعى

وفى هذا اللون من التفسير ، يعمد الباحث والناظر فى القرآن ، **إلى الآيات التى تتصل بموضوع واحد** ، فيجمعها ، ويجعلها نصب عينيه ، وموجودة بين يديه ، ثم يقلّب الطرف فى أنحائها ، ويجيل الفكر فى جوانبها ، ويكوّن منها الموضوع الذى تتصل به ، ثم يعمد إلى جوانب ذلك الموضوع ، ويجعله فى إطار متناسب ، وهيكل متناسق ، ملوّنا لنواحيه ، مبرزا لمراميه ، حتى يكون هيكلا تاما ، متكامل الأجزاء ، تام البنيان ، قائم الأركان .. فإن أعوزه كمال ذلك الموضوع إلى حديث ، جاءت به السنة حتى يكمل له هيكله ، ويتم له صرحه ، جاء به .

• وعلى ذلك ينجلى للقارىء – بوضع الآية بجوار الآية – **الهدف الذى يقصد القرآن إليه ، والمعنى الذى يعول عليه** ، وبهذا يستكشف القارىء للقرآن هدايته ، ويبرز للناس من مواضع القرآن ، ما جاء به لأداء مهمته ورسالته [١] .

هذا اللون من التفسير الموضوعى ، وإن نحا نحوه علماء العلوم المختلفة ، **كعلم الكلام** ، عند الاستدلال على صفات الله – تعالى – **بالدليل النقلى** ، من مثل قوله تعالى : ﴿ فَعَّال لِماَ يُرِيد ﴾ [البروج : ١٦] وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ والشَّهادَةِ ﴾ [السجدة : ٦] وقوله عز شأنه : ﴿ خَالِقُ كلِّ شَىْءٍ ﴾ [الرعد : ١٦] ، وكذلِك فى **علم الأخلاق ، والتصوف ، والفقه** .. فإن تلك العلوم بوّبت فيها أبوابها ، واستشهد بها ، ودعمت بما يلائم تلك الأبواب من أدلة قرآنية ، وآيات تنزيلية .

---

(١) الدكتور أحمد السيد الكومى : التفسير الموضوعى طبع ، دار الهدى بمصر سنة ١٩٨٠ ص١٣

نقول : إن ذلك اللون من التفسير وجد ما يدانيه فى علوم آخرى ، إلا أنه على النحو التفسيرى لم يتم بنيانه ، ولم تقم أركانه ، ولم ينح نحوه أحد من العلماء السابقين ، بل لم يتعرض له من اللآحقين إلا القليل .

وهذا اللون من التفسير ، يتطلب جمع الآيات المتصلة بالموضوع ، وإمعان النظر فيها ، بوصفها وحدة واحدة ، وتحريك النظر فى اتجاهاتها ، لاستكشاف ما يكون فيها من معان ثانية ، وبذلك نقتطف من كل غصن من أغصان ذلك البحث ما يناسبه ، حتى تكون فروع ذلك الموضوع الواحد مستوفاة مستكملة ، ويكون لكل فرع من الآيات ما يناسبه ثم ينتقل إلى موضوع آخر ، وهكذا .. حتى تتحقق الأهداف التى توخاها القرآن ، وتبرز وحدة الموضوع ، التى قصد إليها هذا التفسير الموضوعى ، كموضوعات الرسالة ، والتوحيد ، والبعث والنشور ، والجنة والنار ، وموضوع الخمر ، والزواج والطلاق ، والمعاملات المالية ، والجهاد ، وحقوق الأفراد إلى غير ذلك .. **وقد سمى بالتفسير الموضوعى نسبة إلى وحدة الموضوع الذى يعالجه** .

• ويتصل بهذا اللون من التفسير ، لون آخر – يمكن أن نطلق عليه **التفسير المقارن أو الموازن** .

وفى هذا اللون من التفسير ، **القائم على الموازنة** ، يعمد المفسر إلى جملة من الآيات القرآنية فى مكان واحد ، ويستطلع آراء المفسرين ، متتبعا ما كتب فى تفسير تلك الجملة من الآيات ، سواء كانوا من السلف ، أم كانوا من الخلف ، وسواء أكان تفسيرهم من التفسير النقلى ، أم كان من التفسير العقلى ، **ويوازن بين الاتجاهات المتباينة ، والمشارب المتنوعة** ، فيما سلكه كل منهم فى تفسيره ، وما انتهجه فى مسلكه ، فيرى من كان منهم متأثرا بالخلاف المذهبى ، ومن كان منهم معبراً عن آراء فرقة معينة ، أو مذهب من المذاهب .

وقد يكون هذا اللون من التفسير المقارن ذا مجال أوسع ، ونشاط أفسح ، فيتجه فيه الباحث المفسر إلى مقارنة النصوص القرآنية المشتركة فى **موضوع واحد** ، وما جاء فى السنة كذلك من الأحاديث ، ثم يوازن بين النصوص القرآنية بعضها مع بعض ، كما يوازن بين ما جاء فى القرآن الكريم ، وبين ما جاءت به السنة ، وذلك مما يكون **ظاهره الاختلاف** .

• من مثل قوله : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُون ﴾ [الصافات : ٢٤] – أى احبسوهم ، احبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين ، إنهم مسئولون عما كانوا يعبدون من دون الله .

وقوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِه إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ [الرحمن : ٣٩] – أى لا يسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم ، لأن الله قد حفظها عليهم ، ولا يسأل بعضهم عن ذنوب بعض .

• ومثل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُم وأَمْوَالَهُم بأَنَّ لَهُمُ الجَنَّة ، يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُون .. ﴾ الآية .. [التوبة : ١١١]

• وقوله سبحانه : ﴿ وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِماَ كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ [الزخرف : ٧٢] – أى أورثكموها الله – عز وجل – عن أهل النار الذين أدخلهم جهنم .

• وقوله – ﷺ – فى الحديث الصحيح : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » .

وذلك ما عنيت به العلماء تحت عنوان آخر ، وهو « **موهم الاختلاف والتناقض فى علوم القرآن** » **ومختلف الحديث فى علوم الحديث** .

• وقد يتسع النظر فيما بين **القرآن والكتب السماوية الأخرى – التوراة والإنجيل**، ليظهر مدى **الإتفاق والافتراق** بين ما جاء فى القرآن وما جاء فيها .

• وقد تكون المقارنة بين النصوص القرآنية ذات القصة الواحدة ، أو الموضوع الواحد . لتظهر المفارقات بين مختلف التعبيرات عن المعنى الواحد ، بعبارات تختلف إيجازاً وإطناباً ، وأكثر ما يكون ذلك فى **القصص القرآنى** ، فتكون مهمة المفسر فى ذلك ، البحث عن الأسباب ، والكشف عن الأسرار والحكم التى من أجلها كانت المخالفة بين التعبيرين ، والمغايرة بين الأسلوبين ، إيجازاً تارة ، وإطناباً تارة أخرى ، وتعبيراً بلفظ مرة ، ووضع لفظ آخر بدله مرة أخرى ، وذلك وإن بحث فى مشتبه القرآن إلا أنه نوع آخر من المقارنة والموازنة [1] .

* * *

(١) التفسير الموضوعى للقرآن ص١٦

التفسير الموضوعى بين الماضى والحاضر

نزل القرآن الكريم على قلب النبى الأمىّ - ﷺ - ولم يكد يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم ، وتملك عليهم حسّهم ومشاعرهم - ولم يعرض عنه إلا نفر قليل ، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها ، ثم لم يلبث أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع مكة ، وأقام المسلمون صرح الحق ، مشيّدا على أنقاض الباطل .

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم ، الذى جعل الله فيه الهدى والنور ، ومنه طب الإنسانية ، وشفاء ما فى الصدور ، وأيقنوا **بصدق الله** ، حيث يصف القرآن ، فيقول :

﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩]

وبصدق رسول الله ، حيث يصف القرآن ، فيقول :

« فيه نبأ من كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحُكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد » من قال به صَدَق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم [١] » .

---

(١) أخرجه الترمذى ج١٤٩/٢

صدق المسلمون هذا ، وأيقنوا أن لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه ، ولا خير إلّا وفى آياته دليل عليه ، **فراحوا يبحثون عن معانيه** ، ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر ، وأخذوا يتدبرون فى آياته ، ليأخذوا من مضامينها ، ما فيه سعادة الدنيا ، وخير الآخرة .

وكان القوم عربا خُلّصا ، يفهمون القرآن ، ويدركون معانيه ، ومضامينه ومراميه ، بمقتضى سليقتهم العربية ، وبما يتمتعون به من صفاء الذهن ، وقوة العارضة ، وكانوا يعرفون من أسراره ما لا يعرفه أحد ، ولكنهم لم يدوّنوها ، لأن القرآن قد ملأ عليهم حياتهم ، فكانوا دائبين على دراسته وفقهه ، ونشره بين المسلمين .

وكانت للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية ، التى دقت مراميها ، وخفيت معانيها ، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات ، إذ كانوا يرجعون فى مثل ذلك ، إلى رسول الله – ﷺ . فيكشف لهم ما دقّ عن أفهامهم ، ويجلى لهم ما خفى عن إدراكهم ، وهو الذى عليه البيان ، كما عليه البلاغ ، تحقيقا لقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُم يَتَفَكَّرُون ﴾

[النحل : ٤٤]

كان النبى – ﷺ – يفسر القرآن ، فيربط بين الآيات والآيات ، وبين الآيات ومناسبات النزول ، ويوازن بين المعانى ..

تذكر لنا المصادر القديمة ، أن **بذوراً من التفسير الموضوعى** ، نبتت على **عهد رسول الله** – ﷺ – **وعهد صحابته** . رضوان الله عنهم أجمعين .

من ذلك ما جاء فى مناسبة نزول الآية الكريمة :

﴿ والَّلاَئي يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ ، وَالَّلاَئي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾

[الطلاق : ٤]

يقول تعالى ، مبينا لعِدّة الآيسة ، وهى التى قد انقطع عنها المحيض لكبرها ، أنها **ثلاثة أشهر** ، عوضا عن الثلاثة قروء فى حق من تحيض ، كما دلت على ذلك آية البقرة ، وكذا الصغار اللآئى لم يبلغن سن المحيض ، أن عدتهن كعدة الآيسة ثلاثة أشهر .

● **فقد أُشكل على بعض الصحابة هذا الشرط** ، وجاء سبب النزول معينا لهم على فهم المراد منه .

فقد أخرج **الحاكم** ، عن أُبى بن كعب ، أنه لما نزلت التى فى سورة **البقرة** فى عدد النساء وهى :

﴿ والمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَاَ خَلَقَ اللهُ فى أَرْحَامِهِنَّ ﴾ [البقرة : ٢٢٨]

والآية الأخرى ﴿ والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً ﴾ [البقرة : ٢٣٤]

قالوا : قد بقيت عِدَد لم تذكر ، وهى عدد **الصغار** ، **والكبار** ، فنزل قول الله :

﴿ وَاللَّائى يَئِسْنَ مِنَ المَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إنِ ارْتَبْتُم فَعِدَّتُهن ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ .. الآية ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إِنِ ارْتَبْتُم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : وهو قول **مجاهد والزهرى** . أى إن رأين دما وشككتم فى كونه حَيْضا أو استحاضة ، وارتبتم فيه .

والثانى : وهو قول **سعيد بن جبير** – إن ارتبتم فى حكم عدتهن ، ولم تعرفوه ، فهو ثلاثة أشهر ، **وهو أظهر فى المعنى** . وقد احتج عليه بقول **أبى بن كعب** : يا رسول الله : إن عِدَداً من عِدَد النساء لم تذكر فى الكتاب ، **الصغار والكبار وأولات الأحمال** ، **قال** : فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ – إِنِ ارْتَبْتُم – فعِدَّتُهُن ثلاثة أَشْهُر .. ﴾ [الآية]

ويضع **على بن أبى طالب** ، بفكره الثاقب ، ونظره الصائب – لبنة أخرى من لبنات **التفسير الموضوعى** . فقد كان علىّ يجمع الآيات فى **الموضوع الواحد** ، ليستخلص منها جميعا ، حكما صادقاً ، يفسر فيه القرآن بعضه بعضا . **من ذلك قصة مراجعته لعمر بن الخطاب فى إقامة حدِّ الزِّناَ على امرأة وضعت بعد زواجها بستة أشهر** .

* يقول ابن حزم : أن علياً ذَكَّر **عمر بن الخطاب** بقوله تعالى :

﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥]

مع قوله تعالى : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣]

فرجع عمر عن إقامة الحد عليها (١)

---

(١) الإحكام فى أصول الأحكام ١٢٥/٢

● أى أن **عمر بن الخطاب** ، حَكَّمَ العادة الجارية ، من أنه لا تلد المرأة لأقل من **سبعة أشهر** ، فاعتبر ولادتها قبل ذلك قرينة لإقامة الحد عليها .

لكن **علياً** – كرم الله وجهه – استدرك عليه ، وتدارك الأمر ، حيث **حَكَّم القاعدة التى تدرأ الحدود بالشبهات** ، وفهم من الآيتين السابقتين مجتمعتين ، أن مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر ، وهى المدة التى تكتمل بسنتى الرضاع (٢٤ شهرا) **ثلاثين شهراً ، واعتبر ذلك شبهة تحول دون القطع بوقوع الزنا ، ومن ثم فلا يقع الحدّ** .

● وبمرور الزمن ، تطورت الحياة العلمية تطوراً كبيراً ، ونشط التأليف فى معظم العلوم والفنون ، نشاطا ملحوظا ، وشمل هذا النشاط تفسير القرآن الكريم ، والتأليف فى علومه ، ونرى ممن اهتموا بالتأليف فى **موضوعات القرآن** ، علماء كثيرين ، يختلفون فى عصورهم ، ومذاهبهم ، ونوع اهتماماتهم ..

– **فقد ألف فى الناسخ والمنسوخ :**

قتادة بن دعامة السدوسى ، المتوفى سنة ١١٨هـ

وأبو عبيد القاسم ، المتوفى سنة ٢٢٤هـ

وأبو جعفر النحاس ، المتوفى سنة ٣٣٨هـ

– **وألف فى معانى القرآن :**

أبو زكريا الفراء ، المتوفى سنة ٢٠٧هـ

– **وألف فى غريب القرآن :**

أبو بكر السجستانى ، المتوفى سنة ٣٣٠هـ

والراغب الأصفهانى ، المتوفى سنة ٥٠٣هـ

– **وألف فى مشكل القرآن :**

ابن قتيبة ، المتوفى سنة ٢٧٦هـ

– **وألف فى مجاز القرآن :**

أبو عبيدة ، المتوفى سنة ٢٠٦هـ

والشريف الرضى ، المتوفى سنة ٤٠٦هـ

– **وألف فى إعجاز القرآن :**

الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٥هـ

والرمانى ، المتوفى سنة ٣٨٦هـ

والخطابى ، المتوفى سنة ٣٨٨هـ

والباقلانى ، المتوفى سنة ٤٠٣هـ

والجرجانى ، المتوفى سنة ٤٧١هـ وغيرهم [1]

– **وألف فى أقسام القرآن :**

ابن قيم الجوزية ، المتوفى سنة ٧٢١هـ

– **وألف فى أسباب النزول :**

على بن المدينى ، المتوفى سنة ٢٣٤هـ

وأبو الحسن الواحدى ، المتوفى سنة ٤٦٨هـ

– **وألف فى تناسب الآيات والسور :**

البقاعى ، المتوفى سنة ٨٨٥هـ

* **وفيما يتصل بالتفسير** ، نجد **ابن تيمية** – فى القرن السابع – يحمل حملة شعواء على الإسرائيليات المدسوسة فى التفاسير ، وفى رأيه أن هذا هو الذى دفع الإمام **أحمد بن حنبل** ، إلى أن يقول : « ثلاثة لا أصل لها : التفسير ، والملاحم ، والمغازى »

---

(١) انظر بحثنا (مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى) طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م

كما حمل **ابن تيمية** – فى تفسيره – على **المعتزلة والباطنية** ، الذين يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة ، إلى معان بعيدة ، تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم ، وحمل أيضا على **الصوفية** ، ملاحظا أنهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة ، غير أن القرآن لا يتضمنها ، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من وحدة الوجود ، ووحدة الشهود ، والفَنَاء فى حقيقة الله .

وخلُص **ابن تيمية** – فى تفسيره – إلى أن خير طرق التفسير ، **أن يفسّر القرآن بالقرآن** ، فما أُجْمل فى موضع ، بُسِط فى موضع آخر ، وما ذُكر موجزاً فى آية ، جاء مفصَّلا فى آية أخرى ، وإنْ لم يَفِ القرآن أحيانا بالمراد ، رجع المفسر إلى الحديث النبوى ، فإن الرسول – ﷺ – فسّر بعض الآيات . ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة ، الذين رافقوا الرسول – ﷺ – وفهموا منه التنزيل ، وكذلك أقوال التابعين ، الذين خالطوهم ، ووقفوا منهم على معانى القرآن الكريم .

ويرى **ابن تيمية** – فى منهجه التفسيرى – أن يفتح الأبواب أمام المفسر ، ليجتهد ويستنبط ، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العُدَّة لذلك ، باستيعابه للذكر الحكيم ، وآياته ، ومعانيه المتقابلة ، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه ، وبعد أن يُتقن العربية ، ويتعمق علوم الشريعة ، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن ، وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة .

وتلك هى العناصر التى ترتبط فى معظمها بالتفسير الموضوعى بمفهومه الشامل .

ولقد مضى ابن تيمية يطبق منهجه التفسيرى هذا على بعض السور القرآنية ، وفى مقدمتها **سورة النور** ، **وبعض سور قصار من جزء عم** ، وخصّ سورتى **المعوذتين** برسالة مستقلة ، وأفرد كتابا لتفسير **سورة الإخلاص** ، وتفسير

كل آية من آيات هذه السور عنده ، يتحوّل إلى بحث فى **مضمونها** من خلال القرآن كله .

• وسار على نهجه ، تلميذه الأثير ، **ابن قيم الجوزيّة** (ت ٧٢١هـ) **فى تفسير أقسام القرآن** ، وفى تفسيره **للمعوذتين** ، إذ كثيرا ما يتوقف إزاء مضمون آية ليشير إلى مضمون مماثل لآية أخرى ، ابتغاء الدقة فى التفسير .

• هذا وقد وضع **الراغب الأصفهانى** – فى القرن الخامس الهجرى – **معجما** عظيما لألفاظ القرآن ، عرض فيه كل لفظة من ألفاظه ، وجميع استعمالاتها المبثوثة فيه ، لتكون دائما تحت أعين المفسرين ، فلا يختلط عليهم معنى ، ولا تضطرب عليهم دلالة . فكان هذا المعجم منبعا خصبا يرده كل من تصدى لتفسير القرآن حسب المنهج الموضوعى .

• والحقيقة إن العلماء الأول ، خاصة رجال التفسير – لم يتركوا للأواخر كبير جهد فى تفسير كتاب الله ، والكشف عن معانيه ومراميه ، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم ، الذى جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة ، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية ، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلون بألوان مختلفة .

والباحث المدقق ، الذى يعكف على دراسة بحوث التفسير على اختلاف ألوانها ، لا يدخله شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة ، قد وفّاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقّه ، من البحث والتحقيق ، والدراسة والتدقيق ، فالناحية اللغوية ، والناحية البلاغية ، والناحية الأدبية ، والناحية النحوية ، والناحية الفقهية ، والناحية المذهبية ، والناحية الكونية والفلسفية .

كل هذه النواحى وغيرها ، تناولها المفسّرون الأول بتوسّع ملموس ، لم يترك لمن جاء بعدهم – إلى ما قبل العصر الحديث بقليل – من عمل جديد ، أو أثر مبتكر ، يقومون به فى تفاسيرهم التى ألفوها ، اللهم إلا عملاً ضئيلا ، لا يعدو أن يكون جمعا لأقوال المتقدمين ، أو شرحا لغامضها ، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها ، أو ترجيحا لرأى على رأى ، مما جعل التفسير يقف وقفة مليئة بالركود ، خالية من التجديد والابتكار [1] .

• **وفى العصر الحديث** ..ظل الأمر على هذا ، وبقى التفسير واقفا عند هذه المرحلة ، مرحلة الركود والجمود ، لا يتعداها ، ولا يحاول التخلص منها ، حتى جاء **عصر النهضة العلمية الحديثة** ، فاتجهت أنظار العلماء ، الذين لهم عناية بدراسة التفسير ، إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود ، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود ، فنظروا فى كتاب الله نظرة – وإن كانت تعتمد على ما دوّنه الأوائل ، إلا أنها أثرت فى الاتجاه التفسيرى للقرآن ، تأثيرا لا يسعنا إنكاره ، ذلك هو العمل على **التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية** ، التى حُشرت فى التفسير حشراً . ومزجت به على غير ضرورة لازمة ، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلى ، الذى كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله ، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة ، أو الموضوعة على رسول الله – ﷺ – أو على صحابته – عليهم رضوان الله تعالى ، وإلباس التفسير **ثوبا أدبيا اجتماعيا ، موضوعيا** ، يظهر روعة القرآن ، ويكشف مراميه الدقيقة ، وأهدافه السامية ، والتوفيق بجد بالغ ، وجهد ظاهر ، بين القرآن وما جَدّ من نظريات علمية صحيحة . وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون ، وغير المسلمين ، أن القرآن هو كتاب الله الخالد ، الذى يتمشى مع الزمن فى جميع أطواره ومراحله .

---

(١) الدكتور محمد حسين الذهبى : التفسير والمفسرون ج٢ص٤٩٥ . طبع مصر سنة ١٩٦٨م

وهناك غير هذه الآثار ، آثار أخرى ظهرت فى الاتجاه التفسيرى – فى هذا العصر الحديث – نشأت عن عوامل مختلفة ، أهمها التوسع العلمى ، وانتشار الثقافة ، واتساع الحضارة [(١)] . فى مقدمتها : **التفسير العلمى ، التفسير الأدبى الاجتماعى ، والتفسير الموضوعى** .

التفسير الموضوعى :

نشأ التفسير الموضوعى ، فى العصر الحديث ، مقترنا وممتزجا **بالتفسير الأدبى** ، ذلك التفسير الذى تظهر فيه ذاتية المفسِّر ، وشخصيته ، وملكته الأدبية ، وقدرته على بلورة الأفكار ، وتقديم التصورات الممكنة ، والمحتملة ، والجائزة ، **فى غلاف شفاف من الأسلوب الأدبى المؤثر** ، المحرك لمشاعر القارىءأو السامع ووجدانه ، وهو يعتمد أيضا على التفنن فى استجلاء مكامن علوم البلاغة ، لإظهار ما يؤديه من جمال التصوير ، وروعة التعبير ، فى إطار من حُسْن العرض ، وكمال التحليل ، وجودة التعليل .

وقد بدأ هذا اللون من التفسير ، فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى تقريبا ، بجهود عالم جليل هو **الإمام الشيخ محمد عبده** ، فقد رأيناه يحاول ، على هدى قراءاته **لابن تيمية** ، أن يعرض تفسيرا دقيقا للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ، وهو **جزء عم** ، أخلاه من كل الشوائب العقيدية والإسرائيلية ، ومكّن فيه لرفض البدع والخرافات ، واستخدم الفكر الحر ، فى فهم معانى القرآن ، وما دعا إليه من **الرقىّ بالروح ، والنهوض بالمجتمع** ، فى أسلوب أدبى ناصع ، وبتحليل علمى دقيق .

- أما **الرقىّ الروحى** ، فبما قدّم للإنسان من تهذيب خُلُقى قويم .

---

(١) التفسير والمفسرون ج٢ص٤٩٥

● **وأما النهوض بالمجتمع** ، فبما وثق بين أفراده من تعاون وتكافل ، مع تقديم كل الأسباب ، كي يتحقق الكمال الفكرى ، والروحى ، والاجتماعى ، الذى يطمح إليه الإنسان الممتاز .

وقد دعم الشيخ محمد عبده – فى تفسيره لهذا الجزء – **فكرة وحدة السياق فى السورة الواحدة ، وأن المدار على عموم اللفظ – لا على خصوص السبب** ، ودعا دعوة قوية إلى التسليم بكل ما هو من عالم الغيب ، كعالم الملائكة ، والجن ، والشياطين ، وكالبعث ، وما يتصل به من الثواب والعقاب ، **فكل ذلك ينبغى أن نسلِّم به لقصور عقولنا عن معرفة كنهه ، والتعمق فى حقائقه ..**

فكان هذا التفسير نبراسا هاديا ، لكل من تصدى لتفسير القرآن تفسيرا موضوعيا ، استناداً إلى القرآن جميعه ، واعتمادا على الآيات القرآنية ذاتها ، والأحاديث النبوية الصحيحة ، وأقوال صحابة رسول الله ، وتابعيهم ، وما جاء فى المصادر المختلفة متصلا بمناسبات النزول .

ولقد سار على نفس المنهج علماء كثيرون ، نذكر منهم :

١ – الشيخ سيد قطب – رحمه الله .
٢ – الشيخ أمين الخولى – رحمه الله .
٣ – الدكتورة عائشة عبد الرحمن .
٤ – الدكتور شوقى ضيف .
٥ – الدكتور محمد خلف الله أحمد .

وإن كنا لا نغفل جهود هؤلاء العلماء المحدَثين ، الذين كتبوا فى موضوعات عدة تتصل بالقرآن :

● فقد ألف مصطفى صادق الرافعى كتابا فى إعجاز القرآن والبلاغة النبوية .

• وألف محمد مصطفى المراغى كتابا فى ترجمة القرآن وأحكامها .

• وألف محمد فريد وجدى كتابا فى الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآنى إلى اللغات الاجنبية . إلى غير ذلك من الكتب العلمية الرائدة ، التى تتصل بهذا اللون من التفسير .

* * *

١ - الشيخ سيد قطب :

يعد الشيخ سيد قطب - رحمه الله - من أوائل العلماء ، الذين اهتموا بهذا اللون من التفسير الموضوعى . الذى يقترن بالتفسير الأدبى الفنى ، فله تفسير يدعى (**فى ظلال القرآن**) ، وله إلى جانب هذا التفسير كتابان ، درس فيهما موضوعين من موضوعات القرآن ، أولهما يتناول (**مشاهد القيامة فى القرآن**) ، والثانى يحلل الصور الفنية والجمالية فى القرآن ، وهو (**التصوير الفنى فى القرآن**)

• والتفسير (**الظلال**) و (**التصوير**) و (**المشاهد**) ثلاثتهم تنبع من روح واحدة ، وتتجه وجهة واحدة ، هدفها : محاولة تفسير القرآن الكريم تفسيراً أدبيا وموضوعيا ، يبرز **جمال الصور الفنية** ، ويحللها تحليلا أدبيا جميلا .

يتحدث الشيخ سيد قطب - فى مقدمة كتابه **التصوير الفنى ، عن الحافز الذى أغراه بانتهاج هذا المنهج ، وسلوك هذه الطريقة من التفسير ،** فيقول

« إنه قرأ القرآن وهو طفل صغير ، لا ترقى مداركه إلى آفاق معانيه ، ولا يحيط فهمه بجليل أغراضه ، ولكنه كان يجد فى نفسه منه شيئا ، وكان خياله الساذج

الصغير ، يجسِّم له بعض الصور من خلال تعبير ، وإنها لصُور ساذجة ، ولكنها كانت تُشوِّق نفسه ، وتُلِذّ حسَّه ، فيظل حقبة غير قصيرة يتملاها ، وهو بها فرح ، ولها نشيط .

وضرب الشيخ سيد قطب – على الصور الساذجة – أمثلة عدة ، كانت ترتسم فى خياله كلما قرأ شيئا من القرآن . ومن تلك الأمثلة ، قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ عَلَى حَرْفٍ ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١]

قال : (كان يشخص فى مخيلتى رجل قائم على حافة مكان مرتفع – مصطبة ، فقد كنت فى القرية ، أو قمة تل ضيقة ، فقد رأيت التل المجاور للوادى ، وهو قائم يصلى ، ولكنه لا يملك موقفه ، فهو يتأرجح فى كل حركة ، ويهمّ بالسقوط ، وأنا بإزائه أتتبع حركاته ، فى لذة وشغف عجيبين) [١] .

« تلك أيام .. ولقد مضت بذكرياتها الحلوة ، وبخيالاتها الساذجة ، ثم تلتها أيام ، ودخلتُ المعاهد العلمية ، فقرأت تفسير القرآن فى كتب التفسير ، وسمعتُ تفسيره من الأساتذة ، ولكننى لم أجد فيما أقرأ ، أو أسمع ، ذلك القرآن اللذيذ الجميل ، الذى كنت أجده فى الطفولة والصبا » .

« وا أسفاه ، لقد طُمِسَت كل معالم الجمال فيه ، وخلا من اللذة والتشويق ، تُرى هل هما قرآنان ؟ قرآن الطفولة العذب ، الميسَّر المشوق ، وقرآن الشباب العَسِر المعقد الممزَّق ؟ .. **أم تلك جناية الطريقة المتبعة فى التفسير** .

« وَعُدت إلى القرآن أقرؤه فى المصحف ، لا فى كتب التفسير ، وعُدْتُ أجد قرآنى الجميل ، الحبيب ، وأجد صورى المشوقة اللذيذة ، إنها ليست فى

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن ص٧ (الطبعة الثانية)

سذاجتها ، التى كانت هناك ، لقد تغيّر فهمى لها ، فعُدت الآن أجد مراميها وأغراضها ، وأعرف أنها مَثَلٌ يضرب ، لا حادث يقع ، ولكن سحرها ما يزال ، وجاذبيتها ما يزال .. » [1]

« لقد بدأت البحث ، ومرجعى الأول فيه هو المصحف ، لأجمع الصور الفنية فى القرآن ، وأستعرضها ، وأبين طريقة التصوير فيها ، والتناسق الفنى فى إخراجها ، فبرزت لى حقيقة واحدة هى :

« أن الصور فى القرآن ليست جزءا منه يختلف عن سائره ، إن التصوير هو قاعدة التعبير فى هذا الكتاب الجميل ، القاعدة الأساسية المتبعة فى جميع الأغراض ، فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال ، فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب ، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز .

• **وعلى هذا الأساس قام البحث ، وكل ما فيه إنما هو عَرْض لهذه القاعدة ، وتشريح لظواهرها ، وكشف عن هذه الخاصية فى التعبير القرآنى » .**

« وحين انتهيت من التحضير للبحث ، وجدتنى أشهد فى نفسى مولد القرآن من جديد ، لقد وجدته كما لم أعهده من قبل أبداً ، لقد كان القرآن جميلا فى نفسى ، نعم .! ، ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق ، أما اليوم ، فهو عندى جملة موحدة ، تقوم على قاعدة خاصة ، قاعدة فيها من التناسق العجيب ، ما لم يكن أحلم من قبل به ، ومالا أظن أحداً تصوّره » .

إن تفسير الشيخ سيد قطب ، وإن كان قد اهتم اهتماماً كبيراً **بإبراز الصور الفنية ، والقيم الجمالية** ، إلا أنه اهتم أيضا **بالموضوعات القرآنية** ، فأبرزها من خلال تحليله وتناوله للصور الفنية ، فكان يربط بين الموضوعات ،

---

(١) التصوير الفنى ص٨

مستغلا فى ذلك كل العناصر التوضيحية ، من آيات القرآن الكريم ، ومناسبات نزوله ، ومن الأحاديث النبوية ، وأقوال الصحابة والتابعين ، فكان الموضوع القرآنى بين ذهنه وتفسيره ، وكأنه **بحث متناسق متكامل** ، يرتبط أوله بآخره ، مشتملا على كل ما يتصل به من جزئيات .

والحقيقة .. إن تفسير الشيخ سيد قطب ، كان وحيد عصره ، على الرغم من وجود بعض المحاولات التفسيرية ، لاستنباط الصور الفنية ، والموضوعات القرآنية ، فإن واحداً من تلك البحوث أو المؤلفات ، لم يبلغ ما بلغه الشيخ سيد قطب فى هذا المضمار ، خاصة **وأنه فسّر القرآن الكريم جميعه** ، **بهذه الطريقة الفنية ، الأدبية والموضوعية** .

* * *

٢ – الشيخ أمين الخولى ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء »

وعلى هذا النهج أيضا ، حاول الشيخ أمين الخولى – رحمه الله – أن يفسر القرآن الكريم ، وسارت على نفس الطريق – الدكتورة عائشة عبد الرحمن **تلميذته** ، فى كتابها « **التفسير البيانى للقرآن الكريم** » . والفرق بين **مجهود الشيخ سيد قطب** ، ومجهودهما – أن الأول – كما ذكرنا – فسّر القرآن جميعه ، على طريقته . أما **الشيخ أمين الخولى** ، **وتلميذته** ، فقد فسَّرا سوراً عدة منه ، فى إطار **الدراسات الجامعية** .

فقد ألقى الشيخ أمين الخولى ، دروسا ثمينة – فى التفسير القرآنى – على **طلبته بالجامعة** ، كما قدم **أحاديث إذاعية** جيدة ، تدور حول بعض **المعانى القرآنية** ، **والموضوعات القرآنية** .

وقد نَصَّ – رحمه الله – على أن الغرض الأول من أغراض التفسير ، قبل بيان الأحكام والعقائد والأخلاق « هو النظر فى القرآن ، من حيث هو كتاب العربية الأكبر ، وأثرها الأدبى الأعظم ، فهو الكتاب الذى أخلد العربية ، وحمى كيانها ، وخلد معها فصار فخرها ، وزينة تراثها ، وتلك صفة للقرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين ، أو يفترق به الهوى ، ما دام شاعراً بعربيته ، مدركا أن العروبة أصله فى الناس ، وجنسه بين الأجناس ، وسواء بعد ذلك أكان العربى مسيحيا أم وثنيا ، أم كان طبيعيا دهريا لا دينيا ، أم كان المسلم المتحنف ، فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب ، ومكانته فى اللغة ، دون أن يقوم ذلك على شيء من الإيمان بصفة دينية للكتاب ، أو تصديق خاص بعقيدة فيه » [1]

• أما عن **منهجه فى التفسير** .. فقد أوضحته تلميذته القديرة ، **الدكتورة عائشة عبد الرحمن** ، حيث تقول فى مقدمة كتابها .[2]

• والأصل فى منهج التفسير الأدبى – **كما تلقيته عن شيخى – هو التناول الموضوعى ، الذى يفرغ لدراسة الموضوع الواحد فيه ، فيجمع كل ما فى القرآن عنه** ، ويهتدى بمألوف استعماله للألفاظ والأساليب ، بعد تحديد الدلالة اللغوية لكل ذاك ، وهو منهج يختلف تماما عن الطريقة المعروفة فى تفسير القرآن سورة سورة ، يؤخذ اللفظ ، أو الآية ، مقتطعا من سياقه العام فى القرآن كله ، مما لا سبيل معه إلى الاهتداء إلى الدلالة القرآنية لألفاظه ، أو استجلاء ظواهره الأسلوبية ، وخصائصه البيانية ، وقد طبق بعض الزملاء هذا المنهج تطبيقا ناجحا فى موضوعات قرآنية ، **اختاروها لرسائل الماجستير والدكتوراة** ، وأتجه بمحاولتى اليوم ، إلى تطبيق المنهج فى بعض سور قصار ، ملحوظ فيها وحدة الموضوع ،

---

(١) مناهج تجديد للأستاذ أمين الخولى ص٣٣

(٢) التفسير البيانى للقرآن الكريم ص١٤ طبع دار المعارف

فضلا عن كونها من السور المكية ، حيث العناية بالأصول الكبرى للدعوة الإسلامية ، وقصدت بهذا إلى توضيح الفرق بين الطريقة المعهودة فى التفسير ، **وبين منهجنا الحديث ، الذى يتناول النص القرآنى فى جوّه الإعجازى**، ويلتزم فى دقة بالغة ، قولة السلف « القرآن يفسر بعضُه بعضا » وقد قالها المفسرون ثم لم يبلغوا منها مبلغا ، ويحرر مفهومه من كل العناصر الدخيلة . والشوائب المقحمة على أصالتها البيانية » .

هذا ما ذكرته الدكتورة عائشة عبد الرحمن ، عن منهج شيخها ، وهو المنهج عينه الذى انتهجته فى دراستها القيمة (**التفسير البيانى**) حيث قدمت تفسيرا رائعا فى التحليل والتطبيق ، لبعض قصار السور .

• وهذا المنهج فى التفسير ، هو ما ارتضاه **الشيخ محمود شلتوت** – رحمه الله – فى تفسيره الفقهى ، حيث يقول عن طريقته :

« فهى أن يعمد المفسر أولا إلى جمع الآيات ، التى وردت فى **موضوع واحد** ، ثم يضعها أمامه كمواد يحللها ، ويفقه معانيها ، ويعرف النسبة بين بعضها وبعض ، فيتجلى له الحكم ، ويتبيّن المرمى ، الذى ترمى إليه الآيات الواردة فى الموضوع ، وبذلك يضع كل شيء موضعه ، ولا يُكْرِه آية على معنى لا تريده ، كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهى الحكيم ، وهذه الطريقة فى نظرنا هى الطريقة المثلى ، **وخصوصا فى التفسير الذى يراد إذاعته على الناس ، بقصد إرشادهم إلى ما تضمن القرآن من أنواع الهداية** ، وإلى أن موضوعات القرآن ، ليست نظريات بحتة ، يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مُثل واقعية ، فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية ، ويتصل بحياتهم من شئون »[1]

---

(١) الإسلام والعلاقات الدولية ص١٠

• لقد كانت جهود هؤلاء العلماء ، تتجه إلى تفسير القرآن الكريم – وفقا **للمنهج الموضوعى** ، الذى يجعل من القرآن الكريم كله **وحدة واحدة** ، يتصل أوله بآخره ، وآياته ببعضها ، رغم اختلاف مواضعها وسورها فى القرآن ، فكان هذا التفسير الموضوعى أوسع وأرحب ، لأن عناصره كثيرة ، تشمل القرآن الكريم من أوله إلى آخره ، المهم **وحدة الموضوع المدروس** ، الذى يُفسَّر ، ويُحلل ويدرس

من هنا كانت الوحدة الموضوعية شاملة واسعة ، تمد جوانب الموضوعات بالكثير من العناصر ، التى توضح الغرض ، وتفى بالموضوع ، وتسهل فهمه وتناوله .

بيد أن هناك جهوداً أخرى بذلت – فى إطار التفسير الموضوعى ، ولكنها لم تتخذ من القرآن كله مادة لخدمة الموضوع ، وإنما تناولت **السورة القرآنية** ، بوصفها لُحْمة متلاحمة ، يفسر أولها آخرها ، وتوضح آياتها الغرض الأسمى ، الذى من أجله نزلت ، ومن أجله جُمعت فى إطار محدّد بين دفتى السورة ، **فهنا يكون التفسير الموضوعى محدداً بأغراض السورة** ، ومناسبات نزول الآيات فيها ، وما جاء فيها من موضوعات ، تُفسر فى إطار السورة ، ولا تخرج عنها إلا قليلا ..

ومن أبرز من قام بمثل هذا التفسير الموضوعى فى إطار السورة ، أستاذان جليلان ، وعالمان كبيران هما : **الأستاذ الدكتور محمد خلف الله أحمد والأستاذ الدكتور شوق ضيف** وكلاهما **أستاذ جامعى** ، بذل جهداً مشكوراً فى إحياء الدراسات البيانية للقرآن الكريم ، ووجّه طلابه إلى دراسة التطور التاريخى للدراسات القرآنية ، فى ظلال ما حفلت به المكتبة القرآنية من تراث يتطلب التحليل ، كما وجههم إلى دراسة النصوص القرآنية ، فى ظل ما تمخضت عنه العلوم الحديثة من ثمار يانعة فى حقول النقد والبلاغة ، وعلوم النفس

والتربية والاجتماع . وهو عمل مبارك يزكيه ما عُرف عن الأستاذين الجليلين من دقة تحديد ، وسلامة اتجاه ، وصدق وإيمان .

وللأستاذين الجليلين دراسة تطبيقية موضوعية لسورة كريمة من سور القرآن العظيمة :

فأما الدكتور محمد خلف الله أحمد ، فله تفسير سورة الرعد .

وأما الدكتور شوقى ضيف ، فله تفسير سورة الرحمن ، وقصار السور .

أولا : الأستاذ الدكتور محمد خلف الله أحمد :

تناول الأستاذ الدكتور محمد خلف الله – **تفسير سورة الرعد** ، تفسيرا موضوعيا ، يكشف عن اتجاهه التجديدى فى حقل الدراسات القرآنية ، وهى دراسة جديرة بالاهتمام والتحليل [1] ، والبحث والدراسة .

• لقد بدأ باستعراض الآيات الكريمة فى سورة الرعد ، مبينا أغراضها العامة على نحو شامل عام ، ثم انتقل إلى الحديث عن فواصل الآيات ، فوجد أن السورة تضم **ثلاثا وأربعين فاصلة** ، ختام كل آية منها كلمة ممدودة بالألف ، بعد حرف – إلا ستة منها ممدودة بالواو .

• وثلث خواتيم هذه السورة **على روىّ الباء** ، مثل : (العقاب ، الألباب ، الحساب ، مآب)

• وأكثر من نصف هذا العدد **على روىّ الراء** ، مثل : (بمقدار ، النهار ، القهار ، الدار)

---

(١) نشرت هذه الدراسة فى صحيفة دار العلوم ، الجزء الثالث من السنة السابعة ، فى ذى الحجة سنة ١٣٥٨هـ

• ونصف العدد الأول **على روىّ اللاّم** ، مثل : (المتعال ، وَال ، الثقال ، ضلال)

وغير ذلك مما أشار إليه .

• ثم أعقب ذلك بالإشارة الواضحة إلى **وحدة ظاهرة فى موضوع هذه السورة ، وهى إظهار شرف الكتاب المنزّل ، وتسفيه آراء المعاندين** فى طلبهم قرآنا غير هذا ، أو آية مادية مثل آيات السابقين من الرسل .

• ثم اتبع ذلك بالإشارة إلى طابع الخواتيم ، إذ انتهت الفواصل فيها بحروف متقاربة المخارج .

• أما ناحية **الجمال الفنى** ، فقد ظهرت فى ائتلاف الألفاظ مع المعانى ، وفى تناسب الألفاظ والأصوات ، وفى اشتقاق قاموس السورة من البيئة العربية ذات **الرعد** ، **والبرق** ، **والسحاب** ، وفى المتقابلات المختلفة ، من أمثال : الغيب والشهادة ، والسر والجهر ، لينتهى من ذلك كله إلى انفراد القرآن بطابع خاص ، لا يوجد فى المألوف من النثر والشعر ، والسورة بذلك **كلٌ متكامل** فى منطق الدكتور خلف الله .

والظاهرة الواضحة فى دراسته ، هو الاهتمام بالنواحى الشكلية ، أكثر من اهتمامه بالناحية الموضوعية ، إذ أن الصور البيانية التى حفلت بها سورة الرعد ، كانت فى حاجة إلى وقفات تحليلية ، تظهر ما بها من جمال وتأثير ، كما أن تناسب الآيات وتآخيها ، لم يجد من الإيضاح الشامل ، ما يجعله أمام القارىء أمراً لا مرية فيه .

بيد أن هذا لم يمنع من كون الدراسة شيّقة ، جديدة ، وتشير إلى نمط جديد .

ثانيا : الأستاذ الدكتور شوقى ضيف :

أما دراسة أستاذنا الدكتور شوقى ضيف ، فهى دراسة ساقها إليه الدراسات الجامعية ، إذ كان القرآن يدرس بإيجاز ، على أنه لون من ألوان الفن الأدبى فى صدر الإسلام ، وكان قصارى الدارس أن يتكلم بوجه عام عن أغراض القرآن ، ومعانيه ، وألفاظه ، ثم يفسح المجال للإستشهاد بنصوص مختارة .

وقد كان سيادته يقوم بتدريس **مادة التفسير** – فى بعض الأعوام – لطلاب قسم اللغة العربية ، فى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، وقد اتسع على يديه مجال الدراسة الأدبية للقرآن ، وأخذ يمتد على نحو حميد ، حيث شمل تحليل النصوص القرآنية ، تحليلا يكشف عن لألائها الساطع ، وموضوعاتها العظيمة ، وكان من نتائج دراساته القرآنية ، تلك الدراسة الجيدة **لسورة الرحمن وقصار السور** [1] ، التى تعد نموذجا جيدا للتفسير الموضوعى لسور القرآن .

يقول الدكتور شوقى عن الظروف التى دعته إلى تأليف هذه الدراسة الممتعة ، ومنهجه فيها :

« وكان من حُسن حظى أن دعتنى صحيفة الأهرام فى سنة ١٣٨٩ للهجرة ، لأشارك فى شهر رمضان المبارك ، ببعض أحاديث دينية ، ورأيت أن أعرض فيها لبعض قصار السور ، ونَشَرت لى عَرْضاً **لسورة الفاتحة** ، **والتوحيد والعصر** ، ووقع هذا العرض موقع استحسان من نفوس كثيرين ، كتبوا إلىّ أن أمضى فى عرض سور أخرى ودراستها ، واستحثنى كثير من الأصدقاء ، وطلَبَ إلىَّ عالم جليل أن أبدأ بعرض ودراسة **لسورة الرحمن** . سورة النعم الدنيوية والأخروية ،

---

(١) نشرت هذه الدراسة بعنوان (سورة الرحمن وقصار السور) فى دار المعارف بمصر ، وطبعت طبعات كثيرة .

وأضفت إليها عرضا ودراسة لسور قصار ، ضممت إليها سورة الفاتحة والتوحيد ، والعصر ، وجميعها تتناول أصول العقيدة الإسلامية ، وبعض مبادىء الإسلام الخلقية والاجتماعية ، وقد بسطتها جميعا من خلال آيات الذكر الحكيم ، بحيث كنت أتخذ من الآية نوراً ، يهدينى إلى مضمونها العام فى القرآن ، وأحاول بقدر ما أستطيع عرضه ، ووصفه ، سواء اتصل ذلك بعظمة الله ، وجلاله ، ورحمته ، وآلائه فى الدنيا والآخرة ، أو بالرسالة والرسل ، أو بالملائكة ، والجن ، والشياطين ، أو بماهية الحياة بعد الموت ، والثواب والعقاب فى الآخرة ، أو بالتهذيب الروحى والخلقى ، أو بالعلاقات العمرانية ، أو بتحرير الإنسان من الهوى ، والخرافات وجملة الآثام ، أو بدفعه إلى استغلال عقله ، وكشف قوانين الكون وأسراره ، أو بإيقاظ وجدانه ومشاعره ، والسمو به إلى الكمال الإنسانى المأمول .[1]

• وهكذا نشطت الدراسات الموضوعية والأدبية ، لنصوص الكتاب الكريم ، **فى عهدنا الحاضر** ، نشاطا حافلا ، نرجو أن يتزايد ويمتد حتى يصبح للمكتبة القرآنية مكانها اللائق فى دنيا البيان ، إذ تجمعت دواع مختلفة تدعو إلى نشاط هذه الدراسات ، وتؤذن باكتمالها الزاهر فى يوم قريب – بعد أن دعت الحاجة إليه ، نظرا لتقدم العلوم والمعارف ، وتغيرت العادات والتقاليد ، وظروف الحياة ، عما كانت عليه من قبل ، وأصبحت الحاجة ماسة إلى النظر فى القرآن ، للكشف عما فيه من تشريعات وقواعد وسلوك حميد ، وللاسترشاد به فى كل حال من أحوالنا ، وشأن من شئوننا ، لاشتمال كتاب رب العالمين على كثير من **المباحث والموضوعات** ، التى تخدم الفرد والمجتمع ، وتدفع بالجميع إلى معرفة أقوى

---

(١) سورة الرحمن وقصار السور – المقدمة ص١١

وأرسخ لفهم القرآن ، وإعلاء كلمة الله ، فكان لابد من الاتجاه إليه ، نستوحيه فى كل شأن من شئوننا ، ونسترشد به فى كل حال من أحوالنا ، فهو الدواء من الأسقام النفسية ، والعلل الجسمية ، وهو العلاج الناجع لكل مشاكلنا السياسية والاجتماعية .

من هنا نقول – إننا لسنا فى حاجة – إلى التفسير الموضوعى ، فى أى زمان . **مثل احتياجنا إليه فى** هذا الزمان ، الذى يطالب فيه المسلمون أن نخرج لهم البحوث العلمية الصحيحة ، التى تنظم علاقاتهم بربهم ، وبمجتمعهم الكبير ، وأسرهم وأولادهم ، ومتطلبات أنفسهم . لأنه إذا كانت المباحث القرآنية متجلية للباحث بجميع نواحيها ، متجهة به إلى غايتها ، مبرزة لنواحى الحكمة فى دعوة القرآن إليها ، كان ذلك النهج باعثا للمطلع عليه إلى أن يسلك الطريق الذى رسمه القرآن ، حيث كان واضح الغاية ، محدد النهاية ، بارزاً فى تصويره ، جامعا لكل الأهداف فى تحقيقه .

فإذا ما أشبع الإنسان رغبته من **موضوع** ، وانتقل إلى **موضوع** آخر ، منتهجا ذلك المنهج ، كان القرآن بيّناً للناس فى جميع نواحيه ، متجها بهم إلى جميع مراميه ، ولاشك أن ذلك المسلك ، وتلك الطريقة تؤدى بالناس إلى أن يفهموا القرآن ، فيتبيّنوا اتصالهم بواقع حياتهم ، حيث يرشدهم إلى الصالح منها ، ويجنبهم ما يكون حذراً لهم ، وعائقا عن طريق إسعادهم ..

• **وهذه هى أمثل الطرق فى التفسير** ، خصوصا الذى يراد إذاعته على الناس ، بغية تفهيمهم ما تضمنه القرآن من أنواع الهداية ، وإبراز أن موضوعات القرآن ليست نظرية بحتة ، يسير الناس على نهجها ، دون أن يكون لها مثل واقعية تتصل بالأفراد والجماعات . فبمثل هذه التفسيرات الموضوعية ، يستشف

الإنسان هدى القرآن ، فيما يصحح به علاقاته بربّه ، حيث تكون معرفته معرفة صحيحة ، لا يشوبها من غبار التشبيه ما يحيد به عن الطريق ، وبمعرفته لنفسه يعلم احتياجه إلى تلك القوة القاهرة القادرة .

فإذا وصل إلى هاتين المعرفتين ، وقدَّرهما حق قدرهما ، وعلم أن الله خَالِق قادر ، والإنسان مخلوق ضعيف ، تقلّب فى أطوار خلقه من حال إلى حال ، بعد أن لم يكن شيئا مذكوراً ، اتجه فى السلوك إلى تلك **الذات الخالقة** ، سلوكا يرضيها ، وسار إليها سيرا يقربه منها ، ويُدْنيه إليها ، فيرتسم ما شرعته من أعمال ، ويتحلى بما رسمته من كريم الخلال ، وجميل الأفعال ، حتى تقوى صلته بها ، ثم ينظر بعد ذلك إلى ما أرشد إليه هدى القرآن ، وإلى ما يصلح به الفرد ، وتصلح به الجماعة من معاشرين وجيران ، وأهل وأوطان ، ومنتهجا فى ذلك ما يكون من الوسائل الصحيحة فى البيع والشراء والأخذ والعطاء .

وهكذا حتى يكون منهجه فى حياته منهجاً قرآنيا ، وسلوكه إليها سلوكا شرعيا ، وهو بعد ذلك يقدر نهايته إذا ما حاد عن طريق القرآن ، بأن يشقى فى حياته الدنيا ، ويشقى فى حياته الأخرى .

• مناهج البحث فى التفسير الموضوعى :

من خلال دراستنا للمصنفات التى صنفت فى التفسير الموضوعى ، نستطيع أن نقول ، إن المفسر الذى يفسر بهذه الطريقة ، **ينهج أحد منهجين اثنين** :

أولهما : أن يجعل السورة القرآنية هى وحدته الموضوعية ، فينظر إليها نظرة شمول وإحاطة ، مهما تعددت موضوعاتها ، وتباينت مناسبات نزولها .

فالعملية التفسيرية تشمل السورة كلها ، لا تتعداها فى معظم الأحيان ، وتدور حول غرض محدد ، سواء كان عاما ، أو خاصا .

* فنقول – على سبيل المثال – أن **سورة البقرة** ، تهدف إلى تنظيم المجتمع الإسلامى فى صورته المثالية ، لأنها من السور المدنيّة الطويلة ، التى تعنى أساساً بجوانب التشريع الإسلامى ، وتعالج النُّظم والقوانين التشريعية ، التى يحتاج إليها المسلمون فى حياتهم الاجتماعية ، فهى تشتمل عليها معظم الأحكام التشريعية ، التى تتصل بالعقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، وأمور الأسرة ، من زواج وطلاق ، ورضاع وعدّة . وإن كانت تتحدث أيضا – عن **بدء الخليقة** ، كما تتناول الحديث بإسهاب عن اليهود وخُبثهم ، وما تنطوى عليه نفوسهم من اللؤم والغدر ، ونقض العهود والمواثيق .

* ونقول – **عن سورة آل عمران** ، أنها تهدف إلى **ترسيخ العقيدة ، وتحديد الشريعة** ، لأنها من السور المدنيّة الطويلة ، التى اشتملت على إبراز هذين الركنين الهامّين ، من أركان الدين :

• **ركن العقيدة** ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى ، وإثبات صدق النبوّة ، وصدق القرآن ، والرد على الشبهات ، التى يثيرها أهل الكتاب – النصارى – حول الإسلام والقرآن .

• **وركن التشريع** ، بخاصة فيما يتعلّق بالمغازى ، والجهاد فى سبيل الله ، وأمور الربا ، وحكم مانع الزكاة .

* ونقول **عن سورة النساء** – كذلك – **أنها تنظيم تشريعى يتصل بالأسرة ، وحقوق النساء** ، لأنها من السور المدنية الطويلة ، التى تعنى بشئون المرأة ، والبيت ، والأيتام . فهى تتحدث عن الحقوق التى فرضها الله للمرأة ، كالصداق ، والميراث ، وإحسان العشرة .

وهى تتحدث عن المحرمات من النساء بالنسب والرضاع والمصاهرة .

وهى تتحدث عن الحقوق الزوجية للرجل والمرأة ، وترشد إلى الطرق التى ينبغى أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية .

فمعظم الأحكام التى وردت فيها تدور **حول موضوع النساء وحقوقها** ، ولهذا سميت « **سورة النساء** »

وهذا المنهج انتهجه الدكتور محمد خلف الله – فى تفسير سورة الرعد .
وانتهجه كذلك الدكتور شوقى ضيف فى تفسير سورة الرحمن وقصار السور.
وانتهجه أيضا الدكتور محمد عبد الله دراز فى تفسير سورة البقرة ، فى كتابه النبأ العظيم .

والمنهج الثانى : هو المنهج التجميعى التكاملى للموضوع الواحد من القرآن ، حيث تُجمع الآيات القرآنية ، ذات الهدف المشترك ، ثم ترتب زمنيا حسب نزولها – ما أمكن ذلك ، مع الوقوف على أسباب هذا النزول – إن وُجد ، ثم تناولها تناولا تحليليا بالتفسير والبيان ، وربط أول الآيات بآخرها ، مع التعليق والاستنباط ، والربط بين القرآن والسنة ، مع الإحاطة التامة بكل جوانب وأبعاد **الموضوع** ، الذى يُدرس ، كما ورد فى القرآن الكريم ، والسنة الصحيحة ، وكتب التاريخ والأخبار المعتمدة ، بقصد الوصول إلى الهدف المنشود من وراء هذا البحث القرآنى .

* وهذا المنهج انتهجه الشيخ سيد قطب – رحمه الله – فى تفسيره (**فى ظلال القرآن**)

* كما التزم به الشيخ أمين الخولى – رحمه الله – وتلميذته الدكتور عائشة عبد الرحمن فى (**تفسيرها البيانى**)

* والتزم به كذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطى فى تفسيره الكبير (أضواء البيان)

وإذا كان **للمنهج الأول** قيمته بالنسبة **لوحدة السورة** ، بكل عناصرها ، وأغراضها ، ومشتملاتها .

فإن **للمنهج الثانى** قيمة علمية كبرى ، خاصة فى مجال البحوث العلمية ، التى تعالج **موضوعا واحداً** من الموضوعات التى تخدم المجتمع الإسلامى ، سواء من حيث العبادة ، أو العقيدة ، أو التشريع ، أو المعاملات ، **فيظهر** الموضوع المدروس فى مظهر الشمول والموضوعية ، حاويا كل ما جاء فى القرآن الكريم مرتبطا بهذا الموضوع .

فإن الفكر إذا ما جال فى كل جنب من جنبات الآيات – **موضوع البحث** ، وَجَدَّ النظر فى كل ركن من أركان البحث ، انكشف لنا جميع أبعاده وأغراضه ، واستبان للباحث كل الدواعى والأسباب ، التى تحيط بموضوعه ، وتظهره بصورة أعمق وأوفى .

* وإن الباحث فى مجال **التفسير الموضوعى** ، إذا أراد أن يكون موضوعه أكمل ، وأوعى وأشمل ، **لابد أن يجتاز طرقا عدة ، يتصل أولها بآخرها** .

أولها : جمع المادة العلمية التى تخدم موضوعه ، وهى الآيات القرآنية ، التى تتناول موضوعه ، مستعينا على ذلك **بحفظه** ، وبالكتب التى عُنيت بجمع الآيات ، تحت عنوان واحد ، أو التى تجمع الآيات المتماثلة فى حروف المعجم ، من ذلك :

- كتاب المفردات للراغب الأصفهانى
- وكتاب إصلاح الوجوه والنظائر فى القرآن الكريم للدامغانى
- وكتاب تفصيل آيات القرآن الكريم – للمستشرق جول لابوم
- والمستدرك ، للمستشرق إدوار مونتيه ، ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى
- ومعجم ألفاظ القرآن – لمجمع اللغة العربية
- والمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى

ثانيها : ترتيب هذه الآيات القرآنية ، وما يتصل بها من أحاديث صحيحة ، حسب مناسبات النزول ، كترتيب **الآيات المكية** أولا ، ثم **الآيات المدنيّة** ، وما ارتبط بكل منهما من أحداث ، وأخبار ، وأقوال للصحابة والتابعين .

ثالثها : **التوفيق بين الآيات** ، بعضها مع بعض ، لإزاحة ما قد تتبادر إلى الإذهان مما هو موهم بالتناقض أو الاختلاف .

رابعها : تفسير الآيات أثناء عرضها ، تفسيرا موضوعيا ، يفهم منه الحكمة الإلهية ، فى إيراد الآيات ، والغرض الأسمى فى هذا التشريع الإلهى ، والغاية العظمى من وراء تنفيذ الأوامر ، واجتناب النواهى . مع تدعيم هذا التفسير – كما ذكرنا – بما أُثر عن رسول الله – ﷺ – وأُثر عن صحابته ، وتابعيه – رضوان الله عنهم ، وذكر مناسبات النزول ومكانها ، وتوضيح ما يرتبط بذلك من قصص قرآنى ، سواء كان متصلا بالأنبياء ، أو بالأشخاص الوارد ذكرهم فى القرآن . مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع .

خامسها : **الإلتزام بشروط البحث العلمى** ، من حيث إخراج الموضوع فى صورة مترابطة محكمة البناء ، تكون طريقا لفهم الهدف ، الذى توخاه الباحث ، وإرشاداً لفهم جوانب موضوعه .

وعلى الباحث أن يلتزم **الحيادية التامة** فى بحثه ، لا يتأثر بأية مؤثرات خارجية ، قد تطغى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنية ، طارحا وراءه العقائد الفاسدة ، جاعلا هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن ، وفضائل تشريعاتَه لخدمة الأفراد ، والمجتمع الإسلامى .

سادسها : **الأخذ بمطلق اللغة** ، لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، ولكن على المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة ، يدل عليها القليل من كلام العرب ، ولا توجد غالبا إلا فى الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها .

روى البيهقى فى الشعب ، عن مالك – رضى الله عنه – أنه قال : لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب ، يفسر كتاب الله إلا جعله نكالا .

سابعها : التفسير بالمقتضى من معنى الكلام ، والمقتضب من قوة الشرع

وهذا هو الذى دعا به النبى – ﷺ – لابن عباس ، حيث قال : « اللهم فقّهه فى الدّين ، وعلّمه التأويل » . والذى عناه – علىّ – رضى الله عنه بقوله – حين سُئِل : **هل عندكم عن رسول الله شىء بعد القرآن ؟** قال : لا والذى فلق الحبّة ، وبرأ النسمة إلاَّ فَهْمٌ يؤتيه الله – عز وجل – رجلا فى القرآن »

ومن هنا اختلف الصحابة فى فهم بعض آيات القرآن ، فأخذ كل بما وصل إليه عقله ، وأداه إليه نظره [١]

*** وعلى المفسر أن يتجنب فى تفسيره :**

(أ) – التَّهجّم على بيان مراد الله من كلامه ، مع الجهالة بقوانين اللغة ، وأصول الشريعة ، وبدون أن يحصل العلوم التى يجوز معها التفسير .

(ب) – الخوض فيما استأثر الله بعلمه ، **كالمتشابه** ، الذى لا يعلمه إلّا الله .

(ج) – التهجّم على الغيب ، بعد أن جعله الله سرًّا من أسراره ، وحجبه عن عباده .

(د) – السير مع الهوى والاستحسان ، فلا يفسر بهواه ، ولا يرجح باستحسانه .

(هـ) – تجنب التفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلا ، والتفسير تابعا ، فيحتال فى التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته .

(و) – عدم القطع – عند التفسير – بأن مراد الله كذا وكذا ، من غير دليل ، فهذا منهىّ عنه شرعا ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٦٩]

---

(١) انظر ما ذكره السيوطى نقلا عن الزركشى فى الإتقان ج٢/١٧٨

الفصل الأول

أنبياء الله .. ورسله

أرسل الله – سبحانه – رسله مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وأيدهم بالمعجزات الباهرات ، والآيات البينات ، وجمَّلهم وكملهم بجميع الكمالات الإنسانية حتى يكونوا الأسوة والقدوة لجميع الناس ، وقد بيّن الحق سبحانه وتعالى – حاجة الناس إلى هؤلاء الأنبياء والرسل ، فقال عز وجل :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُم الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد : ٢٥]

فما معنى النبوة ؟ وما معنى الرسالة ؟

● **ما النبوة ؟**

* **النبوة – لغة –**[١] اسم مشتق من نَبَأَ الشّيءُ يَنْبُو نُبُوّه إذا ارتفع متجاوزاً غيره . ومنه قولهم : نَبَأَ السيْفُ يَنْبُو نَبْوَة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس .

أَوْ هِيَ اسم مشتق من (أَنْبَأَ) فلان غيره يُنْبِئُهُ إِنْبَاءً – إذا أخبره بخبر ذى شأن .

● **ولهذا تقرأ (النُّبوءَة) بالهمزة بعد الواو .**

– وبها قرأ **وَرْش عن نافع** ، قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّة ﴾ [٢]

– **وقرأ حفص عن عاصم : (النُّبُوَّة)** بواو مشددة .

---

(١) انظر المعجم الوسيط مادة (نبا)

(٢) تفسير ابن كثير ج٢ والآية من سورة الأنعام – الآية ٨٩

والقراءتان صحيحتان – كما يقول ابن كثير ، ويمكن تصريف الأولى إلى الثانية ، وذلك بقلب الهمزة واواً وإدغامها فى الواو ، وهو إعلال معروف عند النحاة .

• **والنبوة شرعا** : إعلام الله تعالى من اجتبى من الناس لرفعته ، وإعلاء شأنه ، بإنبائه بالوحى الذى أراده الله .

والأنبياء :جمع نبىّ ، والنبىّ فرد من بنى آدم ، اختاره الله وفضّله على قومه ، وأوحَى إليه بأمر محدّد . **فإن كلّفه الله بتبليغ هذا الأمر فهو نبى مرسل ، وإن لم يُكلّفه بتبليغه فهو نبى غير مرسل** ، أى نبى **فقط** .

• **وبهذا يمكن تحديد الفرق بين النبى المختار .. والرسول المرسل :**

فالرسول : يكون مُرسلا من قِبَل الله سبحانه وتعالى – لقوم ، أو أقوام معيّنين ، لتبليغ تعاليم الله ، وأوامره ونواهيه ، وما أوحى به إليه .

أما النبى : فهو الذى يُوحى إليه بأمرٍ ما ، ولم يُكَلَّف أو يؤمر بتبليغه إلى عباد الله لاختصاصه به وحده ، دون غيره من سائر البشر .

فإذا كان ذلك كذلك – **فكلُّ رسول نبى – وليس كل نبىٍّ رسولا** .

فالنبوة داخلة فى الرسالة ، والرسالة أعم من جهة نفسها ، وأخص من جهة أهلها . فالأنبياء أعم ، والنبوة نفسها جزء من الرسالة ، **والرسالة تتناول النبوة وغيرها ، بخلاف النبوة فإنها لا تتناول الرسالة** .

فمن أنبياء الله غير المرسلين « **يُوشع بن نون** » ، صاحب موسى – عليهما السلام ، فقد نبأه الله سبحانه وتعالى ، واختاره ليكون خليفة لموسى وهارون فى بنى إسرائيل ، وهو الذى مكّنه الله من فتح بيت المقدس .

أما الأنبياء المرسلون – عليهم الصلاة والسلام – **فهم المذكورون فى القرآن الكريم** ، وهم :

آدم ، ونوح ، وإدريس ، وصالح ، وإبراهيم ، وهود ، ولوط ، ويونس ، وإسماعيل ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب ، وشعيب ، وموسى ، وهارون ، واليسع ، وذو الكِفل ، وداود ، وزكريا ، وسليمان ، وإلياس ، ويحيى ، وعيسى ، ومحمد ﷺ .

والنبوة : هبة إلهية ، لا تأتى إجتهاداً أو إكتساباً بانصراف العبد إلى العبادة كلية ، وتخلّيه عن سائر المتع النفسية ، والرغبات والشهوات المشروعة ...

وإنما النبوّة خصيصة مميّزة ، يخصّ بها الله مَنْ أهَّله واجتباه ليكون من عباده المقربين ، ويهيّئه لها بعناية إلهية ، ورعاية ربانية ، فيحفظ عبده المعدّ للنبوة من الانحراف الفطرى ، والضلال العقلى ، والتلوث النفسى ، والدنس الخلقى ، فيُضفى الحق سبحانه على هذا النبى المختار ، كل الكمالات العقلية والنفسية والخلقية ، ما يجعله مؤهلا لحمل أمانة الوحى ، والاضطلاع بشرف هذه النبوّة .

سمات الأنبياء وشمائلهم :

على أن الباحث المتأمل فى صفات من اصطفاهم الله ، وفضّلهم على سائر الناس ، وأهَّلهم لحمل الأمانة ، يجدهم جميعا يتفردون بمجموعة عظيمة من الشمائل الكريمة ، والخصال الحميدة .

أولها : الصدق .. الصدق فى الإرادة ، والصدق فى القول ، والصدق فى العمل ، فكل الأنبياء المرسلين كانوا صادقين وصدِّيقين معا ، بشهادة القرآن :

• من مثل قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿ واذْكُرْ فى الكِتَابِ إبْراهِيمَ إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نَبياً ﴾ [مريم : ٤١]

• وقوله سبحانه عن إدريس : ﴿ واذْكُر فى الكِتَابِ إدْرِيسَ إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نَبِياً ﴾ [مريم : ٥٦]

• وقول عز شأنه : ﴿ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أنْعَمَ الله عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُهَدَاءِ والصَّالِحِين ﴾ [النساء : ٦٩]

ثانيها : القدرة على حمل الأمانة .. والأمانة هى الرسالة ، وهى الأمر الإلهى ، وهى الحكم ، وهى القضاء ، والقدرة على الحفظ والرواية والنقل ، وهذه الأمور جميعا تعتمد أساساً على شخصية النبى المرسل ، ومقدرته الذاتية ، وحُسن تصرفه ، وقدرته على الإقناع .

ثالثها : القدرة على التبليغ .. فيكون النبى صاحب مؤهلات عقلية ، وفطرة إنسانية ، قادرة على استيعاب ثم تبليغ ما يؤمر به ، فلا يخفى منه شيئا ، ولا ينقص منه شيئا ، فلا تعوقه رهبة ، أو يحُول بينه وبين تأدية رسالته خوف أو وجل .

وهذه الصفة تتدخل فيها القدرة الإلهية ، لأنها هى التى تؤهلهم لتبليغ وتوصيل ما أراده الله لعباده من الهداية والرشاد .

رابعها : الفطنة ..وهذه السمة تعتمد على صفاء الذهن ، ودقّة الاستيعاب ، وسرعة البديهة ، إلى جانب رهافة الحسّ ، وفصاحة اللسان ، ورقة الشعور .

• وفى هذا المعنى يقول « **حسان بن ثابت** » – شاعر الرسول – فى صفة المصطفى ﷺ :

لَوْ لَمْ يكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بالخَبَرِ

أضف إلى ذلك أن **أنبياء الله ورسله جميعا ، كانوا يحملون مؤهلات خاصة ، ويتّسمون بسمات مميزة – فى مقدمة هذه السمات :**

١ – **عراقة النسب : وهذه السمة تتصل بعامل الوراثة** ، حيث يتصل شرف النَّسب بكل خصائصه ومميزاته من الأُصل وهو الوالد .. إلى الفرع المولود – ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشراف أقوامهم ، ويتسمون بسمات الترفع عن الدنايا ، والتّنزّه عن كل ما يخل بالشرف .

٢ – **المثالية : وهى الكمال الخلقى فى القول والعمل** ، فى السرّ والعَلَن ، والترفع عن الانحراف الفطرى ، والتحلّى بكل ما هو جدير بتأهيل المرء لمقام النبوة .

٣ – **حاجة البيئة** ..وهذا العنصر يرتبط ارتباطا وثيقا **بالزمان والمكان ، وظروف القوم النفسية والدينية ، والعقيدية** ، فكل هذه الأمور هى التى تشعر بالحاجة إلى بعث نبىّ ، أو إرسال رسول ، ليخرج الناس من فساد حياتهم الدينى والاجتماعى ، إلى نور الهداية واليقين .

ويمكننا أن نجد فى الفراغ الذى كان قبل إرسال نبى الله موسى وأخيه هارون ، دليلاً على ذلك ، وأيضا فى الفراغ الذى كان قبل نبوة عيسى ورسالته دليلا آخر ، وكذلك فى **الفراغ الذى كان موجوداً قبل البعثة المحمدية دليلا ثالثا** .

فإن هذه الأحوال ، وظروف القوم ومتطلباتهم الروحية ، كانت تتضرع إلى السماء ، وتلحّ مطالبة الخالق بنبوّة نبى ، ورسالة رسول ، لإصلاح العباد والبلاد . وقد وضح هذا الأمر جليا ، فى الظروف الدينية والاجتماعية ، التى عاشها **الحنفاء** قبل البعثة المحمدية ، وكانت كل الدلائل تدل على أن نبياً سوف

يُبعث ، وكانت الإرهاصات التى واكبت المولد النبوى ، وحياة النبى - ﷺ - تدل على قرب بعث النبى العربى فى جزيرة العرب [١] .

وهنا يلمع سؤال فى الذهن : مَنْ هو أوّل رسول أرسله الله ؟ .. وما عدد الرسل ؟ ومتى كانت أزمانهم .. وأين تقع ديارهم ؟

• الإجابة .. **أول رسول .. هو آدم عليه السلام ، أما الرسل فعددهم ثلاثمائة وخمسة عشر رسولا .**

وقد ورد ذلك فى حديث رسول الله ﷺ ، الذى رواه **أبو ذر الغفارى** - رضى الله عنه .. قال : « قلت يا رسول الله .. أى الأنبياء كان أول ! قال : **آدم** ، قلت : يا رسول الله : أنبى كان ؟ قال : **نعم** ، **نبىّ مكلّم** ، قلت : يا رسول الله : **كم المرسلون ؟ قال : ثلثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً** » .

• وفى رواية أخرى : « **كم وفاء عدد الأنبياء ؟** قال : **مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا ، الرسل منهم ثلثمائة وخمسة عشر** جماً غفيراً » [٢]

وفى هذا الخبر المرفوع دلالتان واضحتان :

أولاهما : أن آدم كان **نبيا** ، وهو أول الأنبياء المرسلين ، وأن الله - تعالى - كلّمه ، وأوحى إليه .

والثانية : أن عدد الأنبياء والمرسلين كان جماً غفيرا .

---

(١) انظر كتابنا : الشعراء الحنفاء . طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠ « الحياة الدينية قبل الإسلام » .

(٢) مسند الإمام أحمد ١٧٨/٥ ، ١٧٩ ، ٢٦٦

وقد جاء فى القرآن العظيم ما يدعم هذا الخبر ، فى **قوله تعالى** :

• ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً ، أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت ﴾ [النحل : ٣٦]

• ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهاَ نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤]

وقد أقر وآمن الصحابة ومن جاء بعدهم من علماء الإسلام بما جاء عن الرسول المصطفى – ﷺ – فأقرّوا بنبوة آدم ، وأيقنوا أن عدد الأنبياء « مائة وأربعة وعشرون ألفا » ، وأن عدد المرسلين منهم ثلثمائة وخمسة عشر رسولا .

ولا تثريب عليهم فى ذلك ، لعدم وجود ضرر يترتب على الأخذ بهذا الخبر ، إذ هو كأخبار بنى إسرائيل ، تصح روايتها للإعتبار بها ، إذا لم يوجد فى القرآن ما ينافيها أو يتنافى معها .

• **فإن قيل** : بل جاء فى القرآن ما يتنافى معها ، وهو قوله تعالى : ﴿ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْناَ عَلَيْكَ وِمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُص عَلَيكْ ﴾

• **قلنا : المنفى هنا هو أخبارهم وأسماؤهم ، وأحوالهم مع أممهم** ، أما خبر إجمالى كهذا فإنه لا يتنافى مع الآية أبداً .

ومن المهم أن نعرف :

١ – أن أنبياء الله ورسله المذكورين فى القرآن **خمسة وعشرون رسولا** . وقد نصَّ القرآن على أن **آدم أبا البشر جميعا – هو أول المرسلين** ، وبناء على ذلك فتاريخ الرسل يبتدىء به ، فقد كان لنزوله إلى الأرض ، وتناسل أبنائه وتكاثرهم استكمالا لحركة الحياة ، إذ به تكمل آدمية الإنسان ، وبه يتم شرفه ، ويتأهل للسعادة فى الحياتين الدنيوية والأخروية .

٢ – أن المؤرخين لم يذكروا نبياً من نسل آدم لصُلْبه إلا ما كان من **شيث** – عليه السلام – فإنهم ذكروا أنه كان حفيدا لآدم ، وقد أُنزل عليه عدة صحف تعرف **بصحف شيث** .

٣ – وقد بعث بعده نبى الله **إدريس** – عليه السلام – وقد ورد ذكره فى القرآن فى قوله تعالى :

- ﴿ واذكُرْ فِي الكِتَابِ إدْرِيسَ إنّه كانَ صِدِّيقاً نَبِياً ﴾ [مريم : ٥٦]
- ﴿ وإسْمَاعِيلَ وإدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٥]

وتقول المصادر القديمة أنه من ذرية شيث عليه السلام .

٤ – ثم أرسل الله **نُوحا** – عليه السلام – **وهو أول رسول أرسله الحق** – سبحانه ، كما ذكر القرآن :

﴿ إناَّ أَوْحَيْناَ إِلَيْكَ كَماَ أَوْحَيْناَ إِلَى نُوحٍ والنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء : ١٦٣]

ثم جاء بعده : هود ، فصالح ، فإبراهيم ، فلُوط ، فإسماعيل ، فإسحاق ، فيعقوب ، فيوسف ، ثم شُعَيْب ، فموسى ، فهارون ، فداود ، فسليمان ، ثم إلياس ، فأيوب ، واليسع ، وذو الكِفْل ، ويونس ، وزكريا ، فيحيى ، وعيسى ، ثم كان محمد النبى الرسول المصطفى – ﷺ – خاتمهم أجمعين .

وهذا الترتيب المذكور – جاء وفقا للترتيب الزمنى لكل منهم ، وهو أقرب إلى الصواب ، لولا الغموض فى تحديد زمن كل من يونس ، وأيوب ، وذى الكِفل ، واليسع .

ومهما يكن من أمر ، فإن المطلوب منا ليس التحديد الزمنى ، وإنما هو **الإيمان بهم جميعا** ، بوصفهم رُسُل الله ، وحملةُ وحيه ، ومنفذى أوامره ، ثم اتباعهم والاقتداء بهديهم وسيرتهم .

*** أين مواطن هؤلاء الرسل ، وأين ديارهم ؟**

إن الباحث المطّلع على تاريخ الرسل ، سواء فى القرآن ، أو فى **مجهود** المفسرين والمؤرخين ، يستطيع أن يدرك أن ديارهم كانت فى منطقة الشرق الأوسط ، فيها وُلدوا وبُعثوا .. وفيها عاشوا مع أقوامهم ، وفيها ماتوا ودفنوا .

• **فإبراهيم الخليل عليه السلام** ..بعث بالعراق ، وعاش بها فترة قبل أن يهاجر إلى أرض كنعان ، فيتنقل بين مدن الحجاز والشام ، وأرض المعاد حتى توفاه الله تعالى .

• **وإسماعيل** – **ابنه** – عليه السلام – ولد بالشام ، وانتقل مع أبيه ، فعاش بمكة المكرمة ، وفيها بعث ، وأخذ يدعو إلى عبادة الله حتى توفاه الله .

• **وإسحاق** – أخوه – بعث بأرض العراق ، ثم أعقبه ولده يعقوب ، الذى هاجر بعد مبعثه إلى مصر ، فعاش بها مع أولاده ، ولعله توفى بها .

• **ويوسف** ، أرسله الله من بعده ، فعاش فى أرض النيل بمصر ، حتى مات بها .

• **أما موسى** ، **وهارون** ، فقد أرسلهما الله بعد يوسف ، وعاشا بين مصر وسيناء إلى أن توفاهما الله .

• وأرسل الله **داود** فى أرض القدس ، ثم توالت أنبياء بنى إسرائيل على أرض الشام .

• وكان آخرهم **عيسى** عليه السلام ، فولد فى بيت لحم ، وعاش بأرض المقدس ، حتى رفعه الله تعالى إليه .

• ثم بعث الرسول الكريم – **محمد** ﷺ – بمكة ، فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة من أرض الحجاز ، فعاش بها عشر سنوات ، وبها توفى ، وبها قبره الشريف .

• وأما **نوح** – عليه السلام ، فلا يبعد أن مبعثه كان بين الشرقين الأوسط والأدنى .

• وأما **هود وصالح وشعيب** ، فكانوا بأرض العرب فى جنوب الجزيرة العربية ، ما بين حضرَموْت والشّحْر .

• **وصالح** كان فى شمالها ما بين الشام والحجاز ، **وشعيب** فى غربها بأرض مدين جنوب الأردن .

ولوط – عليه السلام – كان قد هاجر مع إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق ، فبعثه الله تعالى إلى المؤتفكات ، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها مدينة سدوم ، وعمورة ، فأهلك الله تلك البلاد لفسادهم وخبثهم ، ونجّى لوطا ومن معه من المؤمنين ، فانتقلوا إلى أرض الشام ، وأقاموا بها ، يقول القرآن : ﴿ ونَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهاَ لِلعاَلَمِين ﴾ [الأنبياء : ٧١]

* ولقد فهم بعضٌ – أن الرسل الذين أورد القرآن أنباءهم إنما بعثوا إلى المنطقة العربية وحدها .. وتساءلوا ، **هل كانت هذه المنطقة وحدها هى موطن النبوّات فقط ؟**

• وهل خلَت الأرض فيما عدا هذه المنطقة من الأنبياء والمرسلين ؟

لقد ذكر القرآن أن الحق – تبارك وتعالى – أوحى إلى رُسُل كثيرين فى أمم شتى ، منهم من قُصَّ علينا نبأه ، ومنهم من لم يقصص علينا نبأه ، فقال عز وجل :

• ﴿ ولَقَدْ بَعَثْناَ في كُلِّ أُمةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغُوت ﴾ [النحل : ٣٦]

وقال سبحانه : ﴿ إناَّ أَرْسَلْناَكَ بالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً ، وَإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلاَ فِيهاَ نَذِير ﴾ [فاطر : ٢٤]

إذاً فقد أرسل الله رسله إلى أمم شتّى ، فى أنحاء الأرض ، وأوحى إليهم أن يكونوا هادين ومبشّرين ومنذرين ، لئلا يكون للناس على الله حجة ، فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا .

هؤلاء هم رسل الله ، وهذه هى مواطنهم .

* ولقد تحدث القرآن ، وخص قوما منهم بأنهم « **أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ** » فقال : ﴿ فاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ من الرُّسُل ﴾ [الأحقاف : ٣٥]

• **وقد حدد القرآن ماهيتهم ، وبيّن عددهم وأسماءهم** ، جاء ذلك فى قول الحق سبحانه : ﴿ وإذْ أَخذْناَ مِنَ النَّبِيِّين مِيثَاقَهُم ومِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وإبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وأَخَذْناَ مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب : ٧] ، **فكاف** الخطاب فى قوله تعالى (**ومِنْكَ**) تعنى محمداً – ﷺ – فهو إمام الأنبياء والمرسلين . ومقدّم **لفظاً وفضلاً** ، ويأتى بعده أربعة منهم ، وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ، وهم مرتّبون فى الفضل والزمن ، فنوح أولهم ، وعيسى ابن مريم آخرهم ، فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

• ويقول سبحانه فى تفضيل أولى العزم :

﴿ شَرَعَ لكُمْ من الدِّينِ ما وَصَّى بهِ نُوحاً وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَاَ بِهِ إبراهِيمَ ومُوسَى وعِيسَى ﴾ [الشورى : ٧]

* ولقد شاء رب العزة ، أن يمجّد أنبياءه ورسله ، وأن يرفع من قدرهم ، فجعل الإيمان بالله مقترنا **بالإيمان بالرسل** .. أى أن الإيمان بالله لا يكون تاما إلا إذا ارتبط به الإيمان بالرسل .. أو بمعنى آخر . شاء الله أن يجعل **الإيمان بالرسل جزءاً من عقيدة التوحيد** ، عقيدة الإسلام ، فألزم عباده المؤمنين الموحدين بالإيمان برسله ، حتى يكون إيمانهم كاملا شاملا .

والإيمان بالرسل : معناه : التصديق الجازم بأن لله العظيم رسلاً أرسلهم لإرشاد خلقه فى معاشهم ومعادهم ، فقد اقتضت حكمة اللطيف الخبير أن لا يهمل خلقه ، بل أرسل إليهم رسلا مبشرين ومنذرين ، وهادين إلى الصراط المستقيم .

وأوجب رب العزة – سبحانه – **الإيمان بهم جميعا ، سواء من ورد اسمه منهم فى القرآن ، أو لم يرد** ، فيكون الإيمان جملة بأن لله رسلا غيرهم ، وأنبياء لا يحصى عددهم إلا الله ، ولا يعرف أقوامهم ، ولا يعلم أسماءهم إلا العليم الخبير ، وفى ذلك يقول الحق – سبحانه – لرسوله :

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُم عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُم عَلَيْكَ ﴾

[النساء : ١٦٤]

وحكمته جل شأنه فى ذلك .. دعوة أممهم إلى الإيمان بالله ، وعبادة الله وحده .

* **هؤلاء الرسل أوجب الله على المؤمنين تصديقهم فى كل ما جاءوا به** ، والإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به ، على ما أمروا به ، وبيّنوه لأممهم بيانا شافيا كافيا .

يقول سبحانه : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إِلَيهْ مِنْ رَبِّهِ ، والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ ومَلاَئِكَتِهِ وكتبه وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بين أحدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وقَالُوا سَمِعْنَا وأَطَعنْا غُفْرانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ المَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

* وأوجب أيضا على المؤمنين .. **الإيمان بأنهم معصومون من الكبائر** ، أما الصغائر فقد تقع منهم لأنهم بشر ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك ، وقد وفقهم الله للتوبة منها .

* وأوجب الحق سبحانه – على المؤمنين احترامهم ، **وتقدير دورهم ، والاعتراف برسالاتهم** ، وأن لا نفرق بينهم ، كما أوجب الاهتداء بهديهم ، والائتمار بأمرهم ، والكف عما نهوا عنه .

* وأوجب الحق كذلك – على المؤمنين الاعتقاد الراسخ ، بأنهم أكمل الخلق عِلْمًا ، وأصدقهم قولا ، وأبرهم فعلا ، قد خصهم الله بفضائل لا يلحقهم فيها أحد ، وبرأهم من كل فعل رذيل .

وهؤلاء الرسل لكونهم من البشر ، بعثهم الله لهداية البشر ، **فيجوز فى حقهم شرعا وعقلا كل ما يدور على البشر** .. النوم ، واليقظة ، والنكاح ، والأكل والشرب ، والجلوس والمشى ، والفرح ، والحزن ، وسائر الأعراض البشرية ، التى لا تؤدى إلى نقص فى مراتبهم العلية . فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر البشر ، فيما لا علاقة له بتبليغ أحكام الله ، وشرائع الله ، وأوامر الله . وقد تمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء ، كما أخبر الله تعالى : ﴿ وَيَقْتُلُون الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ ﴾ [آل عمران : ١١٢]

* **ومن الأدلة القرآنية على أنه يجوز فى حق الأنبياء والرسل أشياء يتساوون فيها مع سائر البشر** ، قول رب العزة :

• ﴿ وَمَا أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ ﴾ [الفرقان : ٢٠]

وقوله سبحانه :

• ﴿ ما المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة : ٧٥]

ويقول النبى المصطفى – ﷺ – عن نفسه : « .. لكنى أصلى وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء » وكان – ﷺ – يمرض ، ويتألم ، ويشتكى ، وكان يصيبه الحر والبرد ، والجوع والعطش ، والغضب والضجر ، والتعب .

*** وقد قدم لنا الحق – جلّت حكمته – الأدلة على أن هؤلاء الرسل أصدق الخلق على الإطلاق ..**

فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّق بِهِ أُولئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ ﴾ [الزُّمَر : ٣٣]

وقال عز شأنه : ﴿ هَذَا ماَ وَعَدَ الرَّحْمَنُ وصَدَقَ المُرْسَلُون ﴾ [يٰس : ٥٢]

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل – عليه السلام : ﴿ إنَّه كَانَ صِدِّيقاً نبياً ﴾ [مريم : ٤١]

وقال جل وعلا عن إسماعيل – عليه السلام : ﴿ إنَّهُ كَانَ صَادِقَ الوَعْد ﴾ [مريم : ٥٤]

*** ومن دلائل صدق النبوة ، تأيد الله لهم فى دعواتهم ، بالآيات والمعجزات :**

فقد أيد **موسى** – عليه الصلاة والسلام – بالآيات البينات . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْناَ مُوسَى تِسْعَ آياَتٍ بَيِّناَتٍ ﴾ [الإسراء : ١٠١]

كما أيد الله – عز وجل – سائر رسله بما يناسب عصورهم وبيئاتهم واحتياجات مواطنيهم .. يقول سبحانه : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْناَ رُسُلَناَ بالبَيِّناَتِ وأَنْزَلْناَ مَعَهُمُ الكِتَابَ والمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطَ ﴾ [الحديد : ٢٥]

ويقول عز شأنه : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّين مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوح وإِبْرَاهِيمَ ومُوسَى وعَيسَى ابنِ مَرْيَمَ وأَخَذْنا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً ﴾ [الأحزاب : ٧]

وشاء الحق تبارك وتعالى أن يجعل **الإيمان بالله مرتبطا بالإيمان بالرسل** ، فلا يكون الإيمان بالله إيماناً صحيحا كاملا ، إلا إذا كان مرتبطا بالإيمان بالرسل . **فالإيمان برسل الله** دعامة من دعائم الإيمان فى الإسلام – **كالإيمان بملائكة الله ، وكتب الله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .**

* **ومعنى الإيمان بجميع الرسل** ..أن يؤمن المرء بكل ما نبأ الله من نبى ، وبكل ما أرسل – سبحانه – من رسول ، ممن عرفنا نبوتهم ، وممن لم نعرف ، لأن الله – جلت حكمته – هو الذى نبأهم وأرسلهم ، وأخبر عنهم ، وأمرنا بالإيمان بهم وتصديقهم ، وعدم التفريق بينهم . قال سبحانه :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِماَ أُنْزِلَ إِلَيْه مِنْ رَبِّه والمؤْمِنُونَ كلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ ولهذا وجب الإيمان برسل الله كلهم على كل مسلم ، ولا يفرق فى الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم – كما حدث **من اليهود والنصارى** ، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل وكفروا بعيسى ابن مريم ، ومحمد ﷺ ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء ، وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد بن عبد الله – ﷺ .

إذ الكفر بواحد من أنبياء الله ورسله كفر بجميعهم . **وقد جمع القرآن منهم ثمانية عشر فى آية واحدة** ، وهو قول الحق سبحانه : ﴿ وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحَاقَ ويَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْناَ ، ونُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ ومن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وسُلَيْمانَ وأَيُّوبَ ويُوسُفَ ومُوسَى وهَارُون ، وكَذَلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِينَ . وزَكَرِيَّا وَيحيَى وعَيسَى وإلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحين . وإسْمَاعِيلَ والْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وكُلاًّ فَضَّلْناَ عَلَى العَالَمِين ﴾ [الإنعام : ٨٤-٨٦]

* **وجاء ذكر الأنبياء السبعة الباقين** فى عدة سور من القرآن الكريم ، وهم : آدم ، وإدريس ، وهود ، وصالح ، وشُعيب ، وذو الكِفْل ، وخاتمهم محمد ابن عبد الله ﷺ .

هذا وقد كفَّر الله وتوعّد بالعذاب المهين ، الذين يؤمنون ببعض الرسل ويكفرون ببعضهم . فقال عز شأنه : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ باللهِ ورُسُلِهِ ، ويُرِيدُونَ أَنْ يَفرِّقُوا بَيْنَ اللهِ ورُسُلِهِ ، وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ ونكْفُرُ بِبَعْضٍ ويَرِيدُونَ أَنْ يتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً . أُولئِكَ هُمُ الكَافِرُونَ حَقًّا ، وَأَعْتَدْنَا لِلكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً ﴾ [النساء : ١٥٠ ، ١٥١]

* * *

نبى الرحمة وخاتم الأنبياء والمرسلين

والإيمان برسل الله ، يستتبعه التصديق الجازم بخاتمهم ، وبالرسالة الخاتمة ، التى بعث بها النبى الأمىّ ، العربى القرشى ، محمد ﷺ ، وأنه عبد الله ورسوله ، أرسله الله تعالى بشيرا ونذيراً ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وأنه أُرسل إلى الناس كافة ، أحمرهم وأبيضهم ، عربيّهم وأعجمهم ، خُتم بنبوته النبوات ، وبرسالته الرسالات ، فرض الحق طاعته ، وأوجب محبته ، وألزم بمتابعته ، وخصّه بخصائص فريدة لم يخص بها غيره منها الوسيلة ، والدرجة العالية الرفيعة ، والمقام المحمود ، وأعطى الكوثر ، والحوض ، وانفرد بالشفاعة يوم القيامة .

* **وقد احتفل القرآن العظيم بذكر الكثير من الأدلة التى تشهد بنبوته – ﷺ .. منها شهادة الله سبحانه ، وشهادة ملائكته له بالوحى المنزل على قلبه :**

• ﴿ لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِماَ أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٦٦]

ومنها : إخبار الحق سبحانه عن عموم رسالته ، وختم نبوته ، ووجوب طاعته ومحبته .. من مثل قوله تعالى :

• ﴿ يَاأَيُّهاَ النَّاسُ قد جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بالحَقِّ مِنْ رَبِّكُم فآمِنُوا خَيْراً لَكُمْ ﴾ [النساء : ١٧٠]

• ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ ونَذِيرٌ ﴾ [المائدة : ١٩]

• ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧]

• ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﴾ [الفتح : ٢٩]

• ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلكِن رَسُولَ اللهِ وخَاتَمَ النَّبِيِّين ﴾ [الأحزاب : ٤٠]

* **وقد أخبر الصادق المصدوق – ﷺ – عن نبوته ، وأنها خاتمة النبوات .**

• قال ﷺ : « أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِبْ .. أَنَا ابنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ » (١)

• وقال ﷺ : « إنيِّ عبدُ الله وخاتمُ النبيين وإن آدمَ لمُجَنْدَلٌ فى طينته » (٢)

• وقال صلوات الله وسلامه عليه : « مَثَلِى ومَثَلُ الأَنْبِياءِ مِنْ قَبْلِي كَمثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتاً فأَحْسَنَهُ وجَمَّلَهُ إلاَّ مَوْضِعَ لِبنَةٍ واحِدَة ، فَجَعَل النَاسُ يَطُوفُونَ بهِ ، ويُعْجَبُون لَه ، ويَقُولُون هَلاَ وُضِعَتْ هَذِه اللَّبِنَة ؟ فأَنَا اللَّبِنَةُ ، وأَنَا خَاتَمُ النبيين » (٣) .

---

(١) رواه الشيخان .

(٢) رواه البخارى فى التاريخ ، ورواه أحمد وابن حبان .

(٣) متفق عليه .

• وقال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الرسالةَ والنُّبوةَ قد انْقطَعتْ فَلاَ رَسُولَ بَعْدِى ولاَ نَبِىّ » [(١)]

• وقال ﷺ : « فُضِّلْتُ عن الأنبياءِ بستٍّ ، أُعْطِيتُ جوامعَ الكلم ، ونُصِرْتُ بالرعب ، وأُحلَّت لى الغنائم ، وجُعلت لى الأرضُ مسجداً طهوراً ، وأرسلت إلى الخَلْقِ كافةً ، وخُتم بِى النَّبِيُّون » [(٢)]

• وقال ﷺ : « إذا كان يومِ القيامة كنتُ إمام الأنبياء وخَطِيبَهُمْ وصاحب شَفَاعَتِهم ولا فخر » [(٣)]

* **وقد بشرت ببعثته ونبوته – صلوات الله وسلامه عليه – الكتب السماوية** ..قال الحق سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بالمَعْرُوفِ وينْهَاهُم عَنِ المُنْكَرِ ، ويُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُم ﴾
[الأعراف : ١٥٧]

وقال عز شأنه – فيما حكاه القرآن عن عيسى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّى رُسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْراةِ ومُبَشِّراً بَرسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦]

وجاء فى توراة موسى :

« سَوْفَ أُقيمُ لهم نبياً مثلكَ من بين إخوانهم ، وأجعل كلامى فى فيه ، ويكلمهم بكُلِّ شيءٍ آمُرُهُ به ، ومَنْ لم يُطِعْ كلامه الذى يتكلم به بإسْمِى ، فأنا أكُونُ المنتقم من ذلك »

---

(١) رواه أحمد والترمذى .

(٢) رواه مسلم والترمذى .

(٣) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

فهذه البشارة الواردة فى كتاب الله (**التوراة**) تشهد شهادة واضحة بنبوة النبى محمد – ﷺ – ووجوب اتباعه ، ولزوم طاعته ، وهى حجة على أهل الكتاب جميعا ، وإن جحدوها وتأوّلوها .

• فقول الحق – سبحانه – فى التوراة : (**سوف أقيم لهم نبيا مثلك**) فهو الشهادة على صدق نبوّته . وصحة رسالته ، لأن المتكلم هو الله ، والمخاطب هو نبى الله **موسى** ، ومن كان (**مثله**) فهو نبى ورسول مبعث أيضا .

• وفى قوله تعالى فى التوراة (**وأَجْعَل كلامى فى فيه**) لا ينطبق إلا على النبى محمد – ﷺ – لأنه هو الذى يقرأ كلام الله ويحفظه ، وهو القرآن الكريم .

• وقوله تعالى : ﴿ **يُكَلِّمهم بكُلِّ شىء** ﴾ أقوى دليل وشاهد ، إذْ النبى – ﷺ – تكلَّم بغيب لم يتكلم به نبى سواه ، إذْ أخبر بكثير من الأمور الغيبية ، فأخبر عن **أصحاب الكهف ، وذى القرنين ، والخضر صاحب موسى ، وتحدث عن الروم ، ونبأ بفتح فارس ، وبلاد الروم ، وفتح مكة** .. إلى آخر هذه الأمور التى لم يكن يعرفها من قبل .

• **وجاء فى العهد القديم ما نصه :**

قال الله تعالى : « يا أيها النبىّ إناَّ أَرْسَلْنَاكَ مُبَشّراً ونَذِيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكّل ، ليسَ بفظٍّ ولا غليظ ، ولا صخاَّبٍ فى الأسواق ، ولا يدفعُ السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويَصْفَحُ ويَغْفِر ، ولن يقبضه الله حتى يُقيم به الملّة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، فيفتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صُماً وقُلوباً غلفا » [1]

---

(١) أخرجه البخارى

وجاء فيه أيضا : « هم أغارونى بغير الله ، وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة ، وأنا أُغِيرُهُم بغير شَعْب وبشعبٍ جاهل أُغضِبهم » . فقول الله « وبشعب جاهل » دليل صريح على أنه الشعب العربى ، إذ هو الشعب الجاهل قبل بعثة النبى – ﷺ – الذى بعث للأميين .

• كما جاء فيه : « فلا يزولُ القضيبُ مِنْ يَهُوذَا ، والمدبِّر من فخذه حتى يجيىء الذى له الكُلُّ وإياه تنتظر الأمم » – فمن ذا الذى كانت تنتظره الأمم سوى النبى محمد ﷺ .

• **وجاء فى سفر التثنية من التوراة :**

(جاء الرب من سيناء ، وأشرق لنا من ساعير ، واستعلن من جبال فاران ، ومعه ألوف الأطهار) [1] فهذه شهادة صريحة من التوراة ، واضحة لمحمد – ﷺ – بنبوته ورسالته ، إذ معنى هذا اللفظ ، أن الله تعالى ناجى **موسى** ، وأوحى إليه بسيناء ، وأرسل **عيسى** ، وأوحى إليه بساعير ، وهى من أرض الجبل بالقدس ، وبعث **محمداً** – ﷺ – رسولا ، معلنا كلمة : (لا إله إلّا الله) مستعلنا بها من مكة الواقعة بين جبال فاران ، كجبل أبى قبيس وحراء ، وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها .

إن كل هذه البشارات وردت فى العهد القديم « **التوراة** » وكان اليهود أكثر الناس تلهفا وانتظاراً لمبعث النبى العربى ، فى جزيرة العرب ، ولكن الحسد هو الذى دفعهم إلى التنكر له ، وعدم الإيمان به ، وبذلك دمغهم القرآن ولعنهم :

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُون عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَماَّ جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِين ﴾ [البقرة : ٨٩]

---

(١) الباب ٣٣

*** والبشارة بالرسول العربى لم تقتصر على العهد القديم وحده ، بل بشّر به العهد الجديد (الإنجيل) أيضا** ، فى أكثر من موضع . مثال ذلك :

• (فى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكْرِز (ينادى مبشرا) فى بريّة اليهود ، قائلا : (تُوبُوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات) .

فقوله (قد اقترب ملكوت السموات) إشارة إلى قرب مبعث النبى - ﷺ . إذْ هو الذى مَلَك وحَكَم بقانون السماء .

• (يُشْبِهُ ملكُوتُ السموات حبّةَ خَرْدَل أخذها إنْسَانٌ وزرعها فى حقله ، وهى أصْغَرُ جميع البذور ، ولكن متى نَمَتْ فهى أكبرُ البُقول)

فهذه العبارة هى نفسها التى وردت فى القرآن الكريم ، فى قوله تعالى :

﴿ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ ﴾ والمراد بهذه الآية الرسول محمد ﷺ وأصحابه .

• **وجاء فى الإنجيل الذى جمعه يوحنا ، الكثير من البشارات التى جاءت تبشّر بمحمد** ﷺ :

منها ما ورد فى الفصل الخامس عشر ، وهو قوله :

• (إنَّ الفَارْقليط روحُ الحق الذى يُرسلُه الله ، هو يَعْلُم كل شىء) .

• (والفارُ روحُ القدس ، الذى يرسلُه الله وهو يعلم كل شىء وهو يذكركم بما قلت لكم) .

• (وإذا جاء الفارقليط ، الذى يرسله الله ، روح الحق ، الذى هو يَشْهَدُ لى ، قلتُ لكم هذا أخى) .

*** وجاء فى الفصل السادس عشر منه ، قوله :**

● (لكنى أقولُ لكُم الحق ، إنه خيرٌ لكُم أن أنطلق ، لأنىٌ إن لم أنطلق لم يأتكُمُ الفارقليط ، فإذا انطلقتُ أرسلتُه إليكم ، فهو يُوَبّخ العالم على الخطيئة) .

● (إنّ لى كلاماً كثيرا أَلَسْتُم تُطيقُون كلمة الآن ، لكن إذَا جَاءَ روحُ الحق ، ذاكَ فهو يُرْشِدكُم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عندِه ، بل يتكلم بما يسمع ، ويُخبركُم بكلّ ما يأتى) .

وهكذا تكرر لفظ (**الفار قليط**) فى الإنجيل ، وأعلم به المسيح ، وبَشّر به قومه .

*** وقد تباينت أقوال المفسرين النصارى فى المراد بـ « الفار قليط » ، وذهبوا إلى أقوال :**

منها : (**الفارُ**) بمعنى المخلّص ، وقال بعضهم هو مشتق من الفاروق أو الفارق .

وقالوا أيضا : (ليطْ) مقطع يزاد كما يقال : رَجُلٌ **هُوَ** ، وعالم **هُوَ** ، ومُخَلِّص **هو** .

ومن المسلم به ، أنه لا نبى بعد عيسى ابن مريم سوى النبى المصطفى محمد ﷺ ، وهذه البشارات قد تضمنت بوضوح .. أنه سيأتى بعد عيسى نبىّ يخلّص العالم مما فيه ، ويوبخهم على الخطيئة ، ويتكلم بما يسمع ، أى بما يُوحى إليه من رب العزّة .

فهذه العبارة – من العهد الجديد – صريحة الدلالة على التبشير بالنبى ﷺ ، فهو الذى صحّح أوضاع العالم ، وهو الذى بعث والعالم يسبح فى بحور الفساد والضلال ، والشرور والوثنية ، وهو – صلوات الله وسلامه عليه – الذى جاء بعد رفع عيسى ابن مريم – يدعو إلى رب السموات والأرض .

وهذا ما أكده القرآن العظيم فى قول الحق سبحانه :

﴿ وإذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَم : يَا بَني إسْرَائيلَ إنىِّ رَسُولُ اللهِ إلَيْكُم ، مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوراةِ ، ومُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَماَّ جَاءَهُم بالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِين ﴾ [الصف : ٦]

*** هذا وقد أقرّ علماء أهل الكتاب بنبوّة المصطفى ﷺ ، وشهدوا على ذلك .. فقد سجل القرآن الكريم « شهادة اليهود » فى أكثر من موضع :**

من مثل قوله تعالى : ﴿ أَوَ لم يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَني إسْرَائيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧]

ففى هذا القول لوم وتوبيخ للعرب المشركين ، الذين لم يؤمنوا برسالة محمد – ﷺ – مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، **وهى معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبى الله ، وما جاء به هو من عند الله .**

وقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كمَاَ يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُم ، وَإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتِمُونَ الحقّ وَهُمْ يَعْلَمُون . الحَقُّ مَنْ رَبِّكَ فَلَا تكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٦ ، ١٤٧]

فقد نصت هذه الآية – أن الذين أوتوا الكتاب – التوراة والإنجيل – يعرفون نبوة محمد ﷺ . وصدقه فيها ، معرفة مثل معرفتهم لأولادهم ، كما أخبرت أن فريقا كبيراً منهم يكتمون الحق بعد معرفتهم له ، وإن لم يؤمنوا برسالة محمد – ﷺ – بعد معرفتهم لها تمام المعرفة .

* ويحضرنا فى هذا المجال .. **شهادة عبد الله بن سلام** ، الذى كان من علماء اليهود وأحبارهم ، التى رواها **البخارى** عن أنس بن مالك ، **قال** : إن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله - ﷺ - المدينة ، فأتاه ، فقال : « إنى أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى ، قال : **ما أول أشراط الساعة ؟ .. وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ .. ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ؟**

فقال رسول الله - ﷺ - أخبرنى بهن آنفا **جبريل** . قال عبد الله بن سلام : ذاك عدو اليهود . من الملائكة ، فقال رسول الله - ﷺ :

- أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب .
- وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فريادة كبد الحوت .
- وأما الشبه فى الولد ، فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها .

قال عبد الله بن سلام : **أشهد أنك رسول الله** .

ثم قال : يا رسول الله : إن اليهود قوم بُهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى عندك ، فجاءت اليهود ، ودخل عبد الله البيت ، فقال رسول ﷺ : **أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟**

قالوا : أعلمنا ، وابن أعلمنا ، وأُخيرُنا وابنُ أُخيَرِنا ، فقال رسول الله - ﷺ : « أفرأيتم إن أسلم عبد الله . قالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عبد الله إليهم فقال : (أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله) فقالوا : أشرُّنا وابنُ شرِّنا . ووقعوا فيه » [1]

---

(١) رواه البخارى ١٦٠/٤

• إن شهادة عبد الله بن سلام هذه حجة للرسول الكريم – ﷺ – وتُعدّ من أكبر الشهادات لمحمد بالنبوة والرسالة – بعد شهادة التوحيد .

*** كما سجل القرآن الكريم شهادة النصارى بنبوّة محمد ، وثبوت رسالته فى أكثر من موضع :**

من مثل قوله تعالى : ﴿ لَتجِدَنّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالّذِينَ أَشْرَكُوا ، وَلَتجِدَنّ أَقْرَبَهُمْ مَودَّةً لِلّذِينَ آمَنُوا الّذِينَ قَالُوا إنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بأَنَّ مِنْهُم قِسّيسِينَ ورُهْباناً وأَنَّهُم لا يستكْبِرُونَ . وَإذَا سَمِعُوا ما أُنْزِلَ إلَى الرسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُم تفيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِماً عَرَفُوا مِنَ الحَقّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فاكْتُبْنَا مع الشَّاهِدِين . ومَالَنَا لا نُؤْمِنُ باللهِ ومَا جَاءَنَا مِنَ الحَقّ ونَطْمَعُ أنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِين . فأَثَابَهُم الله بِمَا قَالُوا جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحتِها الأَنهارُ خَالِدِين فيها وذَلِكَ جَزَاءُ المُحْسِنين ﴾ [المائدة : ٨٢ – ٨٥]

فقد اتفق علماء التفسير والأخبار على أن هذه الآيات نزلت فى **نجاشى الحبشة** وأصحابه المؤمنين ، فقولهم : ﴿ ومَالَنَا لاَ نُؤْمِنَ باللهِ ومَا جاءَ من الحَقّ ، ونَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ القَوْمِ الصَّالِحِين ﴾ قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام ، ونبى الإسلام ، وكتاب الإسلام ، وأمة الإسلام .

ويؤيد هذا الرأى ويدعمه ما كتبه « **النجاشى الأصحم بن أبجر** » فى رسالته إلى النبى ﷺ .

كتب يقول : **إلى محمد رسول الله .. من النجاشى الأصحم بن أبجر**

« سلام عليك يا نبى الله – من الله ورحمة الله وبركاته ، لا إله إلا الله ، هو الذى هَدَانى إلى الإسلام ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى ، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ، وقد عرفنا

ما بعثت به إلينا ، ومرَّبنا ابن عمك (**جعفر**) وأصحابه ، فأشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد بايعتك ، وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وبعثت إليك يا نبى الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر ، فإنى لا أملك إلّا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله » [(١)]

وروى أبو داود أن النجاشى قال : « أشهد أنه رسول الله – ﷺ – وأنه الذى بشر به عيسى ابن مريم » [(٢)] .

• ولقد شهد الحق تبارك اسمه وملائكته – لمحمد بالنبوة والرسالة :

وإن شهادة الله جل جلاله لتعلو فوق كل شهادة ، ودلالتها تسمو على كل دلالة – يقول سبحانه : ﴿ لكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِماَ أُنْزَلَ إِلَيْكَ ، أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، والمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى باللهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٦٦] .

*** وشهادة الله – جلّت حكمته لها جانبان : جانب إخبارى ، وجانب إعجازى .**

١ – أما الشهادة الإخبارية : فهى إخبار رب العزّة – سبحانه وتعالى – عن اصطفائه لرسوله – ﷺ ، وإلهامه ووحيه ، وتأييده له قولا وفعلا .

من مثل قوله تعالى : ﴿ ياَ أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً . ودَاعِياً إِلَى اللهِ بإِذْنِهِ وسِرَاجاً مُنِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦]

وقوله عز شأنه : ﴿ ياأَيُّها النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بالحَقِّ مِنْ رَبِّكُم ﴾ [النساء : ١٧٠]

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج٣/٨٤

(٢) سنن أبى داود ١٨٩/٢

وقوله جل جلاله : ﴿ ياأَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ماَ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَل فَماَ بَلَّغْتَ رِسَالَتَه ﴾ [المائدة : ٦٧]

٢ – وأما الشهادة الإعجازية ، فهى إمداده بالمعجزات التى تؤيده ، لتكون دليل صدق على نبوته ، ويتم ذلك بإظهار خوارق العادات .

وأول المعجزات التى أمده بها « **القرآن العظيم** » ، المعجزة المعنوية ، الوحى الذى أوحاه الله تعالى إليه ، إنها أعظم معجزة عرفتها البشرية ، المعجزة التى جعلته قارئا كاتبا ، حيث نزل الوحى على قلبه الطاهر بقوله : (**إقرأ**)

فقال : ما أنا بقارىء ، قال له الوحى (إقرأ) ، فقال : ما أنا بقارىء ، فنزل قول الحق : ﴿ اقرأ باسْمِ رَبِّك ﴾ أى بأمر ربك .. ستقرأ يا محمد ، وستكون من القارئين العالمين ، العارفين المعلمين ، المفسّرين .. هذا فى الوقت الذى كان معلوما فيه – أنه ﷺ – كان أمياً ، لم يقرأ ولم يكتب قط ، ولم يجلس بين يدى معلم قط – وأيضا إذ العادة قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ، ومعرفته لها ، وتفوقه فيها ، فضلا عن **أن يأتى بما لم يأت به غيره من معاصريه ..**

فالوحى الإلهى « القرآن الكريم » قد حوى : أمور الدين والدنيا ، أمور الهداية والتشريع ، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية ، حيث أثبت الكثير من الحقائق العلمية ، مثل :

١ – **نظام التزاوج** ، يشير إلى هذا القانون ، قوله تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُون ﴾ [يس : ٣٦]

٢ – **والقوانين الكونية** ، كعملية إنزال المطر ، التى يشير إليها قوله تعالى :

﴿ اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ ويَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [الروم : ٤٨]

كما تعرض **لبدء الخليقة ، وذكر من قصص الماضين ، وأخبار السابقين** الشيء العجيب ، وأخبر **بمغيبات عديدة** ، فكانت كما أخبر حرفيا ، وبلا زيادة أو نقصان ، كالإخبار بنهاية حرب الروم مع الفرس ، وغلب الأولى للأخيرة بعد أن كانت قد غُلبت وانهزمت ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿ آلْمْ ، غَلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُون ﴾ [الروم : ١-٣]

هذا القرآن العظيم .. أتى به النبى الأمّى ، يتحدى الخلق على الإتيان بمثله ، أو بعشر سور من مثل سوره ، أو بسورة واحدة ، فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم ، وتطأطىء رأسها ، وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أُوتيها محمد ﷺ – لتدل على صدق نبوته ، وثبوت رسالته ، وفى ذلك نزل قول الحق :

﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمثْلِ هَذَا القُرآنَ لَا يأْتُونَ بِمثْلِهِ ولَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨]

ويقول النبى المصطفى – ﷺ – « ما من الأنبياء من نبىّ إلاّ قد أُعْطِى مِنَ الآياتِ ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أُوتيتُه وحْياً أُوحى إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » [1] .

---

(١) متفق عليه

وهذا التحدى القرآنى سيظل قائما إلى يوم القيامة ، مصداقا لقوله سبحانه :

﴿ وإنْ كُنْتُمْ في رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا فأْتوا بسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِنْ دُونِ اللهِ إنْ كُنْتُم صَادِقِين . فَإنْ لَمْ تَفْعَلُوا ولَنْ تَفْعَلُوا فاتَّقُوا النَّارَ الَّتي وَقُودُها النَّاسُ والحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين ﴾ [البقرة : ٢٣-٢٤]

فقوله تعالى : ﴿ **ولَنْ تفعلوا** ﴾ أى الإتيان بسورة قرآنية من أُمىّ مثل محمد – ﷺ – فى أميته ، هذا التحدى ، وهو نفى الإتيان بسورة من أمىّ مثل محمد فى أميته ، مازال قائما ، وقد مضى عليه الآن ما يزيد على الألف والأربعمائة سنة ، دون أن يأتى أحد بما يُبطله .

هذا عن المؤيدات المعنوية البيانية الممثلة فى القرآن .

* **أما المؤيدات الإعجازية الحسية أو المادية ، التى أيد الله بها نبيه – ﷺ – فهى :**

١ – فيضان الماء بين أصابعه بالحُدَيْبيّة حتى سقى وروى جيشاً كاملا قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة .[1]

٢ – تكثير الطعام يوم الخندق ، حيث أطعم بصاع من شعير وجِدْىٍّ صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون .[2]

٣ – حنين الجذع إليه – ﷺ – ونطقه ، وسماع مئات الرجال الأخيار له ، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهَدْهَدَه كما تهدهد الأم طفلها ، فسكت[3]

---

(١) انظر صحيح البخارى ٢٣٤/٤ ، ١٥٦/٥

(٢) كان هذا فى غزوة الأحزاب – متفق عليه .

(٣) رواه البخارى ١١/٢

٤ – ردّه – ﷺ – عين قتادة ، حيث خرجت حتى تدلّت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أُحد ، فردَّها ومسحَ عليها ، فرجعت أحسن منها قبل إصابتها [١]

٥ – تسبيح الطعام بين يديه – ﷺ – وأصحابه يسمعون ، وهم عدد كبير من الصحابة الأجلاء [٢]

٦ – إنشقاق القمر له – ﷺ – حين طلبت قريش ذلك استدلالا على نبوته ، فانشق القمر فكان فَلَقَتَان على جبل أبى قبيس ، وأهل مكة كلهم يشاهدون ويعجبون . [٣] وقد سجل القرآن الكريم حدث هذا الانشقاق بقوله : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ ﴾ [القمر : ١]

٧ – تسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع ، وعشرات المرات . [٤]

٨ – الإسراء به والمعراج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم إلى السماء السابعة ، حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى ، فبلغ مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، وناداه ربه وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس .

وقد سجل القرآن العظيم أحداث هذه الرحلة المقدسة فى سورتى الإسراء والنجم .

٩ – إخباره بالمغيبات الكثيرة فكانت كما أخبر .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٣/٣

(٢) رواه البخارى ٢٣٥/٤

(٣) رواه الشيخان

(٤) انظر حديث تسليم الحجر عليه فى مكة فى صحيح مسلم ٥٨/٧ ، وحديث تسليم الأحجار والإشجار فى الترمذى برقم (٣٦٣٠)

• من ذلك قوله ﷺ – فى « **الحسن بن على** » – رضى الله عنه : « **إن ابنى هذا سيد ، ولعل الله أن يصلح به فئتين عظيمتين من المسلمين** » فكان كما أخبر . (١)

• وقوله ﷺ – فى « **عمار بن ياسر** » وهو يحمل اللَّبِنَ لبناء المسجد : « **تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِية** » فكان كما أخبر بذلك ، فقد قُتل عمار فى حرب على ومعاوية ، قتله جيش الشام . (٢)

ونتيجة لهذه البشارات وهذه المؤيدات الإعجازية ، المعنوية والمادية ، وجب الإيمان بمحمد ﷺ ، وتصديق نبوته ، والأخذ بتعاليم رسالته .

*** والسؤال الآن : هل ترك النبى شيئا غامضا ملتبسا على أمته ؟**

لقد شاء اللطيف الخبير – سبحانه وتعالى – أن يكون هذا الرسول ، السراج المنير ، الذى أخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور ، وأنزل معه الكتاب بالحق ، ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وأمر الناس أن يردوا ما تنازعوا فيه ، من أمر دينهم إلى ما بعث به الكتاب والحكمة ، وهو يدعو إلى الله ، وإلى سبيله بإذنه على بصيرة ، وقد أخبر الله بأنه أكمل له ، ولأمته دينهم ، وأتم عليهم نعمته .

فمحال مع هذا وغيره ، أن يكون الرسول قد ترك بابا من أبواب الإيمان ملتبسا مشتبها دون أن يوضحه ، أو غفل ما يجب لله من الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وما يجوز عليه ، وما يمتنع عليه ، فإن معرفة هذا أصل الدين ، وأساس الهداية ، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب وحصلته النفوس ، وأدركته العقول .

---

(١) أخرجه البخارى ٣٢/٥

(٢) انظر صحيح مسلم ١٨٦/٨

إن الذى لاشك فيه أن النبى المصطفى ﷺ ، قد علم أمته كل شىء من أمور دينهم ودنياهم .

• وقال : « تركتكم على المحجّة البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلاّ هالك » (١)

• وقال ﷺ : « ما بعثَ الله من نبى إلاّ كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » . (٢)

• يقول أبو ذر – رضى الله عنه – « لقد توفى رسول الله – ﷺ – وما طائر يقلّب جناحيه فى السماء إلا ذكر لنا منه علما » (٣)

وقال عمر بن الخطاب – رضى الله عنه : « قام فينا رسول الله – ﷺ – مقاما ، فذكر بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم ، وأهل النار منازلهم ، حفظ ذلك مَنْ حفظه ، ونسيه من نَسِيَه » (٤)

* ومحال مع تعليم الرسول – ﷺ – لصحابته ولأمته كل شىء ، لهم فيه منفعة فى الدين وإن دقت ، أن يترك تعليمهم ما يقولون بألسنتهم ، ويعتقدونه فى قلوبهم عن ربهم المعبود ، رب السموات والأرض .. رب العالمين ، ومعرفته غاية المعارف ، وعبادته أشرف المقاصد ، وهى زبدة الرسالة الإلهية ، وخلاصة الدعوة النبوية .

---

(١) متفق عليه .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) أخرجه البخارى .

كيف يتوهم مَنْ فى قلبه أدنى لمحة من إيمان وحكمة ، أن يكون الرسول قد أغفل بيان هذه الأمور ولم يتمها غاية التمام ، وهو القائل : « تركتُ فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتى » [١]

إن رسول الله – ﷺ – بيّن جميع الدين ، أصوله وفروعه ، باطنه وظاهره ، علمه وعمله .. فإن هذا الأمر هو أصل أصول العلم والإيمان ، وكل من كان أعظم اعتصاما ، وأكثر تمسكا بهذا الأصل ، كان أولى بالحق علما وعملا .

كما بين الرسول – ﷺ – **كل أصول الدين الحق** ، الذى أنزل الله به كتابه ، وأرسل رسله ، وهى **الأدلة والبراهين** ، والآيات الدالة على ذلك ، بيّنها أحسن تبيين ، ودلّ الناس وهداهم إلى الأدلة العقلية ، والبراهين اليقينية ، التى بها يعلمون المطالب الإلهية ، وبها يعلمون **إثبات ربوبية الله** – سبحانه وتعالى – **ووحدانيته وصفاته** ، وغير ذلك مما يحتاج إلى معرفته بالأدلة السمعية ، بل ومايمكن بيانه بالأدلة العقلية ، وإن كان لا يحتاج إليها ، فإن كثيرا من هذه الأمور يعرف بالخبر الصادق ، ومع ذلك فالرسول الكريم – ﷺ – بين الأدلّة العقلية الدالة عليها ، فجمع بين الطرفين : **الدلائل السمعية ، والدلائل العقلية** .

* * *

---

(١) متفق عليه .

الفصل الثانى

آدم أبو البَشَرَ – وقضية الاستخلاف فى الأرض

شاء الحق – تبارك وتعالى – أن يخلق **الكون** وفق إرادته وحكمته ، ليظهر كمال علمه وقدرته ، بظهور أفعاله المتقنة المحكمة ، وليثبت أنها لا تأتى إلا من قادر حكيم ، وليُعبد فى هذا الكون ، فإنه يحب عبادة العابدين ، ويُثيبهم عليها على قدر فضله ، لا على قدر عبادتهم وأفعالهم ، وإن كان غنيا عن عبادة خَلْقه ، لا تزيد فى ملكه طاعة المطيعين ، ولا يُنقص من ملكه معصية العاصين .

• قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِنْ رِزْقٍ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦ ، ٥٧] – وليظهر إحسانه على خلقه لأنه محسن ، فأوجدهم ليحسن إليهم . وليتفضل عليهم ، فيعامل بعضا بالعدل ، وبعضا بالفضل .

• قال عز وجل : ﴿ اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ، ثُمَّ رزقَكُمْ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [الروم : ٤٠]

قال المفسرون : خلقكم لإظهار القدرة ، ثم رزقكم لإظهار الكرم ، ثم يُميتكم لإظهار القهر والجبروت . ثم يُحييكم لإظهار العدل والفضل ، والثواب والعقاب .

* فلما أراد الحق – سبحانه – أن يخلق أساسيات هذا الكون « **السماوات والأرض** » . خلق **جوهرة خضراء** ، أضعاف طبقات السموات والأرض ، ثم نظر إليها نظرة هيبة ، فصارت **ماء** ، ثم نظر إلى الماء فَغَلى ، وارتفع منه **زَبَدُ** ، **ودخان** ، **وبخار** ، وأرعد من خشية الله ، فمن ذلك يرعد إلى يوم القيامة ، **فخلق الله من ذلك الدخان : السماء ، وخلق من الزَّبَد الأرض .**

* **فأما عن خلق السماء** ..فيقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ﴾ [فصلت : ١١] أى قصد وعمد إلى خلق السماء ، وهى بخار .

وقال عز شأنه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُم سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٧]

• **قال ابن عباس** : خلق الله السموات مثل القِباَب ، فسماء الدنيا قد شُدّت أقطارها ، والثانية ، بالثالثة ، وكذلك إلى السابعة ، والسابعة بالعرش ، فذلك قوله تعالى :

﴿ اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ﴾ [الرعد : ٢]

• عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : خرج رسول الله – ﷺ – على أصحابه ، وهم يتفكرون ، فقال : **فيم أنتم تتفكرون** ؟ فقالوا : نتفكّر فى الخالق . فقال لهم : **تفكروا فى الخلق** ، ولا تتفكروا فى الخالق ، فإنه لا تحيط به الفكرة ، تفكروا فى أن الله خلق السماوات سبعا ، والأرض سبعا ، وتحت كل أرض خمسمائة عام ، وفى السماء السابعة بحر عمقه من ذلك كله ، وفيه مَلَك قائم لا يتجاوز الماء كعبه .

ولما خلق الله « جلت حكمته » السموات ، زينها بعشرة أشياء :

١ – **الشمس** : قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [نوح : ١٦]

وقال عز شأنه : ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً ﴾ [النبأ : ١٣]

٢ – **والقمر** : قال الله سبحانه : ﴿ وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً ﴾ [نوح : ١٦]

٣ - **والكواكب** : قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴾ [الصافات : ٦]

وقال سبحانه : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ [فصلت : ١٢]

والكواكب على ضربين : منها ما هو معلق كتعليق القناديل فى المساجد ، ومنها ما هو مركب كتركيب الفص فى الخاتم ، وهى مع كثرتها مختلفة الصور ، ماخلق الله تعالى منها كوكبا على مثال كوكب .

٤ - **والعرش** : قال الله تعالى : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ [غافر : ١٥]

٥ - **والكرسى** : قال الله عز وجل : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

روى عن **على بن أبى طالب** - كرم الله وجهه - عن رسول الله - ﷺ - أنه قال : « الكرسى لؤلؤة طولها حيث لا يعلمه العالمون ، وقد جعل الله **آية الكرسى** أمانا لأهل الإيمان ، من شر الشيطان » .

٦ - **اللوح المحفوظ** : قال الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ﴾ [يس : ١٢]

قال ابن عباس : إنه مما خلق الله تعالى **لوحا محفوظا** من دُرَّة بيضاء ، دفتاه من ياقوتة حمراء كتابيه نور ، وقلمه نور ، وعرضه كما بين السماء والأرض ، ينظر الله تعالى فيه - كل يوم - ثلاثمائة وستين نظرة ، منها يخلق ، ويرزق ، ويحيى ، ويميت ، ويفعل ما يشاء ، فذلك قوله تعالى : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن : ٢٩]

٧ – **القلم** : قال سبحانه : ﴿ نٓ ، والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون ﴾ [القلم : ١]

يروى أن أول ما خلق الله (**القلم**) ، فنظر إليه نظرة هيبة ، وكان طوله كما بين السماء والأرض . فانشق نصفين . **وقال أكتب . فقال يا رب .. وما أكتب** ؟ قال : أكتب « **بسم الله الرحمن الرحيم** » ثم قال : اجر بما هو كائن إلى يوم القيامة .

٨ – **البيت المعمور** : عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – : « إن فى سماء الدنيا بيتا ، يقال له « **البيت المعمور** » ، بحيال الكعبة ، وأن فى السماء السابعة بحراً من نور ، يقال له **الحيوان** ، يدخل فيه **جبريل** – عليه السلام – كل غداة ، فينغمس فيه انغماسة ، ثم يخرج فينفض انتفاضة ، فيخرج منه سبعون ألف قطرة من نور ، فيخلق الله – تعالى – من كل قطرة مَلَكا ، فيؤمرون أن يأتوا البيت المعمور ، فيصلّون فيه ، فيأتونه ويدخلونه ، ويصلون فيه ، ثم يخرجون فلا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

٩ – **سدرة المنتهى** : قال الله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى . عِنْدَ سِدْرةِ المُنْتَهَى ، عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى ﴾ [النجم : ١٣ – ١٥]

قال كعب : هى شجرة فى السماء السابعة مما يلى الجنة ، أصلها ثابت فى الجنة ، وعروقها تحت الكرسى ، وأغصانها تحت العرش ، إليها ينتهى علم الخلائق ، كل ورقة منها تظل أمة من الأمم ، يغشاها ملائكة كأنهم فراش من ذهب ، وعليها ملائكة لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، ومقام جبريل وسطها .

١٠ – **الجنة** : قال **عمر بن الخطاب** – رضى الله عنه – سئل رسول الله – ﷺ – عن الجنة ، كيف هى ؟ قال : من يدخل الجنة حىّ لا يموت ، ومنعّم لا ييأس ، ولا تبلى ثيابه ، ولا يفنى شبابه .

قيل : يا رسول الله كيف بناؤها ؟ قال : لبنة من ذهب ، ولبنة من فضة . ملاطها مِسْك أذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران .

* **وأما عن خلق الأرض** ، فقد خلقها الله من **الزَّبَد** ، الذى ارتفع من غَلْى الماء ، كما خلق السماء من الدخان .

فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء « **مكة** » فَدَحا الله الأرضَ من تحتها ، فلذلك سُمّيت « **أم القرى** » يعنى أصلها ، وهو قوله تعالى ﴿ والأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٣٠]

ولما خُلقت الأرض ، كانت طبقا واحداً ، ففتقها وصَيَّرها سَبْعاً ، وذلك قوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَواتِ والأَرْضَ كانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾ [الأنبياء : ٣٠]

ثم بعث الله – تعالى – من تحت العرش مَلَكا ، فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع ، فوضعها على عاتقه ، إحدى يديه فى المشرق ، والأخرى فى المغرب ، باسطتين قابضتين على قرار الأرضين السبع حتى صلب ، فلم يكن لقدميه موضع قرار .. فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثَوْراً ، له سبعون ألف قرن ، وأربعون ألف قائمة ، وجعل قرار قدمى المَلَك على سنامه ، فلم تستقر قدماه ، فخلق الله ياقوتة خضراء ، من أعلى درجة من الفردوس ، غِلَظُها مسيرة خمسمائة عام ، فوضعها بين سنام الثور إلى أُذنه ، فاستقرت عليها قدماه ، وقرون ذلك الثور خارجة من أقطار الأرض ، وهى كالحكمة تحت العرش ، ومنخر ذلك الثور فى البحر ، فهو يتنفَّس كل يوم نَفَساً ، فإذا تنفَّس مَدَّ البحر ، وإذَا ردّ نفسه جزر – وهذا هو المدّ والجَزْر الذى يحدث للبحر ليلا .

ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار ، فخلق الله **صخرة خضراء** ، سمكها كُسْمك سبع سموات ، وسبع أرضين ، فاستقرت قوائم الثور عليها ، وهى الصخرة ، التى قال لقمان لابنه :

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فتكُن في صَخْرَةٍ أَوْ في السَّمَوَاتِ أَوْ في الأَرْضِ يَأْتِ بِهاَ اللهُ ، إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان : ١٦]

وروى أن لقمان لما قال هذه **الكلمة** ، انفطرت من هيبتها مرارته ، ومات ، وكانت آخر موعظته .

وقال المفسرون والعلماء : إن الأرض كانت تنكفىء على الماء ، كما تنكفىء السفينة على الماء ، فأرساها الله **بالجبال** ، وذلك قوله تعالى : ﴿ والجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ [النازعات : ٢٢] وقوله عز وجل : ﴿ والجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾ [النبأ : ٧] . وقوله سبحانه : ﴿ وَأَلْقَى في الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [النحل : ١٥] يعنى لكى لا تتحرك بكم ، أى جعل فيها جبالا ثوابت ، لئلا تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها .

قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه ، والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل ، لما كانت تثبت للزراعة ، كما ترى الأراضى الرملية ، ينتقل الرمل الذى فيها من موضع إلى موضع ، فهذه حكمة إرسائها بالجبال [1] . فسبحان الكبير المتعال .

• قال علىّ بن أبى طالب – رضى الله عنه – « أول ما خلق الله الأرض عجَّت ، وقالت : يا رب تجعل علىّ بنى آدم يعملون علىّ الخطايا ، ويلقون علىّ الخبائث ، فاضطربت فأرساها الله – تعالى – بالجبال ، فأقرها ، وخلق الله تعالى جبلا عظيما من زبرجدة خضراء خضرة السماء منه ، يقال له : « **جبل قاف** » فأحاط بها كلها وهو الذى أقسم به الله ، فقال : (قٓ ، وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [سورة ق : ١]

---

(١) التفسير الكبير ١٤٣/٢٥

وقال **وهب** : أن ذا القرنين أتى على **جبل قاف** ، فرأى جبالا صغاراً ، فقال له : **من أنت** ؟ قال : قاف ، قال : فأخبرنى ما هذه الجبال التى حولك ؟ فقال : هى عروق ، فإذا أراد الله أن يزلزل أرضا ، أمرنى فحركت عرقا من عروق ، فزلزت الأرض المتصلة به ، فقال يا قاف : أخبرنى بشىء من عظمة الله تعالى ، فقال : إن شأن ربنا لعظيم ، تقصر عنه الصفات ، وتنقضى دونه الأوهام – قال : فأخبرنى بأدنى ما يوصف منها ؟ . **قال** : إن ورائى لأرضا مسيرة خمسمائة عام من جبال الثلج ، يحطم بعضها بعضا ، ومن وراء ذلك جبال من البَرَد مثلها ، ولولا ذلك الثلج والبَرَد ، لاحترقت الدنيا من حرّ جهنم .

قال : زدنى .. فقال : إن جبريل – عليه السلام – واقف بين يدى الله – تعالى – ترتعد فرائصه ، فيخلق الله من كل رعدة مائة ألف مَلَك ، وهم صفوف بين يدى الله ، منكسوا رؤوسهم ، لا يؤذن لهم فى الكلام إلى يوم القيامة ، فإذا أذن الله لهم فى الكلام قالوا : « **لا إله إلا الله** » [1] وهو قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ : ٣٨]

• **وعن أنس بن مالك** – رضى الله عنه – قال :

لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال ، وألقاها عليها فاستقامت ، فتعجبت الملائكة من شدة الجبال ، فقالت : يارب .. هل من خلقك شىء أشد **من الجبال** ؟ قال : نعم .. **الحديد** ؛ فقالت : يارب ؛ هل من خلقك شىء أشد من **الحديد** ؟ . قال : نعم .. **النار** ، فقالت : يارب .. هل من خلقك شىء أشد من النار ؟ قال : نعم .. **الماء** ، فقالت : يارب .. هل من خلقك

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ص٨

شيء أشد من الماء ؟ قال : نعم .. **الريح** ، فقالت : يارب .. هل من خلقك شيء أشد من الريح ؟ قال : نعم .. **الإنسان** .

*** والسؤال الآن : ما هى المدة التى استغرقتها عملية الخلق ؟**

قال رسول الله – ﷺ – فيما رواه عنه أبو هريرة : « خَلَق الله الأرضَ يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والأشجار يوم الإثنين ، والظلمات يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة » .

وذكر المفسرون : أن الله تعالى ابتدأ خلق الأشياء يوم الأحد إلى يوم الخميس ، وخلق يوم الخميس ثلاثة أشياء ، **السموات والملائكة** ، **والجنة** ، إلى ثلاث ساعات بقيت من يوم الجمعة . فخلق فى الساعات الأولى **الأوقات والآجال** ، وفى الثانية : الأرزاق ، وفى الثالثة : **آدم** – عليه الصلاة والسلام – وذلك قوله عز وجل :

﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾

[فصلت : ١٢]

أى صنعهن وأبدع خلقهن سبع سماوات فى وقت مقدر بيومين ، فتم خلق السموات والأرض ، فى ستة أيام ، ولو شاء لخلقهن بلمح البصر ، ولكن أراد الله أن يعلم عباده الحلم والأناة .

﴿ وأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَها ﴾ أى أوحى فى كل سماء ما أراده ، وما أمر به فيها .

قال ابن كثير : أى رتّب فى كل سماء ما تحتاج إليه من الملائكة ، وما فيها من الأشياء التى لا يعلمها إلاّ هو .

﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ﴾ أى وزَيَّناً السماءَ الأولى ، القريبة منكم ، بالكواكب المنيرة ، المشرقة على أهل الأرض ، وحرسا من الشياطين أن تستمع إلى الملأ الأعلى .

﴿ ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ ﴾ [فصلت : ١٢] أى ذلك المذكور من الخلق والإبداع ، هو صنع الله ، العزيز فى ملكه العليم بمصالح خلقه .

*** خلق آدم عليه السلام :**

بعد أن خلق الله **الكون** بمشتملاته العديدة ، التى قدرها الحق – سبحانه – أراد أن يعمّره .. فأوحى – جلت قدرته – إلى الأرض إنى خالق منك خلقا . منهم من يطيعنى ، ومنهم من يعصينى ، فمن أطاعنى منهم أدخلته الجنة ، ومن عصانى أدخلته النار ، ثم بعث إليها **جبريل** – عليه السلام . **ليأتى بقبضة من ترابها** ، فلما أتاها جبريل ليقبض منها القبضة ، قالت له الأرض : « إنى أعوذ بعزة الذى أرسلك أن لا تأخذ منى شيئا يكون فيه غداً للنار نصيب » فيرجع جبريل إلى ربه ، ولم يأخذ منها شيئا ، وقال : يارب استعاذت بك ، فكرهت أن أقدم عليها .

• فأمر الله – عز وجل – ميكائيل – عليه السلام ، فأتى الأرض ، فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا فيرجع إلى ربه ، ولم يأخذ منها شيئا .

• فبعث الله **ملك الموت** ، فأتى الأرض ، فاستعاذت بالله أن يأخذ منها شيئا ، فقال ملك الموت :

وإنى أعوذ بالله أن أعصى له أمراً ، فقبض قبضة من زواياها الأربع ، من أديمها الأعلى ، ومن سَبَخَتها وطِيها ، وأحمرها وأسودها ، وأبيضها ، وسهلها

وحزنها ، فكذلك كان فى ذرية آدم ، الطيب والخبيث ، والصالح والطالح ، والجميل والقبيح ، ولذلك اختلفت صورهم وألوانهم [(١)] .

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، واخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم : ٢٢]

• ثم صعد بقبضة التراب ملكُ الموت إلى الله – تعالى – فأمره أن يجعلها **طينا** ، ويخمّرها . فعجنها بالماء المرّ والعذب والملح ، حتى جعلها طينا ، وخمّرها ، فلذلك اختلفت أخلاقهم . ثم تركها أربعين سنة حتى صارت **طينا لَازباً ليّناً** . واللآزب هو الذى يلزق بعضه ببعض . ثم تركها أربعين سنة حتى صارت **صلصالا كالفخار** ، وهو الطين اليابس ، الذى إذا ضربته بيدك صلصل ، أى أحدث صوتا ، ليعلم أن أمره بالصنع والقدرة ، لا بالطبع والحيلة ، فإن الطين اليابس لا ينقاد ، ولا يتأتى تشكيله .

• ثم جعله جسداً ، وألقاه على طريق الملائكة ، التى تهبط إلى السماء ، وتصعد منها أربعين سنة ، فذلك قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ﴾ [الإنسان : ١]

قال ابن عباس : الإنسان آدم ، والحين أربعون سنة ، كان آدم جسداً ملقى على باب الجنة [(٢)] .

فمرت الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، وكان أشدهم منه فزعا **إبليس** ، فكان يمرّ به فيضربه ، فيصوّت الجسد ، كما يصوّت الفخار فيكون له صلصلة ، فذلك حين يقول :

---

(١) ذكره السدى عن أبى مالك وأبى صالح عن ابن عباس . ورواه الإمام أحمد . وانظر قصص الأنبياء لابن كثير ٣٥

(٢) رواه الترمذى .

﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤] . وكان يقول : لأَمْرٍ مَا خُلِقْت ، ودخل فى فِيهِ ، وخرج من دُبُرِه ، وقال للملائكة : لا ترهبوا من هذا ، فإن ربكم صمد ، وهذا أجوف . لئن سُلِّطت عليه لأهلكنّه .

* روى أنس بن مالك – أن النبى – ﷺ – قال : لما خَلَق الله آدم ، تركه ما شاء أن يدعه ، فجعل إبليس يطيف به ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق لا يتمالك [١] .

* وسأل عبد الله بن سلام ، رسول الله – ﷺ – **كيف خلق الله آدم – عليه السلام ؟**

فقال : خلق رأس آدم وجبهته من تراب الكعبة ، وصدره وظهره من بيت المقدس . وفخذيه من اليمن ، وساقيه من أرض مصر ، وقدميه من أرض الحجاز ، ويده اليمنى من أرض المشرق ، ويده اليسرى من أرض المغرب ، ثم ألقاه على باب الجنة ، فكلما مر عليه ملأ من الملائكة عجبوا من حُسن صورته ، وطول قامته ، ولم يكونوا قبل ذلك رأوا شيئا يشبهه من الصور .

*** نفخ الروح :**

قال العلماء : لما أراد الله أن ينفخ فى آدم **الروح** ، أمرها أن تدخل فى (فِيهِ) ، فقالت الروح : مدخل بعيد القعر ، مظلم المدخل ، فقال للروح ثانية ، فقالت مثل ذلك ، وكذلك ثالثة ، إلى أن قال فى الرابعة : **أدْخِلى كَرْهاً وأخْرُجى كرهاً** ، فلما أمرها تعالى بذلك ، دخلت فى فيه ، فأول ما نفخ فيه الروح دخلت من دماغه ، فاستدارت فيه مقدار مائتى عام .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

ثم نزلت فى عينيه ، **والحكمة فى ذلك** ، أن الله تعالى أراد أن يرى آدم بدء خلقه وأصله . حتى إذا تتابعت عليه الكرامات ، لا يدخله الزهو ولا العجب بنفسه . ثم نزلت الروح فى خياشيمه ، **فعطس** ، فحين فراغه من عطاسه ، نزلت الروح إلى فيه ولسانه ، فلقنه الله تعالى أن قال : (**الحمد لله رب العالمين**) فكان ذلك أول ما جرى على لسانه ، **فأجابه ربه – عز وجل – يرحمك ربك يا آدم .. للرحمة خلقتك** .

● ثم نزلت الروح إلى صدره وشرايينه ، فأخذ يعالج القيام ، فلم يمكنه ذلك . وذلك قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء : ١١] وقوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الإنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ [الأنبياء : ٣٧]

● فلما وصلت الروح إلى جوفه **اشتهى الطعام** ، فهو أول حرص دخل جوف آدم – عليه السلام .

● وذكر الترمذى – فيما رواه أبو هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ :

« لما خلق الله آدم ، مسح ظهره ، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة ، وجعل بين عينى كل إنسان منهم وبيصا (أى بريقا) من نور ، ثم عرضهم على آدم ، فقال : يا آدم هؤلاء ذريتك ، وإذا فيهم الأجذم ، والأبرص ، والأعمى ، وأنواع الأسقام ، فقال آدم : يارب ، لم فعلت هذا بذريتى ؟ قال : كى تشكر نعمتى » [١]

فلما أتم الله خلق آدم – عليه السلام – ونفخ فيه الروح ، قرّظه وشقه ، وصوره وختمه ، وأنطقه وألبسه من لباس الجنة ، وزينه بأنواع الزينة ، يخرج من ثناياه نور كشعاع الشمس ، ثم رفعه على سرير ، وحمله على أكتاف الملائكة ، وقال لهم : طوفوا به فى سمواتى ليرى عجائبها ، وما فيها ، فيزداد يقينا .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم .

فقالت الملائكة : لبيك ربنا سمعنا وأطعنا ، فحملته الملائكة على أعناقها ، وطافت به السموات مقدار مائة سنة ، حتى وقف على كل من آياتها وعجائبها ، ثم خلق الله **فرسا** من المسك الأذفر ، يقال له « **الميمون** » ، له جناحان من الدر والجوهر ، فركبه آدم – عليه السلام – وجبريل أخذ بلجامه ، وميكائيل عن يمينه ، وإسرافيل عن شماله ، فطافوا به السموات كلها ، وهو يقول : **السلام عليكم يا ملائكة الله ، فيقولون : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . فقال الله تعالى لآدم : هذه تحيتك ، وتحية المؤمنين من ذريتك فيما بينهم إلى يوم القيامة .**

*** قضية الاستخلاف :**

لما خلق الحق – تبارك وتعالى – آدم ، وصوّره ، ونفخ فيه الروح .. أخبر ملائكته قائلا : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] . **والخليفة** : من يخلف غيره ، وينوب منابه ، فعيل بمعنى فاعل ، والتاء للمبالغة ، سمى (خليفة) لأنه مستخلف عن الله عز وجل فى إجراء الأحكام ، وتنفيذ الأوامر الربانية .

أعلمهم الحق بما يشاء ، من جعل آدم وذريته خلفاء فى الأرض ، يخلُف بعضهم بعضا . كما قال سبحانه : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

وكما قال عز شأنه : ﴿ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢]

• فأخبر – جل وعلا – **على سبيل التنويه بخلق آدم وذريته** ، كما يخبر بالأمر العظيم قبل كونه ، **فقالت الملائكة** – سائلين على وجه الاستكشاف ، والاستعلام ، عن وجه الحكمة – لا على وجه الإعتراض والتنقّص لبنى آدم ، والحسد لهم – كما قد يتوهمه بعض جهلة المفسرين ..

قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

قال قتادة : علموا أن ذلك كائن بما رأوه ممن كان قبل آدم من الجن .

وقال عبد الله بن عمر : كانت الجن قبل خلق آدم بألفى عام ، فسفكوا الدماء ، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة ، فطردوهم إلى جزائر البحور .

وقيل : لمّا اطلعوا عليه من اللوح المحفوظ ، فقيل : أطلعهم عليه **هاروت وماروت** ، عن مَلَك فوقهما يقال له « **السجل** » .

وقيل : لأنهم علموا أن الأرض لا يخلق منها إلّا من يكون بهذه المثابة غالبة .

* ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠]

والتسبيح : تنزيه الله وتبرئته عن السوء .

• روى **طلحة عن عبيد الله** ، قال : سألت رسول الله – ﷺ – عن تفسير « **سُبْحَانَ الله** » فقال : هو تنزيه الله عز وجل عن كل سوء [(١)] .

أى نعبدك دائما ، لا يعصيك منا أحد . فإن كان المراد بخلق هؤلاء « **الخلائف** » أن يعبدوك ، فها نحن لا نفتر ليلا ولا نهاراً عن التسبيح بحمدك ، والتقديس لك . وتقديس الله – معناه – تمجيده وتعظيمه وتطهير ذكره عما لا يليق به .

روى مسلم – أن رسول الله – ﷺ – كان يقول فى ركوعه وسجوده : « **سبوح ، قدّوس ، ربّ الملائكة والروح** »

قال سبحانه : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] أى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق آدم وذريته ما لا تعلمون .

---

(١) تفسير القرطبى ٢٧٦/١

* **ثم بين الحق – سبحانه – شرف آدم عليهم ، بما خصه من العلم ، فقال :** ﴿ وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١]

• **قال ابن عباس :** هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس ، إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها .

• **وقال مجاهد :** علّمه اسم كل دابة ، وكل طير ، وكل شيء .

• **وقال الربيع :** علّمه أسماء الملائكة .

والصحيح : أنه علمه أسماء الذوات ، وأفعالها ، مكبّرها ومصغّرها .

روى **أنس بن مالك** – رضى الله عنه – عن رسول الله – ﷺ – :

« يجتمع المؤمنون يوم القيامة ، فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا ، **فيأتون آدم** ، فيقولون : أنت أبو البشر ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته ، وعلمك أسماء كل شيء .. »[١] الحديث .

• ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ : أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١]

* لما قال الحق – سبحانه – لملائكته .. إنى جاعل فى الأرض خليفة لى ، يقوم بعمارتها وسكناها ، ويقوم بعض خلفائه بالزعامة والتوجيه ، وتنفيذ الأحكام ، حتى يعمر الكون .. فقالت الملائكة : يارب .. هذا الخليفة وبنوه تصدر أفعالهم عن إرادتهم واختيارهم ، وهم لا يعلمون المصلحة الحقيقية ، لأن علمهم محدود ، وقد خلقوا من طين ، فالمادة جزء منهم ، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب .

---

(١) رواه مسلم من طريق سعيد وهشام .

فهو يفسد فى الأرض ، وأنت ياربّ تريد عمارتها ، فيارب كيف تجعل فيها من يفسد فيها ؟ استفهام من لون التعليم لا الإعتراض ، ونحن أولى ، لأن أعمالنا تسبيحك وتقديسك .

قال الحق سبحانه : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى أعلم كيف تصلح الأرض ، وكيف تعمّر ، ومن أصلح لعمارتها ، فهذا خلق فيه دواعى الخير والشر ، فبالخير والشر تصلح الدنيا ، وتعمّر ، وبهذا تظهر حكمة إرسال الأنبياء والرسل ..

وإن أردتم موضع السر ، فإنى قد علّمت آدم أسماء الأشياء المادية ، التى بها تعمر الدنيا ، وتصلح إلى الأبد ، ثم عرض – عز شأنه – هذه الأشياء على الملائكة ، وقال لهم : أخبرونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين فى دعوى أنكم أحق بالخلافة من غيركم .. فوقفوا عاجزين ، وقالوا : ﴿ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العلِيمُ الحكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]

أى سبحانك أن يحيط أحد بشىء من علمك من غير تعليمك ، فأنت العليم بكل شىء ، الحكيم فى كل صنع . كما قال عز وجل : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥]

﴿ قَالَ : يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٣] أى أعلم السر كما أعلم العلانية .

قال المولى – عز وجل – يا آدم : أخبرهم بأسمائهم ، فلما أخبرهم بالأسماء أدركوا السرّ فى **خلافة آدم وبنيه** ، وأنهم لا يصلحون لعدم استعدادهم للاشتغال بالماديات ، التى لا تقوم الدنيا إلّا بها ، إذْ هم خلقوا من النور ،

وآدم خلق من الطين ، فالمادة جزء منه . وهنا قال الحق – سبحانه – ألم أقل لكم إنى أنا العالم بكل شىء ، ما غاب ، وما حضر فى السموات والأرض ؛ وأعلم ما ظهر وما تبدون وما تكتمون .

• **قال سعيد بن جبير ومجاهد** : إن المراد بقوله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُون ﴾ ما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهاَ مَنْ يُفْسِدُ فِيهاَ ﴾ وبقوله : ﴿ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُون ﴾ المراد بهذا الكلام **إبليس** ، حين أسر الكبر والنفاسة على آدم – عليه السلام .

• **وقال الحسن وقتادة** : ﴿ وَمَا كُنتُم تَكْتُمُونَ ﴾ قولهم : لن يخلق ربنا خَلْقاً إلّا كنا أعلم منه ، وأكرم عليه منه .

وقال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْناَ لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى واسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤]

هذا إكرام عظيم من الله تعالى لآدم ، **حين خلقه بيده** ، **ونفخ فيه من روحه** ، **وأمره الملائكة بالسجود له** ، **وتعليمه الأشياء** . ولهذا قال له موسى – كليم الله – حين اجتمع هو وإياه فى الملأ الأعلى ، وتناظرا : أنت آدم أبو البشر ، الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأسجد لك ملائكته ، وعلّمك أسماء كل شىء .. وهكذا يقول له أهل المحشر يوم القيامة .

وقال سبحانه فى الآية الأخرى :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوَّرنَاكُمْ ثُمّ قُلْناَ للمِلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . قاَلَ : ماَ مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ؟ قاَلَ : أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١١ ، ١٢]

أى قلنا للملائكة الأطهار ، اسجدوا لآدم **سجود تعظيم وإجلال** ، لا سجود عبادة وتأليه ، فسجد الملائكة جميعا ، وامتثلوا لأمر الله ، إلاّ إبليس اللعين ، فإنه امتنع من السجود ، واستكبر قائلا : أأسجد له وأنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين .

• **قال الحسن البصرى** : قَاسَ إبليس ، وهو أول من قاس .

• **وقال محمد بن سيرين** : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس ولا القمر إلا بالمقاييس [١] . مَنَع إبليسَ حسدُه وغروره ، وتكبّره من امتثال أمر ربه ، ولعل هذا الإباء ، والاستكبار ، والتعالى والغرور – الذى عنده ، من صفات **النار** التى خُلق منها . وهكذا قد خرج عن أمر ربه ، فاستحق اللعنة ، وكان من الكافرين .

• **قال ابن كثير** : ومعنى قول إبليس هذا – أنه نظر نفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم . فرأى نفسه أشرف من آدم ، فامتنع من السجود له ، مع وجود الأمر له ، ولسائر الملائكة بالسجود . **والمقياس إذا كان مقابلا بالنص كان فاسد الاعتبار ، ثم هو فاسد فى نفسه** . فإن الطين أنفع وخير من النار ، لأن الطين فيه **الرزانة والحلم والأناة والنمو** ، والنار فيها **الطيش ، والخفة ، والسرعة ، والإحراق** . [٢]

إن آدم شرّفه الله بخلقه له بيده ، ونفخه فيه من روحه ، ولهذا أمر الملائكة بالسجود له ، كما قال سبحانه :

---

(١) رواهما ابن جرير الطبرى .

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ص١١

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمِلائِكَةِ : إِنِّى خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . فَسَجَدَ المَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ . إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِين . قال يَا إِبْلِيسُ مَالَكَ أَلَّا تكُونَ مَعَ السَّاجِدِين . قال : لَمْ أَكُنَ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ . قال : فاخْرُجْ مِنْهاَ فَإِنّكَ رَجِيمٌ . وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر : ٢٨ – ٣٥]

استحق هذا الطرد واللعنة – من الله تعالى – لأنه استلزم تنقصه لآدم وإزدراءه به ، وترفعه عليه ، مخالفة الأمر الإلهى ، ومعاندة الحق – سبحانه – فى النص على آدم على التعيين .

وشرع إبليس الاعتذار ، بما لا يجدى عنه شيئا ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه ، كما قال تعالى فى **سورة الإسراء** :

﴿ وَإِذْ قُلْنَاَ لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ ، قَالَ : أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً . قال : أَرَأَيْتَكَ هَذَا الّذِى كَرَّمْتَ عَلَيَّ ، لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ ، لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَتَهُ إِلَّا قَلِيلًا . قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكَمْ جَزَاءً مَوْفُوراً . واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِك ، وشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ والْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً . إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ، وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٦١ – ٦٥]

وقال رب العزة فى **سورة الكهف** :

﴿ وَإِذْ قُلْنَاَ لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ ففَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونه وذُرِّيَّتَهُ أَوْلِياَءَ مِنْ دُونِي ﴾ [الكهف : ٥٠]

أى خرج عن طاعة الله عمداً وَعِنَاداً ، واستكباراً عن امتثال أمره ، وما ذاك إلا لأنه خانه طبعه ، ومادته الخبيثة أحوج ما كان إليها ، فإنه مخلوق من نار – كما قال ، وكما جاء فى صحيح مسلم ، عن عائشة – رضى الله عنها – عن رسول الله – ﷺ – قال :

« خُلِقتَ الملائكة من نور ، وخلق الجان من مارج من نار ، وخلق آدم مما وُصِف لكم » .

* **وقد اختلف المفسرون فى الملائكة المأمورين بالسجود لآدم ..**

– أهم جميع الملائكة كما دلّ عليه عموم الآيات ؟ .. وهو **قول الجمهور** .

– أو المراد بهم ملائكة الأرض – كما رواه ابن جرير ، من طريق الضحاك ، عن ابن عباس ؟

يقول ابن كثير : الأظهر من السياقات الأُولى **أنهم عموم الملائكة** ، ويدل عليه الحديث : « وأسجد لك ملائكته .. »

وهنا سؤال يطرح نفسه : هل كان إبليس من الملائكة ؟

• أجاب **الحسن البصرى** : لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط .

• وقال **شهر بن حوشب** : كان من **الجن** ، فلما أفسدوا فى الأرض بعث الله إليهم جندا من الملائكة ، فقتلوهم وأجلوهم إلى جزائر البحار ، وكان إبليس مما أُسر ، فأخذوا معهم إلى السماء ، فكان هناك ، فلما أُمرت الملائكة بالسجود ، امتنع إبليس منه .

• وقال **ابن مسعود** ، **وابن عباس** : كان إبليس **رئيس الملائكة بالسماء الدنيا** ، وكان اسمه « **عَزَازِيل** » وكنيته « **أبو كردوس** » ، وكان من حىّ من

الملائكة يقال لهم « **الجنّ** » ، وكانوا خزان الجنان ، وكان من أشرفهم ، ومن أكثرهم علما وعبادة ، وكان من أولى الأجنحة الأربعة ، فمسخه الله شيطانا رجيما . (١)

وقول الحق – تبارك وتعالى – لإبليس : ﴿ **فاهْبِطْ مِنْها** ﴾ [الأعراف : ١٣] – أى اهبط من الجنة ، وقوله أيضا : ﴿ آخْرُجْ مِنْها ﴾ [الأعراف : ١٨] دليل على أنه كان فى السماء ، فأمر بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة ، التى كان قد نالها بعبادته ، وتشبهه بالملائكة فى الطاعة والعبادة ، ثم سُلب ذلك بكبره وحسده ، ومخالفته لربه ، فأهبط إلى الأرض مذءوما مدحوراً .

قال تعالى :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهاَ مَذْءُوماً مَدْحُوراً لمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِين ﴾ [الأعراف : ١٨]

*** وأمر الله – جلت حكمته – آدم أن يسكن هو وزوجه الجنة :**

• فقال سبحانه : ﴿ وَقُلْنَاَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهاَ رَغَداً حَيْثُ شِئْتُماَ ، وَلاَتَقْرَباَ هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوناَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥]

• وقال جل وعلا فى **سورة الأعراف** : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُماَ وَلَا تَقْرَباَ هَذِه الشَّجَرَةَ فَتَكُوناَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩]

• وقال عز شأنه فى **سورة طه** : ﴿ وَإِذْ قُلْناَ للمِلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلّا إِبْلِيسَ أَبَى . فَقُلْناَ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُماَ مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى . إِنَّ لَكَ أَلّا تَجُوعَ فِيهاَ وَلَا تَعْرَى . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهاَ وَلَا تَضْحَى ﴾ [الآيات : ١١٦ – ١١٩]

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٣

وهنا يتجلى استفسار هام : متى خُلقت حواء .. وكيف ؟

• إن سياق هذه الآيات يقتضى أن خَلْق حواء كان قبل دخول آدم إلى الجنة ، لقوله تعالى : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُن أَنْتَ وزَوْجُكَ الجَنّة ﴾ ، فمعنى ذلك – أن الله – عظمت قدرته – **خلقها أولا** ، ثم أمرهما معا بدخول الجنة .. وهو ظاهر هذه الآيات ..

* **ولكن حكى السدى – بإسناده – إلى ابن عباس ، وابن مسعود ، وناس من صحابة رسول الله . أنهم قالوا :**

« أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن آدم الجنة ، فكان يمشى فيها وحشى ، ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة ، فاستيقظ وعند رأسه **امرأة** قاعدة ، خلقها الله من ضلعه . فسألها : ما أنت ؟ قالت : إمرأة ، قال : ولم **خُلِقت ؟** قالت : لتسكُنَ إلىّ ، فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه : ما اسمها ياآدم ؟ قال : **حواء** ؟ قالوا : ولم كانت حواء ؛ قال : **لأنها خلقت من شىء حى .**

قال ابن عباس : إنها خُلقت من ضِلْعه الأقصر الأيسر ، وهو نائم ، وَلأَمَ مكانه لحما . ومصداق هذا .. فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهاَ النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَة ، وخَلَقَ مِنْهاَ زَوْجَها ، وَبَثَّ مِنْهمُا رَجاَلاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. ﴾[النساء : ١]

وفى قوله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدةٍ وَجَعَلَ مِنْهاَ زَوْجَها لِيَسْكُنَ إِلَيْهاَ ، فَلَماَ تَغَشّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ﴾
[الأعراف : ١٨٩]

وجاء فى الصحيحين ، عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – أنه قال : « استوصوا بالنساء خيرا ، فإن المرأة خُلِقَتْ من ضِلْعٍ ،

وإنّ أعوجَ شيءٍ فى الضلعِ أعلاه ، فإنْ ذهبتَ تُقيمهُ كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستَوْصُوا بالنساءِ خيراً » [١]

* **وقد تباينت آراء المفسرين فى نوع الشجرة** : التى ذكرها الحق – سبحانه – فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾

فقيل : هى **الكرم** .

• وروى **عن ابن عباس** ، قال : وتزعم يهود أنها الحِنْطَة ، قال **وهب** : والحبة منها ألين من الزبد ، وأحلى من العسل .

• وقال **الثورى** ، عن أبى مالك : هى **النخلة**

• وقال **ابن جريج** عن مجاهد : هى **التينة**

• وقال **أبو العالية** : كان شجرة من أكل منها أَحْدَث ، ولا ينبغى فى الجنة حدَث .

وهذا الخلاف قريب ، وقد شاء ربّ الجنّة – سبحانه – لحكمة يعلمها ، **أن يُبْهِم ذكرها وتعيينها** ، ولو كان فى ذكرها مصلحة تعود على عباده لَعَيَّنها لنا ، كما فى غيرها من المحال التى تبهم فى القرآن .

* **وهنا تبرز قضية هامة .. هل الجنة التى أدخلها آدم – عليه السلام – فى السماء أو فى الأرض ؟ هذا الموضوع كان موضع خلاف كبير ، وجدال واسع بين العلماء .**

* **فيرى الجمهور .. أنها هى التى فى السماء ، وهى جنة المأوى** ، ويستشهدون لذلك بظاهر الآيات والأحاديث ، كقوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يا آدَمُ اسكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥]

---

(١) هذا لفظ البخارى .

قالوا : والألف واللآم – فى الجَنّة – ليست للعموم . ولا لمعهود لفظى ، **وإنما تعود على معهود ذهنى ، وهو المستقر شرعا من جنة المأوى .**

وكقول **موسى** – عليه السلام – لآدم – « عَلامَ أخرجتنا ونفسك من الجنة ؟ » [١]

وروى مسلم – فى صحيحه – عن أبى هريرة – رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « يجمع الله الناس ، فيقوم المؤمنون حين تزلف لهم الجنة ، فيأتون آدم ، فيقولون : **يا أبانا** .. استفتح لنا الجنة ، **فيقول** : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ » وذكر الحديث .

* **وهذا فيه قوة جيدة ، ظاهرة فى الدلالة على أنها جنة المأوى .**

* **وقال آخرون** : بل الجنة التى أسكنها آدم **لم تكن جنة الخلد** ، لأنه كُلّف فيها ألا يأكل من تلك الشجرة ، ولأنه نام فيها ، وأخرج منها ، **ودخل عليه إبليس فيها** ، وهذا مما يُنَافى أن تكون جنة المأوى .

وهذا الرأى محكى عن **أُبيّ بن كعب ، وعبد الله بن عباس** ، واختاره **ابن قتيبة** فى « المعارف » وحكاه عن أبى حنيفة الإمام وأصحابه ، ونقله **أبو عبد الله الرازى** فى تفسيره ، ونقله **القرطبى** عن المعتزلة والقدرية .

قال **القاضى – الماوردى** فى تفسيره : واختُلف فى الجنة أى أسكناها – يعنى آدم وحواء – على قولين : **أحدهما** أنها **جنة الخلد** ، **والثانى : أنها جنة**

---

(١) انظر صحيح البخارى – ذكر احتجاج موسى وآدم عليهما السلام .

أعدها الله لهما ، وجعلها **دار ابتلاء** وليست جنة الخلد التى جعلها **دار جزاء** .
ومن قال بهذا اختلفوا على قولين :

أحدهما : أنها فى **السماء** ، لأنه أهبطهما منها ، وهذا قول حسن .

والثانى : أنها فى **الأرض** ، لأنه امتحنهما فيها بالنهى عن الشجرة التى نُهِيا عنها ، دون غيرها من الثمار ، وكان ذلك بعد أن أمر إبليس بالسجود لآدم .

* **وقد آثار أصحاب القول الثانى قضية تحتاج إلى توضيح وتفسير** :

فقالوا : لاشك أن الله – سبحانه وتعالى – **طرد إبليس** حين امتنع من السجود عن الحضرة الإلهية ، وأمره بالخروج عنها ، والهبوط منها ، وهذا الأمر ليس من الأوامر الشرعية ، بحيث يمكن مخالفته ، وإنما هو أمر قدرى ، لا يخالف ولا يمانع ، ولهذا قال : ﴿ اخْرُجْ مِنْهاَ مذْءُوماً مَّدْحُوراً ﴾ [الأعراف : ١٨] وقال : ﴿ فاهْبِطْ مِنْها فَماَ يكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّر فيها ﴾ [الأعراف : ١٣] وقال ﴿ فَأَخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ [ص : ٧٧]

والضمير عائد إلى **الجنة** أو **السماء** أو **المنزلة** ، وأياً ما كان فمعلوم أنه ليس له الكون قدراً فى المكان الذى طرد منه ، وأبعد منه ، لا على سبيل الاستقرار ، ولا على سبيل المرور والاجتياز .

وقالوا : **ومعلوم من ظاهر سياقات القرآن أنه وسوس لآدم وخاطبه بقوله له** : ﴿ هَلْ أَدُلُّك عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٌ لَا يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠]

وبقوله ﴿ ماَ نَهاَكُماَ رَبُّكُماَ عَنْ هذه الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُوناَ مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُوناَ مِنَ الخَالِدِينَ . وَقَاسَمَهُمَا إِنىِّ لَكُمَا لمِنَ النَّاصِحِينَ ، فَدَلَّاهُماَ بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف : ٢٠ – ٢٢]

وهذا ظاهر فى اجتماعه معهما فى جنتهما .

وقد أجيبوا عن هذا ، بأنه لا يمتنع أن يجتمع بهما فى الجنة على **سبيل المرور فيها** – لا على سبيل الاستقرار بها ، وأنه وسوس لهما وهو **على باب الجنة** ، أو من **تحت السماء** .. وفى الثلاثة نظر .

ومما احتج به أصحاب هذه المقالة – ما روى باسناد إلى **أُبَىّ بن كعب** قال :

« إن آدم لما احتضر اشتهى قطفا من عنب الجنة ، فانطلق بنوه ليطلبوه له ، فلقيتهم **الملائكة** ، فقالوا : أين تريدون يا بنى آدم ، فقالوا : إن أبانا اشتهى قطفا من عنب الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد كفيتموه ، فانتهوا إليه فقبضوا روحه ، وغسلوه ، وحنطوه ، وكفّنوه ، وصلى عليه جبريل ، ومن خلفه الملائكة ، ودفنوه ، وقالوا : **هذه سُنّتكم فى موتاكم** » [1]

• **قالوا** : فلولا أن كان الوصول إلى الجنة التى كان فيها آدم التى اشتهى منها القُطف ممكنا – لما ذهبوا يطلبون ذلك ، فدل على أنها فى الأرض ، لا فى السماء .

• **وقالوا** : والاحتجاج بأن **الألف واللآم** فى قوله : ﴿ وَيَآ آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ ﴾ لم يتقدم عهد يعود عليه ، **فهو المعهود الذهنى** مسلّم ، ولكن هو ما دل عليه سياق الكلام .

فإن آدم خلق من الأرض ، **ولم ينقل أنه رفع إلى السماء** ، وخلق ليكون فى الأرض ، وبهذا أعلم الرب الملائكة حيث قال : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠]

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ١٨

● **وقالوا : إن ذكر الهبوط لا يدل على النزول من السماء ، فقد قال الله** تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ ﴾ [هود : ٤٨]

فالهبوط إنما كان فى السفينة حين استقرت على « **الجودى** » ونضب الماء عن وجه الأرض ، أمر أن يهبط إليها هو ومن معه مباركا عليه وعليهم .

ومثله قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا مِصْراً فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُم ﴾ [البقرة : ٦١]

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ [البقرة : ٧٤]

● وفى الأحاديث واللغة من هذا كثير .

● **وقالوا** : ولا مانع – بل هو الواقع – أن الجنة التى أسكنها آدم كانت مرتفعة عن سائر بقاع الأرض ، ذات أشجار وثمار ، وظلال ونعيم ، ونضرة وسرور ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴾ [طه : ١١٨] – أى لا يذل باطنك بالجوع ، ولا ظاهرك بالعرى .

﴿ وأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ [طه : ١١٩] أى لا يمس باطنك حر الظمأ ، ولا ظاهرك حرّ الشمس ، ولهذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هذا وهذا ، لما بينهما من الملاءمة .

– فلما كان منه ما كان ، من أكله من الشجرة التى نهى عنها ، أهبط إلى أرض الشقاء والتعب ، والنّصَب والكدر ، والسعى والنكد ، والابتلاء والاختيار والامتحان ، واختلاف السكان دينا وأخلاقا وأعمالا ، وقصوداً وإرادات ، وأقوالا وأفعالا ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦]

• ولا يلزم من هذا ، أنهم كانوا فى السماء ، كما قال : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً ﴾ [الإسراء : ١٠٤] . **ومعلوم أنهم كانوا فيها ، ولم يكونوا فى السماء .**

• وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ [البقرة : ٣٦] أى **عن الجنة** ﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ أى من النعيم والنضرة والسرور ، إلى **دار التعب والكد والنكد** ، وذلك بما وسوس لهما ، وزيّنه فى صدورهما ، كما قال تعالى :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَاوُورِىَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا ، وَقَالَ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِه الشَّجَرَةِ إِلّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ، أَوْ تَكُونَا مِنَ الخَالِدِين ﴾ [الأعراف : ٢٠] .

يقول : ما نهاكما عن أكل هذه الشجرة إلّا أن تكونا ملكين ، أو تكونا من الخالدين ، أى لو أكلتما منها لصرتما كذلك .

﴿ وَقَاسَمَهُمَا ﴾ [الأعراف : ٢١] أى حلف لهما على ذلك ﴿ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، قَالَ : يَاآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ [طه : ١٢٠]

أى هل أدلك على الشجرة التى إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت فى مُلْك لا يبيد ، ولا ينقضى ؟ **وهذا من التغرير والتزوير ، والإخبار بخلاف الواقع .**

والمقصود أن قوله ﴿ شَجَرَة الخُلْد ﴾ التى إذا أكلت منها خَلُدْت . وقد تكون هذه الشجرة ، التى قال الإمام أحمد – بإسناد إلى أبى هريرة – رضى الله عنه –

أن رسول الله – ﷺ – قال : « إنّ فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها : **شجرة الخلد** » (١)

• وقول الحق سبحانه : ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا ، وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

كما قال تعالى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [طه : ١٢١]

وكانت **حواء أكلت من الشجرة قبل آدم** ، وهى التى حدته على أكلها ، وعليه يحمل الحديث الذى رواه البخارى – بإسناد إلى أبى هريرة – عن النبى – ﷺ ، نحوه : « لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَزْ (ينتن) اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » .

* **وجاء فى التوراة** .. أن الذى دل حواء على الأكل من الشجرة هى **الحيَّة** ، وكانت من أحسن الأشكال وأعظمها ، فأكلها حواء – عن قولها ، وأطعمت آدم – عليه السلام .

• **وليس فيها ذكر لإبليس** ، فعند ذلك انفتحت أعينهما ، وعلما أنهما عريانان ، فوصلا من ورق التين وعملا مآزر .

• وفى التوراة أيضا – أنهما كانا عريانين ، وكذا قال وهب بن منبه : كان لباسهما نوراً على فَرْجه وفَرْجها .

وهذا الذى فى التوراة – التى بأيديهم – غلط منهم ، وتحريف ، وخطأ فى التعريب فإن نقل الكلام من لغة إلى لغة ، لا يتيسر لكل أحد ، ولا سيما ممن

---

(١) ورواه أبو داوود .

لا يكاد يعرف كلام العرب جيدا ، ولا يحيط علما بفهم كتابه أيضا ، فلهذا وقع فى تعريبهم لها خطأ كثير لفظا ومعنى ..

* إن الذى دلَّ عليه القرآن العظيم – **أنه كان عليهما لباس** ، وهو قوله تعالى : ﴿ يَنْزِعْ عَنْهُماَ لِباَسَهُماَ لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِماَ ﴾ [الأعراف : ٢٧]

● فهذا النص القرآنى لا يرد لغيره من الكلام ، ويدعمه ما ذكره ابن أبى حاتم – بإسناده – إلى أُبىٍّ بن كعب . قال : قال رسول الله – ﷺ – :

« إن الله خلق آدم رجلا طوالا ، كثير شعر الرأس . كأنه نخلة سحوق (طويلة) ، فلما ذاق الشجرة ، سقط عنه لباسه ، فأول ما بدا منه عورته ، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة ، فأخذت شعره شجرة ، فنازعها ، فناداه الرحمن – عز وجل : يا آدم .. منّى تَفِرّ ؟ فلما سمع كلام الرحمن ، قال : يارب .. لا ، ولكن استحياء » .

وفى رواية أخرى . ذكر الحافظ ابن عساكر ، باسناده – إلى أُبىّ بن كعب ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « إن أباكم آدم كان كالنخلة السحوق ، ستون ذراعا ، كثير الشعر ، موارى العورة ، فلما أصاب الخطيئة فى الجنة ، بدت له سوأته ، فخرج من الجنة ، فلقيته شجرة ، فأخذت بناصيته ، فناداه ربه : أفراراً منى يا آدم ؟ قال : بل حياء منك يارب مما جئت به » .

* ﴿ وَناَداَهُماَ رَبُّهُماَ أَلَمْ أَنْهَكُماَ عَنْ تِلْكُماَ الشّجَرةِ وَأَقُل لَكُماَ إِنَّ الشّيْطاَنَ لَكُماَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ؟ قاَلاَ : رَبَّناَ ظَلَمْناَ أَنْفُسَناَ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَناَ وتَرْحَمْناَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين ﴾ [الأعراف : ٢٢ ، ٢٣]

وهذا اعتراف ورجوع إلى الإنابة ، وتذلل وخضوع واستكانة ، وافتقار إليه تعالى فى الساعة الراهنة ، وهذا السر ما سرى فى أحد من ذريته إلا كان عاقبته إلى خير فى دنياه وأخراه .

﴿ قَالَ : اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾ [الأعراف : ٢٤]

وهذا خطاب **لآدم** ، **وحواء** ، **وإبليس** ، قيل : **والحية معهم** ، أمروا أن يهبطوا من الجنة فى حال كونهم متعادين متحاربين .

وقد يستشهد لِذِكْرِ الحيّة معهما – ما ثبت فى الحديث عن رسول الله – ﷺ – **أنه أَمَر بقتل الحيّات** ، وقال : « ما سَالَمْنَاهُنّ منذُ حاربناهن ، مَنْ ترك شيئا منهن خِيفة منه فليس منى » – يعنى الحيات .

• وعن أبى الأحوص الحسنى قال : بينما ابن مسعود يخطب ذات يوم ، فإذا هو بحيّة تمشى على الجدار ، فقطع خطبته ، ثم ضربها بقضيب حتى قتلها ، ثم قال : سمعت رسول الله – ﷺ ، يقول « مَنْ قَتَل حيّة فكأنما قتل مشركا قد حَلّ دمه » .

• وقوله فى سورة طه : ﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الآية : ١٢٣] هو أمر **لآدم وإبليس** ، واستتبع آدم حواء ، وإبليس الحية .

• وقيل : **هو أمر لهم بصيغة التثنية** ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ ، وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِين ﴾ [الأنبياء : ٧٨]

والصحيح – أن هذا لما كان الحاكم لا يحكم إلاّ بين اثنين : مُدعٍ ، ومدعى عليه قال : (وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِين) .

*** ما الحكمة فى تكرير ذكر الإهباط فى سورة البقرة ، مع أن ذكره مرة واحدة كان كافيا لتنفيذ الأمر ؟**

* إن تكرير ذِكْر الإهباط فى قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ . فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ

فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّه هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ . قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهاَ جَمِيعاً ، فَإِماَّ يَأْتِيَنَّكُم مِنىِّ هُدًى فَمَنْ تَبعْ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاَهُمْ يَحْزَنُون ﴾ [البقرة : ٣٦ - ٣٨]

قال بعض المفسرين : المراد بالإهباط **الأول** : الهبوط من الجنة إلى السماء الدنيا ، **وبالثانى** : الهبوط من السماء الدنيا إلى الأرض . **وهذا قول ضعيف** ، فواضح من النص القرآنى : ﴿ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ أنهم أهبطوا إلى الأرض بالإهباط الأول .

* بيد أن أكثر المفسرين على - أنه كرره لفظا وإن كان واحداً ، وناط مع كل مرة حكما ، فناط **بالأول** عداوتهم فيما بينهم ، وناط **بالثانى** : الاشتراط عليهم أن من تبع هداه ، الذى ينزله عليهم بعد ذلك **فهو** السعيد . ومن خالفه فهو الشقى . **وهذا الأسلوب فى الكلام له نظائر فى القرآن الحكيم**

والسؤال الآن : **أين هبط آدم وزوجته ؟ ومتى ؟**

• **روى أبو حاتم** - بإسناده - عن ابن عباس ، **قال** : أهبط آدم - عليه السلام - إلى أرض يقال لها : (دحنا) بين مكة والطائف .

• **وروى عن الحسن** ، قال : أهبط آدم **بالهند** ، وحواء **بجدة** ، وإبليس **بدستميان** من البصرة على أميال ، وأهبطت الحية **بأصبهان** .

• **وقال السدى** : نزل آدم بالهند ، ونزل معه بالحجر الأسود ، وبقبضة من ورق الجنة ، فبثه فى الهند ، فنبتت شجرة الطيب هناك .

• **وقال ابن عمر** : أهبط آدم **بالصفا** ، وحواء **بالمروة** .

• **وقال أبو موسى الأشعرى** : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض ، علّمه صنعة كل شيء ، وزوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغير ، وتلك لا تتغير .

أما عن زمن خروجه :

فقد جاء فى صحيح مسلم – بإسناده – عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول – ﷺ : « خير يوم طلعت فيه الشمس **يوم الجمعة** ، فيه خُلِق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، **وفيه أُخرِجَ منها** » وفى الصحيح من وجه آخر : « وفيه تقوم الساعة » .

قال العلماء : لقد ابتلى الله – سبحانه – آدم نتيجة لخطيئته بعشرة أشياء (١) :

الأولى : معاتبته إياه وزوجه بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأَقُل لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُماَ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢٢]

الثانية : الفضيحة .. فإنه لما أصابا الذنب بدت لهما سوآتهما . تهافت عنهما ما كان عنهما من لباس الجنة . ويروى أن آدم لما بدت سوأته ، وظهرت عورته طاف بأشجار الجنة يسأل منها ورقة يغطى بها عورته ، فزجرتّه أشجار الجنة ، حتى رحمته شجرة التين فأعطته ورقة ، فطفقا – يعنى آدم وحواء – يخصفان عليهما من ورق التين .

الثالثة : أوهن جلده ، وصيره مظلما بعد أن كان جلده كالظفر ، وألقى عليه من ذلك قدراً يسيراً على أنامله ليتذكر بذلك أول حاله .

الرابعة : أخرجه الله من جواره ، ونودى أن لا ينبغى أن يجاورنى من عصانى ، فذلك قوله تعالى : ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ .. ﴾ الآية . ويقال إن الحكمة فى إخراج آدم من الجنة ، أن فى صلبه من

---

(١) العرائس : للثعالبى النيسابورى ص٣٢

لا يستحق الولاية . ولا يصلح لحظيرة القدس . **فإذا أخرجهم الله من صلبه ،** أعاده الله إليها خالداً فيها .

ويقال : إن الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل أن يدخله فيها ، **وذلك** قوله تعالى : ﴿ إنىّ جاعلٌ فى الأَرْضِ خَلِيفَة ﴾ **ولم يقل فى الجنة .**

الخامسة : **الفرقة بينه وبين حواء** .. مائة سنة ، هذا بالهند ، وهى بجدة ، فجاء كل واحد منهما يطلب صاحبه ، حتى قرب أحدهما من صاحبه **فازدلفا** ، فسميت **المزدلفة** ، واجتمعا بجمع ، فسمى **جمعا** ، وتعارفا بعرفة فى **يوم عرفة** ، فسمى الموضع **عرفات** ، **واليوم عرفة** .

السادسة : **العداوة** ، ألقى بينهم العداوة والبغضاء ، كما قال تعالى : ﴿ بَعْضِكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [البقرة : ٣٦]

السابعة : **النداء عليهم باسم العصيان** ، فقال تعالى ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١]

الثامنة : **تسليط العدو على أولاده** ، وهو قوله تعالى : ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُم ﴾ [الإسراء : ٦٤]

التاسعة : **جعل الدنيا سجنا له ولأولاده** ، وابتلاه بهواء الدنيا ، ومقاسات الحر والبرد ، ولم يكن لهما بهما عهد لتعود هواء الجنة ، وهو كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ﴾ [الإنسان : ١٣]

● وقال رسول الله – ﷺ – « الجنة سجسج ، لا حرّ فيها ولا قرّ » .

العاشرة : **التعب والشقاء** وذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه : ١١٧] . **فهو أول خلق عرق جبينه من التعب والشقاء .**

• وقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧] قال مجاهد وسعيد : هى قوله سبحانه : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣]

• **وقال ابن أبى حاتم** – باسناد – عن أُبىّ بن كعب – قال : قال رسول الله ﷺ : « قال آدم – عليه السلام : أرأيت يارب إن تُبْت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ . قال **نعم** ، فذلك قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدمُ من رَبّه كلمات ﴾ الآية .

• **قال مجاهد** : **الكلمات** : « اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ، **رب إنى ظلمت نفسى فتُبْ علىّ إنك أنت التواب الرحيم** »

• وروى الحاكم والبيهقى وابن عساكر – بإسناد – عن عمر بن الخطاب ، قال : قال رسول الله – ﷺ : « لما اقترف آدم الخطيئة ، قال : يارب .. **أسألك بحق محمد إلاّ غفرت لى** . فقال الله : فكيف عرفت محمداً ، ولم أخلقه بعد ؟ فقال : يارب ، لأنك لما خلقتنى بيدك ، ونفخت فىّ من روحك ، رفعت رأسى **فرأيت على قوائم العرش مكتوبا : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله** » فعلمت أنك لم تُضِفْ إلى إسمك إلا أحبّ الخلق إليك . فقال الله : صدقت يا آدم ، إنه لأحب الخلق إلىّ ، وإذ سألتنى بحقه ، فقد غفرت لك ، ولولا محمد ما خلقتك » – وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّه فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢]

تحليل ودراسة :

إن الباحث المتأمل فى كتاب الله الكريم ، فى الآيات التى تحدثت عن آدم – عليه السلام – وقضية الخلافة يجد أنها تكلمت بطريق التصريح ، عن أن الله

– سبحانه وتعالى – يخبر عن امتنانه على آدم وبنيه ، والتنويه بذكرهم فى الملأ الأعلى ، قبل إيجادهم ، وأنه تكلم مع ملائكته بأنه سيجعل فى الأرض خليفة .

• فما المراد بالخلافة ؟

قد يكون المراد بالخليفة **أن يخلف الله فى عمارة هذه الأرض** ، وذلك هو آدم ، ومن قام مقامه فى طاعة الله ، وتبليغه شريعة الله ، وتنفيذ مضمونها بينهم ، والحكم بين الناس بالعدل ، وتبين ما أمر الله به ، وما نهى عنه ، ليثاب المطيع ، ويعاقب العاصى .

فالخليفة – بهذا – هو الذى ينشر العدل بين الناس ، فى ربوع الأرض ، وأما الإفساد فيها ، وإراقة الدماء بغير حق ، فمن غير خلفائه .

وقد يكون المراد **بالخليفة ، خلافة آدم لمن سبقه من المخلوقات التى خلقها الله على سطح الأرض ، ثم هلكت بعد أن خرجت عن طاعة الله ، وعصت أوامره .**

ولفظ « **خليفة** » يوحى بهذا ، لأنه يدل على أنه خَلَف مَنْ سبقه من تلك المخلوقات .

أضف إلى ذلك – أن جزع الملائكة ، وقياسهم أمر الخليفة (**المنتظر**) بمن سبقه ممن سعى فى الأرض فساداً يدل على هذا ، فقد قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيُسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ ، كما أن قول الحق سبحانه : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ابراهيم : ١٩]

وقوله تعالى : ﴿ إن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُم ماَ يَشَاءُ ﴾ [الأنعام : ١٣٣] يعطى المفهوم ذاته ، ويوضح أن السابقين فسقوا عن أمر الله ، فأعلم الله بأنه سيأتى بخليفة جديد ، هو آدم ، وهو قادر على إفناء ذريته إن طغت ، والإتيان بخلفاء لهم .

* **والقول الأول – فى معنى الخلافة – أقوى** . وإن كان الثانى تؤيده الأدلة ، إلا أنها محتملة ، وليست قاطعة ، وآية الاستخلاف نفسها ليس فيها تصريح بهذا .

ثم إن هناك إعتبارات أخرى تقوى أن الاستخلاف معناه خلافة الله فى إقامة العدل بين الناس ، والامتثال لأوامر الله ، والانتهاء عما نهى الله ، فكل نبى من الأنبياء الذين أتوا بعد آدم ، كان خليفة الله فى أرضه ، **وقد وضح ذلك فى قول الحق سبحانه لداوود** – عليه السلام :

﴿ ياَ دَاوُودُ إناَّ جَعَلْناَكَ خَلِيفَةً في الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بالحَقّ ﴾

[سورة ص : ٢٦]

فهو خليفة الله ، فى أرض الله ، ينفذ أحكام الله ، فى عباد الله ، الذين بُعث إليهم من أجل تنفيذ تعاليم الله ، إذ البشر فى طبيعتهم لا يقومون بأمر الله ، إلا إذا كان هناك من يوضح لهم طريق الهدى ، للوصول إلى رب العالمين ، فهم رسل الله ، لهداية عباد الله ، حتى يتحقق المفهوم الذى من أجله كانت الخلافة ، ويتضح معناه .

وهكذا البشرية جمعاء ، جعلها الله بحيث يخلف بعضها بعضا لهذا الهدف .

وهذا هو المعنى ، الذى قرره **ابن كثير** ، حيث قال فى تفسير الآية : ﴿ إنى جَاعِلٌ فى الأَرضِ خَلِيفَة ﴾ أى قوما يخلف بعضهم بعضا ، قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلكُم خَلاَئِفَ الأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] ، وكما قال : ﴿ وَيَجْعَلُكُم خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢]

وقضية الخلافة كما وضحها المفسرون ، تبين أن الله تعالى – لما أخبر الملائكة بإرادته جعل خليفة فى الأرض ، أيقنت الملائكة أنه سيحدث من هذا الخليفة وذريته ما حدث فى الماضى – من **الإفساد ، وسفك الدماء** ، وقد علمت الملائكة ، أنه لا شيء أكره عند الله تعالى ، من هذين الأمرين ، بالإضافة إلى العصيان ، وعدم الامتثال إلى أوامر الله – والبعد عن نواهيه .

فما دام الأمر كذلك – من هذا الخليفة وذريته الخلفاء ، إذاً فهم بوصفهم **جند الله وملائكته** أَوْلَى منهم ، لأنهم يسبحون الله ، ويقدسونه ، ويعبدونه حق عبادته – كما قال الحق سبحانه : ﴿ يُسَبِّحُون اللَّيْلَ والنَّهارَ لَا يَفْتُرُون ﴾

[الأنبياء : ٢٠]

إن الله سبحانه وتعالى – غنى عن مشاورة خلقه ، وإنما أخبر ملائكته بهذا ، **ليسألوا ذلك السؤال ويجابوا بتلك الإجابة** ، ويعرفوا الحكمة من خلق آدم وذريته ، أو ليعلِّمهم **المشورة** ، وأنهم يستشيرون الحكيم والكبير منهم فى أمورهم ، وهو سبحانه غنى عن مشاورة خلقه ، فمشاورته تؤوّل إلى معنى **الإخبار** .

ثم إن سؤال الملائكة ، **ليس على وجه الاعتراض** على الله تعالى ، ولا على وجه الحسد لبنى آدم . كما قد يظن ، **وقد وصفهم رب العزة بأنهم** : ﴿ عِبَادٌ مُكَرَّمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالقَوْلِ وَهُمْ بأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم ولا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضَى ، وَهُم مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾

[الأنبياء : ٢٧ ، ٢٨]

وقال عنهم ، أنهم ﴿ لَا يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون ﴾

[التحريم : ٦]

إذاً - فهو ليس سؤال اعتراض . وإنما هو سؤال استفهام ، واستفسار واستكشاف ، عن الحكمة فى ذلك . **يقولون** : ياربنا ما هى الحكمة التى من أجلها ستخلق آدم وذريته من البشر ، مع أن منهم من سيفسد فى الأرض ، وسيسفك الدماء ؟ فإن كان المراد عبادتك يارب العزة ، فنحن نعبدك ، ونسبح بحمدك ، ونقدس لك ، إننا نبعدك عن السوء ، ونقوم بفروض طاعتك وعبادتك ، ونسبح بحمدك ، ونطهرك من الدنس والشرك ، كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك ، ولا يصدر منا شيء مما يفعله غيرنا من المعاصى ، فلا اقتصرت يا ربنا علينا ؟

فكان جواب الحق سبحانه على استفسارهم .. ﴿ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا النوع من عبادى ، على المفاسد التى ذكرتموها مالا تعلمون .

فأعلم كثيرا مما غاب عنكم حتى المكتوب فى **اللوح المحفوظ** ، فوراء ذلك كثير من علوم الغيب لا يمكن للمخلوقين - حتى الملائكة - أن يحيطوا بها ، وقد استأثرت بعلمها ، ولا يطلع عليها إلّا من اصطفي من عبادى .

لقد أقام رب العزة لهم الحجة فى **صورة دليل واحد** ، به يدركون معه الحكمة فى خلق آدم ، وجعله خليفة فى الأرض ، ويعقبه الخلائف من بعده ، وأنه أحق بها من غيره ، فقد اختار الله - سبحانه - من ذريته **الأنبياء والرسل** ، وأوجد فيهم الصديقين والشهداء ، والصالحين ، والعبّاد ، الزهاد ، والأبرار والأخيار .

• **جاء فى الصحيح** - أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده ، يسألهم - وهو أعلم - **كيف تركتم عبادى ؟** فيقولون : يا ربنا أتيناهم وهم يُصَلّون ، وتركناهم وهم يُصَلّون ، وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ، ويجتمعون فى صلاة الصبح ، وفى صلاة العصر ، فيمكث هؤلاء ، ويصعد هؤلاء بالأعمال .

والسؤال الآن .. من أين علمت الملائكة أن هؤلاء الخلق الجديد سيفسدون فى الأرض ؟

قال الراسخون فى العلم : أنهم علموا ذلك بعلم خاص من الله تعالى ، سواء كان هذا العلم عن طريق إطلاعهم على اللوح المحفوظ ، أو غيره . ولم يبين القرآن مصدر هذا العلم جريا على منهجه فى الاختصار إذا لم يستدع الأمر التفصيل .

• أو بما استلهموه من طبيعة المخلوقين الجدد . **حيث خُلق أبوهم من الطين** . فقد فهمت الملائكة من كونه خلق من أجزاء الأرض – وهى مختلفة التراكيب والعناصر والأجزاء والمعادن ، وهى إذا اجتمعت تفاعلت ، ونتج عنها معرفة عدم اجتماع الطبائع ، فلذا توقّعوا حصول المفاسد والمعاصى ، وسفك الدماء ، والمشاحنات ممن سيخلق من هذه المادة .

• **أو أنهم قاسوهم على من سبق من المخلوقات** ، وقد ورد فى الحديث ، رواية عن **ابن عباس** : أن أول من سكن الأرض **الجن** ، فأفسدوا فيها ، وسفكوا فيها الدماء ، وقتل بعضهم بعضا ، فبعث الله إليهم جنداً من الملائكة ، فقاتلوهم وطردوهم ، حتى ألحقوهم بجزائر البحور ، وأطراف الجبال ، فقالت الملائكة تلك المقالة ، فقاسوا أولاد آدم على سلالات الجن .

* وتحتفل الآيات البيّنات بأمر آخر – ذكر الله فيه **شرف آدم على الملائكة** ، بما اختصه الله به من **علم أسماء كل شيء** ، دُونهم ، وكان ذلك بعد سجودهم له .

وواضح هنا .. أن القرآن العظيم ، يقدم ما حَقّه التقديم لأهميته بالنسبة لما يؤخر عنه ، وهذا إشارة إلى **شرف العلم** ، ومنزلته الرفيعة ، وأنه يرفع صاحبه إلى مقام دونه أى مقام آخر . ثم إن مقام العلم مناسب تمام المناسبة ، لعدم علم

الملائكة الحكمة من خلق **الخليفة** ، فأخبرهم الحق – سبحانه – بأنه يعلم ما لا يعلمون .

وقد علّم الله – تعالى – آدم **أسماء الأشياء كلها** ، أولاده إنساناً إنساناً ، والدواب على اختلافها وأسمائها ، والسماء والأرض ، والسهل والجبل ، والبحر وما فيه ، وكذلك أسماء الملائكة . وغير ذلك من الأمور .

قال العلماء : علمه اسم كل شيء ، وجعل يسمى كل شيء باسمه ، وعرضت عليه أمة أمة ، وهذا هو الرأى الصحيح – كما قال **ابن كثير** . فقد علمه الله أسماء الأشياء كلها ، ذواتها وصفاتها وأفعالها ، كما قال **ابن عباس** – حتى الفسوة والفسية ، يعنى أسماء الذوات والأفعال ، المكبّر منها والمصغّر .

ثم عرض الحق – سبحانه – الخَلْقَ والمسميات على الملائكة ، فقال : أخبرونى عن أسماء هؤلاء – إن كنتم صادقين – أنى لم استخلف إلا المفسدين فى الأرض ، السفاكين للدماء ، وأنتم أولى بعمارتها ، وتقديس الله فيها ، **فإذا عجزتم عن معرفة كنه الموجود المشاهد .. فأنتم أشد عجزاً عن غير الموجود** ، وأجمل لهم – سبحانه – المصالح فى استخلاف آدم وذريته ، بقوله : ﴿ إنىِّ أَعْلَمُ ماَ لَا تَعْلَمُون ﴾ ثم فَصَّل لهم بعضها فى قوله : ﴿ وَعَلَّم آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها ﴾ الآيات . فإنه لما ظهر فضل آدم على الملائكة ، فى علمه ، وسرده أسماء الأشياء ، قال الله للملائكة : ﴿ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنىِّ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، وَأَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُم تَكْتُمُون ﴾ [البقرة : ٣٣] وهذه الآية **استحضار** لقوله : ﴿ إنىِّ أَعْلَم مَا لَا تَعْلَمُون ﴾ فإنه يعلم الظاهر والخفى ، فهذه كالشرح والبيان لتلك .

ولنتأمل هذا **التذييل** : ﴿ وَأَعْلَمُ ماَ تُبْدُون .. وَماَ كُنْتُم تَكْتِمُون ﴾ الذى

يدل على مبلغ علم الله تعالى ، المحيط بالكون المرئى ، وغير المرئى ، وما لا يعلمه إلّا رب العباد .

والملائكة على قربهم من ربهم ، واطلاعهم على اللوح المحفوظ ، فإنهم لا يعلمون إلاّ الأشياء التى علّمها لهم ربهم عز وجل ﴿ عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً . إلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ ﴾ [الجن : ٢٦]

● ثم ذكر الحق – عز شأنه – مكرمة عظيمة لآدم ، امتن بها على ذريته ، بجانب تلك المكرمتين : **ذِكْره فى المَلَأ الأعلى واستخلافه ، وتعليمه الأسماء كلها** ، تلك هى **إسجاد الملائكة** له جميعا . وقد كان ذلك بعد نفخ الروح فيه ، وقبل أن يختصه بالعلم . وقد دخل إبليس فى خطابهم ، لأنه تشبه بهم ، وتوسم بأفعالهم ، فلما أمروا بالسجود لآدم ، سجدت الملائكة – إلا إبليس ، أَبَى واستكبر ، كما كان حدّث نفسه من الكبر والاغترار ، فقال : لا أسجد له وأنا خير منه ، وأكبر سنا ، وأقوى خَلْقا ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين ، والنار أقوى من الطين ..

فلما أَبَى إبليس أن يسجد **أَبْلَسَه الله** ، وآيسه من الخير كله ، وجعله **شيطانا** رجيما ، عقوبة له على معصيته .

ومن المهم أن نعلم .. أن الله تعالى أسجد لآدم كل الملائكة بدون استثناء أحد ، يدل على ذلك قول الحق سبحانه ﴿ فسَجَدَ المَلاَئِكَةُ كُلُّهُم أَجْمَعُون ، إلاَّ إبْلِيس ﴾ ..

ففيها أربعة أوجه مقوية للعموم : لفظ الملائكة ، والتأكيد بمؤكدين كل وجميع ، واستثناء الواحد من الجمع . وقد كان هذا السجود تحية لآدم ، تنفيذا وطاعة لأمر الله تعالى ، فالسجود لله يكون **عبادة** ، والسجود لغيره **كرامة** ،

وقد كان ذلك فيما سبق . فقد سجد **أبو يوسف** وأخوته له . **ولكنه منسوخ عندنا** .

• **قال معاذ** : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم ، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك ، فقال ﷺ : « **لا** ، لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » .

* **وحكمة أخرى عظيمة** ، أرادها رب العزّة من استخلاف آدم وذريته ، فى هذه الأرض ، وهى **عمارة الأرض واستثمار خيراتها** ، **سلطه الله عليها** ، **فأعطاه القدرة على تسخيرها ، وتسخير سائر الكون لمنافعه . بما وهبه الله من العقل ، والحواس ، وسائر الصفات الجسمية والعقلية ، التى تجعله أهلا لذلك** . وفى ذلك يقول رب العزة :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ ، وَرَفَعَ بَعْضَكُم فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَبْلُوَكُم فِيمَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]

﴿ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ ﴾ [النمل : ٦٢]

﴿ إِنَّ اللهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ والأَرضِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ، هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُه ﴾ [فاطر : ٣٨-٣٩]

﴿ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيه ﴾ [الحديد : ٧]

• **وفى الحديث الصحيح** – عن أبى سعيد الخدرى – أن رسول الله – ﷺ – قال : « إن الدنيا حلوه خضرة وأن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون » [1]

---

(١) رواه مسلم .

* **وأن الأرض خاصة ، والكون وما فيه عامة ، مسخّر لبنى آدم ، ومذلل لهم ليتمكّنوا من تحقيق هذا الاستخلاف** . يعبر القرآن عن هذه الحقيقة فى آيات كثيرة ، من مثل قوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ، فامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرضِ ، والفُلْكَ تَجْرِى فِي البَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج : ٦٥]

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لكُم مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠]

ونرى بالإضافة إلى هذه الآيات التى يرد فيها التسخير عامة ، آيات أخرى تشير إلى **إستفادة الإنسان** مما خلقه الله من الأنعام والدواب ، والماء والنبات ، ومن الظاهرات الكونية كالليل والنهار .

* **ثم إن تسخير الأرض والكون لبنى آدم ، واستخلاف الله لهم فى الأرض ، يقتضيان انتفاعهم بما خلق الله فى الكون ، واستثمارهم لما فى الأرض من خيرات وثمرات** . لذلك أطلق القرآن على هذه المنافع لفظ « **الطيبات** » فى آيات كثيرة ، من مثل قوله تعالى :

﴿ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [يونس : ٩٣]

﴿ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ [النحل : ٧٢]

وسمى السعى لتحصيلها **ابتغاء من فضل الله** [العنكبوت : ١٧]

* **وبذلك يكون استثمار ما خلق الله فى الكون ، والانتفاع به أمراً مستحسنا ، بل امتثالا لأمر الله واستفادة من نعمه المعروضة ، ويكون الإعراض عنها إنحرافا** . يقول تعالى :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الّتي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ .. قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا في الحَياةِ الدُّنْياَ خَالِصَةً يَوْمَ القيامة ﴾ [الأعراف : ٣٢]

وعلى هذا – فليس السعى فى الأرض ، وطلب المعاش عقوبة على خطيئة آدم الأولى ، ولا العمل والكد فى سبيل ذلك لعنة إلهية ، لأن آدم – عليه السلام – انتهت خطيئته بالتوبة ، وأمر أن يستأنف فى الأرض حياة جديدة ، ولا علاقة لها بالخطيئة ، التى غفرها الله له .

﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾
[طه : ١٢١ ، ١٢٢]

﴿ فَتَلَقىَّ آدَمُ مِنْ رَبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيم ﴾
[البقرة : ٣٧]

وهذا ما يشير إليه قول الحق – فى هبوط آدم إلى الأرض .

﴿ وَلَكُمْ في الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِين ﴾ [البقرة : ٣٦]

فإن كلمتى (**مستقر**) و (**متاع**) تدلان على وصف حياة بنى آدم الدنيوية ، بشيء من الاستقرار والمتاع ، المحدودين ، ولكن فى حدود زمنية محدودة (إلى حين) .

وبذلك تضع هذه الآية الفاصل الواضح ، بين موقف **المذاهب الروحية** الخالصة ، التى تنكر الحياة **الدنيوية** ، إنكاراً تاما ، وتعرض عنها إعراضاً كاملا ،

كما تضع الفاصل بينه وبين **المذاهب المادية** ، التى ترى فى الحياة الدنيوية الاستقرار الكامل ، والمتاع المطلق ، فليس عندهم حياة أخرى وراءها ، **فهى** عندهم المستقر والمتاع .

ومثل هذه الآية – فى وضع الحياة الدنيوية فى الإطار العام للوجود وتقويها ، قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لكُم الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِها وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥]

• ففيها تذليل الأرض لبنى آدم ليستثمروها ، وفى طلب السعى للعمل ، وإباحة استثمار منافعها ﴿ وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ﴾

• وفيها أخيراً بيان **مسئولية بنى آدم** عن سعيهم هذا ، واستثمارهم فى هذه الحياة ، ومحاسبتهم فى حياة أخرى ﴿ وَإِلَيْهِ النّشُور ﴾

*** ثم إن الانتفاع بما خلق الله فى الأرض والكون ، والسعى فى طلب الرزق ، ليس غاية فى ذاته ، بل هو وسيلة ضرورية تقتضيها طبيعة الإنسان ، أو فطرته التى فطره الله عليها** .

فالإنسان جسم مخلوق من تراب ، لا بد من تغذيته ، وهو من هذه الناحية حيوان ذو غرائز ، محتاج إلى الطعام والشراب ، بل إلى ما لا يحتاج إليه الحيوان من لباس ومسكن ، وقادر على الاستفادة من أنواع المنافع ، والتمتع بضروب المتع ، أعلى وأوسع ، وأكثر تنويعا مما عليه الحيوان .

فتحصيل ذلك كله بالنسبة إلى خلق الله ، هو من قبيل الضروريات التى لا بد منها ، أو الاحتياجات المطلوبة ، أو الكماليات المرغوبة ، والمهم أن يرى الإنسان فى هذا النشاط سعيا وكسباً ، أو انتفاعا واستثماراً وسيلة لا غاية ، فالغاية وراء ذلك هو إرضاء الله **بعمل الخير ، وبشكره على نعمه ، ومراعاة حقوقه وحقوق عباده ، والسعى فى نفعهم ومعونتهم ، حتى تتحقق حكمة الاستخلاف** .

﴿ وابْتَغِ فِيماَ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْياَ ، وَأَحْسِنْ كمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [القصص : ٧٧]

* أضف إلى ذلك .. أن استخلاف الله لبنى آدم فى الأرض **عام فى بنى البشر** ، لا يختص بفريق دون آخر ، فالناس كلهم عباد الله ، وتسخير الأرض ، وسائر الكون لهم جميعا كذلك ، دون تخصيص ، ولكن كل فرد يقوم بأمانة الاستخلاف ، ويستفيد من تسخير الكون لمنافعه ، بقدر استطاعته ، وحسب قدرته ، ويحسن أداء هذه الأمانة ، فيقوم بحقوقها كاملة .

* وأخيرا .. فعليه أن يتحمل **نتيجة عمله ونشاطه** ، وهو المسئول عنه **مسئولية دنيوية** بالنسبة لغيره من الناس ، **ومسئولية أخروية أمام الله** ، **فيستشعر** فى ضميره رقابة الله له ، ويخشى عقوبته وحسابه .

بقى أن نقول .. إن استخلاف رب العزّة لآدم – عليه السلام – فى الأرض ، يدل على معنى سامٍ من الحكمة الإلهية ، عزّ فهمها على الملائكة ، فلو استخلفت الملائكة لما عُرِف سر هذا الكون الهائل ، إذ هم ليسوا بحاجة إليه ، لأن طبيعتهم النورانية ، تخالف طبيعة الإنسان ووصفه ، فالإنسان بحكم حاجته ، وخلقته المادية ، يعرف خواص الأشياء ، والمركبات الكيمائية وفوائدها ، وكيف يستفيد منها فى حياته العلمية والعملية ، وكذلك يسخرها للاستفادة منها فى طبيعته النفسية ، وفى كل ما يمكن أن يلائم حياته ، على اختلاف الأزمنة والأمكنة .

فالإنسان من أعجب خلق الله ، حيث أعطاه الله من العلوم والمعارف ، ما يمكن أن يسخّر بها سائر المخلوقات ، ويطوعها لمتطلباته النفسية والجسدية ، بما يكفل له سعادة الدنيا ، ويعينه على أداء حق الله ، وحق عباده ، الأمر الذى يوصله إلى سعادة الآخرة كذلك .

وقد ضرب الله لنا المثل بتعريف آدم الأسماء كلها ، فبذلك فُضّل على الملائكة ، فالعلم مرتبة عليا ، وغاية سامية ..

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ [الإسراء : ٧٠]

وعدل الله تعالى ورحمته ، وعفوه وقدرته ، وحكمته وإرادته ، مظاهر تتجلّى كلها فى الإنسان ، فلولا الإنسان الذى تتحقق فيه هذه المظاهر ، ما تحقق عدل الله ورحمته ، وعلمه وقدرته ، وطاعته وعصيانه ، وإحسانه وعقابه .. إلى آخر تلك المظاهر الإلهية ، التى يظهر أثرها على الإنسان خليفة الله فى أرضه ، للحكم بين الناس بالعدل .

وإذا كان رب القدرة ، قد كرم آدم وذريته ، بإسجاد الملائكة له ، وتعليمه الأسماء كلها ، فماذاك إلا ليكون على مستوى المسئولية والجزاء ، فهذه النعم العظيمة ، التى فُضّل بها الإنسان ، هو مسئول عنها ، والله يجازيه عليها . إن أحسن فله جزاء الحسنى ، وإن أساء فعليه وبالها . يقول جل ذكره :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً . لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ، وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢-٧٣] .

* * *

الفصل الثالث

قَابِيلَ ... أَيْنَ أَخُوكَ ؟

قصة أول جريمة قتل فى الوجود كما قصّها القرآن

تحكى قصة **قابيل وهابيل** – كما ذكرها القرآن – قصة أول قتيل فى الوجود .. أول جريمة حدثت على الأرض . إنها تمثل قصة الصراع الأبدى بين الإنسان وأخيه الإنسان ، **قصة البغى والحسد والحقد** ، وما يفعله الحقد الكامن ، والداء الباطن فى القضاء على أقوى الروابط وأوثقها ..**رابطة الأخوة** .

إنها قصة ظلم الإنسان لأخيه الإنسان ، ساقها الحق سبحانه ، لتبين طبائع النفوس البشرية ، التى تسعى على الأرض ، وكيف تتصرف .. ومن أجل ذلك شرع قوانين القصاص ، وحدّ الحدود ، حتى يسود الأمن والأمان على الأرض .

إن قصة قابيل وهابيل تُثبت أن الغيرة والحسد يؤديان إلى الاعتداء الظالم ، وأن ذلك يحدث أحيانا حتى بين الأشقاء ، أو بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وأنه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس إلا **بقانون السماء** .

نعم .. إن الحسد مرض دفين ، وهو مرض خطير ، ولا يمكن الشفاء منه إلا بحدّ الحدود ، حتى يرتدع ضعاف النفوس .

وقد وردت هذه القصة فى القرآن الكريم – فى سورة المائدة [1] ، فى مجالات ثلاث :

---

(١) الآيات من ٢٧ إلى ٣٤

أولها : مجال تثبيت قلب النبى - ﷺ - بذكر أحداث الماضى .

وثانيها : بمناسبة تمرد بنى إسرائيل وعصيانهم لأمر الله فى قتال الجبارين .

وثالثها : فى أسباب تشريع الحدود ، والقصاص من القتلة والبغاة والطغاة الذين يعيثون فى الأرض فساداً .

وكان سبب نزولها - ما رواه البخارى ومسلم ، عن أنس - رضى الله عنه - أن رهطا من عُكل وعرينة قدموا على النبى - ﷺ ، وتكلموا بالإسلام ، فاستوخموا المدينة (أى وجدوها رديئة المناخ) فأَمَر لهم النبى - ﷺ - بزود من الإبل (من ثلاثة إلى تسعة) وراعٍ ، وأمرهم أن يخرجوا إلى الصحراء ، فيشربوا من ألبانها وأبوالها ، فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرّة ، كفروا بعد إسلام ، وقتلوا الراعى - وفى رواية - مثَّلوا به ، واستاقوا الزود من الإبل ، فبلغ ذلك الرسول - ﷺ - فبعث فى طلبهم ، فجيىء بهم ، فأمر بهم ، فقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسُمِلت أعينهم (كحّلوها بمسامير الحديد المحمّاة) ، وأُلقوا فى الحرّة حتى ماتوا ، فنزلت : ﴿ إنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُون اللهَ ورَسُولَه ... ﴾ الآية (١) . [المائدة : ٣٣]

وقد بدأ القرآن فى ذكر قصة هابيل وقابيل ، بالحديث مع الرسول : لا تيأس يا محمد ، ولا تتعجب من فعل اليهود ﴿ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُم أَيْدِيَهُمْ فكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُم ﴾ [المائدة : ١١]

فهم قوم يحسدون الناس على ما آتاهم ربهم من فضله ، على أن هذا طبع متأصل فى أبناء آدم :

---

(١) تفسير القرطبى ج٦/١٤٨

• ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بالحَقِّ إذْ قَرَّبَا قُرْبانًا ، فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ : لأَقْتُلَنَّكَ ، قَالَ : إنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المُتَّقِين . لَئِنْ بَسَطْتَ إلَى يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِىَ إلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِين . إنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّار ، وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِين . فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُه قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فأصبح مِنَ الخَاسِرِين ﴾

[سورة المائدة : ٢٧ - ٣٠]

هذه هى القصة التى ذكرها القرآن ، مبيّنا وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم ، فى خبر ابنى آدم لصُلْبه ، وهما **قابيل وهابيل** ، كيف عَدَا أولهما على الآخر ، فقتله بغيا عليه وحَسَداً له ، فيما وهبه الله من النعمة ، وتقبّل القربان ، الذى أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام ، والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة فى الدارين الأولى والآخرة .

فقال الحق سبحانه ﴿ وأتْلُ عَلَيْهِمِ نَبَأَ ابْنَىْ آدَمَ بالحَقّ ﴾ أى اقصص على هؤلاء البغاة الحسدة الطغاة ، إخوان الخنازير والقرود ، من اليهود وأمثالهم وأشباههم ، خبر ابنى آدم قابيل وهابيل . وقوله (بالحَقِّ) أى على الجلية ، والأمر الذى لا لَبْس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله تعالى : ﴿ إنَّ هَذَا لَهُوَ القَصَصُ الحق ﴾ [آل عمران : ٦٢] ، وقوله عز شأنه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَق ﴾ [الكهف : ١٣] ، وقوله جل جلاله : ﴿ ذَلِكَ عِيسَىَ ابن مَرْيَمَ قَوْلَ الحَقّ ﴾ [مريم : ٣٤]

والمعنى : لا تيأس يا محمد ، ولا تعجب من فعل اليهود ، واتل على قومك ، وعلى كل من تبلغه دعوتك .. أتل عليهم نبأً هاماً ، متلبّسا بالحق والصدق ، لا مبالغة فيه ولا كذب ، كما يفعل اليهود فى أخبارهم وكتبهم من التحريف والتبديل ، وهو نبأ ابنى آدم ، وما فعله الأخ بأخيه .

ما حقيقة الصراع بين الأخوين .. ولماذا أدى إلى القتل ؟

ذكر العلماء الأوائل من السلف والخلف ، أسبابا عديدة للحسد والبغى الذى انتهى بقتل الأخ لأخيه ، قالوا : إن الله شرع لآدم – عليه السلام – أن يزوّج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يُولد له فى كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأَبَى آدم ذلك – إلّا أن يُقرّبا قُرْبانا ، فمن تُقُبل منه فهى له ، **فتُقُبِّل من هابيل ، ولم يتقبل من قابيل** ، فكان من أمرهما ما قصّه الله فى كتابه .

• **وعن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب رسول الله** – ﷺ –أنه كان لا يولد لآدم مولود إلّا وُلد ومعه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقابيل ، وكان قابيل صاحب زَرْع ، وكان هابيل صاحب ضَرْع (أى رعى) وكان قابيل أكبرهما ، وكانت له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل فأبىَ عليه ، وقال : هى أختى وُلدت معى ، وهى أحسن من أختك ، وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجها هابيل فأبىَ ، وأنهما قرّبا قُرْبَانا إلى الله عز وجل ، أيُّهما أحقّ بالجارية .. وكان آدم – عليه السلام – قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها ، قال الله – عز وجل – هل تعلم أن لى بيتا فى الأرض ، قال : اللهم لا ، قال : إن لى بيتا فى مكة فأتِهِ ، فقال آدم للسماء : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبَت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل ، فقال : نعم ، تذهب وترجع ، وتجد أهلك كما يَسرُّك . فلما انطلق آدم قرّبا قُرْبانا ، وكان قابيل يفخر عليه ، فقال : أنا أحق بها منك ، هى أختى ، وأنا أكبر منك ، وأنا وصى والدى .

فلما قرّبا ، قرّب هابيل جذعة سمينة ، وقرّب هابيل حزمة سُنبل ، فوجد فيها سُنبلة عظيمة ففركلها وأكلها ، فنزلت النار فأكلت قربان هابيل ، وتركت قربان قابيل ، فغضب .. وقال : لأقتُلَنَّك حتى لا تنكح أختى ، فقال هابيل : « إنما يتقبّل اللّٰه من المتّقين » .

* وفى رواية عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها ، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يُولد فى كل بطن رجل وامرأة ، فبيناهم كذلك وُلد له امرأة وضيئة ، وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحنى أختك ، وأنكحك أختى ، فقال : لا .. أنا أحق بأختى ، فقرّبا قربانا ، فتقبّل من صاحب الكبش ، ولم يتقبل من صاحب الزرع [١] .

وقوله (إذْ قَرَّبا قُرْبَاناً) فقربا قربانهما ، فجاء صاحب الغنم بكبش أُعْيَن أقْرَن أبْيَض ، وصاحب الحرث بصَبْرةٍ من طعامه ، فتقبل الله الكبش ، فخُزن فى الجنة أربعين خريفا ، وهو الكبش الذى ذبحه إبراهيم عليه السلام فداء لإسماعيل .

* وذكر محمد بن على بن الحسين أثراً آخر قال :

قال آدم – عليه السلام – لهابيل وقابيل : إنّ رَبىِّ عهد إلىّ أنه كائن من ذُرّيتى من يُقَرّب القُرْبان ، فقرّبا قُرْبَاناً حتى تقرّ عينى إذا تُقُبّل قربانكما ، فقرّبا ، وكان هابيل صاحب غنم فقرّب أُكُولة غنم خير ماله ، وكان قابيل صاحب زرع ، فقرب مشاقة من زرعه ، فانطلق آدم معهما ، ومعهما قربانهما ، فصعدا الجبل ، فوضعا قربانهما ، ثم جلسوا ثلاثتهم ، آدم وهما ينظران إلى القربان ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٢/٢

فبعث الله ناراً ، حتى إذا كانت فوقهما ، دنا منها عُنُق فاحتمل قربان هابيل ، وترك قربان قابيل ، فانصرفوا . **وعَلِم آدم أن قابيل مسخوط عليه** ، فقال : ويلك يا قابيل ، رُدّ عليك قربانك ، فقال قابيل (لأبيه) : أحببتَه فصليّت على قربانه ، ودعوتَ له فتُقُبّل قربانه ، ورُدّ عليّ قرباني ، فقال قابيل لهابيل : لأَقتُلنَّك وأستريح منك ، دَعَا لك أبوك ، فصلّى على قُربانك فتُقبّل منك ، وكان يتواعده بالقتل .

وفى رواية لابن جرير الطبرى : فجاءت النار فنزلت بينهما ، فأكلت الشاة ، وتركت الزرع ، وأن ابن آدم قال لأخيه : أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبّل منك ، ورُدّ على - فلا والله لا ينظر الناسُ إلىّ ، وأنت خير منّى ، فقال لأقتلنك ، فقال له أخوه : ما ذنبى .. إنما يتقبل الله من المتقين .

فهذا الأثر يقتضى أن تقريب القربان كان لا عن سبب ، ولا عن تدارىء فى امرأة - كما تقدم - وهو ظاهر قوله تعالى :

﴿ إذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَر ، قال : لأَقْتُلَنَّكَ قال : إنَّما يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المُتَّقِين ﴾ [المائدة : ٢٧]

فالسياق يقتضى إنه إنما غضب عليه وحَسَده بقبول قربانه دونه .

ثم المشهور عند الجمهور - أن الذى قَرّب الشاة هو هابيل ، وأن الذى قرب الطعام هو قابيل ، وأنه تُقُبل من هابيل شاته ، **حتى قال ابن عباس وغيره : إنها الكبش الذى فدى به الذبيح اسماعيل - عليه السلام - وهو مناسب . والله أعلم .**

(قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ) أى قال قابيل لأخيه هابيل لأقتلنّك ، قال : لِمَ ؟ .. قال : لأنه تُقُبل قربانك ولم يُتَقبل قربانى ، قال : وما ذنبى فى أن الله لم يتقبل منك ، فأصلح نفسك ، وقدّم مخلصا لوجه الله ﴿ إنَّماَ يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المُتَّقِين ﴾ أى إنما يُتَقبل ممن اتقى ربه ، وأخلص نيته .

قال البيضاوى [١] : « توعّده بالقتل لفرط الحسد له على تقبل قربانه ، فأجابه بأنك أُتيت من قبل نفسك بترك التقوى – لا من قِبَلِى ، وفيه إشارة إلى أن الطاعة لا تُقبل إلّا من مؤمن متّق لله » .

• **قال ابن مالك المقرى : سمعت أبا الدرداء : يقول :**

لأن استيقن أن الله قد تقبّل لى صلاة واحدة ، أحب إلىّ من الدنيا وما فيها ، إن الله يقول : ﴿ إِنَّما يَتَقَبَّلُ الله مِنَ المُتَّقِين ﴾ .

• **وقال معاذ بن جبل – رضى الله عنه** : يُحبَسُ الناسُ (يوم القيامة) فى بقيع واحد ، فينادى مناد : **أين المُتَّقُون** ؟ فيقومون فى كنَفَ من الرحمن ، لا يحتجب الله منهم ، ولا يستتر ، قيل : **مَنْ المُتَّقون ؟ قال** : **قوم اتقوا الشرك ، وعبادة الأوثان ، وأخلصوا العبادة ، فيمرون إلى الجنة** [٢]

• وقوله : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَاَ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ الله رَبَّ العَالَمِين ﴾ [المائدة : ٢٨]

قال له أخوه الرجل الصالح (هابيل) الذى تقبّل الله قُربانه لتقواه ، حين تواعده أخوه (قابيل) بالقتل ، على غير ما ذنب منه إليه ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى .. مَا أَنَاَ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إليك لأقتلك ﴾ أى لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله ، فأكون أنا وأنت سواء فى الخطيئة ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ اللهَ رَبَّ العَالَمِين ﴾ أى من أن أصنع كما تريد أن تصنع ، بَلْ أَصْبِر وأَحتسب .

---

(١) تفسير البيضاوى ص١٤٩

(٢) رواه ابن أبى حاتم ، وذكره ابن كثير فى تفسيره .

• **قال عبد الله بن عمرو** – رضى الله عنه – وَأَيْمَ الله إنه – أى هابيل – كان لأشد الرجلين ، ولكن منعه التَّحرج والورع ، **ولهذا ثبت فى الصحيحين – عن النبى المصطفى** – ﷺ – أنه قال : « إِذَا تَوَاجَه المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِماَ ، فالقاتلَ والمقتول فى النار ، قالوا يا رسول الله : هذا القاتل فما بالُ المقتول ؟ . قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » .

• **وذكر الإمام أحمد – أن سعد بن أبى وقّاص قال – عند فتنة عثمان ابن عفان :**

« أشهد أن رسول الله – ﷺ – قال : إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الساعى ، قال : أفرأيت إن دخلَ علىّ بيتى ، فبسط يده إلىّ ليقتلنى ؟ فقال : كُنْ كابن آدم .

وفى رواية أخرى : قال : فقلت يا رسول الله : أرأيت إن دخل بيتى وبَسَط يده ليقتلنى ؟ قال : فقال رسول الله – ﷺ – كُنْ كابنِ آدم ، وتلا قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي .. ما أَناَ بِباَسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنىِّ أَخَافُ الله رَبَّ العَالَمِين ﴾

• وقد ذكر المفسرون : إن أول مَنْ أخذ بهذه الآية من هذه الأمة – لعثمان ابن عفان – رضى الله عنه .

وتقرير المعنى : يا أخى لئن مددت إلىّ يدك بالسوء أن تقتلنى ظُلماً وعُدْواناً ، ما أنا بباَسِطٍ يدى إليك لأقتلك أبداً ، لأننى أخاف الله رب العالمين ، الذى تعهدنا بالعناية والرعاية ،وخلقنا على أتم خلق وأكمله ، فمن يتعدى على هذا الخَلْق السوى ، فقد استحق العذاب الشديد .

يا أخى : إننى لا أريد مقابلة الجريمة بالجريمة أصلا ، فإنك إن فعلتها تبوء بإثم قتلى ، وإثمك الخاص بك .

• **قال السُّدى وغيره** : « إنى أريد أن تبوء بخطيئتى ، فتتحمل وزرها وإثمك فى قتلك إياى » .

• **وقال مجاهد** : « إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك ، يقول إنى أريد أن يكون عليك خطيئتى ودمى فتبوء بهما جميعا »

• **وهذا القول قد أثار قضية هامة .. فقد توهم كثير من الناس هذا القول ، وذكروا فى ذلك حديثا لا أصل له وهو** : « ماَ تَرَكَ القاتِلُ علَى المقتولِ من ذَنْب »

• **وروى الحافظ أبو بكر البزار حديثا يشبهه** يتصل إسناده إلى أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها – قالت : قال رسول الله – ﷺ – « قَتْلُ الصَّبْرِ لَا يَمُرّ بِذَنْبٍ إلّا مَحَاهُ »

* **وهذا بهذا لا يصحّ – ولو صحّ – فمعناه** : إن الله يكفّر عن المقتول بألم القتل ذنوبه ، فأما أن تُحمل على القاتل – فلا .. **ولكن قد يتفق هذا فى بعض الأشخاص ، وهو الغالب** .

فإن المقتول يطالب القاتل فى العَرَصات (يوم القيامة) فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته ، فإن نفدت ولم يستوف حقّه أخذ من سيئات المقتول فطرحت على القاتل ، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلّا وُضِعت على القاتل .

وقد صحَّ الحديث بذلك عن رسول الله – ﷺ – فى المظالم كلها ، والقتل من أعظمها وأشدها لذلك فسّر ابن جرير هذه الآية – قال : « والصواب من القول فى ذلك ، أن يقال : إن تأويله : « إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك فى قتلك إياى » وذلك هو معنى قوله ﴿ إِنِّى أُرِيدَ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِى ﴾ .

– وأما معنى (وَإِثْمِكَ) فهو إثمه يعنى قتله ، وذلك معصية لله عز وجل فى إعمال سواه .

قال ابن جرير : وإنما قلنا ذلك هو الصواب ، لإجماع أهل التأويل (التفسير) عليه ، وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فَجَزَاءُ عمله له أو عليه ، **وإذا كان هذا حكمه فى خلقه ، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل ، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرّم ، وسائر آثام معاصيه التى ارتكبها بنفسه ، دون ما ركبه قَتِيلُه .**

*** وهنا سؤال يطرح نفسه .. كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثْم قتلِهِ .. وإثْم نفسِهِ مع أن قتله له محرّم ؟**

نقول : إن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قَاتَلَه ، بل يكفّ عنه يده طالباً إن وقع قتل أن يكون من أخيه – لا منه . وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ ، وزجراً له لو انزجر .

ولهذا قال : ﴿ إنِّى أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإثْمِى وإثْمِكَ ﴾ أى تتحمل إثمى وإثمك ﴿ فتكُونَ من أَصْحَابِ النَّارِ ، وذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمين ﴾ [المائدة : ٢٩]

*** إن هابيل نفّره من القتل بثلاث : الخوف من الله ، أن يبوء بإثمه وإثم نفسه ، كونه من أصحاب النار ومن الظالمين .**

قال ابن عباس : خوّفه بالنار فلم ينته ، ولم ينزجر ﴿ فطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِين ﴾ [المائدة : ٣٠] – **أى فحسّنت وسوّلت له** نفسه ، وشجعته على قتل أخيه فقتله ، أى بعد هذه الموعظة ، وهذا الزجر ، فهدم ما بناه الله وأتقنه ، فأصبح من الخاسرين ، وأى خسارة أكبر من هذه الخسارة فى الدنيا والآخرة .

• **عن ابن مسعود – رضى الله عنه قال** : قال رسول الله ﷺ :

« لا تُقْتَل نفسٌ ظُلْماً إلَّا كانَ على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أوّل من سَنَّ القتل » (١)

• **وقال مجاهد** : « عُلِّقت إحدى رجلى القاتل بساقها إلى فخذها من يومئذ ، ووجهه فى الشمس حيثما دارت دار عليه فى الصيف حظيرة من نار ، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج » .

• **وقال عبد الله بن عمر** : « وإنا لنجد ابن آدم القاتل يُقاسم أهل النار قسمة صحيحة ، العذاب عليه شطر عذابهم » .

وقال أيضا : إنه كان يقول : إن أشقى الناس رجلاً لابن آدم ، الذى قتل أخاه ، ما سُفك دم فى الأرض منذ قَتَل قابيل أخاه إلى يوم القيامة إلَّا لحق به منه شر ، وذلك أنه أوّل من سَنَّ القتل » .

*** كيف قتل قابيل أخاه ؟**

تباينت أقوال العلماء حول الوسيلة التى قتل بها قابيلُ أخاه ..

• **فقال محمد بن على بن الحسن** : أنه قتله بحديدة فى يده .

• **وقال السُّدّى عن ابن عباس ، وعن ناس من أصحاب رسول الله** :

« فطوّعت له نفسه قتل أخيه ، فطلبه ليقتله ، فراغ الغلام (هابيل) منه فى رءوس الجبال ، فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنماً له ، وهو نائم ، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه ، فمات ، فتركه بالعراء .

• **وقال بعض أهل الكتاب** : أنه قتله خنقا وعضّا كما تقتل السباع .

---

(١) رواه الإمام أحمد .

• **وقال ابن جرير - بإسناده** - لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه ، فأخذ إبليس دابة ووضع رأسها على حجر ، ثم أخذ حجراً آخر ، فضرب به رأسها حتى قتلها ، وابن آدم ينظر ، ففعل بأخيه مثل ذلك (١) .

• **وروى زيد بن أسلم - عن أبيه ، قال** : أخذ برأسه ليقتله فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدرى كيف يقتله ، فجاء إبليس فقال : أتريد أن تقتله ؟ قال : نعم ، قال : فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه ، قال : فأخذها فألقاها عليه ، فشدخ رأسه ، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعاً ، فقال : يا حواء !! إن قابيل قتل هابيل ، فقالت : ويحك .. وأى شيء يكون القتل ؟ قال : لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا يتحرك ، قالت : ذلك الموت ؟ قال : فهو الموت .. فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهى تصيح ، فقال : مالك ؟ فلم تكلمه ، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه ، فقال : **عليك الصيحة وعلى بناتك** ، وأنا وبنى منها براء (٢)

*** ماذا حدث بعد القتل ؟**

ذكر المفسرون حول هذا الأمر أقوالا كثيرة :

• **قال ابن كثير** : لما قتل قابيل أخاه ، تركه فى العراء ، لا يعلم كيف يفعل ، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا ، فقتل أحدهما صاحبه ، فحفر له ثم حثى عليه . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ : يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ [المائدة : ٣١]

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وذكره ابن جرير فى تفسيره .

(٢) رواه ابن أبى حاتم وذكره ابن كثير فى تفسيره سورة المائدة ٤٥/٢

• **وروى عن ابن عباس ، أنه قال** : مكث يحمل أخاه فى جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين فرآهما يبحثان ، فقال : ﴿ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مثل هَذَا الغُرَاب ﴾ فدفن أخاه .

• **وروى مجاهد** : أنه كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتا ، لا يدرى ما يصنع به ، يحمله ويضعه على الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب .

• **وفى رواية** : لما قتله ندم ، فضّمه إليه حتى أَرْوَح ، وعكفت عليه الطيور والسِّباع تنتظر متى يرمى به فتأكله ، حتى رأى الغراب يدفن الغراب .

• **وذكر أهل التوراة** : أن قابيل لما قتل أخاه هابيل ، قال له الله عز وجل – **يا قابيل .. أين أخوك ؟**

قال : ما أدرى ، ماكُنت عليه رقيبا ، **فقال الله : إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض الآن ! أنت ملعون من الأرض التى فتحت فاها فتلقَّت دم أخيك من يدك** ، فإن أنت عملت فى الأرض ، فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فزعا تائها فى الأرض ﴿ فأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِين ﴾ أى علاه الله بندامة بعد خُسْران . **من أجل ذلك نزل قانون السماء فى القصاص** :

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ [المائدة : ٣٢]

أى بسبب هذا الجرم الشنيع ، والفعلة النكراء ، التى فعلها ابن آدم ، كتبنا على بنى اسرائيل هذا ، وإنما خصَّهم القرآن بالذكر ، وإن كان القتل محرما قبلهم فى الأمم السابقة ، **لأن التوراة أول كتاب حُرّم فيه القتل** ، بسبب طغيانهم وسفكهم دماء الأبرياء ، وقتلهم الأنبياء بدون حق بسبب الحسد والحقد الكامن فى نفوسهم .

كتب الله – سبحانه وتعالى – على بنى إسرائيل ومن بعدهم ، أنه من قتل نفسا بغير نفس ، أى بدون قصاص ، أو بدون فساد فى الأرض ، يزلزل الأمن والطمأنينة ، ويهلك الحرث والنسل ، من يفعل شيئا من ذلك فكأنما قتل الناس جميعا ، واعتدى على المجتمع البشرى كله .

* إن الباحث المدقّق فى قصة ابنى آدم ، **يجدها من أبرز صور التصريف البيانى بالقصص القرآنى ، ذلك أن القرآن العظيم ، علاوة على روايتها ، قد بيّن بعض الأحكام الشرعية ، التى تتصل بقتل النفس وبالقصاص وبالسعى فى الأرض فساداً ، وفى الخروج على المجتمع الإنسانى .**

فجاء هذا البيان إثباتا للأحكام الشرعية ، وتدعيما لها ، وفى ذلك إثبات أيضا – أن هذه الأحكام متفق عليها فى كل الشرائع السماوية ، وتبين أنها غير قابلة للنسخ ، بل هى مؤكدة ثابتة .

ولقد أراد الحق – سبحانه – فى هذه القصة ، **إعلام البشر أن حكمة مشروعية هذه الأحكام قائمة والغاية منها ثابتة .**

إن هذه القصة تثبت أن الغيرة قاتلة ، والحسد مرض ، وكلاهما يؤدى إلى التهور والاعتداء ، وارتكاب الكبائر ، وأن ذلك القتل قد يحدث بين أقرب الناس بعضهم لبعض ، وهم الإخوة ، وأنه لا علاج للحسد بإخراجه من النفوس ، **فهو** فيها دفين كامن . نعم .. إنه مرض ، ولكنه مرض لا يمكن أن يكون منه شفاء ، والناس ليسوا سواء ، فمنهم شقى وسعيد ..

وإذا كان الأمر كذلك – **فلا علاج إلا بِبَتْر من استكن فى قلبه – هذا المرض – إن تعدى استجابة له** – والاعتبار فى النُّظْم – لصلاح الجماعة ،

لاصلاح الآحاد فقط . **ولذلك قال الحكيم الخبير سبحانه – عقب ذكر قصة قابيل وهابيل :**

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بنى إسْرَائِيلَ : أَنَّهُ من قَتَلَ نَفْساً بغَيْرِ نَفْسٍ ، أَوْ فَسَادٍ في الأَرْضِ ، فكَأَنَّماَ قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً ، ومَنْ أَحْياهَا فكَأَنَّما أَحْيا النَّاسَ جَمِيعاً ، ولَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بالبَيِّناَتِ ، ثُمَّ إنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ في الأَرْضِ لَمُسْرِفُون ﴾ [المائدة : ٣٢]

أى من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلما وعدوانا ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيل ﴾ أى شرعنا لهم وأعلمناهم ، أنه من قتل نفسا بغير نفس ، أو فسادٍ فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ، أى من قتل نفسا بغير سبب من قصاص ، أو فساد فى الأرض ، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية ، فكأنما قتل الناس جميعا ، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس ، ومن أحياها أى حرّم قتلها ، واعتقد ذلك ، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار .

* **وإنا لنرى هذا القصص المحكم قد ارتبط فيه الحكم بسببه ، فهو فى** جزء من القصص ذكر سبحانه ما كان بين الأخ وأخيه من محاربة فطرة الأخوة الرابطة ، وأنه حمل نفسه حملاً على ارتكاب جريمته ، إذ هى مخالفة للطبائع السليمة ، ولذلك قال سبحانه وتعالى : ﴿ فطوَّعَتْ لَهُ نَفْسُه ﴾ حتى إذا تمت الجريمة ، رأى بشاعتها فى جثة أخيه ، فأراد أن يواريه ، فضَلَّ ، حتى رأى غراباً يبحث فى الأرض ليوارى جثة غراب مثله ، وعندئذ بدا له جهله ، وندم إذ رأى غراباً هو أحنّ على أخيه منه ، وهو أعلم كيف يوارى سوءة أخيه .

وما كانت أمور الناس لتترك فوضى ، يُجْرِمِ مَنْ يجرم ثم يندم ، فكانت شرعية القصاص ، لأن الاعتداء بالقتل ، اعتداء على حق الحياة لكل إنسان ، ومن قتل نفسا بغير حق ، فهو على استعداد لقتل غيرها ، ففى عمله تعريض النفوس

الإنسانية لاعتداء المعتدين المفسدين ، ومن أحياها بالقصاص من القاتل ، فكأنما أحيا الناس جميعا ، كما قال تعالى : ﴿ ولكُم فى القِصَاص حَيَاةٌ ﴾ [البقرة : ١٧٩] ، وإن هذا يدل على أن شرعية القصاص شريعة أزلية خالدة باقية ، وأنها كانت فى الشرائع السابقة ، ولم تَخْلُ شريعة من شرائع النبيين الكرام منها ، ولقد ذكرت بحكمتها ونتيجتها ، وهى إحياء للأمة ، وإهمالها إهانة لها [1]

ولاشك أن ذلك تصريف بيانى قرآنى فى بيان الأحكام .

﴿ إنَّماَ جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُولَه ، ويَسْعَوْن في الأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا ، أو يُصَلَّبُوا ، أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُم مِنْ خِلاَفٍ ، أَوْ يُنْفوْا مِنَ الأَرْضِ ، ذَلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ في الدُّنْياَ ، ولَهُمْ في الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
[المائدة : ٣٣]

أى لا جزاء للذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فساداً إلا ما ذكره الله **من التقتيل ، أو الصَّلْب ، أو تقطيع الأيدى والأرجل من خِلاَف ، أو النفى من الأرض** . وهذه الآية وإن كانت قد نزلت فى ناس من عُكَل وعرينة — كما أشرنا آنفا — قدموا إلى النبى — ﷺ — وتكلموا بالإسلام ، فأكرمهم رسول الله ، وقدّم لهم إبل الصدقة .. حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة ، كفروا بعد إسلامهم ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل . **إلّا أن الظاهر من الآية أنها عامة ، لكل مَنْ يفعل هذا العمل الشنيع فى دار الإسلام سواء كان مسلما أو غير مسلم .**

والله — عز شأنه — أنزل هذه الآية بهذا التشديد فى العقاب ، لسدّ ذريعة هذه المفسدة ، وهى العبث بالأمن بين ربوع الدولة ، واضطراب الناس فيها ، ومع هذا حرّم المُثْلَة وتشويه الأعضاء .

---

(١) الشيخ محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى ص ٢١٤ طبع دار الفكر العربى .

أضف إلى ذلك أن محاربة الله ورسوله تكون بالاعتداء على شرعة الأمان والسلم ، والحق والعدل والطمأنينة بين الناس ، كما أنها تكون بالاعتداء على الحقوق الشرعية ، وهذا كله يعد فساداً فى الأرض . **وقد وضع الحق سبحانه لتلك الأعمال حدوداً** ، فوضع الله للسرقة والاعتداء على المال حدوداً خفيفة ، ففى السرقة قطع اليد ، والاعتداءات على المال بالضمان مثلا ، لأنها اعتداءات فردية .

* **أما هنا فى هذه الآية** ، فتلك حدود قطاع الطريق ، المجاهرين بالمعصية ، المجتمعين للاعتداء . **لذلك شرط بعض العلماء شروطا ثلاثة لهؤلاء المحاربين** :

١ - أن يكونوا مجهزين بالسلاح يعتمدون عليه فى المهاجمة .

٢ - أن يكون ذلك فى مكان منعزل كالصحراء ، أو كان فى مكان لا تنفع فيه الاستغاثة .

٣ - أن يأتوا مجهزين معتمدين على قوتهم وسلاحهم ، لا على الخفية واللصوصية .

لهذا كان جزاؤهم لا رحمة فيه ولا هوادة ، وإن كانوا جمعا كثيرا ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا ﴾

وعند جمهور العلماء .. أن القتل فى الآية للقاتل ، والصَّلْب مع القتل لمن أخذ المال وقتل ، وقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى لمن أخذ المال وأخاف ، والنفى من الأرض لمن أخذ المال فقط . وليس لولى الأمر العفو فى حد من هذه الحدود .

ومن المهم أن نذكر أن هذه الأحكام جاءت أكثر تفصيلا فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس ، فى قصص عن بنى إسرائيل ، والتوراة وما جاء فيها ، فذكر الحق سبحانه - فى وصف بعض بنى إسرائيل - فى عصر النبى - ﷺ -

الذين أرادوا أن يُنَفّروا من حكم التوراة فى مجرم ارتكب جريمة ، لاجئين إلى النبى – ﷺ – ظانّين إن عنده حكما أخف من حكم التوراة ، لهوى فى نفوسهم :

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ، أَكَّالُونَ للسُّحْتِ ، فَإِنْ جَاءُوكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُم أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُم ، وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُم فلَنْ يَضُرُّوك شَيْئاً ، وإنْ حَكَمْتَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بالقِسْطِ ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين . وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهاَ حُكْمُ الله ، ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وما أُولَئِكَ بالمُؤْمِنِين . إناَّ أَنْزَلْناَ التَّوْرَاةَ فِيهاَ هُدًى ونُورٌ يحكُمُ بها النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ، والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ بما اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ الله ، وكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء ، فلا تَخْشَوُا النَّاسَ واخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآياَتِي ثَمَناً قَلِيلاً ، وَمَنْ لَمْ يَحْكُم بِماَ أَنْزَلَ الله فَأُولَئِكَ هُمُ الكَافِرُون . وَكَتَبْناَ عَلَيْهِمْ فِيهاَ أن النَّفْسَ بالنَّفْسِ ، والعَيْنَ بِالعَيْنِ ، والأَنْفَ بالأَنْفِ ، والأُذُنَ بالأُذُنِ ، والسِّنَّ بالسِّنِّ ، والجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بهِ فَهُوَ كَفاَّرَةٌ لَهُ ، ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بماَ أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾

[الآيات من ٤٢–٤٥ من سورة المائدة]

ونرى فى هذا النص الكريم بيانا للأحكام الشرعية الخاصة بالقصاص ، فى تفصيل محكم مستقر مقنع ، فهو يجعل القصاص فى الأطراف – كما هو ثابت فى النفس ، بل إنه يثبت القصاص فى الجروح ، ويوثق الأحكام بأنها نفذت فى الإنجيل ، إذ جاء الإنجيل مصدقا لما بين يديه من التوراة ، ويوثقها بأن القرآن مصدق لما جاء فى التوراة ، ولكن له هيمنة وسلطانا يبقى ما يبقى ، وينسخ ما ينسخ ، وما يثبت أنه نسخ من أحكامها فهو منسوخ ، لأن له الهيمنة الكاملة .

وفى القصاص الشريعة باقية ، وفى التوراة – كما هو فى القرآن – **جواز العفو عن القصاص** إذ يقول سبحانه ﴿ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ له ﴾ .

والقصاص ثبت بالقرآن ، فالله تعالى يقول :

﴿ ياَ أَيُّهاَ الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بالحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ ، والأُنْثَى بالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فاتِّبَاعٌ بالمَعْرُوفِ وأَدَاءٌ إِلَيْهِ بإحسان ، ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ ياَ أُولِي الأَلْباَبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾

[البقرة : ١٧٨،١٧٩]

وهكذا نجد ذكر الأحكام الثابتة التى لم يعترها تغيير ونسخ لطريق القصاص نوع من تصريف البيان ، وتثبيت الأحكام .

★ ★ ★

الفصل الرابع

نُوحٌ – عليه السلام – وسَفِينَتُه .. والطُّوفَان

القصة القرآنية .. مدرسة المؤمنين الصابرين ، المنتفعين بهدى القرآن ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ فيها أحسن الدروس والعبر ، وأقوى الأمثال والحِكَم ، التى تُضرب فى تحمل الدعاة المرشدين ..

– **لماذا سيقت القصة فى القرآن ؟ ..**

(أ) – سيقت **للعبرة والعظة** ، حيث يقع الناس على أحوال مَنْ تقدمهم من الأمم ، فيعتبر أُولو الألباب ، ويتعظون ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ في قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَاب ، ماَ كاَنَ حَدِيثاً يُفْتَرَى ، وَلكِن تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وهُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون ﴾ [يوسف : ١١١]

(ب) – وسيقت أيضا **لتثبيت قلب النبى ، والتسلية الكاملة له ولأصحابه** ، حيث يقفون على أخبار الرسل السابقين ، وعلاقتهم بأممهم ، وكيف كانت العاقبة للمتقين ، والدائرة على الكافرين المعاندين ، وفى هذا تثبيت لهم ، وشحذ لعزائمهم . يقول تعالى :

• ﴿ فاصْبِرْ كَماَ صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٣٥]

• ﴿ وَكُلاًّ نَقُصّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَك ، وجَاءَكَ في هَذِهِ الحَقُّ ، ومَوْعِظَةٌ وذِكْرَى للمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : ١٢٠]

(جـ) – وسيقت القصة فى القرآن كذلك – **دليلا على صدق الرسول** – ﷺ ، **وإثباتا أن خبره من السماء** . إذ هو يقص أخباراً ما كان يعلمها هو ، ولا أحد من قومه ، ولا يكون هذا إلا بوحى من السماء . يقول عز وجل :

• ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُهاَ أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا ، فاصْبِرْ إِنَّ العَاقِبَةَ للمُتَّقِين﴾ [هود : ٤٩]

• ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ، وما كُنْتَ لَدَيْهِم إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُم وهُمْ يَمْكُرُون ﴾ [يوسف : ١٠٢]

(د) – وسيقت القصة أيضا **علاجا للقلوب وشفاء للنفوس** ، لما فيها من أخبار الأمم ، وما حلَّ بالعاصين من عاجل بأس الله ، فأهل اليقين وغيرهم إذا تلوها تراءى لهم من ملكه وسلطانه ، وعظمته وجبروته ، حيث يبطش بأعدائه ، ما تذهل منه النفوس ، وتشيب منه الرؤوس .

• يقول الرسول المصطفى – ﷺ – فيما رواه الترمذى عن ابن عباس :

« شَيَّبَتْنِي سورةُ هُود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كُوِّرت » [رواه مسلمَ] ولا غرابة .. ففى هذه السور ما يكشف سلطان الله وبطشه مما تذهل منه النفوس ، وتضطرب له القلوب ، وتشيب منه الرؤوس ، وذلك حينما نقف على أخبار الأمم الماضية ، وما حل بها من عاجل بأس الله .

وقد تكرر القصص فى القرآن لما فى أغراضها ومقاصدها من معانٍ جليلة ، وفوائد سامية .

* ومن القصص القرآنى ، الذى احتل مكانا بارزاً فى كتاب الله العظيم « **قصة نوح عليه السلام** » وقد شغلت هذه القصة حيزاً كبير فى القرآن الكريم ، حيث وردت فى القرآن ، أو أشير إليها نحو أربعين مرة فى كثير من السور ،

يختلف أسلوب العرض فيها مرة عن أخرى ، ويُشار إليها أحيانا مجرد إشارة ، كمَثَل يُضرب ، أو فى معرض ذكر الأنبياء والمرسلين ، الذين قاسوا المِحَن مما أصابهم على أيدى أقوامهم ، أو الذين أهلك قومهم – كعاد وثمود ، والذين من بعدهم ، لأنهم أمعنوا فى الكفر ، وفى معارضة أنبيائهم ، وقطع الطريق على الذين يريدون أن يؤمنوا .

أضف إلى ذلك .. أن القرآن قد خصَّص سورة بأكملها هى « **سورة نوح** » للحديث عن نوح وعلاقته بقومه ، ومعاناته فى سبيل دعوته .

وهذا القصة تبين أن الصراع الأبدى فى سبيل الإيمان قائم منذ أن قام الشرك بالله ، وأن المرسلين جميعا إنما كان هدفهم **توضيح العقيدة** ، **وإثبات التوحيد لله** عز وجل ، وكل ما صادفوه وتحملوه من عناء وبلاء ، إنما كان بسبب دعوتهم أقوامهم إلى الإيمان بالله ، وتوحيده وتنزيهه عن الشرك .

إن قصة نوح عليه السلام سيقت فى القرآن من أجل ترسيخ مجموعة من المبادىء التى حرص القرآن عليها فى معظم سُوَره ، **وهى أصول التوحيد** ، **وإثبات البعث والنشور** ، **والجزاء والحساب** ، **والثواب والعقاب** ، وأخيرا **إثباتا لدلائل النبوَّة** . وفى هذا الأمر تأكيد على أن جميع الأنبياء متفقون فى أصول الدعوة من التوحيد الخالص لله عز وجل .

إن قصة نوح – عليه السلام – كما ذكرها القرآن فى مواضعها المختلفة – تبدأ دائما بالحديث عن رسالته ، ودعوته قومه إلى عبادة الله . من مثل قول الحق سبحانه :

● ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُم مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُون ﴾ [المؤمنون : ٢٣ – ٢٨]

– وقوله جل وعلا :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْل أَنْ يأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . قَالَ يا قَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ [نوح : ١، ٢]

– وقوله عز شأنه :

• ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُون ﴾ [العنكبوت : ١٤]

– وقوله تعالى :

• ﴿ كَذَّبتْ قَوْمُ نُوحٍ المُرْسَلِين . إِذْ قَالَ لَهُم أَخُوهُم نُوحٌ أَلَا تَتَّقُون . إِنِّى لكم رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وأَطِيعُون ﴾ [الشعراء : ١٠٥ – ١٠٨] . وقال تبارك اسمه :

• ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [هود : ٢٥ ، ٢٦]

لقد أرسلنا نوحا – وهو أول رسول ، وقومه أول قوم أشركوا بالله غيره ، أرسلناه ، فقال لهم : إنى لكم نذير بيّن الإنذار ظاهره ، على ألا تعبدوا إلّا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . أمرهم أن يعبدوا الله وحده ، ثم أنذرهم عذاب يوم أليم وعظيم وكبير ، ألا وهو يوم القيامة ، وُصف بالألم الشديد ، والعذاب العظيم ،والهول الكبير فى غير موضع من القرآن . ولقد وصفه نوح بكل هذه الأوصاف التى حكيت عنه ، وقد أردف الأمر بالعبادة فى كل مناسبة بقوله (**أفلاَ تتقون**) أو (فاتَّقوُا اللهَ وأَطِيعُون) وهكذا غيره من الرسل ، للإشارة إلى أن التقوى هى الأمر الجامع المهم .

• ﴿ قَالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون . قَالَ : وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُون . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ المُؤْمِنِين . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِين ﴾ [الشعراء : ١١١ – ١١٥]

يقولون لا نؤمن لك ، ولا نتبعك ونتأسى فى ذلك بهؤلاء (الأرذلون) الذين اتبعوك ، وصدقوك وهم أراذلنا . ولهذا قالوا : (أَنُؤْمِنُ لَكَ واتَّبَعَكَ الأَرْذَلون ؟)

قال نوح : (وماَ عِلْمِي بِماَ كاَنُوا يَعْمَلُون) أى – وأىّ شىء يلزمنى من اتباع هؤلاء لى ، ولو كانوا على أى شىء كانوا عليه لا يلزمنى التنقيب عنهم ، والبحث والفحص ، إنما علىَّ أن أقبل منهم تصديقهم إياى ، وأَكِل سرائرهم إلى الله عز وجل : ﴿ إنَّ حِسَابَهُمْ إلَّا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُون ، وَماَ أَناَ بِطَارِدِ المُؤْمِنِين ﴾

كأنهم سألوه أن يبعدهم عنه ، ويُتاَبعون ، فَأَبَى عليهم ذلك ، وقال : ﴿ وماَ أناَ بِطَارِدِ المُؤْمِنِين . إنْ أناَ إلّا نَذِيرٌ مُبينٌ ﴾ أى إنما بُعثتُ نذيراً ، فمَنْ أطاعنى واتبعنى وصدقنى كان منى ، وأنا منه ، سواء كان شريفاً أو وضيعا ، جليلاً أو حقيرا

قالوا أيضا : ﴿ ماَ نَرَاكَ إلَّا بَشَراً مِثْلَناَ وَماَ نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُناَ باَدِىَ الرَّأْىِ وَماَنَرَى لكُمْ عَلَيْناَ مِنْ فَضْـل – بَلْ نَظُنّكُمْ كاَذِبِين ﴾ [هود : ٢٧]

فبادر الملأ من قومه والأشراف ، الذين كفروا بالله ورسوله نوح إلى حُجَج هى أَوْهَى من نَسِيج العنكبوت ، قائلين : ما نراك إلّا بشراً مثلنا ، لا مزيّة لك ولا فضل حتى تدعى الرسالة ، والسفارة بيننا وبين الله ، هل لك مال وفير ؟ أو جاه عريض ؟ أو ولد وخدم ؟ – ليس لك شىء من هذا فكيف تكون المطاع فينا ، والآمر لنا ؟ .. وما نراك اتبعك إلّا الذين هم أراذلنا وسَفَلتنا أصحاب الحرف والصنّاع من الفقراء والضعفاء ، أتكون مع هؤلاء فى صف واحد ؟ .. على أن إقبال هؤلاء عليك ، واتباعهم لك فى بادىء الأمر وظاهره بدون تأمل ولا فكر ، ولا نظر فى عواقب الأمور وبواطنها يدعونا إلى مخالفتك وعدم اتباعك . أَنِفُوا أن يكونوا مثل هؤلاء الفقراء ، وطلبوا من نوح أن يطردهم ، حتى لا يجتمعوا معهم فى دين ، فأبى وخاف من الله . وقالوا :

ما نرى لكم – أنت ومن معك من عامة الناس علينا من فضل فى علم ، أو رأى ، أو جاه أو قوة ، يحملنا على اتباعك ، والنزول عن جاهنا وشرفنا ، ونكون

معكم فى سلك واحد .. ﴿ لَوْ كَانَ خَيْراً ماَ سَبَقُونَا إِلَيْه ﴾ [الأحقاف : ١١] .. بل الأمر أكثر من هذا وأشد ، وهو أننا نظنكم من الكاذبين المفترين ، وأنك فى دعواك النبوة متبوع كاذب ، وأنهم فى تصديقهم لك واتباعهم رأيك كاذبون أيضا .

هكذا قابلوا دعوته بالنكران والجحود ، لذلك نراه يدخل معهم فى **حوار وجدل** كبيرين ، لعلهم يقتنعون ، ويؤمنون بدعوته ، ويعبدون الله لا يشركون به شيئا .

*** كان منطلق الحوار معهم .. مناقشتهم فى المسائل التى أثاروها ، ثم الردّ على شبهاتهم ومزاعمهم .**

● ﴿ قاَلَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إنْ كُنتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وآتَانِى رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ ، فَعُمِّيتْ عَلَيْكُم أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأَنْتُم لَها كاَرِهُون ﴾ [هود : ٢٨]

قال نوح : يا قوم .. أخبرونى ماذا أفعل إن كنت على حُجّة مِنْ رَبِّى ظاهرة فيما جئتكم به ، تبين لى بها أنه الحق من عنده لا من عندى ، إذ ليست النبوة من كسب البشر حتى يستقيم لكم إدعاؤكم أنّى بَشَر مثلكم ، فكيف أكون نبيا مرسلا .

يا قوم .. الله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد أرسلنى لكم وآتانى رحمة من عنده خاصة لى ، فوق رحمته العامة للناس جميعا ، ولكنها عميت عليكم ، وخفيت بجهلكم وغروركم بأنفسكم ومالكم ... فماذا أفعل ، أنلزمكم إياها بالجبر والإلجاء ؟ لا .. إنه لا إكراه فى الدين أبداً من قديم الزمان . وهذا رد على شُبهتهم ﴿ ماَ نَرَاك إِلَّا بَشَراً مِثْلَناَ ﴾

• وقال نوح ﴿ ويَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ ، ومَا أَنَا بطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاَقُوا رَبِّهِم ، ولكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُون ﴾
[هود : ٢٩]

– قال : يا قوم .. لا أسألكم على دعائى لكم مالاً ولا أجراً ولست أطلب مُلكاً ولا جاهاً حتى تخشوا مني وتنفسوا عليّ ، ما أجرى إلّا على الله وحده ، وهكذا كل رسول ... وماذا أفعل فيمن تسمّونهم **الأراذل** ، وما أنا بطارد الذين آمنوا أبداً ، سواء أكانوا أغنياء أم فقراء لاحتقاركم لهم ، فأنتم تحتقرونهم لفقرهم وضعفهم ، وأنا أُجلهم وأكرمهم لأنهم آمنوا واعتزوا بالله وبرسوله .

* والظاهر أن هذه عادة مجرمى الكفار والأشرار من الناس قديما وحديثا . اقرأ قول الحق سبحانه :

• ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بالغَدَاةِ والعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾
[الأنعام : ٥٢]

• ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨]

فهذا نهى للنبى المصطفى ﷺ

قال نوح : أنا لا أطرد من آمن بالله ، إنهم سيلاقون ربهم ، وسيحاسبهم على أعمالهم ، كما أنه سيحاسبكم على أعمالكم ، ما عليّ إلّا البلاغ فقط ، ولكنى أراكم قوما تجهلون الحقائق .

• ﴿ ويا قَوْمِ .. مَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللهِ إنْ طَرَدْتُهُم أَفَلاَ تَذَكَّرُون . وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، ولَا أَعْلَمُ الغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ ، ولا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً ، اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِم إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِين ﴾ [هود : ٣٠ ، ٣١]

• قال نوح .. يا قوم ! مَنْ يَنْصُرنى من عذاب الله إن طردتهم ؟ أفلا تتذكرون وتتعظون ؟ فهذا ردٌّ على شُبهتهم الثانية : ﴿ وما نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ ..

ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : أنىّ مَلَكٌ ..

نفى نوح – عليه السلام – هذه الثلاث ، فإن الكفار مع الأنبياء جميعا كانوا يعتقدون لنظرتهم المادية للأشياء ، أن الأنبياء لا بد أن يكونوا أغنياء موسرين ، يعلمون الغيب ، ويجب أن يكونوا من الملائكة ، لا من البشر ، وإلا كانوا كسائر البشر ، لافضل لهم ، فكيف يدعون النبوة ؟

فهو يقول : لا (أقول لكم) بإدعائى النبوة ، أنى أملك خزائن الله ، وأرزاق الناس ، ولست أعلم الغيب إلّا ما علمنى الله مما يتصل بالرسالة . وهذا ما قاله إمام الأنبياء – محمد ﷺ – فيما حكاه القرآن :

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ ، ولو كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَآسْتَكْثَرتُ مِنَ الخَيْرِ ومَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨]

ولا أقول للذين تزدريهم أعينكم ، وتحتقرونهم لفقرهم وضعفهم ، لن يؤتيهم الله خيراً وسعادة فى الدنيا والآخرة ، لا أقول هذا أبداً ، الله أعلم بما فى نفوسهم ، وسيجازيهم عليه ، إنى إذا قُلت هذا لأكونن من الظالمين لأنفسهم ، لا من الأنبياء والمرسلين .

*** بذل نوح غاية جهده فى نصح قومه ، واجتهد فى أن يتبعوه فى الإيمان بالله ، والبعد عن عبادة الأصنام ، مكث على ذلك ألف سنة إلا خمسين**

عاما ، ولكن ما زادهم ذلك إلّا فراراً ، وعُتوًّا واستكباراً ، حتى ضاقوا به ذرعا ، وضاق بهم ذرعا ، وكبر عليهم مقامه ، وبلغ السيل الزُّبى ، وهنا وصلوا معه إلى المرحلة الحاسمة ، وهى مرحلة اشتداد الحال حتى استعجال العذاب ، بعد أن نفذ صبرهم ..

لذلك ﴿ قَالُوا يا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنا فَأَكْثَرتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِماَ تَعِدُناَ إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ [هود : ٣٢]

قالوا : يا نوح قَد خاصمتنا وحاجحتنا فأكثرت جدالنا ، ولم تدع لنا حُجة إلّا أبطلتها ورددتها حتى سئمنا ومللنا ، فائْتنا بما تعدنا به من العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة إن كنت من الصادقين فى قولك : ﴿ فَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِير ﴾ [هود : ٣]

فردَّ عليهم نوح بقوله : إن الذى أعدكم به ، وأخاف عليكم منه بيد الله لا بيدى ، وأمره إلى الله فقط ، إن شاء أنزله فوراً ، وإن شاء أَجَّله ، على أنكم لستم بمعجزين الله هرباً ، فأنتم فى ملكوته ، وتحت قبضته ، ولا ينفعكم نصحى لكم ، وإخلاصى معكم فى شىء أبداً ، إن أردت ذلك ، إن كان الله يريد أن يغويكم ، فلا ينفعكم نصحى أبداً ، إذْ قبول النصح ، والانتفاع به يكون للمستعد للخير ، القابل له ، أما إذا فسدت النفس ، وران على القلب الحجاب ، فلن يرى النور ، ولن ينتفع به ..

• ﴿ قَالَ إِنَّماَ يَأْتِيكُم بِهِ اللهُ إنْ شَاءَ وَماَ أَنْتم بِمُعْجِزِينَ . وَلَاينفَعُكُمْ نُصْحِى إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إن كان اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُم وَإِلَيْه تُرْجَعُون ﴾ [هود : ٣٣ - ٣٤]

ومعنى إغواء الله على إرادته ، أن يكونوا من الغاوين ، لا خلق هذه الغواية فيهم .

قال ابن جرير : الغواية بالهلاك ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩]

إن الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم ، ومالِكِ أمركم ، وإليه ترجعون .

ولكن قومه مع هذا الأسلوب اللّين ، والعرض الجميل أصروا على كفرهم وعنادهم .. وهنا ناجى نوح ربه ، وقال أسفاً :

• ﴿ قال ربِّ .. إنّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً ونهاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائي إلَّا فرارًا . وَإِنّي كُلَّماَ دَعَوْتُهُم لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُم وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا . ثُمَّ إنّي دَعَوْتُهُم جِهَاراً . ثُمَّ إنّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وأَسْرَرْتُ لَهُمْ إسْرَاراً ﴾ [نوح ٥ - ٩]

• قال : ربِّ إنّي دعوت قومي - كما تعلم - إلى الإيمان والطاعة ، ليلاً ونهاراً ، وسرًّا وإعلاناً ، فلم أر منهم إلّا عناداً واستكباراً عن الحق ، وعن الصراط المستقيم ، وإنيّ كلما دعوتهم إلى الإيمان ، لتغفر لهم أصمّوا آذانهم عن سماع تلك الدعوة ، وحجبوا عيونهم عنها ، وأصروا واستكبروا استكباراً .

• لقد صوّر القرآن الكريم حالهم العجيبة ، حيث عبّر عن عدم سماعهم بأنهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، والجَعْل يقضى دوام الوَضْع ، والأصابع يفهم منها المبالغة فى السَّد ، فإن الذى يُوضع طرف الإصبع - لا الإصبع كله - وانظر إلى قوله : ﴿ واسْتَغْشَوا ثِيَابَهُمْ ﴾ فإن المعنى أنهم بالغوا فى التغطى بها مبالغة كأنهم طلبوا من ثيابهم أن تغشى جسمهم كله ، لا عيونهم فقط .

﴿ ثم إنّي دَعَوتُهُم جِهَاراً ﴾ أى ثم إنى أعلنت لهم الحال ، وبَيَّنته لهم على كل وضع بحيث جمعت بين الإعلان والإسرار .

وحين توقّف الجدال والحوار .. وحين لم ينفع تحليل وتوضيح .. حَوَّل نوح دعوته إليهم من نطاق الجدال والحوار إلى نطاق بيان الحجّة .

فى هذه المرحلة تحدث نوح عن دعوته ، وبيّن معالمها المستمدة من قدرة الله الخالق القادر على كل شىء ، العليم بكل شىء ..

قال نوح : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ [نوح : ١٠ - ١٢]

فهو هنا يذكر أنه قال لهم : استغفروا ربكم ، وتُوبوا إليه ، إنه يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ، إنه كان غفاراً ، على أنكم إن آمنتم بربكم يُرسل السماء عليكم بالمطر الغزير ، الذى يُخصب الأرض ، ويأتى بالخير ، ويمددكُم ربكم عند ذلك بأموال جمة نافعة ، وأبناء وذُرية صالحة ، ويجعل لكم جنات وبساتين ، ويجعل لكم فيها الأنهار والعيون . أى أنكم إن آمنتم ، أمدكم بسعادة دنيوية تكفل لكم حياة رغدة ، وعيشة راضية .

ولكن قوم نوح لم يؤمنوا أيضا برسالته ، ولم يستجيبوا لدعوته .. فناقشهم بقوله :

﴿ مالَكُمْ لَا تَرْجُونَ للهِ وَقَاراً . وقَدْ خَلَقكُمْ أطواراً ؟ ﴾ [نوح : ١٣، ١٤]

قال : ما لكم – تبّت لكم – لا ترجون وقاراً كائناً لله ؟ ، والوقار : العظمة ، والرجاء الخوف أو الاعتقاد ، فكأنه قال : أى سبب حصل لكم حال كونكم غير خائفين أو غير معتقدين لله تعالى عَظَمة توجب عليكم الإيمان بالله ، والطاعة لرسوله ؟ إن هذا لشىء عجيب ، وشىء تنكره العقول السليمة .

– ما لكم لا تخشون الله وقدرته على كل شيء ؟ وما لكم لا ترهبون سطوته فتؤمنوا به ، وتصدقوا برسله ؟ وهو القادر على كل شيء ، وهو الذى خلقكم فى أطوار مختلفة ، وفى أحوال تكاد تكون متباينة ، أَلَمْ يخلقكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم مضغة ، ثم أخرجكم أطفالاً ، ثم كنتم شيوخا ، **أليس صاحب هذا بقادر على كل شيء ، فما لكم لا تخافون عظمة الله ؟ ولا تؤمنون بيوم القيامة ؟**

*** ثم لَفت نظرهم إلى هذا الكون بعد أن نبههم إِلَى مَا فِي أَنْفُسِهِم من آيات فقال :**

• ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِباَقاً . وَجَعَلَ القَمَر فِيهِنَّ نُوراً وجَعَل الشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ [نوح : ١٥ ، ١٦] – أى ألم تروا السماء كيف خُلقت ؟ لقد خلقها الله سبع سماوات طباقا ، ما ترى فيها من نقص ولا تفاوت ، وجعل القمر فى إحداهن نوراً ، وجعل الشمسَ فى أخرى سراجا وهَّاجا .. سبحان الله .. لقد جعل الحكيم العليم للقمر نوراً ، وللشمس سراجاً ، لأن الدنيا ستصبح بنور الشمس على أنه نور قوى شديد ، ونور القمر بسيط يضيىء فى الليل نوعاً ما ، وهو نور منعكس ليس من ذات القمر ..

*** ثم لفت أيضا نظرهم إلى أنفسهم فقال :**

﴿ واللهُ أَنْبَتَكُم مِنَ الأَرْضِ نَبَاتاً . ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهاَ ويُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً ﴾ [نوح : ١٧ ، ١٨]

والله أنبتكم من الأرض نباتا ، نعم هو خلقنا من تراب ، فعناصرنا المادية : تراب مخلوط بماء ، ثم كانت النطفة ، والنطفة خلاصة الدم ، والدم من الغذاء من الأرض ، فالله سبحانه أنبت الإنسان من الأرض نباتاً كالشجر ، ولكنه مَيّزه عنه

بالحياة الحيوانية ، ثم كمله **بالعقل والتفكير** وشرفه بالرسالات الإلهية ، **فما لكم لا تؤمنون .. لأى سبب تكفرون ؟**

ثم بعد هذا يعيدكم إلى الأرض أمواتاً ، ثم يخرجكم منها إخراجاً للبعث والجزاء .

*** ثم لفت نظرهم إلى الأرض التى تُقِلّهم فقال :**

﴿ واللهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطاً . لِتَسْلُكُوا مِنْهاَ سُبُلاً فِجَاجاً ﴾

[نوح : ١٩، ٢٠]

لقد جُعلت لكم الأرض بساطاً ، فهى ممهدة للعيش ، ميسرة سهلة للانتقال ، لتسلكوا منها طرقا واسعة توصلكم إلى أغراضكم .

*** ويبلغ بنوح اليأس إلى درجة الحزن ، فيشكو إلى ربه عصيان قومه ، وتماديهم فى الصَّد والطغيان مبينا سبب هذا العصيان ونهايته** ..فى هذا كشف لحقيقة كان يجهلها عامة المشركين .

﴿ قاَلَ نُوحٌ : رَبِّ إِنَّهُم عَصَوْنِى واتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْه مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً . ومَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً . وقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ ودًّا وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ ويَعُوقَ ونَسْراً . وَقَدْ أُضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلاَلاً ﴾

[نوح : ٢١ - ٢٤]

قال : رَبِّ إنهم عصونى ، وخالفوا أمرى ، واتبعوا رؤساءهم ، الذين حملوهم على الكفر ، وأشاروا عليهم به ، لأنهم أصحاب مال وأولاد ، فاغتروا بهم ، واستكبروا ، واشتروا الضلالة بالهدى ، وآثروا هذا الجاه الكاذب على النعيم الدائم ، هؤلاء الرؤساء مكروا بعامتهم ، وبنوح مكراً كثيرا ..

فأما مكرهم بالشعب فلأنهم ضللوهم عن اتباع الحق ، وحالوا بينهم وبين الإيمان بنوح ، وأما مكرهم بنوح فلأنهم كانوا يتظاهرون أمامه بأن الأمر متروك للناس ، وما كانوا يظهرون له أعمالهم الحقيقية ، مكروا مكرا كبيراً ، ولكن الله مكر بهم ، وهو خير الماكرين . ومن طرق المكر التى كان يسلكها أشرافهم ورؤساؤهم أنهم أشاروا عليهم ، بل ونهوهم عن التفريط فى آلهتهم ، وكانوا يظهرون لهم فى ثوب الناصح الشفوق ، لا تَدَعُن آلهتكم التى عبدتموها ، وعبدها آباؤكم من قبل ، ولا تدعن خاصة وُدًّا ، ولا سُواعاً ، ولا يَغُوثَ ، ولا يعُوق ، ولا نسراً ، إذ تلك زعماء الآلهة ، وكأن الآلهة كالبشر فيها السوقة والخاصة ، وفيها الأشراف والعامة .

يارب هؤلاء الأشراف والرؤساء هم سبب البلاء والشقاء ، فقد أضلوا كثيرا ، ومازالوا يضلون ، يارب لا تُزد الظالمين إلاّ ضلالاً ، فهذه هى إرادتك ، وهذا عملهم فلا أمل فيهم يرجى ، فيارب نفّذ فيهم إرادتك بهلاكهم .

* **ويصل انفعال نوح إلى ذروته** ، بعد أن دأب ليلاً ونهاراً على دعوة قومه إلى الحق ، وداوم على إسداء النصح لهم سِرًّا وعلانية ، وهم يلجُّون فى عنادهم وكفرهم ، ويفرون من الهدى فراراً ، ولا يزدادون إلاَّ ضلالاً واستكباراً ، فما كان من نوح – وقد يئس من صلاحهم **إلا أن يتملكه الغَيْظ ، ويمتلىء فُوه بكلمات الدعاء الهادرة الغضْبى ، تنطلق فى الوجود مجلجلة مدوية ، بهديرها الرهيب ، وإيقاعها العنيف ، حين وقف داعيا على قومه بالهلاك والتبار**

• ﴿ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرضِ مِنَ الكَافِرِينَ ديَّاراً .. ﴾

• ﴿ إنَّكَ إنْ تَذَرْهُم يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إلَّا فَاجِراً كفَّاراً .. ﴾

[نوح : ٢٦ – ٢٨]

• ﴿ ربِّ اغْفِرْ لي وَلِوَالِدَىّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِىَ مؤمِناً ولِلْمُؤْمِنِينَ والمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إلَّا تَبَاراً ﴾

• إنه يقول من كثرة ما لاقاه منهم : ربّ لا تبقى على الأرض من الكافرين شخصا واحداً منهم يسكن داراً ، أو يدور ويتحرك – وهذه العبارة تفيد الدعاء عليهم بمحوهم بالكلية .

وقد أجاب الله دعاءه : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوءٍ فَأَغْرَقْنَاهُم أَجْمَعِين ﴾ [الأنبياء : ٧٧]

• أما المؤمنون ، الذين آمنوا بالله ورسوله ، فيقول نوح فى شأنهم : ربّ اغفر لى واستر ذنبى ، واغفر لوالدى ولمن دخل بيتى ، واغفر للمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين لأنفسهم بالكفر ، ولغيرهم بالإضلال إلّا خساراً وهلاكاً .

وكان العليم مطلعا على كل شىء ، مدركا ما يُعانيه رسوله نوح ، وما يكابده من الابتئاس والإحساس بالشقاء ، نتيجة لأفعالهم .. فكان التأييد الإلهى ..

• ﴿ وأُوحِيَ إلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ – فَلاَ تَبْتَئِسْ بِماَ كاَنُوا يَفْعَلُون ﴾ [هود : ٣٦]

فهذا إخبار من العلى القدير أنه لما استعجل قومه نقمة الله بهم ، وعذابه لهم ، فدعا عليهم نوح دعواته المتكررة : ﴿ رَبِّ لَا تَذَر عَلَى الأَرْضِ من الكافرين دياراً ﴾ .. ﴿ فَدَعاَ رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فانْتَصِر ﴾ [القمر : ١٠]

فعند ذلك أوحى الله إليه (أَنَّه لَنْ يُؤمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَن) فلا تحزن عليهم ، ولا يهمنَّك أمرهم ، ولا تبتئس لفعلهم ، فقد سبق فيهم القضاء ، وحقّت كلمة رَبِّك على الذين كفروا .

(واصْنَعِ الفُلْكَ بِأَعْيُنِناَ وَوَحْيِناَ) أى واصنع يا نوح السفينة (بِأَعْيُنِناَ) أى بمرأى منها (وَوَحْيِناَ) أى تعليمنا لك ما تصنعه ، اصنع الفلك لتكون أداة لنجاتك من الغرق ، أنت ومَنْ معك من المؤمنين ، اصنعها بأعيننا وتحت ملا حظتنا حالة كونك مشمولا برعايتنا ، ومُعَلَّما بوحينا لك كيفية الصنع حتى لا تقع فى خطأ .

(وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُغْرَقُونَ) أى ولا تخاطبنى يا نوح فى شأن الذين ظلموا أبداً ، فقد حقّ القضاء ، ونزل البلاء ، وحقّت عليهم كلمة ربك أنهم لمغرقون ، فلا تأخذنك بهم رأفة ولا رحمة .

قال بعض السلف : أمره الله تعالى أن يغرز الخشب ، ويقطعه ويُيبّسه ، فكان ذلك فى مائة سنة ، ونجّرها فى مائة سنة أخرى ، وقيل : أربعين سنة .

• **وذكر محمد بن إسحاق عن التوراة** : إن الله أمره أن يصنعها من خشب الساج ، وأن يجعل طولها ثمانين ذراعا ، وعرضها خمسين ذراعا ، وأن يطلى باطنها وظاهرها **بالقار** ، وأن يجعل لها جؤجؤا أزوراً يشق الماء .

وقال الحسن : كان طولها ستمائة ذراع ، وعرضها ثلاثمائة ، وكان ارتفاعها فى السماء ثلاثين ذراعا ، ثلاث طبقات ، كل طبقة عشرة أذرع ، **فالسفلى** : للدواب والوحوش ، **والوسطى** : للإنس ، **والعليا** : للطيور ، وكان بابها فى عرضها ، ولها غطاء من فوقها مطبق عليها .

* **وقد ذكر ابن جرير أثرا مسنداً إلى ابن عباس ، أنه قال :**

قال الحواريون لعيسى ابن مريم : لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة ، فَحَدَّثَنَا عنها ، قال : فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب ، فأخذ كفاً من ذلك

التراب بكفّه ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم .. قال : هذا **كعب « حام بن نوح »** ، قال : فضرب الكثيب بعصاه ، قال : قُم بإذن الله ، فإذا هو قائم ينفض التراب عن رأسه – قد شاب ، قال له عيسى عليه السلام : أهكذا هلكت ؟ قال : لا ، بل مت وأنا شاب ، ولكنى ظَنَنت أنها الساعة (أى القيامة) فمن ثَمّ شِبْت ..

قال : حدثنا عن سفينة نوح .. ؟

قال : كان طولها ألف ذراع ومائتى ذراع ، وعرضها ستمائة ذراع ، وكانت ثلاث طبقات ، فطبقة فيها الدواب والوحوش ، وطبقة فيها الإنس ، وطبقة فيها الطير ، فلما كثر رَوْث الدواب ، أوحى الله عز وجل إلى نوح عليه السلام – أن أغمز ذَنَب الفيل ، فغمزه ، فوقع منه خنزير وخنزيرة فأقبلا على الروث ، فلما وقع (الفأر) بجوف السفينة يقرضها وحبالها ، أوحى الله إليه أن اضرب بين عينى الأسد ، فضرب ، فخرج من مَنْخَرِه سنّور وسنورة فأقبلا على الفأر .

• **فقال له عيسى عليه السلام : كيف علم نوح إن البلاد قد غرقت ؟**

قال : بعث (**الغُراب**) يأتيه بالخبر ، فوجد جيفة فوقع عليها ، فدعا عليه (نوح) بالخوف ، فلذلك لا يألف البيوت ، قال : ثم بعث (**الحمامة**) ، فجاءت بورق زيتون بمنقارها ، وطين برجليها ، فعلم أن البلاد قد غرقت ، قال : فطوقها الخضرة التى فى عنقها ، وَدَعَاها أن تكون فى أنس وأمان ، فمن ثمّ تألف البيوت .

قال : فقلنا يا رسول الله : ألا ننطلق به إلى أهلينا ، فيجلس معنا ويحدثنا ؟
قال : كيف يتبعكم مَنْ لا رِزْق له ؟

قال : فقال له (عيسى ابن مريم) عُدْ بإذن الله ، فعاد تُرابا .[1]

---

(١) ابن كثير ٤٤٤/٢ .

• ﴿ ويَصْنَعُ الفُلْكَ وكُلَّما مَرَّ عَلَيْه مَلأٌ مِنْ قَوْمِه سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ : إنْ تَسْخَرُوا مِناً فَإناً نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُون . فَسَوْفَ تَعْلَمُون مَنْ يَأْتِيه عَذَابٌ يُخْزِيه وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴾ [هود : ٣٨ ، ٣٩]

ويصنع نوح السفينة ، وكلما مر عليه جماعة من قومه سخروا منه ، واستهزأوا به ظانين أنه مجنون ينفق وقته وجهده فى عمل لا فائدة فيه ، قال نوح مجيبا لهم : إن تسخروا منا اليوم لصنعنا شيئا هو فى ظنكم خرق وحماقة ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون جزاءًا وفاقا ، وعيد شديد وتهديد أكيد ، فلسوف تعلمون قريبا من يأتيه عذاب يخزيه فى الدنيا بالغرق ، ويحل عليه عذاب دائم فى الآخرة .

• كان نوح يصنع السفينة جاداً فى عمله ، متألما من سخريتهم حتى أذن الله ..

﴿ حَتَّى إذَا جاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ ﴾ [هود : ٤٠] – أى حتى إذا جاء أمرنا ، واشتد غضبنا ، وحانت الساعة ، ويالها من ساعة ، حين فار التنور ، وجاءت السماء بالمطر مدراراً ، وتفتحت العيون بماء غزير ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوابَ السَّمَاءِ بِماَءٍ مُنْهمَرٍ . وفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً . فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِر . وحَمَلْنَاهُ على ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِى بأَعْيُنِنا جَزَاءً لِمَنْ كاَنَ كُفِرَ ﴾ [القمر : ١١ – ١٤]

وأما قوله : (وفَاَرَ التَّنور) فقد قال ابن عباس : التَّنور وجه الأرض ، أى صارت الأرض عيونا تفور حتى فار الماء من التنانير ، التى هى مكان النار ، صارت تفور ماء .

فحينئذ أمر الله نوحا – عليه السلام – أن يحمل معه فى السفينة من كلّ زَوْجين اثنين من صنوف المخلوقات ذوات الأرواح – قَيل : وغيرها من النباتات اثنين ذكراً وأُنثَى .

فقيل : كان أول من أدخل من الطيور (**الدُّرّة**) وآخر من أدخل من الحيوانات (**الحمار**) ، فتعلّق إبليس بذنبه ، وجعل يريد أن ينهض فيثقله إبليس ، وهو متعلق بذنبه ، فجعل يقول له نوح : مالك .. ويحك .. أدخل ، فينهض ولا يقدر ، فقال : أدخل وإن كان إبليس معك ، فدخلا فى السفينة .[١] .

• وذكر بعض السلف : أنهم لم يستطيعوا أن يحملوا معهم (**الأسد**) حتى أُلقيت عليه **الحُمّى**

• قال رسول الله ﷺ – فيما رواه عنه زيد بن أسلم عن أبيه : « لما حمل نوح فى السفينة من كل زوجين اثنين ، قال أصحابه : وكيف تطمئن المواشى ومعها الأسد ؟ فسلّط الله عليه الحمى ، فكانت أول حُمّى نزلت على الأرض ، ثم شكوا (**الفأرة**) فقالوا : الفُوَيْسِقة تفسد علينا طعامنا ومتاعنا ، فأوحى الله إلى الأسد ، فعطس فخرجت (**الهرّة**) منه فتخبأت الفأرة منها .

• ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْن ، وأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْه القَوْلُ ، ومَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهَ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠]

أى احمل فى السفينة من كل نوع من الأحياء زوجين ذكر وأنثى ، واحمل فيها أهل بيتك ذكوراً وإناثا ، إلا ما استثنى منهم ممن سبق عليه القوم ، فصار فى عداد الكفار ، وأحمل فيها من آمن معك من قومك – أى احمل فيها أهلك ، وهم أهل بيته وقرابته ، إلَّا مَنْ سبق عليه القول منهم ، ممن لم يؤمن بالله ، فكان منهم ابنه (**يام**) الذى انعزل وحده ، و(**امرأة نوح**) وكانت كافرة بالله ورسوله .

وقوله (مَن آمَن) أى من قومك – (وما آمَنَ مَعَهُ إلَّا قَلِيل) أى نزر يسير مع طول المدة والمقام بين أظهرهم ألف سنة إلا خمسين عاما .

---

(١) ابن كثير ٢/٤٤٥ .

• **قال ابن عباس** : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وقيل : كانوا اثنين وسبعين نفسا .

وقيل : إنما كان نوح وبنوه الثلاثة : **سام ، وحام ويافث** ، وكنائنه الأربع نساء ، هؤلاء الثلاثة وامرأة يام .

﴿ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهاَ بِآسْمِ اللهِ مَجْرَاهاَ وَمُرْسَاهاَ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾
[هود : ٤١]

وقال نوح : اركبوا فى السفينة قائلين باسم الله مجريها أى إجراؤها ، ومرساها – أى إرساؤها ، نعم من الله كل شيء ، وهذه بشارة لهم بحفظها ورعايتها من الله ، إن ربى لغفور ستار ، رحيم بالخلق كريم ، ومن مظاهر رحمته نجاة المؤمنين ، وهلاك الظالمين . قال الله تعالى :

• ﴿ فإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الفُلْكِ ، فَقُلِ الحَمْدُ للهِ الَّذِى نَجاَّنا مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَقُلْ رَبِّى أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً ، وأَنْتَ خَيْرُ المُنْزِلِين ﴾
[المؤمنون : ٢٨ ، ٢٩]

ولهذا تستحب (التسمية) فى ابتداء الأمور ، عند الركوب على السفن ، وعلى الدواب ، كما قال عز وجل :

﴿ وَالَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّها ، وجَعَلَ لكُمْ مِنَ الفُلْكِ والأَنْعَامِ ماَ تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ، ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيه ، وتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَناَ هَذَا وما كُناَّ لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف : ١٢ ، ١٣] .

• **وجاءت السنة المطهرة بالحث على ذلك والندب إليه :**

فعن ابن عباس ، عن النبى ﷺ قال : « أَمَانُ أُمَّتى مِنَ الغَرَقِ إِذَا رَكِبُوا فى السُّفُنِ أن يقولوا : بسْمِ اللهِ المَلِكَ .. » ﴿ وما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ .. ﴾ [الآية ٩١ من الأنعام] ﴿ بِسْمِ اللهِ مَجْرِيها ومَرْسَاهَا ، إنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

– وقوله ﴿ إنّ ربِّى لغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ مناسب عند ذكر الانتقام من الكافرين بإغراقهم أجمعين ، فذكر أنه غفور رحيم ، كقوله جل جلاله ﴿ إنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ ، وإنَّهُ لغَفُورٌ رَحِيم ﴾ [الأعراف : ١٦٧]

– ﴿ وقوله : ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِم فى مَوْج كالجِبَالِ ﴾ أى السفينة سائرة بهم على وجه الماء الذى قد طبق الأرض ، حتى طغت على رؤوس الجبال ، وارتفع عليها بخمسة عشر ذراعاً ، وقيل : بثمانين ذراعا . وهذه السفينة جارية على وجه الماء ، سائرة بإذن الله وتحت كنفه وعنايته ، وحراسته ورعايته ، كما قال سبحانه : ﴿ إناَّ لماَّ طَغَى الَماءُ حَمَلْنَاكُم فِي الجَارِيةِ . لِنَجْعلَهَا لكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيهَا أُذُنٌ واعِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١١،١٢]

وقال تعالى : ﴿ وحَمَلْنَاَهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ . تَجْرِى بأَعْيُنِناَ جَزَاءً لِمَنْ كاَنَ كُفِرَ . ولَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيةً فَهَلْ مِنْ مُدّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٣ – ١٥] . فهذا تصوير للسفينة ، وقد سارت وسط المياه .. **إنه تصوير إلهى** ، فهى تجرى بهم ، وتسير بسرعة دافقة ، وسط أمواج كالجبال الشاهقة ، فى ارتفاعها وعظم حجمها .

* ولا تتم قصة الصراع المرير ، بين الإيمان والكفر على عهد نوح ، بغير جانبها الإنسانى والعاطفى . لتؤكد أن الإيمان لا يعرف الفروق بين إنسان وإنسان ، وأن العقاب الذى قد يحل بالذين يقفون فى وجه الإيمان ، لا يعرف العاطفة ولا المحسوبية ، بل هو **العدل الإلهى** ، يتجلى فى صورته الكاملة ، فلا يجامل حتى عاطفة الذين بعثهم الله لينهضوا بمسئولية الدعوة إلى الإيمان .

وكانت تتمة قصة نوح مع قومه – **هى مأساة ابنه** ، الذى انحاز إلى القوم الكافرين ، فلم تدفع به الهداية ، ولا حتى مجرد الطاعة للأب ، أو العاطفة البنوية ، ليكون مع والده ضد أعدائه من بنى قومه .

ويكشف القرآن عن كل هذا التفاعل بين الإيمان ، وبين العاطفة الأبوية ، والصراع النفسى ، الذى يوجد فيه أب يرى ابنه يهلك ، وربما بسببه فيما تخيّل النفس الأمارة بالسوء ، ويأتى هذا الكشف القرآنى عن طريق الحوار .

﴿ ونَادَى نُوحٌ ابْنَهُ – وكانَ فى مَعْزِلٍ : ياَ بُنَىّ ٱرْكَبْ مَعَناَ ولَا تَكُنْ مع الكَافِرين . قال : سَآوِى إلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الماء ، قَاَلَ : لَا عاَصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إلَّا مَنْ رَحِم .. وَحَالَ بَيْنَهُماَ المَوْجُ .. فكاَنَ مِنَ المُغْرَقِين ﴾

[هود : ٤٢ ، ٤٣]

لما رأى نوح نهاية القوم ، أخذته عاطفة الأبوة ، واستولت عليه ونَادَى ابنه ، وكان فى مكان منعزل عنه : يا بنى .. اركب معنا سفينة النجاة ، وإياك يا بنى أن تكون من الكافرين المهلكين ، وكان هذا الإبن عاصيا لوالده ، غير مطيع لأمره ، كافراً برسالته ووحيه ، ولذا قال مجيباً أباه : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء .. معتقداً بجهله ، أن الطوفان لا يبلغ رؤوس الجبال ، وأنه لو تعلّق فى رأس جبل لنجّاه من الغرق .

نوح يُبصّر ابنه طريق الخير ، فيأبى إلّا طريق الشر ، ويقول : سألجأ إلى جبل يحفظنى من طغيان الماء ، كأنه فهم أنه ماء من بحر أو نهر له حدّ محدود ، يقف أمام ربوة عالية ، أو جبل شامخ ، قال نوح ردًّا على كلامه وحجته الواهية : يا بُنى لا شىء فى الوجود يعصم أحداً من أمر الله إذا نزل ، ويرد قضاءه إذا حكم ، لكن من رحم الله من الخلق ، فهو وحده يعصمه ويحفظه ، وقد جعل السفينة منجاة للمؤمنين . وبينما هما فى هذا النقاش والحوار .. حاَلَ بَيْنَهُماَ المَوْجُ

فكانَ الإبن من المغرقين . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ . وفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرْ . وحَمَلْنَاهُ عَلَى ذاتِ ألْوَاحٍ ودُسُرٍ . تَجْرِى بأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ . ولَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ ﴾ [القمر : ١١ – ١٥]

ويقول عز شأنه : ﴿ فأَنْجَيْنَاهُ وأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت : ١٥]

* **حينئذ أمر الله الأرض بابتلاع الماء ، والسماء بالتوقف عن المطر ومنعه ، وما هو إلّا أمر وامتثال ..**

• ﴿ وقِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِى ماءَك ، ويا سَمَاءُ أَقْلِعِى ، وغِيضَ المَاءُ ، وقُضِىَ الأَمْرُ ، واسْتَوتْ عَلَى الجُودِىِّ ، وقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾ [هود : ٤٤]

يخبرنا الحق سبحانه أنه لما أغرق أهل الأرض كلهم إلا أصحاب السفينة ، أمر الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر السماء أن تقلع عن المطر (وغيض الماء) أى شرع فى النقص ، (وقضى الأمر) أى فرغ من أهل الأرض قاطبة ممن كفر بالله لم يبق منه ديار .. (واستوت) السفينة بمن فيها (على الجودى) وهو جبل بالجزيرة ، تشامخت الجبال يومئذ من الغرق . وتطاولت ، وتواضع هو لله عز وجل ، فلم يغرق ، وأرست عليه سفينة نوح عليه السلام .

• **قال قتادة** : قد أبقى الله سفينة نوح على الجودى من أرض الجزيرة – عبرة وآية ، حتى رآها أوائل هذه الأمة ، وكم من سفينة قد كانت بعدها فهلكت وصارت رماداً .

وفى رواية : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودى ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان – كما قال تعالى :

• ﴿ وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ في الفُلْكِ المَشْحُونِ . وخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُون – إلى قوله – وَمَتَاعاً إِلَى حِين ﴾ [يس : ٤١ – ٤٤]

وقيل بعداً وهلاكاً وطرداً وعذاباً أليما للقوم الظالمين .

يقول المفسرون : إن هذه الآيات من البلاغة بالمحل العالى ، والمكان المرموق .

ولما رأى نوح نهاية القصة ، وقد ختمت بهلاك الكافرين ، ومنهم **ابنه** ، ساوَرَته أحاسيس العطف على ابنه ، والأسف العميق على نهايته ، فنادى ربه فقال :

• ﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الحَقُّ ، وَأَنْتَ أَحْكَمُ الحَاكِمِين ﴾ [هود : ٤٥]

أى رب .. إن ابنى من أهلى ، وقد وعدتنى بنجاتهم ، وإن وعدك الحق ، وقولك الصدق ، وحكمك العدل ، وأنت خير الحاكمين ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ..

• ﴿ قال يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ ، فَلاَ تَسْأَلْنِّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تكُونَ مِنَ الجَاهِلِين ﴾ [هود : ٤٦]

مع الإيمان تنتفى علاقة الأبوة والبنوّة ، وتبقى علاقة واحدة هى التى تربط المؤمن بالمؤمن ، أو تفصل الكافر عن المؤمن ، وقد أكد الله سبحانه لنوح : أن ابنه ليس من أهله ، وأنه لن يرحم أحداً لمجرد أنه ابن لرسوله أو نبيّه ، ما دام عمله غير صالح ..

قال الله : يا نوح إن ابنك ليس من أهلك ، الذين أمرتك أن تحملهم معك ، لماذا ؟.. إنه عمل عملاً غير صالح ، وكفر بالله ورسوله ، ولا ولاية بين مؤمن وكافر مهما كان :

﴿ قَدْ كَانَتْ لكُم أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ في إبْرَاهِيمَ والَّذِينَ مَعَهُ ، إذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إنا بُرَآءُ مِنْكُم ﴾ [الممتحنة : ٤]

• فلا تَسْأَلْنِّ يا نوح فى شيء ليس لك به علم صحيح ، إنه حق وصواب ، إنى أعظك وأنصحك أن تكون من الجاهلين ، يسألون بطلان تشريع الله وقانونه ، وتقديره فى خلقه ، فهو العليم بهم البصير بشأنهم .

* إن الذى يلوح لى – والله أعلم – أن سؤال نوح كان بناء على أنه رأى ابنه فى معزل عن القوم ، فظن أنه ربما يكون قد آمن ، ودخل فى زمرة أهله ، وقد سهّل له هذا ما فى الإنسان من غريزة حب الولد ، فنوح عليه السلام – قد أخطأ فى الفهم والاجتهاد ، وكان عتاب الله له لأنه نبى ، وأن حسنات الأبرار تمحو سيئات المقربين .

• ﴿ قَالَ رَبِّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وإلَّا تَغْفِرْ لي وَتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِين ﴾ [هود : ٤٧]

قال نوح : رب .. إنى أعوذ بك وبجلالك أن أسألك ما ليْس لى به علم صحيح ، وإن لم تغفر لى وترحمنى ، وتقبل توبتى برحمتك التى وسعت كل شيء أكن من الخاسرين .

وهنا لنا وقفة لنقول : إن القرابة والأخوة فى الله أقوى من قرابة النسب ، وأن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، وأن ابن نوح حين كفر ، قد حكم الله

عليه بأنه ليس من أهله ، فالإيمان والصلاح لا علاقة له بالوراثة ﴿ كُلّ امْرِىءٍ بِمَا كَسَبَ رَهِين ﴾ [الطور : ٢١] وإن جزاء الإيمان الصالح من الأعمال ، يكون فى الدنيا غالباً ، وفى الآخرة حتما .

﴿ قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بسَلاَمٍ مِناً وبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وعَلَى أُمَمٍ ممَّنْ مَعَكَ ، وأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِناً عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [هود : ٤٨]

وقد كان ما كان من قصة نوح مع قومه ، التى انتهت بنجاة المؤمنين ، وهَلاَكِ الكافرين ، قيل بعد هذا : يا نوح اهبط من السفينة ، أو من على الجبل ، بعد أن كفّت السماء عن المطر ، وابتلعت الأرض الماء ، واستوت السفينة على الجودى .. إهبط مشمولا بسلام منا ، ومتمتعا بأمان وتحية من عند الله مباركة طيبة ، اهبط بسلام وبركات ونماء ، وسعة فى الرزق عليك وعلى أمم ممن معك من الخلق ، إنسانا كان أو حيواناً ، وأمم من ذرية من معك ، سيتمتعون بالخيرات والطيبات فى الدنيا والآخرة ، وأمم من الذرية سنمتعهم فى الدنيا ، ثم نضطرهم إلى عذاب أليم فى الآخرة ، وذلك لكفرهم وعنادهم .

وهكذا كان الخلق أولا من ذرية نوح مؤمنين صالحين ، متمتعين فى الدنيا والآخرة ، ثم خلف من بعدهم خلف ، أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، فسوف يلقون غَياً ، وسيمسهم منا عذاب أليم .

* إن الباحث المتأمل – فى عناصر هذه القصة ، إذا قرأ مجادلة المشركين مع نبى الله نوح ، يُحسُّ بأنه **يشاهد مشهداً مرئيا** ، لا أنه يستمع إلى كلام متلو ، فينتقل هو وعقله وجوارحه كلها إلى هذا المشهد العظيم ، الذى يصوّر عقلية الذين يجادلون ، وما يبذله الرسول ، وما يتحمله فى سبيل إقناعهم أو إلزامهم كلمة التقوى .

فلنتأمل معا مجادلة نوح عليه السلام لقومه ، وهم يجادلون فى الله ، ونوح يريد أن يهديهم بأمر الله تعالى : ﴿ ولقد أرْسَلْنَا نُوحاً إلى قَوْمِهِ إنِّى لكُمْ نَذِيرٌ مُبِين . ألَّا تَعْبُدُوا إلّا الله .. ﴾ [الآيات ٢٥ - ٣٣ من سورة هود]

هذا مشهد من مشاهد القول ، تجد فيه مناقشة قوية بين دعوة الحق ، وجحود أهل الباطل ، وتراه كأنه مصوّر أمام البصيرة ، وترى فيه صاحب الحق يدلى بالبينات ، والحق وحده أبلج ، وترى فيه أهل الباطل يتخذون من الحسّ دليلاً على الحق ، وحسهم كاذب ، فيستدلون على أن الدعوة ليست دعوة حق بأن أتباعها هم الفقراء الأرذلون فى أعينهم ، الذين يزدرونهم . ونوح عليه السلام يجادلهم بالتى هى أحسن ،وهو يسوق البينات ، ولكنهم يتبرّمون بدعوة الحق .

ولاشك أن العبارات القرآنية - لا تدل على المعانى المقصودة فقط . بل وضعت بالألفاظ ومعانيها وأطيافها فى بيان مصّور يسكن به الخيال والنفس ، كأنه واقع محسوس ، لا قصص متلو فقط .

وبعد ذلك بيّن الله لنوح عليه السلام ، أنهم لا يؤمنون ، ولم يبق إلّا إنزال العقاب بهم .

ولنتأمل **صورة العقاب** .. نراه قصصا مجرداً ، **ولكنه مشهد واضح بيّن يصل إلى درجة المرئى للقارىء المتنبه** . اقرأ قوله تعالى :

﴿ وأُوحِىَ إلَى نُوحٍ أنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ بِمِاَ كَانُوا يَفْعَلُون . واصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِناَ وَوَحْيِناَ ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إنَّهم مُغْرَقُون .. ﴾ [الآيات ٣٦ - ٤٨ من سورة هود]

ذلك هو بعض قصص نوح عليه السلام من وقت أن يئس من إيمانهم ، وأخبره ربه العليم الحكيم - أنه بلّغ الحجة ، وحقق الرسالة ، وأنه لن يؤمن أحد من قومه لم يكن قد آمن ، وأن العقاب نازل لا محالة .

* **ونرى كل نصّ من نصوص هذا الجزء من القصة مصوراً بيانيا** ، لما أنزله الله تعالى :

• **فنرى جزءًا يصور كيف أخذ نوح يبنى سفينته** ، والقوم ينظرون إليه ساخرين غير عالمين بالعاقبة التى تنتظرهم ، والغاية التى قدّرها الله تعالى من هذا البناء ..

• **والخيال يرى الصورة وراء العبارات ، كأنها بين يديه حقيقة بالعيان ،** وليس خبراً من الأخبار ، وإن كان يذكر فى أعلى صور القصص المصور .

• **ثم نرى الإيذان بالابتعاد عن موطن الغرق ، وقد فار التَّنور** ، وإننا قد ندرك من هذا أنها كانت تسير بالبخار ، إذْ فار التنور فتحركت بعد أن فار ، والله تعالى أعلم بمراده ، وإن كان اللفظ دالاً ، **بل هو مصوّر لتنور فار فحرك ببخاره ما حرك من آلات تسير السفينة ، وتجرى بهم فى موج كالجبال** .

والقارىء يرى فى هذا صوراً تثير الخيال ، وتجعل الخبر مرئيا أو كالمرئى ، وإن ذكر المَوْج فى هذا المقام يصور كيف كان السيل عارماً ، وأنه لم يكن غَيْثاً حتى لم يبق إلّا من خرج بالسفينة نجيّا .

* **ثم نجد فى ذلك القصص أمرا معنويا كأنه ملموس ، وهو حنان الأب ، ورفقه بولده** . فقد رأينا فى نوح المجاهد عاطفة الأبوة تعلو .. فينادى ابنه ، وكأننا نسمع النداء فى مشهد من مشاهد الأبوة . ثم نجد الإبن وقد غرّه غرور الصبا ، والابتعاد عن التصديق ، حتى حسب أنه بمنجاة من الغرق إذا اعتصم بجبل آوى إليه ، وحال بينه وبين أبيه الموج ، فكان من المغرقين ، والأب تنفطر نفسه ، فتغلبه شفقة الأبوة عن رؤية أمارات الموت ...

ويتجه إلى ربه حزينا باكيا إذ نجا أهله إلا ابنه ، فيقول – **وكأننا من فرط التصوير نسمع أنين الأب** ، بعد أن نجا كُلّ مَنْ فى السفينة ، وقد استوت فى طريقها ، وهلك الظالمون ، يضرع إلى ربه يقول : (إنّ ابْني مِنْ أَهْلِي) ، وكان قد وعده ربه بأن ينجى أهله ، فيقول : إن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين ..

وهنا نجد رب العالمين يبين أنه داخل فى عموم الكافرين ، لأنه كَفَر ، وأهلك هم الذين آمنوا ، ولم يعارضوك ، ويقول سبحانه :

﴿ إنَّهُ لَيْسَ من أَهْلِكَ ، إنَهُ عَمَلٌ غَيْر صَالِحٍ ، فَلاَ تَسْأَلَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إنِّى أَعِظُكَ أَنْ تكُونَ مِنَ الجَاهِلِين ﴾

تعارض العطف مع الواجب ، فتحت قوة العاطفة الأبوية ، نطق بما نطق ، فنبّهه الله تعالى إلى الواجب ، ولم ينبه غافلا ، ولكنه نبّه يقظا مؤمنا ضارعا ، وإن كان قد ناجى ربه بصوت البشرية ، فثاب وقال :

﴿ رَبِّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مالَيْسَ لي بهِ عِلْمٌ وَإلَّا تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الخَاسِرِين ﴾

* * *

الفصل الخامس

خليلُ الرَّحمَنِ .. أبو الأنبياءِ .. وَوَلَدُهُ الذَّبيح

يتفق أكثرُ العلماء والباحثين ، القدماء والمحدثين [1] على أن أساس الدين الفطرة ، وأساس الفطرة (**التوحيد**) وأن التوحيد قديم منذ الأزل ، وهو أساس كل دين ، وأن العرب من عدنان وقحطان ، كانوا قبل ظهور (**عَمْرو بن لُحَىّ الخُزَاعى**) فيهم ، على بصيرة من أمرهم ، يتعبدون بشريعة **خليل الرحمن** ، **إبراهيم** ﷺ « **التوحيد** » وقد تلقوها عن ولده نبى الله تعالى (**إسماعيل**) عليه الصلاة والسلام ، وهى **الحنيفية** .

● **كانت دعوة التوحيد التى نادى بها إبراهيم هى الفتح الجديد فى تاريخ العقيدة** . فهو لم يبدأ عقيدة التوحيد ، ولم يبدأ عقيدة الفداء ، ولم يبدأ عقيدة البقاء ، ولكنه بدأ « **بالدعوة النَّبويّة** » فاصطبغت العقائد بصبغتها ، حتى كأنها لم تُسمع قط قبل ذلك فى عهود الكهانات والهياكل .

● كان توحيد إبراهيم عليه السلام – كما يقول العقاد [2] : « إيمانا يعلو على ملوك الأرض ، ونجوم السماء ، ويتساوى عنده الخلق جميعا ، لأنه أعلى من كل

---

(١) الألوسى : بلوغ الأدب ١٩٤/٢ ، والدكتور محمد عبد الله دراز : الدين . طبع دار القلم ، وكارل بروكلمان : العرب والامبراطونية العربية ترجمة الدكتور نبيه فارس ط . بيروت ، ويرى فريق من علماء الغرب – أن التوحيد نشأ أولا عن طريق عقيدة الخالق الأكبر ، وأن الوثنيات ما هى إلا عوارض طارئة بجانب هذه العقيدة الخالدة وهذه هى نظرية (فطرية التوحيد) التى انتصر لها علماء الأجناس وعلماء الإنسان ومن أشهرهم لانج وبروكلمان – الذى أثبت وجود عقيدة الإله الأعلى عند الساميين قبل الإسلام .

(٢) أبو الأنبياء ص٣٠٩ .

عالٍ فى الأرضين ، أو فى السماوات ، ولكنه قريب من كل إنسان ولم يكن (**يهْوَا**) إله إبراهيم ، لأن قوم إبراهيم لم يذكروا (يهوا) من بعده قبل خروجهم إلى سيناء ، كما صرحت بذلك التوراة الأولى ، ولكنه كان هو الإله (**الإيل**) وإليه يُنسب ابنه (**إسماعيل**) . وكان هو العَلِىّ (**عَلْيُون**) وعلى محرابه قدم قربانه إلى **ملكى صادق** بعد نزوله بكنعان ، فهو إله لا فرق عنده بين وطن قديم ، أو وطن جديد ، ولا فضل لديه لعشيرة ابراهيم على عشيرة ملكى صادق ، ولا على غيرها من عشائر بنى آدَم بغير التقوى والإيمان » .

• كانت دعوة إبراهيم الخليل - ﷺ - صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لُغزاً يخفى وتتحاجى به العقول ، كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الميلاد ، ولم تزل حتى أصبحت صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء .

• ولم يصبح كذلك قبل رسالة النبوة ، حين انبعث بها النبى أبو الأنبياء ، حين بشّر بها إبراهيم ، وما كان لنبوّة واحدة أن تؤدى رسالة التوحيد ، وتفرغ منها فى عُمْر رجل ، أو عُمر جيل ، **وإنما هى نبوة بعدها نُبوّات** فما من عقيدة دينية ظهرت للناس طفرة بغير سابقة ، وما من عهدين من عهود الإيمان إلّا وبينهما تمهيد وتعقيب ، ولكن الأمانة التى اضطلع بها الخليل إبراهيم حادث جديد ، لم تعرف له سابقة فيما وَعَيْنَاه من تاريخ الأديان ، ذلك الحادث الجديد هو **أمانة الرسالة النبوية** ، أمانة نفس حيّة تخاطب نفوساً حيّة بإسم الإله ، الذى يتوجه إليه عبادُه فى كل مكان ، أمانة نفس تخاطب النفوس ، ولا تخاطبهم من وراء المحاريب والهياكل ، وَلا بسلطان من نظام الدولة أو الكهانة ، ولكنها نداء ضمير إلى ضمير .

• وهذه الدعوة تستلزم وجود (**هداية شخصية**) أو تستلزم **وجود إبراهيم متصلا بمن بعده** ، لأنها سلالة من دعوات لا يتصورها العقل ، على غير مثالها الفريد فى تواريخ الأديان .

هذه الدعوة هى (**الحنيفية**) . قال عنها النبى المصطفى ﷺ :

« أَحَبُّ الأَدْيَان إِلَى اللهِ الحنِيفِية السَّمْحَة » [متفق عليه]

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « بُعِثْتُ بالحنيفيّة السَّمْحة – أو البيضاء – ملّة ابراهيم الخليل – ﷺ » [متفق عليه]

• **وهذه الحنيفيّة – ملّة إبراهيم – كان لها شرائع متوارثة** ، منها : « الإيمان بالبعث ، والحساب ، والمَلَكَيْن الكاتبين ، **وحجّ البيت** ، والختان ، والنكاح ، وإيقاع الطلاق إذا كان ثلاثا ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والصهر والنَّسب ، والغُسْل من الجَنَابة ، ودِيَّة النفس مائة من الإبل » [1] .

• **وكان لها أيضا سُنَن** : هذه السنن هى **المداومة على طهارات الفطرة** ، وهى خمس فى الرأس ، وخمس فى الجسد

– **فأما التى هى فى الرأس** : فهى المضمضة ، والاستنشاق ، وقصّ الشارب ، والفرق ، والسواك .

– **وأما التى فى الجسد** : فهى الاستنجاء ، وتقليم الأظافر ، ونَتْف الإبط ، وحَلْق العَانَة ، والختان [2] .

---

(١) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ص١١١ط الأزهرية .

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ٩٤/٣ وانظر تاريخ الطبرى ٤١٤/١

وهى أمور جعلها بعض المفسرين من كلمات إبراهيم ، التى ذكرت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فأَتَمَّهُنّ ﴾ [البقرة : ١٢٤] . وقد قرَّر الإسلام فيما بعد هذه الأمور جميعا وجعلها من السنن التى يُقتدى بها ، ولا يصح التّخلى عنها . خاصة ما يتصل منها بشعائر الحج ومناسكه ، فهذه الشعائر والمناسك ترتبط أكثر ما ترتبط بما هو موروث عن الحنيفية السمحة ، ملّة إبراهيم ، يوم كُلّف بها إبراهيم – عليه الصلاة والسلام ، حين سأل ربَّه أن يُريه مناسك الحج : ﴿ وَأَرِنا مَناسِكَنا ، وَتُبْ عَلَيْنا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرحِّيم ﴾ [البقرة : ١٢٨] فأمره ربه أن يبنى الكعبة هو وابنه إسماعيل :

﴿ وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ وإِسْمَاعُيل رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِناً إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] ثم علَّمه ربه كَيْفَ يؤدى المناسك ..

• يقول أبو الفدا : « ولما أمر الله إبراهيم عليه السلام ببناء الكعبة ، وهو بيت الله الحرام ، سار من الشام ، وقدم على ابنه إسماعيل مكة ، وقال : يا إسماعيل : إن الله تعالى أمرنى أن أبنى له بيتا ، فقال إسماعيل : أَطِعْ ربك فقال إبراهيم : وقد أمرك أن تعيننى عليه ، قال : إذن أَفْعَل ، فقام إسماعيل معه ، وجعل إبراهيم يبنيه وإسماعيل يناوله الحجارة ، وكانا كلما بنيا دَعَوْا فقالا : رَبَّنا تَقَبَّلْ منا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ . وكان وقوف إبراهيم على حجر وهو يبنى ، وذلك الموضع هو مقام إبراهيم ، واستمر البيت على ما بناه إبراهيم إلى أن هدمته قريش سنة خمس وثلاثين من مولد رسول الله ﷺ » [١] .

---

(١) انظر تاريخ أبى الفداء – قصة إبراهيم وبناء الكعبة . وانظر قصص الأنبياء للنيسابورى الثعلبى ص٨٥

وهذه المناسك أبقى عليها الإسلام تماما ، وعلمنا إياها رسول الله - ﷺ - فى حجة البلاغ أو حجة الوداع - وقال : « لتأخُذُوا عَنِّى مناَسِكَكُم » [متفق عليه] ، وهى : الطواف ، والسعى ، والوقوف بعرفة ، ورمى الجمار ، وذبح الهدى ... إلخ .

وكانت كل شعيرة من هذه الشعائر ترتبط بموقف كان إبراهيم طرفاً فيه ، أو ابنه إسماعيل ، أو زوجته هاجر .

• **فالسعى** : تخليد لذكرى سَعْى هاجر أم إسماعيل جدّ العرب ، وترددها بين جبلى الصفا والمروة ، وهى حائرة ملتاعة تبغى إنقاذ وليدها إسماعيل من العطش .

• **والشرب من زمزم** : تخليد لذكرى شربها وهى ظمآنة ، بعد أن أنزل الله جبريل عليه السلام ، ليقول لها : لا تخافى الضيعة ، فإن ههنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله .

• **وذبح الهدى والأضحية** : حيث يتقرب بها المسلم إلى ربه عز وجل لتكون تكفيرا لما جنته يداه من الذنوب والآثام هى فى الوقت نفسه تخليد يحمل فى طياته (**ذكرى الفداء**) ذكرى إقدام الخليل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - على ذبح ولده ، امتثالا لأمر ربه ، حين أمره بذَبْح ولده - فى المنام - اختباراً لقوة إيمانه ، ومقدرته على تحمّل التضحية ، والصبر على البلاء المبين ، حين بُشّر بغلام حليم :

﴿ فَلَماَّ بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ قالَ : ياَ بُنَىَّ إِنِّى أَرَى فِي المَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فانْظُرْ ماَذَا تَرَى ؟ قال : ياَ أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللهُ من الصَّابِرِينَ . فلماَّ أَسْلَماَ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْياَ إناَّ كَذَلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِين . إنَّ هَذَا لَهُوَ البَلاَءُ المُبين . وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ . وتَرَكْناَ عَلَيْه في الآخِرِينَ . سَلاَمٌ عَلَى إبْرَاهِيم . كَذَلِكَ نَجْزِى المُحْسِنِين ﴾

[الصافات : ١٠٢ - ١١٠]

وهنا نكون قد وصلنا إلى غايتنا ونقطة إنطلاقنا ..

*** فمن هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل ؟ .. أم إسحاق ؟ عليهما الصلاة والسلام .**

روى كثير من المفسرين ، منهم ابن جرير الطبرى ، والبغوى ، والسيوطى ، روايات كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين وكعب الأحبار .. أن الذبيح هو **إسحاق** . ولم يقف الأمر عند الموقوف عن بعض الصحابة والتابعين ، بل رفعوا ذلك إلى النبى ﷺ .

١ – فقد روى ابن جرير – بإسناد طويل – عن **الحسن بن دينار** ، عن **على بن زيد بن جدعان** ، عن الأحنف بن قيس ، عن العباس بن عبد المطلب ، عن النبى – ﷺ – « قال : الذبيح إسحاق » .

٢ – وأخرج الدَّيلمى بسنده عن أبى سعيد الخدرى ، قال : « قال رسول الله – ﷺ : إن داود سأل ربَّه مسألة ، فقال : اجعلنى مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فأوحى الله إليه : إنى ابتليت إبراهيم بالنار فصبر ، وابتليت إسحاق بالذِّبح فصبر ، وابتليت يعقوب بالعمى فصبر » .

٣ – وأخرج الدارقطنى والدَّيلمىّ – فى مسند الفردوس – بسندهما ، عن ابن مسعود ، قال : « قال رسول الله – ﷺ – الذبيح إسحاق » .

٤ – وأخرج الطبرانى فى الأوسط بإسناد – عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبى هريرة – أن النبى ﷺ قال : « إن الله – تعالى – خيّرنى بين أن يغفر لنصف أمتى أو شفاعتى ، فاخترت شفاعتى ، ورجوت أن تكون أعم لأمتى ، ولولا أن سبقنى إليه العبد الصالح لعجّلت دعوتى ، إن الله تعالى – لمّا فَرَّجَ عن (إسحاق) كَرْب الذبح ، قيل له يا اسحاق : سَلْ تُعْطَه .. قال : أما والله لأتعَجَّلَنْها قبل نزغات الشيطان اللهم من مات لا يشرك بالله شيئا ، قد أحسن فاغفر له » .

*** والباحث المدقِّق فى كتب الرِّجال ، وكتب الصحاح المعتمدة ، يجد أن هذه الأحاديث كلها ضعيفة ، موضوعة ، وسلاسل الإسناد لها مطعون فيها .**

• **فالحديث الأول** – الذى رواه ابن جرير – ضعيف ساقط ولا يصح الاحتجاج به ، فالحسن بن دينار – راويه – متروك وشيخه على بن زيد بن جدعان منكر الحديث .[1]

• **والحديث الثانى** – الذى أخرجه الديلمى ، **والحديث الثالث** ، الذى أخرجه الدارقطنى والديلمى ، من الأحاديث الضعيفة التى تصح ولا تثبت ، كما أن أحاديث الديلمى – فى مسند الفردوس – شأنها معروف ، أضف إلى ذلك أن الدارقطنى ربما يخرج فى سننه ما هو موضوع .[2]

• **والحديث الرابع** : الذى رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف ، وعبد الرحمن نفسه مطعون فى أمانته وعلمه ، لأنه يروى المنكرات والغرائب فلا يحتجّ بمروياته .

وقال ابن كثير عن هذا الحديث : **الحديث غريب منكر** ، وأخشى أن يكون فيه زيادة مدرجة وهو قوله : (إن الله لما فَرّجَ ..) فالأشبه أنه (**إسماعيل**) وحرَّفوه بإسحاق .

نقول : إن المرويات فى أن الذبيح (إسحاق) واضح فيها أنها من

---

(١) تفسير البغوى ج٧ ص١٥٤ وانظر تفسير ابن كثير للآيات .

(٢) انظر أعلام المحدثين للمرحوم الشيخ محمد محمد أبى شهبة .

الإسرائيليات المدسوسة ، التى تسربت ونقلها من أسلم من اليهود ، **ككعب بن الأحبار** ، وحملها عنهم بعض الصحابة والتابعين ، تحسينا للظن بهم ، يوم أن منحهم الرسول الكريم الرُّخصَة ، وقال لهم : « لا تُكَذِّبوا أَهْلَ الكتابِ ولا تُصَدِّقُوهم وقُولُوا ربُّنا وربّكم الله » فقد نُسب كثير من هذا كذبا إلى الصحابة ، والسلف الصالح – **كابن عباس ، وابن مسعود وأُبىّ بن كعب** – وغيرهم ، ممن عرفوا بالثقة والعدالة ، واشتهروا بين المسلمين بالتفسير والحديث ، وقد تم دخول هذه الإسرائيليات فى تفسير القرآن الكريم بسهولة ويُسر بالغين ، منذ الصدر الأول ، ولم يَحل دُون ذلك شهادة القرآن على اليهود بتقوّلهم على الله ، وتزييفهم التوراة ، قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بالكِتاَبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الكِتاَبِ وماَ هُوَ مِنَ الكتاَبِ ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وماَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله ، وَيقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ [آل عمران : ٧٨]

ولقد اغترّ كثير من العلماء بما قرأوه من روايات غير صحيحة ، عن الصحابة والتابعين ، فذهبوا إلى أن الذبيح (إسحاق) عليه السلام . وما من كتاب من كتب التفسير والتاريخ – إلّا ويُذكر فيه الخلاف بين السلف فى هذا إلّا أن منهم مَنْ يُعقّب ببيان وجه الحق فى هذا ، ومنهم مَنْ لا يعقّب اقتناعا بها .

* والحقيقة أن هذه المرويات – كما قلنا – من دسّ ووَضْع أهل الكتاب – خاصة اليهود – لعداوتهم المتأصلة من قديم الزمان للنبى الأمىّ العربى – ﷺ – وقومه العرب ، ذلك أنهم أرادوا أن لا يكون لإسماعيل – الجد الأعلى للنبى – وللعرب ، فَضْل فى أنه الذبيح ، حتى لا يَنْجَرّ ذلك إلى النبى ، وإلى الجنس

العربى .. من أجل ذلك حرفوا كتابهم المقدس – التوراة ، إمعانا فى التضليل ، وإضماراً للحقد ، وإبرازاً لفضل جدهم (**إسحاق**) عليه السلام على أخيه الأكبر (**إسماعيل**) .

• **بيد أن عناية الله أَبَتْ إلّا أن يُنْسَب الفضل لأَهْلِه ، فلم تغفل عن هذا** التضليل والتزوير . وحكمة الله – أن يترك الجانى دائما من البصمات والآثار ما يدل على جريمته ، وإرادته – سبحانه – أن يبقى دائما للحق شعاع – ولو خافت يرشد إليه ، مهما حاول المضَلِّلُون إخفاء نوره وطمس معالمه ..

وهذا هو الدليل :

١ – **جاء فى التوراة** [الإصحاح الثانى والعشرون – فقرة ٢]

« فقال الرب : خُذْ ابنَك **وحيدَك** الذى تحبه : **إسحاق** ، واذهب به إلى أرض المرايا ، وأصعده هناك مَحْرَقة على أحد الجبال ، الذى أقول لك ... » [١]

* وليس أدل على التحريف من كلمة (**وحيدك**) ، فإسحاق عليه السلام ، لم يكن وحيداً لأبيه إبراهيم ، **فقد وُلد وإسماعيل فى نحو الرابعة عشرة** ، كما هو مذكور فى توراتهم ، وقد بقى إسماعيل عليه السلام حتى مات أبوه إبراهيم وحضر وفاته ودفنه .

٢ – **جاء فى سفر التكوين** [الإصحاح السادس عشر الفقرة ١٦] **ما نصه :**

« وكان أبرام (أى إبراهيم بالعبرية) ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر **إسماعيل** لأبرام »

---

(١) تفسير البغوى ١٥٤/٧ ، وتفسير ابن كثير .

٣ – **وجاء فى سفر التكوين** [الإصحاح الحادى والعشرون – الفقرة ٥] **ما يلى :**

« وكان أبرام ابن مائة سنة ، حين ولد له **إسحاق** ابنه » .

٤ – **وجاء فى سفر التكوين** [الإصحاح الحادى والعشرون – الفقرة ٩] **ما نصه :**

([١] – ورأت سارة (ابن) هاجر المصرية ، الذى ولدته لإبراهيم يمرح [٢] فقالت لإبراهيم أطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابنى إسحاق [٣] فقبح الكلام جداً فى عينى إبراهيم لسبب ابنه [٤] فقال الله لإبراهيم : لا يقبح فى عينيك من أجل الغلام ، ومن أجل جاريتك ، فى كل ما تقول سارة اسمع لقولها لأن بإسحاق يدعى لك نسل [٥] وابن الجارية أيضا سأجعله **أمة لأنه نسلك** .. إلى آخر النص .

وكتاب الله الكريم – القرآن العظيم – خير شاهد على ما جاء فى الكتب السماوية الأخرى ، فهو المهيمن عليها ، وقد صدق على ذلك ، فقال حكاية لمقالة إبراهيم وإسماعيل بعد أن بنيا البيت :

﴿ رَبَّنَا واجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذرِيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ [البقرة : ١٢٨]

ولو أن اليهود وَعَوْا ما جاء فى القرآن والتوراة ، لعلموا أنه ستكون أمة لها شأنها من نسل إسماعيل . ولَماَ حَسَدُوا العرب على هذا الفضل .. **فكيف يتأتى أن يكون إسحاق وحيداً ؟**

*** فإذا كان الذبيح هو إسماعيل .. فما الدليل على ذلك ؟**

إن القرآن الكريم والسُنّة المطهرة فيهما الردَّ الكافى الشافى لهذا الموضوع ..

*** ففى القرآن الكريم : الدليل على أن الخليل إبراهيم – ﷺ – أسكن هاجر وابنها الوليد إسماعيل عند مكان البيت المحرّم :**

﴿ رَبَّناَ إنِى أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيتي بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عنْدَ بَيْتِكَ المحرَّمِ ، رَبَّناَ لِيُقِيموا الصَّلاةَ ، فاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إليهم ، وَآرْزُقْهُم مِنَ الثَّمرَاتِ لَعَلَّهُم يَشْكُرُون ﴾ [إبراهيم : ٣٧]

• ثم بنىَ إبراهيمُ البيت – تنفيذا لأمر ربه ، وساعده إسماعيل وهو غلام فى بنائه ، وقامت مكة بجواره :

﴿ وَإِذْ يرفَعُ **إبْرَاهِيمُ** القواعِدَ مِنَ البَيْتِ **وإسماعيل** ، رَبَّناَ وتَقَبَّل مِناَّ إنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧]

وأيدت ذلك التوراة ، فقالت : إنهما كانا فى (**بريّة فأرَان**) وفاران هى **مكة** كما يُعبرُّ عنها فى العهد القديم . وهذا هو الصحيح – فى أن قصة الذبح كانت بعد ذلك ، وكان مسرحها **بمكة ومنى** ، وفيها يذبح الحجاج ذبائح الأضحية إلى اليوم .

* والعجيب فى الأمر – أن اليهود حرفوا هذا النص وجعلوه (**جبل المَرْيا**) وهو الذى تقع عليه مدينة **أورشليم** القديمة ، مدينة القدس العربية اليوم ، ليحققوا هَدَفَهم فى زعمهم أن الذبيح إسحاق . وهذا ما أظهر تحريفهم ، وهذا ما فضحه القرآن :

﴿ إنَّ أَوْلَى الناسِ بإبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبعُوه وهذا النَّبِىّ والَّذِينَ آمَنُوا واللهُ ولِىّ المُؤْمِنِين . وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونكُمْ ومَا يُضِلُّونَ إلَّا أَنْفُسَهُم وَماَ يَشْعُرُون ﴾ [آل عمران : ٦٨ ، ٦٩]

* **أما السنة المطهرة** : فقد دلّت الأحاديث النبوية الشريفة ، والآثار عن الصحابة والتابعين ، ما يثبت أن الذبيح هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ومنها ما يلى :

١ - ما روى عن النبى ﷺ أنه قال : « أنا ابن الذَّبِيحَيْن » [١] يعنى جدّه الأعلى إسماعيل وأباه .

٢ - روى عبد الله بن سعيد الصنابحى قال : حضرنا مجلس معاوية ، فتذاكر القوم (إسماعيل وإسحاق) أيهما الذبيح ! فقال بعضهم : **إسماعيل** ، وقال البعض : **إسحاق** ، فقال معاوية : على الخبير سقطتم . كنا عند رسول الله - ﷺ - فأتاه أعرابى ، فقال : يا رسول الله خلّفت الكلأ يابساً ، والمال عابساً ، هلك العيال ، وضاع المال ، فعُدْ علىّ مما أفَاء الله تعالى عليك « **يا ابْنَ الذَّبِيَحين** » .

فتبسمّ رسول الله - ﷺ - ولم ينكر عليه ، فقال القوم : **مَنْ الذبيحان يا أمير المؤمنين ؟**

فقال : إن عبد المطلب لما أُمر بحفر زمزم نَذَر لله إن سَهّل أمرها أن ينحر بعض بنيه ، فلما فرغ أُسْهَم بَيْنَهم (أى اقترع) ، فكانوا عشرة ، فخرج السهم على (**عبد الله**) فأراد أن ينحره ، فمنعه أخواله بنو مخزوم ، وقال :إرضِ ربَّك ، وافْدِ ابنَك ، ففداه بمائة ناقة ، قال معاوية : هذا واحد ، والآخر (**إسماعيل**) . [٢]

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك وصححه وقال حديث حسن ، وذكره الزمخشرى فى كشافه عند تفسيره الآيات (١٠١-١٠٧) من سورة الصافات وذكره النسفى أيضا .

(٢) رواه ابن جرير فى تفسيره بسنده عن عبد الله بن سعيد .

٣ - وروى ابن إسحاق ، عن محمد بن كعب القرظى ، أنه ذكر لعمر ابن عبد العزيز - وهو خليفة - فقال له عمر : إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه ، وإنى لأراه كما قلت . ثم أرسل إلىّ رجلا كان **يهوديا** فأسلم وحَسُن إسلامه ، وكان من علمائهم ، فسأله : أى بنى إبراهيم أُمر بذبحه ؟ فقال : **إسماعيل** ..

والله يا أمير المؤمنين ، وإن يهود لتَعْلَم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب ، وهذا هو الحق الذى يجب أن يُصار إليه .

• **قال ابن كثير** معلقا : « **والذى استدل به محمد بن كعب القرظى ، على أنه إسماعيل أثبت وأصحّ وأقوى** والله أعلم » [1]

• **ويضيف العلامة ابن القيِّم** : « ولا خلاف بين النسَّابين أن **عدنان** من ولد **إسماعيل** عليه السلام ، و « **إسماعيل » هو القول االصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم . وأما القول بأنه إسحاق فباطل من عشرين وجها** ، وقد نقل ابن القيم عن شيخ الإسلام ابن تيمية فى هذا الموضوع تحليلا دقيقا ، جاء فيه :

« هذا القول متلقى عن أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : (إن الله أمر إبراهيم بذبح ابنه (بِكْرِهِ) وفى لفظ (وَحِيدِهِ) ، ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن (**إسماعيل**) هو بِكْر أولاده - أى أوّلهم .

والذى غَرَّ هؤلاء : أنه فى التوراة التى بأيديهم : (إذبح ابنك إسحاق) ، قال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم لأنها تناقض قوله : (اذْبح بِكْرَك ووحيدك) . ولكن اليهود حَسَدَتْ بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبّوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، ويأْبى الله إلّا أن يجعل فضله لأهله .

---

(١) تفسير ابن كثير للآيات ، وانظر تفسير البغوى ١٠٦/٧

• وكيف يسوّغ أن يقال : إن الذبيح إسحاق ؟ والله تعالى قد بشّر أم إسحاق به وبابنه يعقوب ، قال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ، وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] فمحال أن يبشرها بأن يكون لها ولد ، وللولد ولد ، ثم يأمر بذبحه .

• ويدل عليه أيضا : « أن الله ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى سورة الصافات ، ثم قال : ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا من الصَّالِحِين ﴾ [الآية : ١١٢] وهذا ظاهر جداً فى أن المبشّر به غير الأول ، بل هو كالنَّصّ فيه ، وغير معقول فى أفصح الكلام وأبلغه أن يُبَشّر **بإسحاق** ، بعد قصة يكون فيها هو الذَّبيح ؟ فتعَيّن أن يكون الذبيح غيره .

• وأيضا – فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جُعلت القرابين يوم النحر بها – كما جعل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، تذكيراً بشأن إسماعيل وأمه ، وإقامته لذكر الله ، ومعلوم إن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحاق وأمه ، ولو كان الذبح بالشام – كما يزعم أهل الكتاب ، لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة .

• وأيضا ، فإن الله – سبحانه – سَمَّى الذبيح (حَلِيماً) ، لأنه لا أحلم ممَّن أُسْلَمَ نفسه للذبح طاعة لربِّه ، ولماذُكر (إسحاق) سماه (عليما) : ﴿ قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨]

وهذا إسحاق بلا ريب ، لأنه من امراته وهى المَبَشَّرة به ، وأما (إسماعيل) فَمِن السَّرِيّة – أى الجارية .

• وأيضا – فلأنهما بُشِّرا به عَلَى الكِبَر واليَأْسِ مِنَ الوَلَدِ ، فكان ابتلاؤهما بذبحه أمراً بعيداً ، وأما **إسماعيل** فإنه وُلد قبل ذلك .. » إلى آخر ما قال . [1]

---

(١) انظر زاد المعاد ج١ ص ٢٨-٣٠

* ومن الطبيعى أن يؤيد المستشرقون ما جاء عن اليهود ، ويُفَلْسِفُوه بطريقتهم المعهودة .. وقد بَنُوا فكرتهم وفلسفتهم على عامل هام ، **وهو اعتقادهم بعدم ظهور نبوة عند العرب قبل النبى المصطفى** ﷺ ، بيد أن هذا الأمر لم يَخْفَ على المؤرخين والباحثين المسلمين ، الذين أدركوا ذلك ، وكشفوا آثار الأيدى الدخيلة المضللة ، المزيفة للحياة الدينية للعرب الجاهلين ، إذ نجد فى رواياتهم إشارات عديدة إلى ذلك .

• فإلى بعض الأحبار (اليهود) نسبوا انتشار اليهودية فى اليمن ودخول بعض تبابعتها فى هذا الدين .

• وإلى افتيموس نسبوا دخول النصرانية إلى اليمن .

• وإلى أثر الحيرة فى بعض أهل مكة من قريش عزوا دخول الزندقة فى مكة ، وفى نواحى عديدة من الجزيرة العربية ، بعضهم أرسلهم القياصرة للتبشير ، ولم يكن ذلك التبشير خالصا لوجه الله والدين ، وإنما كان يخفى وراءه غايات سياسية وتجارية هى أهم درجة ، ومنزلة للقياصرة من الدين . [١]

– والذى يلوح لنا الآن ، أن هؤلاء المستشرقين قد بنوا رأيهم على فكرة خاطئة وهى – كما قلنا – **عدم ظهور نبوّة عند العرب الجاهليين** ، إذْ أن المعروف عند الأكثرين منهم أن النبوة كانت احتكاراً خاصا ببنى إسرائيل ، وأن العرب لم تعرف نبياً قبل الرسول ﷺ :

ولكن القرآن الكريم يخالف هذا الرأى ويَفَنّد مزاعمه :

• فسيدنا (**هود**) عليه السلام نبى عربى أرسل إلى قوم عرب من العرب

---

(١) د . جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٥٧/٦

العاربة ، جاءهم بلسانهم وحدثهم بلغتهم :

– ﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾
[هود : ٥٠]

– ﴿ وَلَماَّ جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه بِرَحْمَةٍ منا ﴾
[هود : ٥٨]

● و « **صالح** » عليه السلام ، نبى عربى آخر أرسل إلى قوم عرب هم من العاربة الأولى كذلك ، هم قوم ثمود .

– ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً ، قاَلَ يا قوم اعْبُدُوا اللهَ ماَ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُه ﴾ [هود : ٦١]

– ﴿ فلَماَّ جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً ، والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمةٍ مِنَّا ﴾
[هود : ٦٦]

* والإشارة فى القرآن إلى **نبيين عربيين** فى معرض مخاطبة الجاهلين ، فيها دلالة على أن نبوّة هذين النبيين كانت معروفة عند بعض الجاهلين ، إذ لا يعقل مخاطبتهم بشىء لا يعرفونه ، وهم فى جهلٍ من أمره ، ثم إن الموضوع الذى ذُكّروا به موضوع يخص **قوما عرباً** ، وهو ليس من قصص الأنبياء الواردة فى التوراة أو الإنجيل ، حتى نقول إنه تذكير لهم بما ورد فى الكتاب المقدس من سير الرسل والأنبياء ، حتى أن قدماء أهل الأخبار – ممّن كانوا يلجأون إلى أهل الكتاب للأخذ منهم فى موضوع سيَر الرسل والأنبياء بشرح ما جاء عنهم مقتضبا فى القرآن الكريم ، لم يجدوا أشياء لسد الفراغ الذى شعروا به فأوردوا قصصهم عن قوم عاد وثمود ، ولم يوردوا شيئا – ولو كان مُحرّفا – من هذه الأسماء الواردة عند العبرانيين . [1]

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ٣٥٩/٦

الفصل السادس

ذُو القَرْنَيْن .. وَبنَاءُ سَدِّ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوج

لم يعرف العرب من أخبار « **ذى القرنين** » شيئا ، إلّا بعد أن أوحى الله سبحانه إلى نبيّه الأمّى بقصته وأخباره ، فى معرض رد القرآن على أسئلة أهل الكتاب ، حول أهل الكهف ، والخضر صاحب موسى ، وذى القرنين ، وهذه الأمور الثلاثة .. هى التى جعلها اليهود الفيصل فى الحكم على صدق محمد ، وكونه نبياً مرسلا من رب العالمين أم لا ..؟

• **فردّ القرآن الكريم** .. ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ وَعِبَراً وَمَوْعِظَة ﴿ إناَّ مكَّناَّ لَهُ فِي الأَرْضِ ﴾ وجعلنا له قدرة ومكنة على التصرّف فيها ، وآتيناه من أسباب كل شىء أراده فى ملكه سببا وطريقاً موصلاً إليه ، ﴿ فأتْبَعَ سَبَباً ﴾ أى متسبب به ، وهو العلم الذى يوصله إليه حتى بلغ منزلا وطريقا ما بين الشرق والغرب . وهنا نقف قليلا لنتعرف عليه :

- **من هو ذو القرنين ؟ .. وفى أى عصر كان ؟**
- **وأين كانت مسيرته فى سبيل الله ؟ .. وما أهدافها ؟**
- **ومن هم قوم يأجوج ومأجوج ؟ .. وما صفتهم ؟**
- **وكيف بنى ذو القرنين السد ؟ وما هى الحكمة فى بنائه ؟**

١ - • من هو ذو القرنين ؟ .. ولماذا سُمى بذلك ؟

ذكر بعض المفسرين أن « **ذا القرنين** » كان ملكا شابا من الروم ، وأنه بنى الاسكندرية ، وقالوا : إنه « الإسكندر الأكبر » . واستدرك عليهم **ابن كثير** ، فقال : إنما الذى كان من الروم : « **الإسكندر الثانى** » ، وهو ابن « **فيليس المقدونى** » الذى تؤرخ به الروم .

أما « ذو القرنين » – المذكور فى القرآن ، فقد ذكر الأزرق وغيره ، أنه كان فى عصر موغل فى القدم ، قال : إنه كان قريبا من عصر إبراهيم الخليل – عليه السلام ، وأنه طاف بالبيت مع إبراهيم أول ما بناه ، وآمن به ، واتّبعه ، وأنه قرب إلى الله قربانا ، واتخذ من الخضر عليه السلام وزيراً . [١]

*** وأما تسميته بـ « ذى القرنين » ، فترجع إلى أسباب ، ذكرها المؤرخون والمفسرون :**

• قالوا : إن صفحتى رأسه كانتا من نحاس ، ويبدو أن هذا لباس الحرب الذى هو أشبه بالخوذة وكان يرتديه دائما .

• وقال بعضهم : كان فى رأسه شبه القرنين .

• وقال بعض أهل الكتاب : إنما سمى ذا القرنين لأنه مَلَك الروم وفارس .

• وقال غيرهم : .. لأنه بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشمس ويغرب .

• وسئل علىّ – رضى الله عنه – عن ذى القرنين فقال : كان عبداً ناصحاً لله ، فناصحه ، دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فأحياه الله ، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات ، فسمى ذا القرنين .

* ويفهم من سيرته – كما جاءت فى كتب التفسير والتاريخ ، أن الله سبحانه وتعالى ، قد مكّن له فى الأرض ، وأعطاه ملكا عظيما ، ممكنا فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين ، والجنود ، وآلات الحرب ، والحصارات ، ولهذا ملك المشارق والمغارب من الأرض ، ودانت له البلاد ، وخضعت له ملوك العباد ،

---

(١) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ١٠٠/٣ ، وانظر البداية والنهاية لابن كثير .

وخدمته الأمم من العرب والعجم ، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ مجده وملكه قرنى الشمس مشرقها ومغربها يقول الله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شيْءٍ سَبَباً ﴾ [الكهف : ٨٤] قال ابن عباس : علما ، وقال قتادة : منازل الأرض وأعلامها ، وقال عبد الرحمن بن زيد : تعليم الألسنة ، قال : كان لا يغزو قوما إلّا كلمهم بلسانهم .

وهكذا ذو القرنين .. كان ملكا مؤمنا ، مكّن الله له فى الأرض ، فعدل فى حكمه وأصلح ، يسر الله له الأسباب ، أى الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والبلاد والأراضى ، وكسر الأعداء ، وكَبْت ملوك الأرض ، وإذلال أهل الشرك ، فقد أوتى من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببا .

* روى أن الذين ملكوا الأرض أربعة : **مؤمنان وكافران** ، أما المؤمنان : فسليمان وذو القرنين ، وأما الكافران : فنمرود وبخْتَنَصَّر [١] .

• سئل علىّ – كرم الله وجهه – عن ذى القرنين ، **كيف بلغ المشرق والمغرب** ؟ فقال : سبحان الله .. سخّر له السحاب وقدّر له الأسباب ، وبَسَط له اليد .

• وقد ذكر فى أخبار بنى إسرائيل ، أنه عاش ألفا وستمائة سنة يجوب الأرض طولها والعرض ، حتى بلغ المشارق والمغارب . [٢]

يقول تُبَّع فيما ذكر به ذا القرنين فى تخلقه بالعلم واتباعه إياه :

بَلَغَ المَشَارِقَ والمغارِبَ يبتغى ... أُسْبَابَ أُمْرِ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدِ
فرأى مُغَار الشَّمْسِ عندَ غُرو بِها ... فِي عَيْنِ ذِى خَلَبٍ وثَاطٍ حَرْمِدِ

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ١٥٧/٦

(٢) تفسير ابن كثير ١٠٢/٣

٢ – مسيرته فى سبيل الله :

** أما عن مسيرة ذى القرنين فى سبيل الله ، فقد استهدفت هدفين اثنين :**

أولهما : إعلاء كلمة الله ، ونشر عقيدة التوحيد فى كل مكان .

وثانيهما : حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة .

أما عن الهدف الأول : فيقول القرآن : ﴿ فأُتْبَعَ سَبَباً . حَتّى إذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ، قُلْنَا يا ذَا القَرْنَيْنِ إمَّا أنْ تُعَذِّبَ وَإماً أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً . قال : أماً مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذّبُهُ ثُمّ يُرَدُّ إلَى رَبِّهِ فَيُعَذّبُهُ عَذَاباً نُكْراً . وَأماً مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ، فَلَهُ جَزَاءً الحُسْنَى ، وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : ٨٥ – ٨٨]

﴿ فأُتْبَعَ سَبَباً ﴾ أى سلك طريقه الذى يسره الله له ، ما بين المشرق والمغرب ، أو أتبع طرفى الأرض ، منازلها ومعالمها وآثارها ، فسلك طريقا حتى وصل إلى أقصى ما يسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب ، وهو مغرب الأرض ، لأن الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فأمر مستحيل ، وما يذكره أصحاب القصاص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة ، والشمس تغرب من ورائه فشيء لا حقيقة له ، وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب ، واختلاق زنادقتهم وكذبهم .

﴿ وَجَدَها ﴾ أى الشمس ﴿ تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةَ ﴾ أى رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط ، وهذا شأن كل ما انتهى إلى ساحله ، يراها كأنها تغرب منه ، وهى لا تفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لا تفارقه .

• **قال الإمام الرازى** : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ، ولم يبق شيء من العمارات ، وجد الشمس كأنها تغرب فى عين وهدة مظلمه ، وإن لم تكن كذلك فى الحقيقة ، كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب فى البحر ، إذ لم ير الشطّ ، وهى فى الحقيقة تغيب وراء البحر . [1]

• **وقال ابن عباس** : ﴿ وَجَدَها تغرُبُ فِي عَيْنٍ حَامِية ﴾ أى حارّة .

• **قال ابن جرير** : والصواب أنهما قراءتان مشهورتان (حمئة وحامية) ولا منافاة بين معنييهما ، إذ قد تكون (حارة) لمجاورتها وهج الشمس عند غروبها ، وملاقاتها الشعاع بلا حائل ، و (حمئة) أى فى ماء وطين أسود .

• عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – قال : نظر رسول الله ﷺ – إلى الشمس حين غابت فقال : « فى نار الله الحامية لولا ما يزعمها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض » .

• ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ﴾ قال ابن جرير : مدينة لها اثنا عشر ألف باب ، لولا أصوات أهلها لسمع الناس وجوب الشمس حين تجبّ . قال هشام ابن يوسف : أمة من الأمم ، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم .

• ﴿ قُلْنَا يَاذَا القَرْنَيْنِ : إِمَّا أَنْ تُعَذِّب وَإِمَّا تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ – أى قلنا له **بطريق الإلهام** : إما أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهَداية والإيمان ، معنى هذا أن الله تعالى مكّنه منهم ، وحكّمه فيهم ، وأظفره بهم ، وخيّره إن شاء قتَلَ وسَبَى ، وإن شاء مَنَّ أو فَدَى ، فعرف عدله وإيمانه فيما أبداه عدله وبيانه .

قال المفسرون : كانوا كفرة فخيّره الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم .

---

(١) التفسير الكبير ١٦٦/٢١

• ﴿ قَالَ أماّ مَنْ ظَلَم ﴾ أى استمر على كفره وشركه بربه ، فسوف نعذبه ، **قال السّدى** : كان يحمى لهم بقر النحاس ، ويضعهم فيها حتى يذوبوا ، **وقال وهب بن منبه** : كان يسلِّط الظُّلمة فتدخل أفواههم وبيوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم .

• ﴿ ثُمّ يُرَدّ إلَى ربِّه فَيُعَذّبَهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾ أى شديدا بليغا وجيعا أليماً فى نار جهنم ، وفى ذلك إثبات المعاد والجزاء .

• ﴿ أماَّ مَنْ آمَنَ ﴾ أى تابعنا على ما ندعوه إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ، وقدم الصالحات ﴿ فَلَهُ جَزاءً الحُسْنَى ﴾ أى فى الدار الآخرة عند الله عز وجل . ﴿ وسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ أى معروفا ، فنيسر عليه فى الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق ، بل السهل الميسر ، فاختار ذو القرنين دعوتهم بالحسنى ، فمن آمن فله الجنة والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقى على الكفر فله العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة .

*** وفى سبيل الدعوة إلى الله ، ونشر عقيدة التوحيد ، اتجه ذو القرنين إلى المشرق ، يقول القرآن :**

﴿ ثُمّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتىَّ إذَا بلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ من دُونِهاَ سِتْراً . كَذَلِكَ وَقَدْ أحَطْناَ بِماَ لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ [الكهف : ٨٩-٩١]

• ﴿ ثُم أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أى سلك طريقا بجنده ، فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها ومشرقها ، وكان كلما مرَّ بأمة قهرهم وغلبهم ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، فإن أطاعوه .. وإلّا أذلهم وأرغم آنافهم ، واستباح أموالهم وأمتعتهم ، واستخدم من كل أمة ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم .

• ﴿ حَتَّى إذَا بلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أى حتى إذا وصل إلى أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس فى عين الرائى ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ أى أمة ﴿ لَمْ نَجْعَل لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً ﴾ أى وجد الشمس تشرق على أقوام

ليس لهم من اللباب والبناء ما يسترهم من حر الشمس ، فإذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب تحت الأرض ، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم ، أى ليس لهم بناء يكنّهم ، ولا أشجار تظلهم وتسترهم من حر الشمس ، كانوا حمراً قصاراً مساكنهم الغيران ، أكثرهم يعيشون على السمك ، كانوا فى مكان لا يثبت عليه بنيان ، ويقال إنهم الزنج .[1]

• **قال ابن جرير** : لم يبنوا فيها بناء قط ، ولم يُبن عليهم فيها بناء قط ، كانوا إذا طلعت الشمس دخلوا أسرابا لهم حتى تزول الشمس ، أو دخلوا البحر ، وذلك أن أرضهم ليس فيها جبل . جاء جيش مرة فقال لهم أهلها : لا تطلعن عليكم الشمس وأنتم بها ، قالوا : لا نبرح حتى تطلع الشمس .. ما هذه العظام ؟ ، قالوا : هذه جيَف طلعت عليهم الشمس هنا فماتوا ، قال : فذهبوا هاربين فى الأرض .

• ﴿ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أى كذلك فعل بأهل المشرق ، من آمن تركه ، ومن كفر قتله ، كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علما بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلّا علم اللطيف الخبير ، فإنه تعالى : ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيءٌ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ .

أما عن الهدف الثانى من مسيرته فى سبيل الله .. وهو حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة المفسدة المخربة .. فيقول القرآن :

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً . حَتَّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ من دُونِهما قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً . قَالُوا : يَا ذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لكَ خرْجا عَلَى أن تجعل بَيْنَنا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا . قالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ، فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ [الكهف : ٩٢ – ٩٥]

(١) تفسير الطبرى ١٤/١٦ ، وتفسير ابن كثير ١٠٣/٣

• يقول تعالى مخبرا عن ذى القرنين ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أى ثم سلك طريقا ثالثا بين المشرق والمغرب ، يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة . ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴾ أى حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلى أرمينية وأذربيجان .

• **قال الطبرى** : والسَّدُّ : الحاجز بين الشيئين ، وهما هنا جبلان سُدَّ ما بينهما ، فردم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم . (١)

• **وقال ابن كثير** : وهما جبلان متناوحان بينهما ثغرة ، يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك ، فيعيثون فيها فساداً ، ويهلكون الحرث والنسل . (٢)

* من هم يأجوج ومأجوج ؟

• **جاء فى مسند الإمام أحمد** : عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال : « ولد نوح ثلاثة ، سام أبو العرب ، وحام أبو السودان ، ويافث أبو الترك » . قال بعض العلماء : هؤلاء من نسل يافث أبى الترك ، قال : إنما سمى هؤلاء تُرْكا لأنهم تركوا من وراء السد من هذه الجهة ، وإلا فهم أقرباء أولئك ، ولكن كان فى أولئك بغى وفساد وجراءة .

• **وقال السيوطى فى « الدر المنثور »** : بإسناد إلى حذيفة قال : سألت رسول الله - ﷺ - عن يأجوج ومأجوج ، فقال : يأجوج ومأجوج أمة كل أمة أربعمائة ألف أمة لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف رجل من صلبه ، كلٌّ حمل السلاح ، قلت : يا رسول الله : صِفْهُم لنا ، قال : هم ثلاثة أصناف : صنف منهم : أمثال الأُرْز ، قلت : وما الأُرْز ؟ قال : شجر بالشام ، طول الشجرة عشرون ومائة ذراع فى السماء . قال رسول الله - ﷺ - هؤلاء الذين لا يقوم

---

(١) تفسير الطبرى ١٦/١٥

(٢) تفسير ابن كثير ١٠٣/٣

لهم جبل ولا حديد ، وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه ، ويلتحف بالأخرى ، لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه ، ومن مات منهم أكلوه ، مقدمتهم بالشام ، وساقتهم يشربون أنهار المشرق ، وبحيرة طبرية ... [1] . وقال المفسرون استناداً إلى ما فى الصحيحين : إن يأجوج ومأجوج من سلالة آدم عليه السلام ، وأن الله تعالى يقول : يا آدم .. فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : ابعث بعث النار ، فيقول : وما بعث النار ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار ، وواحد إلى الجنة ، فحينئذ يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، فقال : إن فيكم أمتين ما كانتا شىء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج .

* كيف بنى ذو القرنين السَّد ؟

لما بدا لذى القرنين أن يتجه إلى الشمال ، واتخذ لذلك طريقا حتى وصل إلى بلاد ما بين جبلين ، يقال إنها بين أرمينيا وأذربيجان ، ويسكن تلك البلاد أقوام لا تكاد تعرف لغتهم إلا بصعوبة ، وقد جاوروا يأجوج ومأجوج - قبائل من سكان سهول سيبيريا الشمالية ، وهم قوم مفسدون فى الأرض على جانب كبير من الفوضى والبدائية .

• فلما رأى أصحاب السد ذا القرنين ، وما هو عليه من جاه وسلطان ، وما معه من جند وعتاد ، توسّلوا إليه ، وقالوا له : ياذا القرنين .. إن يأجوج ومأجوج قوم مفسدون فى الأرض ، ويسعون فيها بالفساد ، قوم كالوحوش أو أشد ! .. فهل نجعل لك (جَعْلاً) أى نفرض لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سدًّا ﴾ يحمينا من شر يأجوج ومأجوج ؟ .. وهذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب . [2]

---

(١) الدر المنثور جـ٥ ص ٢٥٠،٢٥١

(٢) البحر ١٦٤/٦

* ولما كان ذو القرنين رجلا مطبوعا على حب الخير ، مفطوراً على الصالح من الأعمال ، قد مكنه الله فى الأرض ، وأعطاه الكثير من المال والثروة ، فقد أجابهم إلى طلبهم ، وردّ عطاءهم قائلا : ﴿ ما مكَّنِّى فيهِ ربىِّ خَيْر ﴾ أى لا حاجة لى إلى المال ، فأعينونى بالأيدى والرجال ﴿ أَجْعَلْ بَيْنِكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴾ – أى أجعل بينكم وبينهم سدًّا منيعا ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوع ببناء السد ، واكتفى بعون الرجال .

قال : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الحديد ﴾ أى أعطونى قطع الحديد ، واجعلوها لى فى ذلك المكان . فحشدوا له الحديد والنحاس والوقود ، حتى وضعوه مكان السد ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَين ﴾ – أى حتى إذا ساوى البناء بين جانبى الجبلين إلى القمتين ، ﴿ قالَ انفُخُوا ﴾ أى انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿ حتىَّ إِذَا جَعَلَهُ ناراً ﴾ أى جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإحماء . ﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عليه قِطَراً ﴾ أى أعطونى أصب عليه النحاس المذاب .

• **قال الرازى** : لما أتوه بقطع الحديد وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المنافخ عليها حتى إذا صارت كالنار صَبَّ النحاس المذاب على الحديد المحمى ، فالتصق بعضه ببعض ، وصار جبلا صلداً . فما استطاع يأجوج ومأجوج وقبيلهما أن يعلوه ويظهروا عليه لارتفاعه وملامسته ، وما استطاعوا له نقباً لقوته وسمكه ، وأراح الله منهم شعوبا كانت تتألم منهم كثيرا .

*** ما شكل السد ؟**

• **قال ابن جرير** – بإسناد إلى قتادة قال : ذكر لنا أن رجلا قال : يا رسول الله قد رأيت سد يأجوج ومأجوج ، قال : انعته لى . قال : كالبَرد المحبّر ، طريقة سوداء ، وطريقة حمراء . قال : قد رأيته .

• **وتقول المصادر القديمة** : إن الخليفة الواثق قد بعث فى دولته بعض أمرائه ، وجهز معه جيشاً سرية ، لينظروا إلى السد ويعاينوه ، وينعتوه له إذا رجعوا ، فتوصلوا من بلاد إلى بلاد ، ومن مُلك إلى مُلك ، حتى وصلوا إليه ، ورأوا بناءه من الحديد ومن النحاس ، وذكروا أنهم رأوا فيه بابا عظيما ، وعليه أقفال عظيمة ، ورأوا بقية اللّبن والعمل فى برج هناك ، وأن عنده حرساً من الملوك المتاخمة له ، وأنه عالٍ منيف شاهق لا يستطاع ، ولا ما حوله من الجبال ، ثم رجعوا إلى بلادهم ، وكانت غيبتهم أكثر من سنتين ، وشاهدوا أهوالا وعجائب .[1]

• يقول الله سبحانه عن هذا السد : ﴿ فما اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوه ﴾ أى فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوّروه لعلوّه وملاسته ﴿ وما اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ أى وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته .

وبهذا السد المنيع أغلق ذو القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ، لذلك ما أن رآه حتى هتف قائلا : ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى ﴾ أى نعمة من الله ورحمة على عباده .

* قال رسول الله ﷺ – فيما رواه الامام أحمد بإسناد إلى أبى هريرة :

« إن يأجوج ومأجوج ليحفرون السدَّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا ، فستفتحونه غداً ولا يستثنى ، فإذا أصبحوا وجدوه قد رجع كما كان ، فإذا أراد الله بخروجهم على الناس ، قال الذى عليهم ارجعوا ، فستفتحونه إن شاء الله ويستثنى ، فيعودون إليه ، وهو كهيئته حين تركوه ، فيحفرونه ، ويخرجون على الناس ، فيستقون المياه ، ويتحصن الناس منهم

---

(١) التفسير الكبير ١٧٢/٢١

فى حصونهم ، فيرمون بسهامهم إلى السماء ، فترجع مخضبة بالدماء ، فيقولون : قهرنا من فى الأرض ، وعلونا من فى السماء قسوا وعلوا ، فيبعث الله عليهم نغَفاً (أى دوداً كالذى يكون فى أنوف الإبل) فى أعناقهم ، فيهلكون . قال رسول الله ﷺ : فو الذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً من لحومهم » [١] .

ومهما يكن من سند مثل هذا الحديث ، فإن كثيرا من العلماء يعتبرونه من الإسرائيليات [٢] . المروية عن **كعب الأحبار** وغيره ، ويرون أن رفعها إلى النبى ﷺ غلط وخطأ من بعض الرواة ، أو كيد يكيد به الزنادقة اليهود للإسلام ، وإظهار رسوله بمظهر من يروى ما يخالف القرآن .

فالقرآن قد نصَّ بما لا يحتمل الشك ، على أنهم لم يستطيعوا أن يعلو السد ، ولا أن ينقبوه ، قال تعالى : ﴿ فَماَ اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَماَ اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ [الكهف : ٩٧]

*** وخير من تناول هذا الحديث بالتحليل والتوضيح الإمام الحافظ ابن كثير ، قال بعد أن ذكر من رواه :**

حديث « غريب لا يعرف إلا من هذا الوجه ، وإسناده جيد قوى ، ولكن « مَتْنَه » فى رفعه إلى النبى نكاره ، لأن ظاهر الآية : يقتضى أنهم لم يتمكنوا من ارتقائه ، ولا من نقبه ، لإحكام بنائه وصلابته وشدته ، ولكن هذا قد روى عن كعب الأحبار ، « أنهم قبل خروجهم يأتونه فيلحسونه ، حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون غداً نفتحه ، فيأتونه من الغد وقد عاد كما كان ، فيلحسونه حتى لا يبقى منه إلا القليل ، فيقولون كذلك ، فيصبحون وهو كما كان فيلحسونه ، ويقولون غداً

---

(١) السيوطى : الدر المنثور ٤/٢٥١

(٢) الشيخ محمد أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات ص٣٤٦

نفتحه ، ويلهمون أن يقولوا : إن شاء الله ، فيصبحون وهو كما فارقوه فيفتحونه ، وهذا فتحه » .. **ولعل أبا هريرة تلقاه من كعب** ، فإنه كان كثيرا ما كان يُجالسه ويحدثه فحدَّث به أبو هريرة ، فتوهم بعض الرواة عنه أنه مرفوع ، فرفعه ، والله أعلم » (١)

والدليل على ضعف هذا الحديث ، وأنه من وضع أهل الكتاب ، أن النبى ﷺ ، جعل من انكسار سد يأجوج ومأجوج من **علامات الساعة** ، وقيام القيامة .

* روى حذيفة بن أسيد الغفارى قال : اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا : نذكر الساعة ، قال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر الدخان ، والدجّال ، والدابة ، وطلوع الشمس من مغربها ، ونزول عيسى ابن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خسوف ، خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيرة العرب ، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم (٢) .

• عندئذ تخرج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعيث فى الأرض فساداً ، وتروع الناس أيما ترويع ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه فى سورة الأنبياء : ﴿ حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ . وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ﴾ [سورة الأنبياء : ٩٦ ، ٩٧]

• **قال السدى** : وهذا كله قبل يوم القيامة ، وبعد الدجال .. لذلك قال الله ههنا ﴿ فإذا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وكانَ وَعْدُ رَبِّى حَقاً . وتركْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ونُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً ﴾ [الكهف : ٩٨ ، ٩٩]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٠٤
(٢) رواه مسلم ١٧٩/٨

أى إذا اقترب الوعد الحق جعل الله السد ﴿ دكًّاء ﴾ أى ساواه للأرض ، وجعله طريقا كما كان . ﴿ وتركنا بَعْضَهُم ﴾ أى الناس يومئذ – يوم يدك هذا السد – يموج ف بعض . ﴿ ثم نُفِخَ في الصُّورِ ﴾ على أثر ذلك ﴿ فجَمَعْناهُم جَمْعا ﴾ يوم القيامة .

• قال المفسرون : بل المراد أنه إذا ماج الجن والإنس يوم القيامة ، يختلط الإنس والجن .

وقيل : إذا ماج الإنس والجن ، قال **إبليس** : أنا أعلم لكم علم هذا الأمر ، فيظعن إلى المشرق فيجد الملائكة قد قطعوا الأرض ، ثم يظعن إلى المغرب ، فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض ، فيقول : ما من محيص ثم يظعن يمينا وشمالا إلا أقصى الأرض ، فيجد الملائكة قد بطنوا الأرض ، فيقول : ما من محيص ، فبينما هو كذلك إذ عرض له طريق كالشراك ، فأخذ عليه هو وذريته ، فبينما هم عليه إذ هجموا على النار فأخرج الله خازنا من خزان النار ، فقال يا إبليس ، ألم تكن لك المنزلة عند ربك ؟ ألم تكن فى الجنان ؟ فيقول : ليس هذا يوم عتاب ، لو أن الله فرض علىّ فريضة لعبدته فيها عبادة لم يعبده مثلها أحد من خلقه ، فيقول : إن الله قد فرض عليك فريضة ، فيقول : ما هى ؟ فيقول : يأمرك أن تدخل النار ، فيتلكأ عليه ، فيقول به وبذريته بجناحيه ، فيقذفهم فى النار ، فتزفر النار زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ، ولا نبى مرسل إلا جَثَى لركبتيه » (١)

بقى أن نقول :

إن ذا القرنين ليس هو الإسكندر الأكبر ، لأن ما ذكره المؤرخون فى تاريخه لا يتفق وما حكاه القرآن الكريم عنه ، والذى نقطع به .. أنه كان رجلا مؤمنا صالحا ، ملكه الله شرق الأرض وغربها ، وكان من أمره ما قصه الله تعالى فى كتابه ، وهذا ما ينبغى أن نؤمن به ونصدقه ...

---

(١) رواه ابن أبى حاتم – انظر تفسير ابن كثير ١٠٤/٣

أما معرفة هويته ... وما اسمه .. وأين وفى أى زمان كان ... فليس فى القرآن ولا فى السنة الصحيحة مايدل عليه – على أن الإعتبار بقصته والانتفاع بها لا يتوقف على شيء من ذلك ، وتلك سمة من سمات القصص القرآنى ، وخصيصة من خصائصه ، أنه لا يعنى بالأشخاص والزمان والمكان مثل ما يعنى بانتزاع العبرة منها ، والاستفادة منها فيما سيقت له .

* * *

الفصل السابع

الصِّدِّيق يُوسُف – ومحنَةُ المراودة

شاء الحق – تبارك وتعالى – أن يختص نبيّه « يوسف بن يعقوب » – عليهما السلام – بسورة من القرآن العظيم ، تقص قصته ، وتسجل كل مراحل حياته ، ومالاقاه من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن من إخوته ، ومن الآخرين ، فى بيت عزيز مصر ، وفى تآمر النسوة ، وفى السجن ، حتى نجّاه الله من ذلك الضيق ، وصرف عنه الكرب .

● وقصة الصديق يوسف – عليه السلام – أسلوب فذ فريد ، فى ألفاظها ، وتعبيرها ، وأداتها ، وفى سردها وحوارها ، الممتع اللطيف ، تسرى مع النفس سريان الدم فى العروق ، وتجرى برقتها وسلاستها فى القلب ، جريان الروح فى الجسد .

كما جاءت قصة يوسف ، فى القرآن ، طرية ندية ، فى سرد ممتع لطيف ، سَلِس رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان . ولهذا قال خالد بن مَعْدان : « قصة يوسف ومريم مما يتفكّه بهما أهل الجنة فى الجنة » . (١)

وقال عطاء : لا يسمع قصة يوسف محزون إلا استراح إليها .

* وهذه القصة – كما ذكر القرآن : « **أحسن القصص** » . وقد ورد التنويه إلى ذلك فى أولها قال الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف : ٣]

---

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ٢/٢٣٣

قال سعد بن أبى وقاص : قالت الصحابة لرسول الله – ﷺ – **لو حدَّثتنا** ، **قال** : فأنزل الله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً .. الآية ﴾ [الزمر : ٢٣]

قالوا : يا رسول الله : **لو قصصت علينا** ، فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ ﴾ فدلَّهم الحق – سبحانه – فى هذه الآية ، على أحسن القصص ، وهى قصة يوسف – عليه السلام

*** وقد اختلف العلماء فى سبب تسمية الله تعالى – قصة يوسف – عليه السلام – من بين أقاصيص القرآن « أحسن القصص » . فقال بعض أهل المعانى :**

« معنى الآية : قصة حسنة . لفظه لفظ المبالغة ، وحكمه حكم الصفة ، كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] . قال الشاعر :

إنَّ الَّذِى سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لنا   بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزّ وأَطْوَلُ

أراد : عزيزة طويلة .

– وأجراه الباقون على الظاهر ، فقالوا : « هى أحسن القصص » **ثم اختلفوا فى وجهها** .

● فروى عن سعيد بن جبير ، قال : اجتمع أصحاب رسول الله – ﷺ – إلى **سلْمان الفارسى** فقالوا : يا سلْمان .. حدثنا عن **التوراة** بأحسن ما فيها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ ﴾ يعنى أن قصص القرآن أحسن مما فى التوراة .

• **وقيل** : سمى الله هذه القصة « أحسن القصص » لأنها ليست قصة فى القرآن ، تتضمن من العبر والحِكَم ، والعجائب واللطائف ، ما تضمنت هذه القصة ، ولذلك قال الله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وإِخْوَتِهِ آياتٌ للسَّائِلين ﴾ [يوسف : ٧]

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١]

• **وقيل** : سماها « أحسن القصص » لحُسْن مجازاة يوسف إخوته . وصبره على أذاهم ، وإغضائه عند الالتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه معه ، وكرمه فى العفو عنهم ، حيث قال : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ ، وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢]

• **وقيل** : لأن فى قصة يوسف – عليه السلام – ذِكْر الأنبياء والصالحين ، والملائكة والشياطين ، والجن والإنس والأنعام والطير ، وسير الملوك والمماليك ، والعلماء والتجار ، والعقلاء والجهلاء ، وحال الرجال ، والنساء ومكرهن وحيلهن .

وفيها أيضا : ذِكر العفة والتوحيد ، وعلم السير ، وتعبير الرؤيا ، وآداب السياسة والمعاشرة وتدبير المعاش ، فصارت أَحْسَن القصص لما فيها من المعانى الجزيلة ، والفوائد الجليلة ، التى تصلح للدين والدنيا ، وتجمع خير الدنيا والعقبى .

• قال أهل الإشارة : سماها الله (أحسن القصص) لما فيها من ذكر المحب والمحبوب .

• وفى قولِه تعالى : ﴿ نَحْنَ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ ﴾ – أى نحدثك يا محمد ،

ونروى لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ﴿ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ ﴾ أى بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِين ﴾ أى وإن الحال والشأن .. أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تقرع سمعك ، لأنك أمى لا تقرأ ولا تكتب .

– كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَينَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ﴾ [الشورى : ٥٢]

– وكما قال جل جلاله : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً ﴾ [طه : ٩٩]

*** تشير قصة يوسف – عليه السلام – أنه امتحن بمجموعة من المحن :**

المحنة الأولى : محنة إلقائه فى غيابة الجبّ . وقد وردت فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ . إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ، وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ : لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُم فاعلين ﴾ [يوسف : ٧ – ١٠]

بعد أن نبّه الحق تعالى على ما فى هذه القصة من الآيات والحكم ، والدلالات والمواعظ والبينات ، **ذكر حسد إخوة يوسف له** ، على محبة أبيه له ، ولأخيه (**بنيامين**) أكثر منهم .. ﴿ إِذْ قَالُوا لَيوسُفُ وَأُخُوه أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا ﴾ ..

هذه هى المحنة الأولى ليوسف – عليه السلام – يريدون التخلّص منه ،

أى حين قال إخوته : والله ليوسُفُ . وأخوه (بنيامين) أحب منا عند أبينا أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه وإنما قالوا ﴿ وأَخُوهُ ﴾ وهم جميعا إخوة ، لأن أمهما كانت واحدة ﴿ ونَحْنَ عُصْبَة ﴾ أى والحال نحن جماعة ذوو عدد ، نقدر على النفع والضرّ ، بخلاف الصغيرين ﴿ إنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلاَلٍ مُبِين ﴾ أى إنه فى خطأ ، وخروج عن الصواب بيّنٍ واضح ، لإيثاره **يوسف وبنيامين** علينا بالمحبة .

• **قال القرطبى** : لم يريدوا ضلال الدين ، إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه فى خطأ بيّن فى إيثار إثنين على عشرة . [(١)]

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوه أَرْضاً ﴾ أى اقتلوا يوسف ، أو ألقوه فى أرض بعيدة مجهولة ﴿ يَخْلُ لكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾ أى فعند ذلك يخلص ويصفو لكم حب أبيكم ، فيقبل عليكم .

• **قال الإمام الرازى** :[(٢)] المعنى إن يوسف شغله عنا ، وصرف وجهه إليه ، فإذا فقده أقبل علينا بالمحبة والميل ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِه قَوْماً صَالِحين ﴾ أى وتتوبوا من بعد هذا الذنب وتصبحوا قوما صالحين .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم : لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ في غَيَابَةِ الجُبِّ ﴾ أى قال لهم أخوهم « **يَهُوذَا** »

– كما ذكر ابن عباس – وهو أكبر ولد يعقوب : لا تقتلوا يوسف ، بل ألقوه فى قعر الجب وغوره ، ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارة ﴾ يأخذه بعض المارّة المسافرين ﴿ إنْ كُنْتُم فَاعِلِين ﴾ أى وإن كان لابد من الخَلاَصِ منه ، فاكتفوا بذلك ، وكان رأيه فيه أهون شراً من رأى غيره .

---

(١) تفسير القرطبى ج٩ ص١٣١
(٢) تفسير الرازى ٩٤/١٨

*** المحنة الثانية : محنة الاسترقاق :**

وقد وردت فى قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُم فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ : يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، واللهُ عَلِيمٌ بِماَ يَعْمَلُون . وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ . وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ : أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَناَ أَوْ نَتَّخِذَه وَلَداً ﴾

[يوسف : ١٩ - ٢١] .

يخبر الحق - سبحانه - أنه حين وُضع يوسف فى الجُبّ ، جلس ينتظر فَرَج الله ، ولطفه به ، فجاءت سيارة ، أى مسافرون . **قال أهل الكتاب** : كانت بضاعتهم من الفستق ، والصنوبر والبطم . (وهى حبة خضراء من الفصيلة الفستقية) - قاصدين ديار مصر من الشام ، فأرسلوا بعضهم ليستقوا من ذلك البئر ، فلما أدلى أحدهم دَلْوه تعلّق فيه يوسف ، فلما رآه ذلك الرجل : ﴿ قَالَ يا بُشْرَى ﴾ أى يا بشارتى ﴿ هذا غلام وأسروه بضاعة ﴾ أى أوهموا أنه معهم غلام من جملة متجرهم ، ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بِماَ يَعْمَلُون ﴾ - أى هو عالم بما تمالأ عليه إخوته ، وبما يسره واجدوه من أنه بضاعة لهم ، ومع هذا لا يغيره تعالى ، لما له فى ذلك من الحكمة العظيمة ، والقدر السابق ، والرحمة بأهل مصر ، بما يجرى الله على يدى هذا الغلام ، الذى يدخلها فى صورة **أسير رقيق** ، ثم بعد هذا يملّكه أزمة الأمور ، وينفعهم الله به فى دنياهم وأخراهم بما لا يحد ولا يوصف . (١)

ولما استشعر إخوة يوسف بأخذ المسافرين له لحقوهم ، وقالوا : هذا غلامنا أبق منا ، فاشتروه منهم بثمن بخس ، أى قليل نذر ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِين ﴾ .

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٢٣٧

قال ابن عباس ، وابن مسعود : باعوه بعشرين درهما واقتسموها درهمين .

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِإمْرَأَتِهِ : أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أى أحسنى إليه ﴿ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ . وهذا من لطف الله به ، ورحمته وإحسانه إليه ، بما يريد أن يؤهله له ، ويعطيه من خيرى الدنيا والآخرة .

قالوا : وكان الذى اشتراه من أهل مصر **عزيزها ، وهو الوزير بها** ، الذى الخزائن مسلمة إليه **قال ابن إسحاق** : واسمه « **أطْفِير بن روحيب** » . قال : وكان ملك مصر يومئذ « **الريان بن الوليد** » رجل من العماليق ، واسم امرأة العزيز « **راعيل** » **بنت رمابيل** .

وقال غيره : كان اسمها « **زليخا** » ، والظاهر أنه لقبها .

وقال الثعلبى ، عن ابن هشام : اسمها « **فكا بنت ينوس** » .

• المحنة الثالثة : محنة المراودة :

وقد ورد ذكرها فى قوله تعالى : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ، وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ : وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ .. قَالَ : مَعَاذَ اللهِ : إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف : ٢٣]

وهذه المحنة – هى محور بحثنا – وهى مراودة امرأة العزيز ليوسف – عليه السلام – عن نفسه ، وطلبها منه مالا يليق بحاله ومقامه ، وهى فى غاية الجمال والمال ، والمنصب والشباب ، وكيف غلقت الأبواب عليها وعليه ، وتهيّأت له وتصنّعت ، ولبست أحسن ثيابها ، وأفخر لباسها . وهى مع ذلك كله ، امرأة الوزير ، وبنت أخت الملك الريان بن الوليد صاحب مصر .

• **والمراودة** : الطلب برفق ولين ، كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى ، طلبت امرأة العزيز ، الذى كان يوسف فى بيتها منه أن يضاجعها ، ودعته برفق ولين أن يواقعها ، وتوسلت إليه بكل وسيلة ﴿ وغَلَّقَتِ الأبواب ﴾ أى غلقت أبواب القصر عليها ، وعلى يوسف ، وأحكمت إغلاقها .

• **قال القرطبى** : كانت سبعة أبواب ، غلّقتها ثم دعته إلى نفسها .[1]

﴿ وَقَالَتْ : هَيْتَ لك ﴾ أى هلم ، وأسرع إلى الفراش ، فليس ثمة ما يُخْشَى .

قال فى البحر : أمرته أن يسرع إليها .[2]

﴿ قَاَل : مَعَاذَ الله ﴾ أى عياذاً بالله من فعل السوء ، **قال أبو السعود** : وهذه إشارة إلى أنه منكر هائل ، يجب أن يعاذ بالله من الخلاص منه . لما أراه الله من البرهان النيّر ، على ما فيه من غاية القبح ، ونهاية السوء[3] .

﴿ إنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْواى ﴾ أى إن زوجك هو سيدى (**العزيز**) الذى أكرمنى ، وأحسن تعهدى ، فكيف أسيء إليه بالخيانة فى حرمه ؟ ﴿ إنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُون ﴾ أى لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون الاحسانَ بالسوء . ثم إن امرأة العزيز حاولت إيقاعه فى شركها ، وتوسلت إليه بكل وسائل الإغراء ولولا أن الله حفظه من كيدها ، وعصمه عن الفحشَاء لهلك .

• ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهاَ لَوْلَا أَنْ رَأى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ أى همّت بمخالطته عن عزم وقصد وتصميم . عزما جازما على الفاحشة ، لا يصرفها عنها

---

(١) تفسير القرطبى ١٦٣/٩

(٢) البحر المحيط ٢٩٣/٥

(٣) تفسير أبى السعود ٦٢/٢

صارف ، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة ، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع ، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب .

• ﴿ وَهَمَّ بِهاَ ﴾ أى مالت نفسه إليها ، بمقتضى الطبيعة البشرية ، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفسٍ ، دون عزم وقصد ، فبين الهمَّين فرق كبير .

قال علماء البيان : وهذا من باب المشاكلة ، وهى الاتفاق فى اللفظ مع الاختلاف فى المعنى . فالهم منها كان همّ عزم وقصد ، والهمُّ منه كان حديث نفس .. ﴿ لَوْلاَ أَنْ رأَى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ جوابه محذوف – أى لولا حِفْظ الله ورعايته ليوسف ، وعصمته له لخالطها ، وأمضى ما حدثته به نفسه ، ولكن الله عصمه بالحفظ والتأييد ، فلم يحصل منه شيء البتّة .

*** وحول قضية المراودة والهمّ قام جدل كبير واسع ، وأدلى كثير من العلماء بآرائهم فيه .**

لقد ذكر **ابن جرير الطبرى** فى تفسيره ، **والسيوطى** فى الدر المنثور ، وغيرهما من المفسرين . فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ، وَهَمَّ بها لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّه ﴾ [يوسف : ٢٤] أشياء غريبة ..

فقد ذكروا فى هَمِّ يوسف – عليه السلام ، ما ينافى عصمة الأنبياء ، وما يخجل القلم عن تسطيره . لولا أن المقام مقام بيان ، وتحذير من الكذب على الله ، وعلى رسله ، وهو من أوجب الواجبات على أهل العلم . مع أن يوسف الصديق – عليه السلام ، من سلالة الأنبياء ، وسيد السادة النجباء ، السبعة الأتقياء المذكورين عن خاتم الأنبياء :

* فقد رووا عن **ابن عباس** – رضى الله عنه – أنه سئل عن **همّ يوسف** ما بلغ ؟

قال : حلّ الهميان ، يعنى السراويل ، وجلس منها مجلس الخاتن . فصيح به يا يوسف ، لاتكن كالطير له ريش ، فإذا زنّى قعد ليس له ريش .

ورووا مثل هذا عن علىّ – كرم الله وجهه – وعن مجاهد ، وعن سعيد بن جبير .

• ورووا أيضا فى **البرهان الذى رآه** ، ولولاه لوقع فى الفاحشة بأنه : نودى عليه .. أنت مكتوب فى الأنبياء ، وتعمل عمل السفهاء .

– **وقيل** : رأى صورة أبيه يعقوب فى الحائط ، **وقيل** : فى سقف الحجرة ، وأنه رآه عَاضاً على إبهامه ، وأنه لم يتعظ بالنداء ، حتى رأى أباه على هذه الحال .

وتشير الروايات الكثيرة المختلفة فى المضمون ، إلى أن مثل هذه الأقوال لا يمكن أن تصدر عن صحابة رسول الله – ﷺ – بل حُمّلت عليهم ، وأن مصدرها يرجع إلى بنى إسرائيل ..

بل لقد أسرف هؤلاء الوضاعون ، فزعموا أنه لم يرعو يوسف من رؤية صورة أبيه عاضًا على أصابعه ، فضربه أبوه يعقوب ، فخرجت شهوته من أنامله .

– ويزيدون فى القول افتراء على الله ونبيه يوسف ، فيزعمون أيضا ، أن كل أبناء يعقوب قد وُلد له اثنا عشر ولداً ، ما عدا يوسف ، فإنه نقص بتلك الشهوة ، التى خرجت من أنامله ولداً ، فلم يولد له غير أحد عشر ولداً .

• **بل زعموا أيضا فى تفسير « البرهان » – رواية عن ابن عباس – أنه رأى ثلاث آيات من كتاب الله :**

١ – قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ كِراماً كَاتِبِينَ ﴾
[الانفطار : ١٠ ، ١١]

٢ – وقوله عز وجل : ﴿ وَمَا تكُونُ في شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُناَّ عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس : ٦١]

٣ – وقوله سبحانه : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِماَ كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣]

وقيل : رأى قول الحق سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كاَنَ فاَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢]

ومن البديهى الواضح .. أن هذه الآيات بهذا اللفظ العربى لم تنزل على أحد من قبل النبى محمد – ﷺ – وإن كان الذين زعموا هذا لا يعدمون جوابا ، بأن يقولوا : رأى ما يدل على معانى هذه الآيات بلغتهم التى يعرفونها .

وقيل : فى البرهان – إنه رأى تمثال الملك ، أو العزيز ، وقيل خياله [١]

* كل ذلك يرجح الرأى – الذى ذكرناه – وهو أن مرجع ذلك كله إلى أخبار بنى إسرائيل وأكاذيبهم ، التى افتروها على الله ، وعلى نبيه يوسف ، وحَمَله إلى بعض الصحابة والتابعين ، أو حَمّله عليهم **كعب الأحبار ووهب بن منبه** ، وأمثالهما .

وليس أدل على هذا مما رواه وهب بن منبه ، ونقله السيوطى عنه ، قال : « لما خلا يوسف وامرأة العزيز ، خرجت كفٌّ بلا جسد بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ أَفَمَنْ هو قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِماَ كَسَبَتْ ﴾ ثم انصرفت الكف ، وقاما مقامهما فرجعت الكفّ بينهما ، مكتوب عليها بالعبرانية ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحاَفِظِينَ ، كِرَاماً كَاتِبين ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُون ﴾ ثم انصرفت الكف ، وقاما

---

(١) انظر تفسير الطبرى ج١٢/١٠٨ ، الدر المنثور ج٢/١٣ ، وتفسير ابن كثير ٢/٤٧٣ ، وتفسير البغوى ٤/٤٣٠

مقامهما فعادت الكف **الثالثة** ، مكتوب عليها : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا ﴾ وانصرفت الكفّ . وقاما مقامهما فعادت الكف **الرابعة** ، مكتوب عليها بالعبرانية : ﴿ واتَّقُوا يوماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُم تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ [البقرة : ٢٨١] . فولّى يوسف هاربا . [١]

وقد كان وهب – أو من نقل عنه وهب . ذكيا بارعا ، حينما زعم أن ذلك كان مكتوبا بالعبرانية وبذلك أجاب عما استشكل ، ولكن مع هذا لن يجوز هذا التلفيق الكاذب إلّا عَلَى الأغرار والسذج من الناس ، **ولا أدرى أى معنى يبقى للعصمة** بعد أن جلس بين فخذيها وخلع سرواله ، وما امتناعه عن الزنا ، فى مروياتهم المفتراة إلا وهو مقهور مغلوب ..

• ثم ما هذا الاضطراب الواضح فى الرويات ؟ .. أليس الاضطراب الذى لا يمكن التوفيق بينه كهذا من العلل التى ردّ المحدِّثون بسببها الكثير من المرويات ، لأنه أمارة من أمارات الكذب والاختلاق ؟

• ثم كيف يتفق ما حِيكَ حول يوسف – عليه السلام ، وقول الحق تبارك وتعالى ، عَقِب ذِكْر الهمّ :

﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ والفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلَصِين ﴾ [يوسف : ٢٤]

فهل يستحق هذا الثناء من قيل عنه هذا الكلام ؟

• ثم كيف تتفق هذه الروايات الهذيلة ، وما حكاه الله – عز وجل – عن « **زليخا** » بطلة المراودة ، حيث قالت : ﴿ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِين ﴾ [يوسف : ٥١]

---

(١) الدر المنثور ١٤/٤

وهو اعتراف صريح من البطلة ، التى أعيتها الحيل عن طريق التزين حينا ، والتودد إليه بمعسول القول حينا آخر ، والإرهاب والتخويف حينا ثالثة ، فلم تُفلح .. ﴿ وَلئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصَّاغِرِين ﴾ [يوسف : ٣٢]

ولننظر ماذا كان جواب العفيف يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ : رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِماً يَدْعُونَني إِلَيْهِ .. وَإلَّا تَصْرِفْ عَنيِّ كَيْدَهُن أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينَ . فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤،٣٣] وقصده – عليه السلام – بقوله : ﴿ وَإلَّا تَصْرِفْ عَنيِّ كَيْدَهُن ﴾ تبرؤ من الحول والطول ، وأن الحول والقوة إنما هما من الله ، وسؤال منه لربه ، واستعانة به على أن يصرف عنه كيدهن ، وهكذا شأن الأنبياء .

قال فى البحر : نسب بعضهُم ليوسف مالا يجوز نسبته لآحاد الفُساق ، والذى أختاره : أن يوسف – عليه السلام – لم يقع منع هَمٌّ البتّة ، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان ، كما تقول : « قارفت الذنب لولا أن عصمك الله » وقول العرب : « أنت ظالم إنْ فَعَلتَ » **وتقديره** : « إن فعلت فأنت ظالم » وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ، ولكنه وجد رؤية البرهان ، فانتفى الهمَّ . وأما أقوال السلف ، فنعتقد أنه لا يصح عن أحد منهم شيء من ذلك ، **لأنها أقوال متكاذبة** ، يناقض بعضُها بعضاً ، مع كونها قادحة فى بعض فساق الملل ، فضلا عن المقطوع لهم بالعصمة . [1]

• **وقال أبو السعود** : إن همّه بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ميلا جبليا ، لا أنه قصدها قصداً اختياريا ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ، ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو

---

(١) البحر المحيط ٢٩٠/٥.

إلا تسجيل باستحالة صدور الهمّ منه تسجيلا محكما ؟ . وما قيل : إنه حل الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فإنما هى خرافات وأباطيل ، تمجّها الآذان ، وتردها العقول والأذهان . (١)

• **وقيل** : إن ما حصل من همّ يوسف كان خَطْرة ، وحديث نفس بمقتضى الفطرة البشرية ، ولم يستقر ولم يظهر أثره .

قال البغوى : « قال بعض أهل الحقائق : **الهمُّ همَّان** : **هم ثابت** ، وهو إذا كان معه عزم وعقد ، ورضا ، مثل هم امرأة العزيز ، والعبد مأخوذ به .

وهمّ عارض : وهو الخطرة ، وحديث النفس ، من غير اختيار ، ولا عزم ، مثل همّ يوسف – عليه السلام – والعبد غير مأخوذ به ، مالم يتكلم به ، أو يعمل . (٢)

• **وقيل** : همّت به همّ شهوة ، وقصد للفاحشة ، **وهم هو يضربها** .

ولا أدرى كيف يتفق هذا القول ، وقوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّه ﴾ .

* **ويعجبنى فى هذا المجال تفسير لغوى للآية ذكره الشيخ محمد أبو شهبة قال** (٣) :

والصحيح فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهاَ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّه ﴾ – أن الكلام تمَّ عند قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ به ﴾ وليس من شك فى أن همها كان بقصد الفاحشة – ﴿ وَهَمَّ بها لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبّه ﴾ – الكلام من قبيل **التقديم والتأخير** . والتقدير : ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها . فقوله تعالى : ﴿ **وهمَّ بِهاَ** ﴾ جواب ﴿ **لولا** ﴾ مقدم عليه .

---

(١) تفسير أبى السعود ٦٣/٢

(٢) تفسير البغوى على هامش تفسير ابن كثير ٤٣١/٤

(٣) الإسرائيليات والموضوعات ٣١٧

ومعروف فى العربية أن (**لولا**) حرف امتناع لوجود ، أى امتناع الجواب لوجود الشرط ، فيكون (الهمُّ) ممتنعا لوجود البرهان ، الذى ركزه الله فى فطرته ، والمقدم : إما الجواب ، أو دليله على الخلاف فى هذا بين النحويين .

والمراد بالبرهان : هو حجة الله الباهرة ، الدالة على قبح الزنا ، وهو شيء مركوز فى فطر الأنبياء . ومعرفه ذلك عندهم ، وصل إلى عين اليقين ، وهو ما نعبر عنه بالعصمة ، وهى التى تحول بين الأنبياء والمرسلين ، وبين وقوعهم فى المعصية .

وهذا هو القول الجزل ، الذى يوافق ما دلّ عليه العقل من عصمة الأنبياء ، ويدعو إليه السابق واللآحق . **يقول الإمام جعفر بن محمد الصادق** : البرهان : النبوة التى أودعها الله فى صدره ، حالت بينه وبين ما يسخط الله عز وجل .

وأما كون **جواب لولا** لا يجوز أن يتقدم عليها ، فهذا أمر ليس ذا خطر حتى نعدل عن هذا الرأى الصواب ، إلى التفسيرات الأخرى الباطلة (همّ) يوسف ، والقرآن هو أصل اللغة . فورود أى أسلوب فى القرآن يكفى فى كونه أسلوباً عربيا فصيحاً ، وفى تأصيل أى قاعدة من القواعد النحوية ، فلا يجوز لأجل الأخذ بقاعدة نحوية ، أن نقع فى محظور لا يليق بالأنبياء كهذا .

والذى يجب أن يعتقد – كما يقول ابن كثير – أن الله عصم يوسف ، وبرأه ، ونزّهه عن الفاحشة ، وحماه عنها ، وصانه منها ، ولهذا قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ، مثل ذلك فعلنا ، وتصرفنا مع يوسف لأنا نعدّه لتحمّل أَعْبَاءِ الرسالة فى المستقبل ، ولنصرف عنه السوء . ولم يقل القرآن « **لنصرفه عن السوء** » إذ فرق بين العبارتين كبير ، ولنصرف عنه الفحشاء ، إنه من عبادنا المصطفين الأخيار ، الذين اختارهم ربهم ، وخلّصهم من شوائب المعاصى .

أى ثبتناه على **العفة** أمام دوافع الفتنة ، لنصرف عنه المنكر والفجور ، **وهذه آية بيّنة ، وحجة قاطعة** ، على أنه – عليه السلام – لم يقع منه همٌّ بالمعصية ، ولو كان كما زعموا – لقال : « لنصرفه عن السوء والفحشاء » ، فلما قال ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْه ﴾ ، دلّ على أن ذلك شىء خارج عن الإرادة ، فصرفه الله عنه ، بما منحه من موجبات العفة والعصمة .

وقوله ﴿ والفَحْشَاء ﴾ أى لنصرف عنه الزنى الذى تناهى قبحه ، إنه من عبادنا المخلصين ، الذى أخلصهم الله لطاعته .

* ثم أخبر الله – تعالى – بما حصل من **المفاجأة العجيبة** ، بقدوم زوجها ، وهما يتسابقان نحو الباب ولا تزال هى فى هياجها الحيوانى ، فقال ﴿ واسْتَبَقَا البَابَ ﴾ قال العلماء : هذا من اختصار القرآن المعجز ، الذى يجمع المعانى الكثيرة ، فى الألفاظ القليلة ، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى ، عزمت على أن تجبره بالقسر والإكراه ، فهرب منها فتسابقا نحو الباب ، هى لترده إلى نفسها ، وهو يهرب منها ، فاختصر القرآن ذلك كله ، بتلك العبارة البليغة ، فقال : ﴿ واسْتَبَقَا البَابَ ﴾ . أى هرب منها طالبا الباب ، ليخرج منه فراراً منها ، فاتبعته فى أثره ﴿ وَأَلْفَيَا ﴾ أى وجدا ﴿ سَيِّدَهَا ﴾ أى زوجها ﴿ لَدَى البَابِ ﴾ ، فبدرته بالكلام ، وحرضته عليه .. قالت : ﴿ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٥]

اتهمته – وهى المتهمة ، وبرأت عرضها ، ونزهت ساحتها ، فلهذا قال يوسف : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ احتاج أن يقول الحق عند الحاجة .

﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ قيل : كان صغيرا فى المهد – قاله ابن عباس .

وقيل : كان رجلا قريبا إلى « قَطْفِير » زوجها . **وقيل** : قريبا إليها .. فقال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِين ﴾ أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه .

﴿ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ [يوسف : ٢٧] أى لأنه يكون قد هرب منها ، فاتبعته وتعلّقت فيه ، فانشق قميصه لذلك . وكذلك كان ولهذا قال تعالى : ﴿ فَلَمّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ : إِنَّهُ من كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : ٢٨] أى هذا الذى جرى من مكركن ، أنتِ راودتيه عن نفسه ، ثم اتهمتيه بالباطل .

* ثم أضرب بعلها عن هذا صفحا ، فقال : ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ [يوسف : ٢٩] ، أى لا تذكره لأحد ، لأن كتمان مثل هذه الأمور هو الأليق والأحسن . وأُمر العزيز زوجته بالاستغفار لذنبها ، الذى صدر منها ، والتوبة إلى ربها ، فإن العبد إذا تاب إلى الله ، تاب الله عليه .

* ولقد عَذَرها زوجها من بعض الوجوه ، لأنها رأت ما لا صبر لها على مثله ، إلا أنه عفيف نزيه ، برىء العرض ، سليم الناحية ، فقال : ﴿ واسْتَغْفِرِى لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخَاطِئِين ﴾

*** وهنا سؤال يطرح نفسه : لماذا كانت المراودة .. ولماذا عذرها زوجها ؟**

الجواب ..لأن يوسف – عليه السلام – كان أبدع الرجال حُسْنا ، وأكثرهم جمالا ونضارة وبهاء .

يقول الرواة والمؤرخون : كان حسنه كضوء النهار ، وكان يوسف أبيض اللون ، جميل الوجه ، جعد الشعر ، ضخم العينين ، مستوى الخلقة ، غليظ الساقين ، والعضدين ، والساعدين . خميص البطن ، أقنى الأنف ، صغير السرّة . وكان بخده الأيمن خال أسود ، وكان ذلك الخال يزين وجهه ، وكان بين عينيه شامة بيضاء ، كأنها القمر ليلة البدر ، وكانت أهداب عينيه تشبه قوادم النسور ، وكان إذا تبسّم رؤى النور من ضواحكه ، وإذا تكلم رؤى شعاع النور يشرق من بين ثناياه ، لا يقدر بنو آدم ، ولا أحد على وصف

يوسف – عليه السلام .[١]

• **قال كعب الأحبار** : إن الله تعالى مثل لآدم – عليه السلام – ذرِّيته بمنزلة الذر ، فأراه الأنبياء – عليهم السلام – نبياً نبيا ، وأراه فى الطبقة السادسة « **يوسف** » متوجا بتاج الوقار ، مؤتزراً بحلة الشرف ، مرتديا برداء الكرامة ، مقمصا بقميص البهاء ، وفى يده قضيب المُلْك ، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك ، وعن يساره سبعون ألف مَلَك ، ومن خلفه أمم الأنبياء ، لهم زجل بالتسبيح والتقديس ، وبين يديه شجرة السعادة ، تزور معه حيثما زار ، وتحول معه حيثما حال .

فلما رآه آدم قال : إلهى من هذا الكريم ، الذى أبحت له بحبوحة الكرامة ، ورفعته الدرجة العالية ، قال : يا آدم .. هذا ابنك المحسود على ما آتيته ، يا آدم انحله ، قال آدم : قد أنحلته ثلثى حسن ذريتى .

ثم إن آدم ضم يوسف إلى صدره ، وقبله بين عينيه ، وقال : يا بنى لا تأسف ، فأنت يوسف [٢] فأول من سماه يوسف آدم ، فقسم الله تعالى من الجمال الثلثين ، وقسم بين العباد الثلث ، وذلك أن الله تعالى أحب أن يرى العباد ، إنه قادر على ما يشاء ، فأعطى يوسف من الحسن والجمال ما لم يعطه أحداً من الناس .

ويقال : إنه ورث الحسن من جده إسحاق بن إبراهيم ، وكان أحسن الناس ، وإسحاق هو « **الضاحك** » بالعبرانية ، وهو ورث الحسن عن أمه سارة ، فإن الله تعالى صوّرها على صورة الحور العين ، ولكن لم يعطها صفاءهن ، وأعطى يوسف من الحسن والجمال ، وصفاء اللون ، ونقاء البشرة ما لم يعطه أحداً من العالمين .

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ص١٠٩

(٢) اختلف العلماء فى معنى يوسف ، فقال أكثر الفقهاء : هو اسم عبرى ، فلذلك لا يجرى . وقال بعضهم : هو اسم عربى ، قال أبو الحسن الأقطع – وكان حكيما – حين سئل عن يوسف ، فقال : الأسف فى اللغة : الحزن ، والأسيف : العبد ، واجتمعا ، فلذلك سمى يوسف . [ابن كثير – قصص الأنبياء : ٢٣٧]

• **عن أبى إسحاق بن عبد الله بن أبى فروة** ، قال : كان يوسف إذا سار فى أزقة مصر ، يرى تلألؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس والقمر على الجدران .

• **وعن أبى سعيد الخدرى** – رضى الله عنه – قال : « قال رسول الله ﷺ : مررت ليلة أُسرى بى إلى السماء ، فرأيت **يوسف** ، فقلت يا جبريل من هذا ؟ **فقال** : هذا يوسف ، قال : فكيف رأيته يا رسول الله ؟ قال : كالقمر ليلة البدر » .

• **وعن أنس – رضى الله عنه – قال** : « قال رسول الله – ﷺ : أعطى وأمه شطرى الحسن »

• **وعن عبد الله بن مسعود قال** : قال النبى – ﷺ – « هبط جبريل – عليه السلام ، فقال يا محمد .. إن الله تعالى يقول لك : كسوت حُسن يوسف من نور الكرسى ، وكسوت وجهك من **نور عرشى** » .

* بعد محنة المراودة .. يذكر الله تعالى ما كان من قبل نساء المدينة ، من نساء الأمراء ، وبنات الكبراء فى الطعن على امرأة العزيز وعيبها ، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها ، وحبها الشديد له ، وهو – فى رأيهن ، وقبل أن يروه – لا يساوى هذا ، لأنه مولى من الموالى ، وليس مثله أهلا لهذا الشغف والحب .

﴿ وقَالَ نِسْوَةٌ فِي المَدِينَةِ : امْرَأَةُ العَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ، قَدْ شَغَفَها حُباً ، إنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُبِين ﴾ [يوسف : ٣٠] ، أى فى وضعها الشىء فى غير محله .

﴿ فَلَماَّ سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ ﴾ أى بتشنيعهن عليها ، والتنقص لها ، والإشارة إليها بالعيب والمذمة بحب مولاها ، وعشق فتاها ، فأظهرن ذما – وهى معذورة فى نفس الوقت ، فلهذا أحبت أن تبسط عذرها عندهن ، وتبين أن هذا الفتى ليس كما حسبن ، ولا من قبيل مالديهن ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ ، واعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكئاً ﴾ ، أى أرسلت إليهن ، فجمعتهن فى منزلها ، وأعتدت لهن ضيافة تليق بمثلهن ، وأحضرت فى جملة ذلك

شيئا مما يقطع بالسكين ، كالتفاح والكمثرى والبرتقال والأترج (ثمار كالليمون الحلو) ونحوه ، ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ ..

وكانت قد هيأت يوسف – عليه السلام – وألبسته أحسن الثياب ، وهو فى غاية طراوة الشباب ، وأمرته بالخروج عليهن بهذه الحالة ، فخرج وهو أحسن من البدر لا محالة .

﴿ فَلَماَّ رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أى أعظمنه ، وأجللنه ، وهِبْنَهُ ، وما ظنن أن يكون مثل هذا فى بنى آدم ، وبهرهن حسنه حتى اشتغلن عن أنفسهن ، وجعلن يحززن فى أيديهن بتلك السكاكين ، ولا يشعرن بالجراح ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لله .. ماَ هَذَا بَشَراً ، إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف : ٣١]

قال ابن مسعود : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكان إذا أتته امرأة لحاجة غطى وجهه ، ولهذا لما قام ، عذرن امرأة العزيز فى محبتها ، وجرى لهن وعليهن ما جرى ، من تقطيع أيديهن ، وجراح السكاكين ، وما ركبهن من المهابة والدهش عند رؤيته ومعاينته .

قالت امرأة العزيز : ﴿ فَذَلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيه ﴾ – ثم مدحته بالعفة التامة ، فقالت : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُّهُ عَنْ نَفْسِهِ فاسْتَعْصَمَ ﴾ أى امتنع ﴿ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّاغِرِين ﴾ [يوسف : ٣٢]

وكان بقية النساء حَرَّضْنَه على السمع والطاعة لسيدته ، فأبىَ أشد الإباء ، ونأى لأنه من سلالة الأنبياء ، ودعا فقال فى دعائه لرب العالمين :

﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِماَّ يَدْعُونَنِى إِلَيْه ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وأَكُنْ مِنَ الجَاهِلِينْ ﴾ يعنى .. يارب ، إن وكلتنى إلى نفسى ، فليس لى من نفسى إلَّا العجز والضعف ، ولا أملك لنفسى نفعا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ، فأنا ضعيف إلا ما قوّيتنى وعصمتنى وحفظتنى وحطتنى بحولك وقوتك .

ولهذا قال تعالى : ﴿ فاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [يوسف : ٣٤] أى أجاب الله دعاءه ، فنجاه من مكرهن ، وثبّته على العصمة والعفة ، ﴿ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ ﴾ أى لدعاء الملتجئين إليه . ﴿ العَلِيمُ ﴾ بأحوالهم ، وما انطوت عليه نياتهم .

وهكذا اجتاز يوسف محنته الثالثة بلطف الله ورعايته . ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾ [يوسف : ٣٥] وهذه هى بداية **المحنة الرابعة** ، وهى الأخيرة ، من محن الشدة فى حياة يوسف الصديق ، وهى **محنة السجن** ، وكل ما بعدها فرخاء .

والمعنى : ثم ظهر للعزيز وأهله ، ومن استشارهم ، بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف ، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة ، ليكون ذلك أقل لكلام الناس فى تلك القضية ، وأحمد لأمرها وليظهروا أنه راودها عن نفسها ، فسجن بسببها ، فسجنوه ظلما وعدوانا ، وكان هذا مما قدّر الله له ، ومن جملة ما عصمه به ، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم .

روى أن جبريل – عليه السلام – جاء إلى يوسف ، وهو فى السجن ، معاتبا له ، فقال له :

– يا يوسف من خلَّصك من القتل من أيدى إخوتك ؟ قال : **الله تعالى** .

قال : فمن أخرجك من الجُب ؟ قال : الله تعالى .

قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال : الله تعالى .

قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى .

قال : فكيف تركتَ ربك فلم تسأله ، ووثقت بمخلوق ؟

قال : يارب .. كلمةٌ زلّت منى ، أسألك يا إله إبراهيم وآله ، والشيخ يعقوب – عليهم السلام أن ترحمنى ، فقال له جبريل ، فإن عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين .[١]

هذه هى محنة **يوسف الصدّيق** ، ابن يعقوب الصفى ، ابن إسحاق ، ابن إبراهيم – عليهم السلام . الذى سماه رسول الله – ﷺ – كريما ، وآباءه كرماء ..

فعن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – ﷺ – « إن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم » – صلوات الله عليهم أجمعين .

وهذه هى المحن والشدائد ، التى امتحنه الله بها .. ولا غرابة أن يمتحنه الله بمثل هذا الامتحان العظيم ، فهذه المحن والمشاق ، من حِكَم الله ، التى يعلمها ، والحوادث تخلق الرجال .

﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فى الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ، وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، ولكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون ﴾ [يوسف : ٢١]

﴿ واللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ﴾ أى منفذ ما أراده ، لا رادّ لقضائه ، فكل ما وقع ليوسف من إلقائه فى الجب ، ومن استرقاقه وبيعه ، وتوصية سيده لامرأته بخصوصه ، ثم محنة المراودة ، ثم محنة السجن ، ثم **تعليمه الرؤيا** .. وغير ذلك ، خطوات لإعداد نبى الله يوسف للمحل الذى ينتظره ﴿ ولكنّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُون ﴾

*** وظاهرة واضحة فى قصة يوسف عليه السلام :**

ذلك أنه جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة القرآنية بقصد **العظة والاعتبار** ، ولكن بإيجاز دون توسع ، لاستكمال جميع حلقات القصة ،

---

(١) تفسير القرطبى ١٩٦/٩

وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سآمة أو ملل وأما قصة يوسف – عليه السلام – فقد ذُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر فى مكان آخر كسائر قصص الرسل ، لتشير إلى « **إعجاز القرآن** » فى المجمل والمفصّل ، وفى حالتى الإيجاز والإطناب ، فسبحان الملك العلى الوهاب .

• **قال القرطبى** : ذكر الله أقاصيص الأنبياء فى القرآن ، وكررها بمعنى واحد فى وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف – عليه السلام – ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل ، وصدق الله ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَاب** ﴾ [١]

• أضف إلى ذلك .. أنه قد يكون السبب ما فيها من تشبيب النسوة بيوسف ، وتضمن الإخبار عن حال امرأة ونسوة ، افتتن بأبدع الرجال جمالا ، وأرفعهم مثالا ، فناسب عدم تكرارها لما فيه من الإغضاء والستر عن ذلك .

• وأيضا – أن القصة اختصت بحصول الفَرَجْ بعد الشدة ، بخلاف غيرها من القصص ، فإن مآلها إلى الوبال ، كقصة إبليس ، وقوم نوح ، وقوم هود ، وغيرهم ، فلما اختصت قصة يوسف بذلك ، اتفقت الدواعى على عدم تكرارها .

• ووجه آخر ذكره المفسرون ، أن القرآن إنما كرر قصص الأنبياء ، وساق قصة يوسف مساقاً واحداً – إشارة إلى **عجز العرب** ، كأن النبى – ﷺ – قال لهم : إن كان من تلقاء نفسى تصديره على الفصاحة ، فافعلوا فى قصة يوسف ما فعلت فى قصص الأنبياء .

★ ★ ★

---

(١) تفسير القرطبى ١٣١/٩ ، والآية من سورة يوسف ١١١

الفصل الثامن

نبىّ الله شُعَيْب .. وأصْحَابُ الْأَيْكَة

• من هو شعيب ؟ .. ومن هم أصحاب الأيكة ؟

اسمه .. شُعيب بن ميكيل بن يشجر ، واسمه بالسريانية : يَثْرُون

كان يطلق عليه خطيب الأنبياء لبلاغته ، وقوة لسنه ، وفصاحة عبارته ، وجزالة موعظته ، بعثه الله إلى مدين ، **ومَدْين** تطلق على القبيلة ، وعلى المدينة ، وهى التى بقرب (**مُعان**) من طريق الحجاز . قال تعالى : ﴿ ولَماً وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُون ﴾ [القصص : ٢٣]

• **قال محمد بن إسحاق** : إن أهل مدين من سلالة مدين بن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

• وقد عُرف أهل مدين فى القرآن بأنهم « **أصحاب الأيكة** » والأيكة هى الغوطة التى يكثر فيها الشجر ، وقد كانوا يجمعون بين الزراعة والتجارة ، وأراضيهم كانت كثيرة الأشجار ، وافرة الثمار ، وفيها الحدائق والبساتين الغناء ، ولذلك سموا أصحاب الأيكة ، وكانوا يعيشون حياة الرفاهية والنعيم .

وكانوا على دين سيدنا إبراهيم – ﷺ – الإسلام ، ولكنهم لم يَطُل بهم العهد حتى خرجوا عن الملة الحنيفية ، وغيروا وبدلوا وكفروا بالله ، وانحرفوا عن الصراط المستقيم ، وكانت قد فشت فيهم منكرات عديدة ، **أبرزها** : **التطفيف فى المكاييل والموازين ، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم ، ويفسدون فى الأرض ، ويأكلون أموال الناس بالباطل .**

فبعث الله إليهم نبيّه الضرير ، خطيب الأنبياء ، شعيبا عليه السلام ، ليقوّم أخلاقهم ، ويرشدهم إلى العقيدة الصحيحة ، عقيدة التوحيد ، ويحثهم على عدم الإفساد فى الأرض ، حتى لا يبعدوا عن الغاية الأساسية التى من أجلها خلق الله الخلق ، وفى هذا يتفق مع غيره من الأنبياء ، الذين بعثهم الله سبحانه من أجل هداية البشر .

وتعد قصة نبى الله شعيب وأصحاب الأيكة .. قصة الحث على المعاملة الطيّبة ابتغاء مرضاة الله .

• والباحث المتأمل فى كتاب الله ، يجد أن قصة شعيب – عليه السلام – مع قومه ، قد وردت فى مواضع عدة : فى سورة الأعراف (٨٥ – ٩٢) ، وسورة هود (٨٤ – ٩٤) ، وفى سورة الشعراء (١٧٧) ، وسورة العنكبوت (٣٦) . كما ورد ذكر أصحاب الأيكة فى سورة الحجر (٧٨) ، وسورة الشعراء (١٧٦) ، وسورة ص (١٣) ، وسورة ق (١٤) .

وكلها تشير إلى قصة بعث نبى الله شعيب إلى أهل مدين – أصحاب الأيكة ، لهدايتهم إلى عبادة الله وتوحيده وتنزيهه . **يقول سبحانه فى سورة هود :**

* ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، قَالَ : يَاَ قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تُنْقِصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيط ﴾ [هود : ٨٤]

• ويقول عز شأنه فى سورة الأعراف :

* ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً ، قَالَ : يَاَ قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جَاءَتْكُمْ بيِّنةٌ مِنْ رَبِّكُم ، فأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ، ولا تَبْخِسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم ، وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِها ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لكُمْ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٥]

المعنى .. ولقد أرسلنا إلى قبيلة مدين شعيبا ، نبيّا فيهم ، وهو من أشرفهم – فقال : يا قوم اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئا ، ما لكم من إله غيره ، هو الذى خلقكم ، وخلق كل شيء لكم ، قد جاءتكم بينة من ربكم وآية دالة على صدقى ، فأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تنقصوا الناس شيئا من حقوقهم فى بيع أو شراء ، أو حقّ مادى أو معنوى .

أمرهم شعيب بالوفاء فى الكيل والوزن ، ونهاهم عن نقص الناس شيئا من حقوقهم بعد الأمر بعبادة الله مباشرة ، وذلك لأن هذه الخصلة كانت فاشية فيهم . فقد كانوا من المطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس وأخذوا حقهم يستوفون ، وإذا كالوهم وباعوا إليهم شيئا ينقصون ويبخسون ، **وهذا مرض نفسى** ، وداء إذا تفشى فى أمة قضى عليها وأزال ملكها وعزّها .

وقال شعيب : يا قوم – لا تفسدوا فى الأرض بأى نوع من أنواع الفساد ، كالظلم والرشوة ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وارتكاب الإثم والفواحش ، وإفساد المجتمع لشيوع الانحلال الخلقى . ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، وقد أصلحها الله بما فطر الناس على حب الخير ، وبما أودع فيهم من الميل إلى الرشاد ، وبما أرسل فيهم من الرسل والهداة والمرشدين ، فعليكم ألا تفسدوا فيها بالبغى والعدوان على الأنفس والأموال والعقول والأعراض ، ذلكم الذى أتيتكم من أجله ، هو خير لكم فى الدنيا والآخرة ، وهو مجلبة للسعادة فى الدارين ، إن كنتم مؤمنين حقاً بى وبرسالتى .

وهكذا العلم وحده لا ينفع فى قمع النفس وردّها عن البشر بل لا بد معه من إيمان قلبى ، وتصديق روحى خالص ، ومخالفة للنفس والهوى .

وقوله : ﴿ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُه ﴾ هذه دعوة الرسل كلهم ، قد جاءتكم بيّنة من ربكم ، أى قد أقام الله الحج والبينات على صدق

ما جئتكم به . **ثم قال تعالى إخباراً عن شعيب** : ﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعَدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ – وَتَبْغُونَها عِوَجاً ، واذْكُرُوا إِذْ كُنْتُم قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ ، وانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِين ﴾ [الأعراف : ٨٦]

ينهاهم شعيب – عليه السلام – عن قطع الطريق الحسى والمعنوى بقوله ﴿ ولَا تَقْعُدُوا بكُلِّ صِراطٍ تُوعِدُون ﴾ أى تتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوكم أموالهم .. حيث كان هؤلاء المكذبون يقعدون على الطريق يرصدون الناس الذين يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين ، ويمنعوهم عن الإيمان بالله ، ويتوعدون من اتبعه بأنواع التهديد والوعيد ، ولما ألح عليهم شعيب فى الدعوة والموعظة جاهروه بالعداء .

وقوله : ﴿ وتَصُدُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ وتَبْغُونَها عِوَجاً ﴾ أى وتودون أن تكون على سبيل الله عوجا مائلة ..

يقول شعيب : ولا تقعدوا يا قوم فى الطرقات تنهون الناس عن الإيمان ، وتخوفونهم عاقبته ، وتتوعدونهم بالشر إن آمنوا ، كما **ورد فى حديث ابن عباس** : « ولا تصدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بهِ مِنَ النَّاس » ، ولا تطلبوا اعوجاجا لسبيل الله ودينه بما تَصِفُون وبما تكذبون ، وبما تشوهون الحقائق ، وتفترون على الله الكذب .

﴿ واذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُم ﴾ أى كنتم مستضعفين لقلّتكم فصرتم أعزَّة لكثرة عددكم ، فاذكروا نعمة الله عليكم فى ذلك . ﴿ وانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ ﴾ من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حل بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله ، وتكذيب رسله . أى واذكروا نعم الله عليكم وقت أن كنتم قلة من المال والرجال والسطوة ، فبارك فيكم ، وزاد مالكم ونما ، وكثر عددكم وَرِباً ، مع الجاه والقوة ، وانظروا نظرة عبرة وعظة ، كيف كان عاقبة المفسدين الظالمين من قوم عاد وثمود ، وقوم لوط .

• وقوله : ﴿ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِى أُرْسِلْتُ بِهِ وطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ [الأعراف : ٨٧]

أى قد اختلفتم علي ﴿ فاصْبِرُوا ﴾ أى انتظروا ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا ﴾ وبينكم أى يفصل ﴿ وهُوَ خَيْرُ الحَاكِمِين ﴾ فإنه سيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

ويقول : وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وصدقوا ، وكانت هناك طائفة لم يؤمنوا ، وهذا شأن الناس قديما وحديثا ... إن كان هذا فاصبروا أيها المؤمنون حتى يحكم الله ، ويقضى بيننا ، وهو الحكم العدل ، وقد حكم بنصرة عباده المؤمنين ، وهلاك الظالمين المفسدين ، وهو خير الحاكمين .

مناقشة قومه له وردّه عليهم :

﴿ قَالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيد ﴾ [هود : ٨٧]

يقولون له على سبيل التهكم – قبحهم الله – ﴿ أَصَلَواتك ﴾ أى قراءاتك ﴿ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنا ﴾ أى الأوثان والأصنام ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا ما نَشَاءُ ﴾ فنترك التطفيف عن قولك ، وهى أموالنا نفعل فيها ما نريد .

قال الحسن ، فى قوله ﴿ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ : أى والله إن صلاته لتأمرهم أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم ، وقال الثورى فى قوله : ﴿ أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فى أَمْوَالِنَا ما نَشَاءُ ﴾ يعنون الزكاة .

﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيد ﴾ قال ابن عباس : يقولون ذلك أعداء الله على سبيل الاستهزاء قبّحهم الله ولعنهم عن رحمته ، وقد فعل .

ومضمون الآية : يا شعيب أصلاتك تقضى بتأثيرها فيك أن تحملنا على ترك ما كان يعبد آباؤنا من أصنام نتخذهم قربى إلى الله ؟ ولست أنت خيرا منهم حتى نتركهم ونتبعك ..

والاستفهام فى الآية للإنكار والسخرية بشعيب . يقولون : أصلاتك تأمرك أن نترك ما نفعله فى أموالنا من تنمية واستغلال على حسب نشاطنا واجتهادنا ، أليس هذا حِجْراً على حريتنا ، وحدًّا لنشاطنا ؟ إنك يا شعيب لأنت الحليم المتأنى فى حكمه ، العاقل ، المتروى ، والرشيد الذى لا يأمر إلّا بما استبان له فيه وجه الخير والرشاد . **وهذا التأكيد الكثير فى كلامهم يفيد الاستهزاء والتعريض به** .

فماذا كان رد شعيب عليهم ؟

﴿ قَالَ : يا قَوْمِ أَرَأَيْتُم إنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ، وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ، ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلَى ما أَنْهَاكُم عَنْهُ – إنْ أُرِيدُ إلَّا الإصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقى إلَّا باللهِ ، عَلَيْه تَوَكَّلْتُ وإلَيْهِ أُنِيب ﴾ [هود : ٨٨]

قال لهم : أرأيتم يا قوم إن كنت ﴿ عَلَى بيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى ﴾ أى على بصيرة فيما أدعو إليه ، ﴿ وَرَزَقَني مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ .. قيل : أراد **النبوة ، وقيل** : أراد الرزق الحلال ، ويحتمل الأمرين .

﴿ ومَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إلَى مَا أَنْهَاكُمْ عنه ﴾ أى لا أنهاكم عن الشيء وأخالف أنا فى السر فأفعله خِفْية عنكم ، أى لم أكن أنهاكم عن أمر وأرتكبه ﴿ إنْ أُرِيدُ إلَّا الإصْلاَحَ ما اسْتَطَعْتُ ﴾ أى فيما آمركم وأنهاكم ، إنما أريد إصلاحكم جهدى وطاقتى ﴿ وما توفيقى ﴾ فى إصابة الحق فيما أريده ﴿ إلَّا بالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فى جميع أمورى ﴿ وَإلَيْهِ أُنِيب ﴾ أى أرجع .

* عن حكيم بن معاوية عن أبيه – أن أخاه مالكا قال : يا معاوية .. إن محمداً أخذ جيرانى ، فانطلق إليه ، فإنه قد كلمك وعرفك ، فانطلقت معه فقال : دع لى جيرانى فقد كانوا أسلموا ، فأعرض عنه ، فقام مغضبا فقال : أما والله لئن فعلت .. إن الناس يزعمون أنك لتأمرنا بالأمر وتخالف إلى غيره ، وجعلت أجرّه وهو يتكلم ، فقال رسول الله : **ما تقول ؟** ، فقال : إنك والله لئن فعلت ذلك إن الناس ليزعمون أنك لتأمر بالأمر وتخالف إلى غيره ، قال : فقال : « أَوَ قَدْ قَالُوها .. أى قائلهم ؟ ولئن فعلت ما ذاك إلا علىّ وما عليهم من ذلك من شىء ، **أرسلوا له جيرانه** » [رواه أحمد]

ومن هذا القبيل .. الحديث الذى رواه الإمام أحمد بإسناده إلى أبى حميد ، وأبى أُسيد قالا :

قال رسول الله ﷺ : « إذَ سمعتم الحديثَ عنّى تعرفه قلوبكم ، وتلين أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم قريب ، فأنا أَوْلاكم به ، وإذا سمعتم الحديث عنىٍّ تنكره قلوبكم ، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم ، وترون أنه منكم بعيد ، فأنا أبعدكم منه » [رواه البخارى ومسلم]

* وقال ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل : اللهم افتح لى أبواب رحمتك ، وإذا خرج فليقل : اللهم إنى أسألك من فضلك » .

ومعناه – والله أعلم – مهما بلغكم عنى من خير فأنا أولاكم به ، ومهما يكن من مكروه فأنا أبعدكم منه .

* وفى قوله : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُم عَنْه ﴾ ذكر مسروق : جاءت إمرأة إلى ابن مسعود فقالت : تنهى عن الواصلة ؟ قال نعم : قالت : فعله بعض نسائك ، فقال : ما حفظتِ وصية العبد الصالح إذاً . وقرأ الآية .

وقال أبو سليمان الضبى : كانت تجيئنا كتب عمر بن عبد العزيز ، فيها الأمر والنهى ، فيكتب فى آخرها « وما كنت من ذلك إلّا كما قال العبد الصالح ﴿ وما تَوْفِيقِي إِلَّا باللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْه أُنِيب ﴾ .

• **ومضمون الآية** : يا قوم أخبرونى ماذا أفعل معكم ومع نفسى ؟ إن كنت على يقين تام ، وحجة واضحة من ربى تفيد أن ما آمركم به هو من عند الله ، لا من عند نفسى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد رزقت من فضله وخيره رزقا حسنا كثيرا ، حصل لى من طريق الكسب الحلال ، فأنا رجل ملىء وخبير بما ينمى المال ، وأخبرونى ماذا أفعل ، وماذا أقول لكم غير الذى قلت ؟

وما أريد أن أخالفكم مائلا إلى ما نهيتكم عنه ، بل أنا مستمسك به قبلكم ، لأنى أريد فيه الخير والرشاد فى الدنيا والآخرة ، وأنا ما أريد إلا الإصلاح والخير لى ولكم ما استطعت إلى ذلك سبيلا ليس لى فيما أفعل غرض خاص .

ومن هنا يؤخذ أن العاقل يجب أن يكون عمله مراعيا فى حق الله ورسوله ، وحق نفسه ، وحق الناس عليه ، وما توفيقى وهدايتى إلى الخير إلا بالله وحده ، عليه توكلت ، وإليه أنيب ، إذ هو المرجع والمآب ، والنافع والضار ، لا أرجو منكم خيرا ، ولا أخاف ضُرًّا .

• ﴿ ويا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أو قَوْمَ هُودٍ أو قَوْمُ صَالِحٍ ، وما قَوْمَ لُوطٍ مِنْكُم بِبَعِيدٍ ، واسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٨٩ ، ٩٠]

يقول لهم شعيب : ﴿ وَيَاَ قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُم شِقَاقِى ﴾ أى لا تحملنكم عداوتى وبغضى على الإصرار على ما أنتم عليه من الكفر والفساد ، فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط من النقمة والعذاب .

قال السدى : لا يحملنكم عداوتى على أن تمادوا فى الضلال والكفر فيصيبكم من العذاب ما أصابهم .

* **عن ابن أبى ليلى الكندى قال** : كنت مع مولاى أمسك دابته وقد أحاط الناس **بعثمان بن عفان** إذ أشرف علينا داره ، فقال : ﴿ يا قومِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُم مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ ، أَوْ قَوْمَ هُودٍ ، أو قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ .. يا قوم لا تقتلونى إنكم إن قتلتمونى كنتم هذا – وشبك بين أصابعه [ابن كثير ٤٥٧/٢]

وقوله : ﴿ ومَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبعِيد ﴾ **قيل فى الزمان** . قال قتادة : يعنى إنما هلكوا بين أيديكم بالأمس ، وقيل **فى المكان** ، **ويحتمل الأمران** . ﴿ واسْتَغْفِرُوا رَبّكُم ﴾ من سالف الذنوب ، ﴿ ثم توبوا إليه ﴾ فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة ﴿ إنَّ ربِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ لمن تاب .

* **تهديد شعيب بالإخراج من بلده .. وبالرَّجْم**

﴿ قَالَ المَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ياَ شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِناَ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِناَ .. قَالَ أَوَ لَوْ كُنَّا كارِهِين ﴾ [الأعراف : ٨٨]

هذا خبر من الله تعالى عما واجهت به الكفار نبيّه شُعَيبا ، ومن معه من المؤمنين فى توعدهم إياه ومن معه بالنفى عن القرية ، أو الإكراه على الرجوع فى ملّتهم ، والدخول معهم فيما هم فيه ، وهذا خطاب من الرسول ، والمراد أتباعه الذين كانوا معه على الملة .

وقوله ﴿ أَوَ لَوْ كُنَّا كارِهِين ؟ ﴾ يقول : أو أنتم فاعلون ذلك . ولو كنا كارهين ما تدعونا إليه ، فإنا إن رجعنا إلى ملتكم ودخلنا معكم فيما أنتم فيه ، فقد أعظمنا الفرية على الله فى جعل الشركاء معه أنداداً . **وهذا تنفير منه عن اتباعهم** ﴿ وما يكونُ لنا أن نَعُود فيهَا إلّا أن يشاءَ اللهُ ربُّنَا ﴾ [الأعراف : ٨٩] . **وهذا ردّ إلى الله المسبب ، فإنه** يعلم كل شيء وقد أحاط بكل شيء ﴿ على الله توكلنا ﴾ أى فى أمورنا ما نأتى منها وما نذر .

وتقدير الكلام : أمر شعيب قومه بعبادة الله وحده ، والوفاء بالكيل والميزان ، وعدم الفساد فى الأرض ، فما كان من أشراف قومه ، الذين استكبروا عن الإيمان بالله ورسله ، وعاثوا فى الأرض فساداً إلّا أن قالوا : تالله لنخرجنّك يا شعيب ، والذين آمنوا معك من بلادنا حتى تسكن الفتنة ، وتهدأ الثورة التى أثرتموها باتخاذكم ديناً غير دين الآباء والأجداد ، ليكونَنّ أحد الأمرين : إما إخراجكم من القرية ، وإما عودتكم فى ملّتنا ، ودخولكم فى زمرتنا وجماعتنا .

قال شعيب : عجبا لكم إذ تأمروننا أن نعود فى ملتكم ، أنعود ولو كنا كارهين ؟ .. إنكم تجهلون موقفنا ، وتأثير العقيدة فى نفوسنا ، فطلبتم منا هذا الطلب .

وردّ عليهم شعيب فى الأمر الثانى المهم فقال :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فى مِلّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجاَّنَا اللهُ مِنْهاَ ، وماَ يَكُونُ لَناَ أَنْ نَعُودَ فيها إِلَّا أَنْ يَشاَءَ اللهُ ، رَبُّنَا وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، علَى اللهِ تَوَكَّلْناَ ، رَبَّناَ افْتَحْ بَيْنَناَ وبَيْنَ قَوْمِناَ بالحَقِّ وأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحِين ﴾
[الأعراف : ٨٩]

قال : لقد افترينا على الله كذبا إن عُدنا فى ملتكم ، ملة الكفر والضلال ، إذ الكافر يختلق على الله الكذب ، حيث يدعى أن له شريكا وولداً ، بل المرتد أعظم جرما ، وأكثر كذبا ، حيث يوهم غيره أنه رجع بعد معرفة الحقيقة والواقع ، أنعود إلى ديانتكم بعد أن نجانا الله منها ؟ إن هذا لشىء عجيب .

ما أعظم كذبنا وكفرنا – إن عُدنا فيها بعد أن نَجّى الله أصحابى منها وأنا معهم ، وما ينبغى أن نعود فيها أبداً ، ولا يقدر أحد على تحويلنا إليها فى حال من الأحوال ، إلّا فى حال مشيئة الله ربنا ، إذ هو المتصرف فى أمرنا ، **وهذا رفض أبلغ** . والله واسع العلم ، كثير الفضل ، أعلم بخلقه ، لا يشاء إلّا الخير لهم ،

هذا اعتقادهم فى الله على أنهم قوم مؤمنون حقا ، لا يهمهم تهديد ، ولا يخوّفهم وعيد ، ويقولون : على الله توكّلنا ، وإليه أنبْنا ، وما عداه .. فشىء لا يُعبأ به أبداً .

وهذا رفض آخر بالدليل .

ثم دعا شعيب ربه لما يئس من قولهم ، فقال : ﴿ ربَّناَ افْتَحْ بَيْنَناَ وبَيْنَ قَوْمِناَ بالحَقِّ ﴾ أى أحكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم ، ﴿ وأَنْتَ خَيْرُ الفَاتِحين ﴾ أى خير الحاكمين ، فإنّك العادل الذى لا يجورُ أبداً ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق الذى مضت به سُنّتك فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، بل وبين كل محق ومبطل ، وأنت خير الحاكمين عدلا وإحاطة ونزاهة سبحانك أنت الحكم العدل .

وقالوا أيضا – فى سورة هود – يهددون شعيبا :

﴿ يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مماَّ تَقُولُ ، وَإِناَّ لَنَرَاكَ فِيناَ ضَعِيفاً ولَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وماَ أَنْتَ عَلَيْناَ بِعَزِيز ﴾ [هود : ٩١]

قالوا : ﴿ يا شُعيبُ ما نفقه ﴾ أى ما نفهم كثيرا من قولك ﴿ وإناَّ لَنَرَاكَ فِيناَ ضَعِيفاً ﴾ لأنه كان ضرير البصر . قال السدى : أنت واحد ، يعنون ذليلا ، لأن عشيرتك ليسوا على دينك .

﴿ ولَوْلَا رَهْطُكَ لرجمناك ﴾ أى لولا قومك ، ومعزتهم علينا لرجمناك بالحجارة ، لسَبَبْنَاك ﴿ وماَ أَنْتَ عَلَيْناَ بِعَزِيز ﴾ أى ليس عندنا لك معزّة .

مضمون الآية : قالوا يا شعيب ما نفهم كثيرا مما تقول فهما عميقا ، ولا نفهم له معنى ولا حكمة ، وإنا لنراك فينا ضعيفا لا حول لك ولا قوة ، فكيف يقبل منك هذا الذى يوصلك إلى الرياسة فى الدين والدنيا ، على أنا لو أردنا البطش بك ما منعنا مانع ، ولولا عشيرتك الأقربون لفتكنا بك فتكا يتناسب مع عملك معنا من ذم آلهتنا ، وطلبك الحجر علينا فى تصرفنا ، أى نقتلك رَجْماً بالحجارة ، وما أنت علينا بعزيز .

قال شعيب راداً عليهم :

﴿ قَالَ يا قَوْمِ .. أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ اللهِ واتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِياً إنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [هود : ٩٢]

* **قال** : أتتركونى لأجل قومى ، ولا تتركونى إعظاما لجناب الرب تبارك وتعالى أن تنالوا نبيّه بمساءة وقد اتخذتم كتاب الله ﴿ وَرَاءَكُم ظِهْرِيًّا ﴾ أى نبذتموه خلفكم ، ولا تطيعونه ، ولا تعظمونه ﴿ إنَّ رَبِّى بِماَ تَعْمَلُونَ مُحِيط ﴾ أى هو يعلم جميع أعمالكم وسيجزيكم .

* يا قوم .. أرهطى وأسرتى أعز وأكرم عليكم من الله ، الذى أدعوكم إليه ، وأشركتم به ، وجعلتم مراقبته والخوف منه ، وأمره ونهيه وراءكم ظِهْرِياً ، كالأمر الذين يهون على صاحبه فينساه ، ولا يحسب له حساباً ، إن ربى بما تعملون محيط علما ، فسيجازيكم على عملكم .

﴿ وَياَ قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم إنِّى عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ، وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وارْتَقِبُوا إنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ [هود : ٩٣]

قال شعيب بعد أن يئس من استجابتهم - يا قوم ﴿ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُم ﴾ أى على طريقتكم ، **وهذا تهديد شديد** . ﴿ إنِّى عَامِلٌ ﴾ على طريقتى ، وغدا سوف تعلمون الذى سوف يأتيه عذاب يخزيه ويذلّه فى الدنيا والآخرة ، ومن هو كاذب فى قوله ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ ياَ شُعَيْبُ والَّذِينَ آمَنُوا معك من قَرْيَتِنَا ﴾ وانتظروا مراقبين من سيقع عليه العقاب ، إنى معكم من المنتظرين .

* **وهذا الأمر ﴿ اعْلَمُوا .. وارْتَقِبُوا ﴾ للتهديد والوعيد ممن وثق بربّه وبوعده .**

*** العقاب .. ووقوع العذاب .. وقال الكافرين**

﴿ وَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لخَاسِرُون ﴾ [الأعراف : ٩٠]

يخبرنا الحق – تعالى – عن شدة كفرهم وتمردهم وعتوهم ، وما هم فيه من الضلال ، وما جبلت عليه قلوبهم من المخالفة للحق ، ولهذا أقسموا وقالوا : ﴿ لَئِنَ اتَّبَعْتُم شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذًا لخَاسِرُون ﴾ **فلهذا عقبه الله بقوله** ﴿ فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ .

لقد قال الملأ الذين كفروا – وهم عيون مدين وأشرافهم ، قالوا للمستضعفين المؤمنين : تالله لئن اتبعتم شعيبا وآمنتم به ، إنكم إذًا لخاسرون شرفكم حين تركتم دين آبائكم إلى دين لم تعرفوه ولم تألفوه ، وخاسرون دنياكم حيث تركتم ما به ينمو ما لكم ، ويزيد من التطفيف فى الكيل وأكل أموال الناس .

ولقد كان وصفهم (بالاستكبار) أولا لمناسبة التهديد بالإخراج من الديار .

ووصفهم هنا (بالكفر) يناسب الضلال والصدّ عن سبيل الله .

*** وأما جزاؤهم ..** فأخذتهم الرجفة ، **وعمّتهم الصيحة ، وزلزلوا زلزالاً شديداً** ، حتى أصبحوا جثثا هامدة ، جاثمين فى مكانهم لا حراك فيهم .

• وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ فأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ [الأعراف : ٩١] حيث أخبر سبحانه أنهم أخذتهم **الرَّجْفَة** ، وذلك كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء .

كما أخبر عنهم الحق فى سورة هود فقال :

﴿ وَلَماَّ جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بَرحْمَةٍ مِنَّا ، وأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا **الصَّيْحَةُ** فأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِين ﴾ [هود : ٩٤]

والمناسبة هناك .. أنهم لما تهكّموا به فى قولهم ﴿ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ ﴾ الآية – فجاءت الصيحة فأسكتتهم

• **وقال تعالى – إخباراً عنهم فى سورة الشعراء : ﴿ فكَذَّبُوه فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾** [الشعراء : ١٨٩] **وما ذاك إلا لأنهم قالوا فى سياق القصة ﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْناَ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾** [الشعراء : ١٨٧] **فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة .. وقد اجتمع عليهم ذلك كله :**

أصابهم ﴿ عَذَابُ يَوْمُ الظُّلَّة ﴾ وهى سحابة أظلتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورَجّة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمين ﴾

* **وبمعنى آخر :**

لقد ذكر الحق سبحانه فى « **سورة هود** » **أنه أتتهم الصيحة ، وفى الأعراف الرجفة ، وفى الشعراء عذاب يوم الظلة** ، وهم أمة واحدة ، مدين أصحاب الأيكة ، اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النِّقم كلها .

• **وإنما ذكر الله فى كل سياق ما يناسبه :**

• **ففى سورة الأعراف** : لما قالوا ﴿ لَنُخْرِجَنَّك يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ ناسب أن يذكر الرجفة ، فرجفت بهم الأرض التى ظلموا بها وأرادوا إخراج نبيهم منها .

وفى سورة هود : لما أساءوا الأدب فى مقالتهم على نبيّهم ، ذكر الصَّيْحة التى استلبثتهم وأخمدتهم **وفى سورة الشعراء** – لما قالوا ﴿ فأَسْقِطْ عَلَيْناَ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِين ﴾ قال الحق سبحانه : ﴿ فأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّة إِنَّهُ كانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

وهذا من الأسرار الدقيقة فى كتاب رب العالمين ، وهذا ما يطلق عليه « علم المناسبة »

ومضمون القول : ولما جاء أمرنا ، وحانت ساعة التنفيذ ، نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة خاصة بهم ، وما ذلك على الله بعزيز ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة التى أخذت ثمود ، فأصبحوا جاثمين ، وجوههم منكبة على الأرض كالطير الجاثمة ، وأصبحت ديارهم خاوية على عروشها ، كأنهم لم يقيموا فيها وقتا من الأوقات .

ثم قال تعالى : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهاَ أَلَا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَماَ بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾

[هود : ٩٥]

أى كأنهم لما أصابتهم النقمة لم يقيموا بديارهم التى أرادوا إجلاء شعيب وصحبه منها ، ثم قال تعالى : مقابلا لقيلهم ﴿ الّذِين كَذَّبُوا شُعَيْبًا كاَنُوا هُمُ الخَاسِرِينَ ﴾ وكان قوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً .. الآية ﴾ على سبيل الحصر ، ردًّا عليهم فى قولهم : ﴿ لَئِنِ اتَّبَعْتُم شُعَيْباً إِنّكُم إِذًا لخاَسِرُون ﴾ وحقا الكافرون هم الذين خسروا فى الدنيا والآخرة دون سواهم .

﴿ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقاَلَ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِساَلاَتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِين ﴾ [الأعراف : ٩٣] أى فتولى عنهم شعيب – عليه السلام – بعد ما أصابهم ما أصابهم من العذاب والنقمة والنكال ..

وقال مقرّعا لهم وموبِّخا : يا قوم : ﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتَكُم رِساَلاَتِ رَبِّى ونَصَحْتُ لَكُمْ ﴾ أى قد أديت إليكم ما أرسلت به ، فلا آسف عليكم وقد كفرتم بما جئتكم به ، فلهذا قال : ﴿ فكَيْفَ آسَىٰ عَلَى قَوْمٍ كَافِرِين ﴾ ؟

والمعنى : وأما شعيب فقد تولى عنهم ، وأعرض قائلاً يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ، وبلغتكم ما فيه صلاحكم فى المعاش والمعاد ، ونصحت لكم ،

ومن بَشَّرَ وأنذر فقد أعذر ، ومن أعذر فكيف يحزن على قوم عصوه ، ولم يؤمنوا ؟ .. وكانوا كافرين ؟

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُون . ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ فأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُون ﴾ [الأعراف : ٩٤ ، ٩٥]

يقول الحق سبحانه ، مخبرا عما اختبر به الأمم الماضية ، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء – يعنى بالبأساء ما يصيبهم فى أبدانهم من أمراض وأسقام ، والضراء ما يصيبهم من فقر وحاجة ، ونحو ذلك ، لعلهم يضرعون ، أى يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى فى كشف ما نزل بهم . وتقدير الكلام .. أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذى أراد منهم ، فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ، ليختبرهم فيه ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ ﴾ أى حولنا الحال من شدة إلى رخاء ، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية ، ومن فقر إلى غنى ، ليشكروا على ذلك ، فما فعلوا .

وقوله : ﴿ حَتَّى عَفَوْا ﴾ أى كثروا وكثرت أموالم وأولادهم ﴿ وقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ والسَّرَّاءُ ، فأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُون ﴾ أى ابتليناهم بهذا وهذا ليتضرعوا وينيبوا إلى الله ، فما نجع فيهم لا هذا ولا هذا ، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا ، وقالوا قد مسّنا من البأساء والضراء ، ثم بعده من الرخاء ، مثل ما أصاب آباءنا فى قديم الزمان والدهر ، وإنما هو الدهر تارات وتارات ، بل لم يفطنوا لأمر الله فيهم ، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم فى الحالين ، وهذا بخلاف حال المؤمنين ، الذين يشكرون الله على السراء ، ويصبرون على الضراء ، كما ثبت فى الصحيحين :

• « عَجَباً للمؤمن لا يقضى الله له قضاءً إلَّا كَانَ خيراً له ، إن أصابته ضَرّاء صَبَر فكان خيراً له ، وإن أصابته سَرّاء شكر فكان خيراً له » [رواه البخارى]

* **فالمؤمن من يتفطّن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء** ، ولهذا جاء فى الحديث النبوى الشريف :

• « لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه ، والمنافق مَثَلُه كمثل الحِمارِ لا يدرى فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه » أو كما قال .

ولهذا عقب هذه الصفة بقوله : ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وهُمْ لَا يَشْعُرُون ﴾ أى أخذناهم بالعقوبة بغتة ، أى على غفلة وعدم شعور منهم .. أى أخذناهم فجأة — كما فى الحديث الشريف :

« مَوْتُ الفَجْأَةِ رحمةٌ للمؤمِن ، وأَخْذَةُ أَسَفٍ للكَافِرِ »

ومضمون الآية : وما أرسلنا فى قرية من القرى ، ولا مدينة من المدن ، ما أرسلنا فيها رسولا ثم كذب أهلها وعصوا إلّا أخذناهم بالشدة والمكروه ، وما أصابتهم سنين عجاف ، لعلهم بهذا يتضرعون ويلتجئون إلى ربهم ، وهكذا سنة الله فى الخلق ، ولن تجد لسنة تبديلا ، يرسل الشدائد لعلها ترجع الإنسان إلى ربّه ، وترده عن غِيّه ، ولكن كثيرا من الناس لا تردعهم الروادع ، فهؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى :

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُم ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [الأنعام : ٤٣] ثم أعطينا بدل الشدة سعة ، ومكان الفقر والضيق غنى وفضلا ، حتى عفوا وكثروا فى المال والعدد ، فالله سبحانه يريهم الحالتين ، ويمكّن لهم فى الجهتين ، لعلهم يعتبرون ، ولكن العصاة يقولون : هؤلاء آباؤنا قد مستهم الضراء والسراء ، وحلّ بهم الضيق والفرج ، والعسر واليسر ، وما نحن إلّا مثلهم .

وهذا قول من لم يعتبر ويتعظ بأحداث الزمن . أليس ما هم فيه ابتلاء واستدراج ؟

ألم يعلموا أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ؟ وهم مع ذلك قد أعرضوا ونأوا ، واستكبروا وبغوا ، فكان جزاؤهم ما ذكره الحق سبحانه : ﴿ فأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ وحل بهم العذاب فجأة ، وهم فى غِيِّهم سادرون ، وفى عمايتهم لاهون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبْلِسُون .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ من السَّمَاءِ والأَرْضِ ، ولكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِماَ كَانُوا يكْسِبُون ﴾ [الأعراف : ٩٦]

يخبر المولى – جل جلاله – عن قلة إيمان أهل القرى ، الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهاَ إيمانُها إلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَماَّ آمَنُوا كَشَفْنَا عَنهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فى الحَياَةِ الدُّنْياَ وَمَتَّعْناَهُم إلَى حِينٍ ﴾ [يونس : ٩٨] أى آمنت قرية بتمامها إلّا قوم يونس فإنهم آمنوا وذلك بعد ما عاينوا العذاب . كما قال سبحانه : ﴿ وأَرْسَلْنَاهُ إلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ، فآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إلَى حِين ﴾ [الصافات : ١٤٧ ، ١٤٨]

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهَلَ القُرَىَ آمَنُوا واتَّقَوْا ﴾ أى آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل ، وصدقت به واتبعوه ، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات ﴿ لَفَتَحْناَ عَلَيْهِمْ بركاتٍ مِنَ السَّماَء والأَرْضِ ﴾ أى قطر السماء ونبات الأرض . قال تعالى : ﴿ وَلكِنْ كَذَّبُوا – فَأَخَذْناَهُم بِماَ كاَنُوا يكْسِبُون ﴾ أى ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم .

هذا نظام الله فى الكون ، وتلك سنته مع الخلق قديما وحديثا ، فاعتبروا واتعظوا أيها الناس ، خاصة أنتم يا زعماء الشرك .. ولو أن أهل القرى ، التى كذبت رسلها ، ولم تؤمن بربها ، لو أنهم بدل الكُفر آمنوا ، ومكان العصيان اتقوا ، لفتح الله عليهم أنواع الخير من السماء والأرض ، كالعلوم والهداية ، والوحى

والإلهام ، وكذا المطر والسحاب ، وسهل عليهم خير الأرض من نبات ومعادن ، وخصب وكنوز .. **لو أنهم آمنوا ليسّر الله لهم كل خير من كل جانب** ، ولكن كذبوا وكفروا ، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر بما كانوا يكسبون ، فعلوا ما فعلوا فأخذهم الله بغتة .

* أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ، وينزل بهم عذابنا ، وهم بائتون ونائمون ..**وفى ذلك يقول رب العزة** : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ . أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيهُمْ بأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُون . أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلاَ يأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلّا القَوْمُ الخَاسِرُون ﴾ [الأعراف : ٩٧ – ٩٨]

يقول الحق سبحانه مخوفًا ومحذّرا من مخالفة أوامره والتجرؤ على زواجره ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى ﴾ أى الكافرين ﴿ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بأْسُنَا ﴾ أى عذابنا ونكالنا ﴿ بَيَاتاً ﴾ أى ليلاً ﴿ وَهُمْ نائمون ، أَوَ أَمِنَ أَهْلُ القُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وهُمْ يَلْعَبُون ﴾ أى فى حال شغلهم وغفلتهم ﴿ أَفَأَمِنُوا مكْرَ الله – إلّا القَوْمُ الخَاسِرُون ﴾ .**ولهذا قال الحسن البصرى – رحمه الله** :

« المؤمنُ يعملُ بالطَّاعَاتِ وهو مُشْفِقٌ وَجِلٌ خائفٌ ، والفاجرُ يعمل بالمعاصى وَهُوَ آمِن »

ومضمون الآيات : أَوَ أَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم العذاب ضحى وهم يلعبون ، فإن من يأتى من الأعمال مالا فائدة فيه فهو لاعب ولاه ، أى إن أمنتم ضربا منها لم تأمنوا الآخر . **أفأمنوا مكر الله .. وقد كرر الاستفهام الإنكارى لزيادة التوبيخ** ، وهو معطوف على قوله ﴿ أَفَأَمِن أَهْلُ القُرَى ﴾ ولهذا كان (**بالفاء**) . ومكر الله عبارة عن جزائه ، وأخذه العبد إذا طغى من حيث لا يشعر مع استدراجه والإملاء له ، فعلى العاقل ألا يأمن مكر الله ولو كانت إحدى رجليه فى الجنة .

والمعنى : إيأخذهم ربك بغتة فى الليل أو الضحى ، فأمنوا مكر الله ؟ — إن كان الأمر كذلك فقد خسروا أنفسهم فإنه لا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون .

أجهل هؤلاء الناس ، الذين يرثون الأرض من بعد أهلها — بعد هذا البيان الكامل ، أن سنة الله فى الخلق لا تتغير ؟ أكان ما ذكر ولم يتبين لهم أن شأننا معهم كشأننا مع من سبقهم ، فلو نشاء أصبناهم بذنوبهم كما أصبنا أمثالهم من قبل بغتة وهم لا يشعرون ، ونحن نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون الحكم والنصائح سماع قول وتدبر ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ والنُّذُر عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُون ﴾ [يونس : ١٠١]

تلك القرى التى مر عليك ذكرها — يا محمد — نقصّ عليك بعض أنبائها وأخبارها مما فيه عبرة وعظة وتسلية ، ولقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات ، والمعجزات الخارقات ، ولكنهم لم يؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، أى فى بدء الدعوة ، ولم تنفعهم الآيات الدالة على صدق الرسل ، مثل ذلك الطبع الذى طبعه الله على قلوب الكافرين ، من تلك الأمم يطبع الله على قلوب الكافرين من أمة الدعوة ، فلا تأس عليهم ، ولا تحزن على كفرهم ، وما وجدنا لأكثرهم عهداً وفوا به ، سواء كان عهد فطرة ، أو عهد شرع أو عرف ، وفى التعبير (بأكثرهم) إيماء إلى أن البعض قد آمن ووفى بعهده .

إن قصة شعيب — عليه السلام — مع قومه أصحاب الأيكة — لهى قصة الحث على المعاملة الطيبة ابتغاء مرضاة الله .

وإن الباحث المتأمل — فى كتاب الله — يجد أن مما جاء فى القصص — أن دعوة النبيين — عليهم الصلاة والسلام — جاءت للخير إلى حسن التعامل ، وإصلاح الأرض ، وأن إصلاح الأعمال والنفوس ، ومنع الفساد فى الأرض من أعظم المقاصد فى الشرائع السماوية بعد عبادة الله تعالى ، والإيمان باليوم الآخر .

وإذا كان ذلك فى ضمن قصة استمكنت فى النفس ، واتجهت إلى مداخلها من غير تعويق من ملاحاة جديدة ، غير ما كان فى عهد النبى الذى ذكرته القصة .

ونظرة فاحصة فى قصة شعيب – كما ذكرها القرآن – يتضح منها أنها دعوة صريحة إلى ناحية عملية تتصل بالإصلاح الاجتماعى ، ومنع الفساد فى الأرض ، والقيام بحق الأمانة فى التعامل ..

• وفى مواضع عدة – من قصة شعيب – نجده يكرر الدعوة ، ثم يبين سبحانه كيف تقاوم دعوة الحق بالإصرار على الشر ، وكيف كان الإصرار عليه إلى أن يديل الله تعالى بما ينزل بالعصاة ، وبما يؤدى إلى فساد أخلاق الأمة ، لقد قال الله تعالى – حكاية لقول شعيب :

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إلٰهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تُنْقِصُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ ، إنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ ، وإنىِّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ . ويا قَومِ أَوْفُوا المِكْيَالَ والمِيزَانَ بالقِسْطِ ، ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُم وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفسِدِينَ . بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِين ﴾ [الآيات : ٨٤ – ٨٦ من سورة هود]

ونرى من هذه المجاوبة أنهم يصرون على ما هم عليه ، ويعدون إرشادهم إلى الحق فى المعاملة تدخلا فى شئونهم المالية ، وكأنهم يظنون أن شئون المال لا صلة لها بالتدين ، كما يجرى على ألسنة بعض الذين لا يريدون بالدين الحق وقاراً .

ويبين شعيب ، أنه إذ ينهاهم – وهو أول من يتمسك بألا يفعل ما نهى عنه إذ يقول : ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وفى ذلك إشارة إلى أن مَنْ يدعو إلى أمر ، يهدمه إن خالفه فى عمله ، وأن الاستجابة إلى الداعى إلى الخير تقتضى أن يكون الداعى مستجيبا له ، وهكذا . فإن الله تعالى يأخذ على بنى إسرائيل أنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم ، فقد قال تعالى :

﴿ أَتَأْمُرُون النَّاسَ بالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُم وأَنْتُم تَتْلُونَ الكتابَ أَفَلاَ تَعْقِلُون ﴾ [البقرة : ٤٤] صدق الله العظيم

الفصل التاسع

نَبِيُّ اللهِ مُوسَى ... وَصَاحِبُهُ الخِضْر

من أبرز سمات القصص القرآنى .. أن فيه **العبرة والعِظَة** ، **فما من قصة** ذُكرت فى القرآن المجيد ، إلّا كان معها عبرة أو عبر ، وفيها المثلات لمن عصوا وتركوا أمر ربهم ، وفيها ما نزل **بالأقوياء** الذين غرّهم الغرور ، **والجبابرة** الذين طغوا فى البلاد ، وأكثروا فيها الفساد ، والمؤمنين الصابرين الطائعين لتعاليم ربهم ، وأولى العزم من الرسل .

إن القصص القرآنى فيه إيناس للنبى المصطفى ﷺ ، وتثبيت لقلبه بأخبار إخوانه المصطفين الأخيار ، وإثبات لقوله ، فتلك الأخبار الصادقة ما كانت لتعلم إلّا لمن شاهد ، وما شاهد أحداثها وهو لا يزال فى بطن الغيب ، **كما قال سبحانه وتعالى عقب قصة مريم :**

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يكْفُلُ مَرْيَمَ وما كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

وكما قال فى قصة موسى عليه السلام ووقائعها :

﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُوناً فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ العُمُرُ ، وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وما كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمَ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

[القصص : ٤٤ - ٤٦]

• ولم يكن محمد مشاهداً الأحداث التى جاء القرآن الكريم بقصصها ، وهى صادقة ، وثابتة فى الصادق من أخبار النبيين فى كتبهم التى يتداولها أهل الكتاب ، ولم يتناولها التحريف .

• ولم يكن **بمكة** مدرسة لاهوت ، بل لم يكن بمكة يهود ولا نصارى إلّا خمار ألحدوا بأن النبى ﷺ أخذ منه كذبا وبهتانا ، فقال الحق عز شأنه ردًّا عليهم :

﴿ لِسَانُ الذى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ، وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُبِينٌ ﴾
[النحل : ١٠٣]

وكانت مكة بلداً أمياً ، ليس به علم ، ولا رياسات إلا مباريات رياسية فى البيان ، وكان محمد ﷺ أميًّا ، لا يقرأ ولا يكتب ، وقد قال رب العزة فيه :

﴿ وما كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ المُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨]

لذلك نقول : إن القصص القرآنى ذاته فيه إعجاز ذكره الكتاب ، جاء على لسان أمى لا يقرأ ولا يكتب ، إذْ هو النبى الأمىّ الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والانجيل .

• **من أين جاء محمد بهذا القصص الحق** ، وهو لم يشاهد وقائعه ولم يقرأها لأنه لم يكن قارئا ؟ إنه من عند العزيز الحكيم .. علام الغيوب ، وبذلك كان القصص الصادق لون من ألوان التحدى .

* **وقصة موسى وصاحبه الخضر** – إحدى ثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، تضمنتها **سورة الكهف** وقد تعرضت فى سبيل تقرير أهدافها الأساسية **لتثبيت العقيدة ، والايمان بعظمة الله ذى الجلال .**

• **أما الأولى : فهى قصة أصحاب الكهف** ، وهى قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون ، الذين خرجوا من ديارهم وبلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى كهف فى الجبل ، ثم مكثوا فيه نياما ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

• **والقصة الثانية** : **قصة موسى مع الخضر** ، وهى قصة التواضع فى سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية ، التى اطلع عليها ذلك العبد الصالح (**الخضر**) ولم يعرفها نبى الله موسى حتى أعلمه بها الخضر .

• **والقصة الثالثة** : **قصة ذى القرنين** ، وهو ملك مكّن الله – سبحانه – له بالتقوى والعدل ، والعمل الصالح أن يبسط سلطانه على الأرض ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره فى بناء السد العظيم ، سد يأجوج ومأجوج .

وكما استخدمت سورة الكهف فى سبيل هدفها – هذه القصص الثلاث ، استخدمت **أمثلة واقعية ثلاث** لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال أو السلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة والإيمان :

• **المثل الأول** : للغنى المزهو بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه فى قصة أصحاب الجنتين .

• **والثانى** : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال .

• **والثالث** : مثل التكبر والغرور مصوّرًا فى حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان .

وكل هذه القصص والأمثال ساقها القرآن بقصد العظة والاعتبار فى سورة واحدة ، هى سورة الكهف .

*** وقبل أن نبدأ القصة .. نريد أولا أن نتعرف على الخِضْر .. من هو ؟ ولماذا سمى الخضر ؟**

قال ابن قتيبة : اسمه : بليا بن ملكان بن فالغ بن عامر بن شالخ بن أرفخشذ ابن سام بن نوح عليه السلام . وكان يكنى أبا العباس ، ويلقّب بالخضر .

• يقول النبى المصطفى ﷺ – فيما رواه عنه أبو هريرة – « إنما سُمى خِضْراً لأنه جلس على فروة بيضاء ، فإذا هى تهتز من تحته خضراء » .

والمراد بالفروة ههنا : الحشيش اليابس ، وهو الهشيم من النبات ، وقيل المراد بذلك وجه الأرض .

*** أما عن قصته مع موسى** : فقد وردت إلينا من طرق عدة ، بعضها يتصل بالرسول ﷺ ، وبعضها يرجع إلى الصحابة والتابعين ، فهى إحدى القصص التى سئل عنها رسول الله .. قال اليهود لقريش : سَلُوه عن قصة أصحاب الكهف ، فإن أخبركم بها فهو نبى مرسل ، وإلّا .. فلا . فذكر الله قصة موسى والخضر ، وقصة ذى القرنين ، تنبيها على أن النبى لا يلزمه أن يكون عالما بجميع القصص والأخبار ، وقد يؤخر الفاضل عن المفضول .

• روى أبىّ بن كعب أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

« إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل ، فسئل أى الناس أعلم ؟ قال : **أنا** ، فعَتَب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه ، فأوحى الله إليه ، إن لى عبداً بَمْجمَع البحرين هو أعلم منك .

قال موسى : يارب .. وكيف لى به ؟ قال : تأخذ معك حُوتا فتجعله بمكتل ، فحيثما فقدت الحوت فهو ثَمّ – أى هناك . فأخذ حوته فجعله بمكتل (زَنْبِيل يعمل من الخوص) ثم انطلق ، وانطلق معه فتاه (**يوشع بن نون**) عليه السلام .

• وفى رواية لابن جرير باسناد إلى عبد الله بن عباس قال :

قال : (سأل موسى عليه السلام ربّه عز وجل ، فقال أى ربّ .. أى

عبادك أحبّ إليك ؟ قال : الذى يذكرنى ولا ينسانى ، قال : **فأى عبادك أقضى ؟** قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى ، قال : أى رب .. أى عبادك أعلم ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة تهديه إلى هُدَى أو تردّه عن رَدَى . قال : أى رب .. هل فى أرضك أحد أعلم منى ؟ قال : نعم ! قال : فمن هو ؟ قال **الخِضْر** . قال : وأين أطلبه ؟ قال : على الساحل ، عند الصخرة التى ينفلت عندها الحوت .

* حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما ، واضطرب الحوت فى المكتل ، فخرج منه فسقط فى البحر ، فاتخذ سبيله فى البحر سربا ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء ، فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغداة ، قال موسى لفتاه : (آتِنا غَدَاءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هَذَا نَصَباً) أى تعبا ، ولم يجد موسى النَّصبَ حتى جاوز المكان الذى أمره الله به .

قال له فتاه : (أَرَأَيْتَ إذْ أَوَيْنا إلَى الصَّخْرَةِ فإنِّى نَسِيتُ الحُوتَ ، ومَا أَنْسَانِيهُ إلّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ واتَّخَذَ سَبِيلَهُ فى البَحْرِ عَجَباً) **فجعل الله له الحوت آية** ، قيل له : إذا فقدت الحوت فارجع ، فإنك ستلقاه . فكان موسى يتبع أثر الحوت فى البحر .

قال : فكان للحوت سِرْباً ، ولموسى وفتاه عجبا ، فقال : ذلك ماكنا نبغى ، فارتدًا على آثارهما قَصَصاً ، قال : فرجعا يُقِصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، **فإذا رجل مُسَجّى بثوب** . فسلّم عليه موسى ، فقال الخضِر ، وأنّى بأرْضِك السلام ، فقال : أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم .

• (**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ ؟**) **سؤال تلطّف .. لا على وجه الإلزام والإجبار** ، وهكذا ينبغى أن يكون سؤال المتعلم من العلم . وقوله (أَتَّبِعُكَ) أى أصحبك وأرافقك وألازمك (عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشَداً) أى مما علمك الله شيئا أسترشد به فى أمرى من علم نافع وعمل صالح ؟

فعندها (قال) الخضر لموسى (إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً) أى إنك لا تقدر على مصاحبتى لما ترى منى من الأفعال التى تخالف شريعتك ، لأنى على علم من علم الله ، ما عَلَّمَكَهُ الله ، وأنْتَ على علم من علم الله ما علّمنيه الله ، فكُلّ منا مكلف بأمور من الله دون صاحبه ، وأنت لا تَقْدِر على صحبتى (وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ به خُبْراً) فأنا أعرف أنك ستنكر علىّ ما أنت معذور فيه ، ولكن ما اطلعت على حكمته ، ومصلحته الباطنة ، التى اطلعت أنا عليها دونك .

(قال) موسى (سَتَجِدُني إنْ شَاءَ الله صَابراً) على ما أرى من أمورك (وَلَا أَعْصِي لَكَ أمراً) أى .. ولا أخالفك فى شىء .

فعند ذلك شارطه الخضر – عليه السلام – (قال : فَإِنِ اتَّبَعتنى فَلاَ تَسْأَلني عَنْ شَيءٍ) ابتداء (حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْه ذِكْراً ﴾ أى حتى أبدأك أنا به قبل أن تسألنى .

فسار به فى البحر إلى مجمع البحرين ، وليس فى الأرض مكان أكثر ماء منه .

١ – * فمرت سفينة ، فكلّموهم أن يحملوهم ، فعرفوا **الخضر** ، فحملوهما بغير نَوْل – أى بغير أجرة ، تكرمة للخضر ، فلما استقلت بهم السفينة فى البحر وَلَجَجَت – أى دخلت فى لُجّة الماء ، قام الخضر فخرقها واستخرج لوحاً من ألواحها ، فلم يملك موسى عليه السلام نفسه أن قال منكراً عليه : « قد حملونا بغير نول ، فعمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها (لقد جئت شَيْئاً إمْراً) أى عجبا أو منكرا ، فعندها قال له الخضر مذكّراً بما تقدم من الشرط (أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ مَعِىَ صَبْراً) – يعنى ... وهذا الصنيع فعلته قصداً ، وهو من الأمور التى اشترطت معك أن لا تنكر علىّ منها ، لأنك لم تُحَط بها خبرا ، ولها دخل هو مصلحة ولم تعلمه أنت .

(قال) موسى : (لَا تُؤَاخِذْني بِماَ نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْني مِنْ أَمْرِي عُسْراً) أى لا تضيّق علىّ ولا تشدّد علىّ قال رسول الله – ﷺ : « **كانت الأولى من موسى نِسْياناً** » .

• وبعث الله **الخُطّاف** (وهو طائر صغير) فجعل يستقى من البحر بمنقاره ، فقال الخضر لموسى : كم ترى هذا الخطاف رزأً من هذا الماء ؟ قال : ما أقل ما رزأ ، قال الخضر : يا موسى .. « فإن علمى وعلمك فى علم الله كقَدْر ما استقى هذا الخطاف من هذا الماء » .

وفى رواية : « ما عِلمى وعلمك فى علم الله إلا مثل ما نقّص هذا العصفور من هذا البحر » . تبكيتا لموسى . لأن موسى كان قد حدثته نفسه – أو تكلم به – أنه ليس أحد أعلم منه . فمن ثم أُمر أن يأتى الخضر ليتعلم منه .

٢ – * ثم خرجا من السفينة ، فبينا هما يمشيان على الساحل ، لقيا (**غلاما**) كان يلعب مع الغلمان فى قرية من القرى ، فعمد إليه الخضر من بينهم – وكان أحسنهم وأجملهم وأوضأهم – فقتله ، بأن أخذ رأسه بيده فاقتلعه ، وروى أنه احتزّ رأسه ، وقيل : رضَخَه بحجر ، والله أعلم بما حدث .

فلما شاهد موسى عليه السلام هذا .. أنكره أشد من الأول ، وبادر فقال : (أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيّة) أى صغيرة ، لم تعمل الحنث ، ولا عملت إثما بعد ، فقتلته (بغَيْر نَفْسٍ) أى بغير مستند لقتله (لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً) أى ظاهر النكارة .

(قال) الخضر : (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً) فأكد أيضا فى التذكار بالشرط الأول . فلهذا قال له موسى : (إن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بعدها) أى إن اعترضت عليك بشىء بعد هذه المرة ﴿ فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذْراً) أى قد أعذرت إلىّ مرة بعد مرة .

• روى ابن جرير – باسناد إلى أُبىّ بن كعب ، قال : قال رسول الله ﷺ : رحمةُ الله علينا وعلى موسى ، لو لبث مع صاحبه لأبصر العجب ، ولكنه قال : (إنْ سَأَلْتُك عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلاَ تُصَاحِبْنى قَدْ بَلَغْتُ مِنْ لَدُنِّى عُذْراً) .

٣ – * فانطلقا بعد المرتين الأولتين .. (حَتّى إِذَا أَتَياَ أَهْل قَرْيَة) لئاما بخلاء (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُماَ فَوَجَدَا فيهاَ جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضّ) أى مائلا يريد أن يسقط . وإسناد الإرادة ههنا إلى (الجدار) على سبيل الاستعارة ، فإن الارادة فى المحدثات بمعنى الميل والانقضاض هو السقوط . (فأَقَامَه) الخضر – أى ردّه إلى حالة الاستقامة ، ردّه بيده ، ودعمه حتى رُدّ ميله ، **وهذا خارق** . فعند ذلك قال موسى له : (لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً) أى لأجل أنهم لم يُضَيّفونا – كان ينبغى أن لا تعمل لهم مجانا .

قال الخضر : (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ) لأنك شرطت على نفسك عند قتل الغلام إنك إن سألتنى عن شيء بعدها فلا تصاحبنى ، فهو فراق بينى وبينك ، ولكنى (سَأُنَبِئكَ بتأويل) أى تفسير وتعليل وتوضيح (ماَ لَمْ تَسْتَطِعْ عليه صَبْرَا)

* وهنا بدأ الخضر فى تفهيم موسى المبررات التى من أجلها فعل ما فعل : من خرق للسفينة ، وقتل للغلام ، وإصلاح للجدار ، وتوضيح ما أشكل أمره عليه ، وما كان أنكر ظاهره ، وقد أظهر الله الخضر على حكمة باطنه .

١ – (أما السَّفِينَةُ فكانَتْ لِمَساكين يَعْمَلُون في البَحْر فأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبهَا وَكاَنَ وَرَاءَهُم مَلِكٌ يأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) أى أما السفينة التى خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرون على مدافعة الظَّلَمة ، يشتغلون بها فى البحر بقصد التكسب ، (فأُرَدْتُ أن أعيبها) أى أردت بخرقها أن أجعلها معيبة لئلا يغتصبها الملك الظالم (هَدَدَ بن بَدَد) الذى كان يستولى على كل سفينة جيدة

صالحة عنوة ، وبذلك ينتفع بها أصحابها المساكين ، الذين لم يكن لهم شيءينتفعون به غيرها ، وقد قيل أنهم أيتام .

٢ - ﴿ وأَماَّ الغُلامُ فكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِيناَ أَنْ يُرْهِقَهُماَ طُغْيَاناً وكُفراً فأَرَدْناَ أَنْ يُبْدِلَهُماَ رَبُّهُماَ خَيْراً مِنْه زَكَاةً وأَقْرَبَ رُحْماً ﴾

(وأما الغلام الذى قتلته فكان كافراً فاجراً ، وكان أبواه مؤمنين . جاء فى الحديث : « إن الغلام الذى قتله الخضر طُبع كافراً ، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانا وكفراً » [رواه مسلم] ﴿ فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا ﴾ أى فخفنا أن يحملهما حبّه على اتباعه فى الكفر والضلال ، فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحا خيرا من ذلك الكافر ، وأقرب براً ورحمة بوالديه .

● **قال قتادة** : « قد فرح به أبواه حين وُلد ، وحزنا عليه حين قُتل ، ولو بقى لكان فيه هلاكهما ، فليرض امرؤ بقضاء الله ، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب .

يقول ﷺ : « لا يقضى الله لمؤمن قضاءً إلا كانَ خيراً له » .

ويقول الله عز وجل : ﴿ وَعَسَى أن تكْرَهُوا شَيْئاً وهُو خَيْرٌ لكُم ﴾

وقيل : لما قتل الخضر الغلام كانت أمه حاملا بغلام مسلم .

٣ - ﴿ وأَماَّ الجِدَارُ فَكَانَ لغُلاَمَيْن يَتيمَيْن في المَدِينةِ ، وكاَنَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُماَ ، وكاَنَ أَبُوهُماَ صَالِحاً فأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشَدَّهُمَا ويَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمةً مِنْ رَبِّكَ ، ومَا فَعَلْتهُ عَنْ أَمْرِى - ذَلِكَ تَأْوِيلُ ماَ لم تَسْطَعْ عَلَيْه صَبْرَا ﴾ .

أى وأما (الجدار) الذى بنيته دون أجر ، والذى كان يوشك أن يسقط ، فقد خُبِّىء تحته كنز لغلامين يتيمين ، (وكان أبوهما صالحا) تقيا ، فحفظ الله لهما الكنز لصلاح الوالد .

قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتَقْوى الأصول تنفع الفروع (فأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُماَ وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما) أى فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما ، من تحت الجدار (رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) أى رحمة من الله بهما لصلاح أبيهما .

* وفى هذا دليل على أن الرجل الصالح يُحفظ فى ذريته ، وتشمل بركة عبادته لهم فى الدنيا والآخرة بشفاعته فيهم ، ورفع درجتهم إلى أعلى درجة فى الجنة ، لتقر عينه بهم كما جاء فى القرآن ، ووردت به السنة . ﴿ وَمَا فَعَلْتُه عَنْ أَمْرِى ﴾ أى **ما فعلت ما رأيت من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأيى واجتهادى ، بل فعلته تنفيذا لأوامر الله وإلهامه .**

*** وهنا سؤال يطرح نفسه .. ماذا كان فى الكنز ؟ .. ولما حرص الخضر على إقامة الجدار وستر ما فيه ؟**

● قال عكرمة وقتادة : « كان تحته مال مدفون » وهو ظاهر سياق الآية .

● وقال ابن عباس : « كان تحته كنز علم » وقال مجاهد : « صحف فيها علم » .

● وروى أبو ذر فى حديث مرفوع : « إن الكنز الذى ذكره الله فى كتابه : لوح من ذهب مصمت مكتوب فيه : « **عجبت لمن أيقن بالقدر لِمَ نصَب ، وعجبت لمن ذكر النار لم ضحك ، وعجبت لمن ذكر الموت لم غفل ؟**

● وروى ابن جرير فى تفسيره بإسناد إلى الحسن البصرى ، يقول فى قوله (وكان تحته كنز لهما) قال : « لوح من ذهب مكتوب فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ، **عَجِبْتُ لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها ، لا إله إلّا الله ، محمد رسول الله** »

• وروى عن جعفر بن محمد : أنه كان بالكنز « سطران ونصف لم يتم الثالث : عجبت للمؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت للمؤمن بالحساب كيف يغفل ، وعجبت للمؤمن بالموت كيف يفرح ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِين ﴾ [الأنبياء : ٤٧]

*** وسؤال آخر .. هل كان الخضر نبيا ؟**

• **قال بعض العلماء** : إن كل الأفعال التى قام بها الخضر تدل على أنه يُوحى إليه من ربه ، وهى دليل على **نبوته** ، خاصة وقد قال عنه القرآن : ﴿ **فوجَدَا** عبداً مِنْ عِبادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً من عِنْدِنا ، وعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ فالعلم الذى اكتسبه إنما هو من **علم الله** ، والأمور التى فعلها إنما كانت تنفيذا لتعاليم الله بوحى الله .

وقال بعض آخر : إنه كان **رسولا** ، وقيل بل كان مَلَكا .

وذهب كثيرون إلى أنه لم يكن **نبيّا** ، بل كان **ولياً** ، علمه الله من لدنه ، أى علمه علماً خاصا ، لا يُعلم إلّا بتوقيف الله ، وهو علم الغيوب .

قال الراسخون فى العلم : هذا العلم الربانى ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى (العلم اللَّدُنّى) يورثه الله لمن أخلص العبودية له ، ولا ينال بالكسب والمشقة ، وإنما هو هبة الرحمن لمن خصّه الله بالقرب والولاية والكرامة .

إن الخضر عليه السلام ليس بنبى ، وإنما هو من عباد الله الصالحين ، وأوليائه المقربين ، وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليما للخلق فضل العبودية .

وكرامات الأولياء ، وعباد الله الصالحين ثابتة ، على ما دلت عليه الأخبار ، والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلّا الجاحد ، أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر

الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف ، والصيفية فى الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزت النخلة ، وكانت يابسة فأثمرت ، وهى ليست بنبيّة ، ويدل أيضا ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة وقتل الغلام ، وإقامة الجدار (١) .

*** ويؤخذ من قصة موسى وصاحبه الخضر مجموعة من الحكم والعبر :**

أولها : التواضع وعدم الاغترار بالنفس – خاصة فى مجال العلم ، لأن العلم هبة من الله ، يهبه لمن يشاء ، وفوق كل ذى علم عليم .

ثانيها : أن العلم يحتاج إلى الجهد والأسفار براً وبحراً من أجل الوصول إليه .

ثالثها : الإعداد للسفر من مأكل ومشرب – كما فعل موسى حين جهز حوتا – أى سمكة مشوية ، رغم إتكاله على الله .

رابعها : مشروعية أن يكون للمرء مولى يعينه ورفيق يساعده ويؤازره وقت الشدة وفى الأسفار .

بقى أن نقول : إن القرآن المجيد حين يستخدم القصة باختلاف أنواعها ، وفى المناسبات المتباينة ، والأغراض المتعددة ، فإنه يستخدمها وسيلة فى التوجيه والتربية ، وسبيلا إلى الوعظ والإرشاد .

لذلك يمكن القول : « **إن القصة القرآنية سجل حافل لجميع التوجيهات الإلهية** »

فإذا عرفنا أن القصة القرآنية – برغم قلة الألفاظ المستخدمة فى أدائها – حافلة بكل أنواع التعبير والعناصر الفنية .. من حوار .. إلى سرد .. إلى تنغيم إيقاعى .. إلى إحياء للشخوص .. إلى دقة فى رسم الملامح ، أدركنا مدى سحر هذا الإعجاز الفنى الناشىء عن القصة القرآنية .

---

(١) تفسير القرطبى ٢٨/١١

الفصل العاشر

قَارُونُ وكُنُوزُه .. إلَى الفَنَاء

تمثل قصة قارون – فى القرآن الكريم – جانب الطغيان بالمال ، والغرور بالعلم ، وكيف أن مآلهما إلى الفناء ، إذا تسلطت الأهواء ، وسيطرت الأطماع ، وتحوّل الإنسان من مجرد مخلوق من مخلوقات الله إلى متجبّر متكبّر ، يعلو بنفسه فوق الناس ، ويزهو ويتعالى عليهم ، وينظر إليهم بمنظار الاستعلاء والاستكبار ..

وقد وردت هذه القصة فى القرآن على **سبيل العظة والعبرة** ، لإثبات أن كل شيء مآله إلى زوال ، وأن الباقى هو وجه الله ذو الجلال والإكرام .

ورد الحديث عن قارون – فى القرآن – فى ثلاثة مواضع :

* **الموضع الأول : فى سورة العنكبوت** ، حيث الإشارة إلى قارون وأفعاله واستكباره ، وقد اقترن اسمه بإسم **فرعون مصر** ، **وهامان وزيره** ، الذين ظلموا فأُهلكوا ، نتيجة لاستكبارهم عن عبادة الله ، وطاعة رسوله **موسى** – عليه السلام ، وبسبب ما اقترفوه من آثام وذنوب فى حق الله والناس . يقول تعالى :

﴿ وقَارُونَ وفِرْعَوْنَ وهَامَانَ ، وَلَقَدْ جَاءَهُم مُوسَى بالبَيّنَاتِ فاسْتَكْبَرُوا في الأَرْضِ ، ومَا كَانُوا سَابِقين . فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُم مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، ومِنْهُم مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَة ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، ومِنْهُم مَنْ أَغْرَقْنَا ، ومَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُم ، ولكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يظْلِمُون ﴾

[العنكبوت : ٣٩ ، ٤٠]

أى وأهلكنا قارون لما طغى ، ولم يمتثل أمر الله ، وأهلكنا فرعون وهامان ، ولقد جاءهم موسى بالبينات من عند ربهم ، فاستكبروا فى الأرض ، ولكنهم ما كانوا سباقين وفائتين ، بل أدركهم أمر الله وبطشه ، إن بطش ربك لشديد .

فكلاً من هؤلاء وهؤلاء أخذنا بذنبه – إذ كل نفس بما كسبت رهينة ، فمنهم من أرسلنا عليه ريحا حاصبة أهلكته ، وهم **قوم لوط** ، إنهم كانوا قوما يعملون الخبائث ، ومنهم من أخذته الصيحة بالعذاب **كمدين وثمود** ، صيحة ترجف الأرض منها والجبال ، فكانت بحق هى الرجفة ، **ومنهم من خسفنا به وبداره الأرض** ، **وهو قارون** ، ليكون عبرة لكل طاغية جبار ، ومنهم من أغرقنا **كقوم نوح وفرعون** لمّا طغوا فى البلاد وأكثروا فيها الفساد ، وما كان الله ليظلمهم أبداً ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

* **والموضع الثانى** : الذى ورد فيه الحديث عن قارون .. كان فى **سورة غافر** ، فى مجال الحديث عن موسى ، وما أتى به من الآيات البينات . قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وسُلْطَانٍ مُبِين . إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وقَارُونَ ، فَقَالُوا سَاحِرٌ كذّاب ﴾ [غافر : ٢٣ ، ٢٤]

أى ولقد بعثنا رسولنا موسى بالآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، والبرهان البيّن الظاهر ، وهو **معجزة اليد والعصا** .. ﴿ إِلَى فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وقَارُونَ ﴾ أى إلى فرعون الطاغية الجبار ، ووزيره هامان ، وقارون صاحب الكنوز والأموال .

• **قال فى البحر** : وخصَّ قارون وهامان بالذكر لمكانتهما فى الكفر ، ولأنهما أشهر أتباع فرعون [١]

---

(١) البحر المحيط ٤٥٩/٧

* **أما الموضع الثالث ، فهو فى سورة القصص ، حيث سرد لنا قصة قارون نفسها كاملة** ، مع قومه ، ومع موسى ، وتكبره وتجبره وخيلائه .. وما حدث نتيجة ذلك كله .

والسؤال الآن :

من هو قارون ؟ .. وما حجم ثرائه ؟ .. وكيف كان سلوكه مع قومه ومع موسى ؟ وماذا حدث يوم الزينة ؟ .. وما أسباب هلاكه .. وكيف كان هلاكه ؟

* * *

قال الحق سبحانه ، فى محكم كتابه ، عن قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِم ﴾ [القصص : ٧٦]

• **ذكر ابن كثير** بإسناد عن ابن عباس – رضى الله عنهما قال : « إن قارون كان ابن عم موسى » ووافقه على ذلك عدد من التابعين منهم قتادة ، ومالك ابن دينار ، وابن جريج ، وغيرهم ..

• وزعم **محمد بن إسحاق** .. أن قارون كان عمَّ موسى بن عمران عليه السلام .

بيد أن أكثر أهل العلم – كما قال ابن جُريج – على أن قارون كان ابن عمه .. والله تعالى أعلم .

* **اسمه :**

وقد ذكر ابن جريج اسمه فقال : هو قارون بن يَصْهُر بن قَاهِثْ . واسم موسى عليه السلام : « موسى بن عمران بن قاهث » وهذا دليل يؤكد أن قارون ابن عم موسى وليس عمه . وكان قارون يلقّب « المنوّر » لحُسْن صوته بالتوراة .

وتذكر المصادر القديمة .. أنه على الرغم من صلة الرحم بينه وبين موسى – إلّا أنه كفر بالله ورسوله موسى – ونافق كما نافق السامرى ، فأهلكه البغى لكثرة ماله ، وطغيانه بهذا المال ، حيث جعله وسيلة لمحاربة الله ورسوله .

أضف إلى ذلك تكبره وترفعه على أهله وقومه ، وتعاليه عليهم ، يذكرون أنه زيادة فى التباهى والتعالى ، زاد ثيابه شِبْراً طولا ، حتى يخالف مظهره مظهر قومه ومعاصريه . وعاش بينهم ولكنه لم يَرْعَ لذلك حرمة أو جواراً ، وبغى عليهم حتى جمع ذلك المال الوفير ، الذى كان سببا فى تكبره وتجبره وطغيانه وظلمه لهم .

* ﴿ وآتَيْنَاهُ مِنَ الكُنُوزِ ماَ إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَةِ أُولِى القُوَّة ﴾ [القصص : ٧٦]

• أى آتاه الله من الأموال المنقولة والثابتة ما إن علمه والإحاطة به ، والمحافظة عليه لتنوء به العصبة من أولى القوة ..

• أو بمعنى آخر : وآتيناه من الكنوز والأموال ما إن مفاتيح خزائنه لتنوء بحملها العصبة من الرجال أولى القوة – أى ليثقل حملها الفئام من الناس لكثرتها .

ومنشأ هذا الخلاف فى الرأى ، أن المفاتح قد يراد بها العلوم والمعارف نظراً إلى قوله تعالى : ﴿ وعِنْدَه مَفَاتِحُ الغَيْب لا يعلمها إلّا هوَ ﴾ [الأنعام : ٥٩] . وقد يراد بها مفاتيح الخزائن المعروفة .

• **ذكر ابن كثير فى تفسيره** :[١] كانت مفاتيح كنوز قارون من جلود ، كل مفتاح مثل الإصبع ، كل مفتاح على خزانة على حدة ، فإذا ركب حُمِلت على ستين بغلا أَغَرَّ محجَّلاً .

---

(١) جزء ٣ ص٣٩٩

* ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَح إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِين ﴾ [القصص : ٧٦]

أى وعظوه بما هو فيه صالح قومه ، فقالوا : على سبيل النصح والإرشاد ، لا تفرح بما أنت فيه ، يعنون **لا تبطر** بما أنت فيه من المال ﴿ إنَّ الله لا يُحِبّ الفَرِحين ﴾ – قال ابن عباس : يعنى **المرحين** وقال مجاهد : يعنى الأشرين البطرين الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم .

*** لقد قال له قومه على سبيل الوعظ والإرشاد :**

- ﴿ لَا تَفْرَحْ .. إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الفَرِحِين ..
- ﴿ وابْتَغِ فِيماَ آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخرة ..
- ﴿ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْياَ ..
- ﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ ..
- ﴿ وَلَا تَبْغِ الفَسَادَ في الأَرْضِ .. إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ المُفْسِدِين ﴾

[القصص : ٧٧]

*** وهذه خمسة أصول مهمة ، مَنْ تمسّك بها ، وعمل بمقتضاها نجا من الدنيا وما فيها .**

١ – قالوا له **لا تَفْرَح** بدنياك فرحا مصحوبا بالبطر والأشر ، والفتنة والغرور ، فالدنيا عرض زائل ، وعارية مستردة ، يربح فيها من عرفها ، ويخسر من اغترَّ بها ﴿ لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بماَ آتَاكُمْ واللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُور ﴾ [الحديد : ٢٣]

٢ – **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة** ، أى استعمل ما وهبك الله من هذا المال الجزيل ، والنعمة الطائلة فى طاعة ربك ، والتقرب إليه بأنواع القربات التى يحصل لك بها ثواب فى الدنيا والآخرة .

نعم .. فالدنيا طريق الآخرة ، وهى المزرعة الباقية ، من زرع فيها الخير حصد ، ومن أضاع عمره فيما لا يرضى ربه ندم ، والعاقل من طلب بدنياه آخرته ، ومن ابتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، والله سبحانه لا يطالبك بأن تعطى مالك كله ، بل أن تنفق القليل طلبا لرضا الرب الجليل ، ترجع بالخير الكثير ، والجزاء الجزيل .

٣ - **ولا تَنْس نصيبك من الدنيا** .. أى مما أباح الله فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح ، فإن لربك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، ولبدَنك عليك حقا ، فآت كل ذى حقّ حقه .

نعم .. فهذا هو الطريق الوسط ، والرأى الرشد - كما قال النبى المصطفى - ﷺ - « أن تعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، وتعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ، فليس من الزهد فى الدنيا حتى تتركها وتعيش عالة على غيرك ، بل الدين يطالبك بالعمل والجد ، والغنى من طريق حلال ، فإذا جمعت المال فاعط حق الله فيه ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، أى تمتع ببعضه بلا إسراف ولا تقتير ، فهذا هو النظام المحكم الدقيق الذى وضعه الحكيم البصير .

٤ - **وأَحْسِن كما أَحْسَنَ الله إليك** .. أى أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك ، والإحسان هو الإتقان فى العمل ، وهو يقتضى إعطاء كل ذى حق حقه .

٥ - **ولا تَبْغِ الفساد فى الأرض** .. أى لا تكن همتك بما أنت فيه أن تفسد به فى الأرض ، وتسىء إلى خلق الله بالظلم أو العسف أو الكبر ، أو الإضرار بالناس ، فكل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها ، إن الله لا يحب المفسدين بأى شكل .

* بيد أن قارون أَبىَ أن يقبل هذا النصح ، لأنه غير موفق ، بل زاد عليه ...

﴿ قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى ﴾ [القصص : ٧٨]

يحدثنا القرآن عن جواب قارون لقومه حين نصحوه ، وأرشدوه إلى الخير ، أنه قال : أنا لا أفتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطانى هذا المال لعلمه بأنى أستحقه ، ولمحبته لى ، فتقديره : إنما أعطيته لعلم الله فىّ أنى أهلٌ له . وهذا كقوله تعالى :

• ﴿ فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ : إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ ﴾ [الزمر : ٤٩] أى على علم من الله بى ، وكقوله تعالى :

• ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى ﴾ [فصلت : ٥٠] أى هذا استحقه .

• **يريد أن يقول** : أنه أوتى المال على علم عنده بوجوه الكسب ، وطرق الزيادة وإنماء المال .. أى إنما أوتيت هذا المال لفضل علمى ، وتمام جهدى وتجاربى ، فليس لأحد حق فى هذا المال ، **وكأنه ينكر إنعام الله عليه بتلك الأموال لاستحقاقه لها عن جدارة** ، **فهو حرّ التصرف** .

* وقد روى عن بعضهم أنه أراد (بالعلم الذى عنده) أنه كان يمارس **علم الكيمياء**

• **يقول ابن كثير** : « وعلم الكيمياء فى نفسه علم باطل ، لأن قلب الأعيان لا يقدر أحد عليها إلّا الله عز وجل قال تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا له ﴾ [الحج : ٧٣]

• **وفى الصحيح** : أن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى فليخلقوا ذرة ، فليخلقوا شعيرة » .

وقد ورد فى **المصوِّرين** الذين يشبهون بخلق الله فى مجرد الصورة الظاهرة أو الشكل ، فكيف بمن يدعى **أنه يُحيل ماهية هذه الذات إلى ماهية ذات أخرى** ، هذا زور ومحال ، وجهل وضلال . وإنما يقدرون على الصبغ فى الصورة الظاهرة ، وهى كذب وزغل ، وتمويه وترويج ، أنه صحيح فى نفس الأمر ، وليس كذلك قطعا لا محالة ، **ولم يثبت بطريق شرعى أنه صح مع أحد من الناس من هذه الطريقة التى يتعاطاها هؤلاء الجهلة الفسقة الأفاكون** .

فأما ما يُجريه الله – سبحانه – من خرق العوائد على يدى بعض الأولياء ، من قلب بعض الأعيان ذهبا أو فضة – أو نحو ذلك – **فهذا أمر لا ينكره مسلم ، ولا يردّه مؤمن** .

ولكن هذا ليس من قبيل الصناعات ، وإنما هذا عن مشيئة رب الأرض والسماوات ، واختياره وفعله – كما روى عن **حيوة بن شريح المصرى** – رحمه الله – أنه سأله سائل ، فلم يكن عنده ما يعطيه . ورأى ضرورته ، فأخذ حصاة من الأرض ، فأَجَالَها فى كفّه ، ثم ألقاها إلى ذلك السائل ، فإذا هى ذهب أحمر . والأحاديث والآثار فى هذا كثيرة جداً ، يطول ذكرها .

* **وقال بعضهم : إن قارون كان يعرف الإسم الأعظم** ، فدعا الله به فتموَّل بسببه ، أى أنه استغل علم السحر فى اكتساب الأموال . والصحيح المعنى الأول ..

ولهذا قال الله تعالى راداً عليه فيما ادعاه من اعتناء الله به فيما أعطاه من المال :

﴿ أَوَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قبلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَر جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِم المُجْرِمُونَ ﴾ [القصص : ٧٨]

أى قد كان مَنْ هو أكثر منه مالا ، وما كان ذلك عن محبة مناً له ، وقد أهلكهم الله مع ذلك بكفرهم ، وعدم شكرهم ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِم المُجْرِمُون ﴾ أى لكثرة ذنوبهم .

* وقد أجاد فى تفسير هذه الآية الإمام عبد الرحمن بن زيد بن سلم ، فإنه قال فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّماَ أُوتِيتُه عَلَى عِلْم عِنْدِى ﴾ قال : لولا رضا الله عنى ، ومعرفته بفضلى ما أعطانى هذا المال . وقرأ ﴿ أو لَم يَعْلَمْ أَنَّ الله قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ القُرونَ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وأَكْثَرُ جَمْعاً ﴾

وهكذا يقول مَنْ قلّ علمه ، إذا رأى مَنْ وَسَّع الله عليه ؛ لولا أن يستحق ذلك لما أعطى .

* ولقد ردَّ الله عليه أبلغ رد – حيث قال ما معناه : أعنده مثل هذا العلم الذى افتخر به وتعاظم ، ورأى نفسه مستوجبة كل نعمة ، ولم يعمل به حتى يقى به نفسه مصارع السوء ، التى أهلك الله بها الطغاة المتجبرين ، الذين هم أشد منه قوة وأكثر مالاً وعدداً ، ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون .

إن الإنسان يجب عليه ألا يغتر بماله وأولاده ، وجموعه ، مهما كانت ، فإن الله إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، ولنعلم أن الأيام دول ، وأن الدهر قلّب ، وليعتبر بما حصل فى الماضى ، وليحصن ماله بالإنفاق .

*** ويحدثنا القرآن عن حال قارون مع قومه ، ومظاهر العظمة التى كان يحاول أن يُضْفيها على نفسه للتأثير فيهم وإبهارهم ، وبلبلة آرائهم .**

يقول : ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فى زِينَتِهِ ، قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاة الدُّنيا : يا لَيْتَ لَناَ مِثْلَ ماَ أُوتِىَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلكُمْ – ثَوَابُ الله خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ، ولا يُلَقَّاهَا إِلّا الصَّابِرُون ﴾
[القصص : ٧٩ ، ٨٠]

أى خرج قارون ذات يوم على قومه فى زينة عظيمة ، وتحمُّل باهر فى مراكب وملابس عليه وعلى خدمه وحشمه ، **فلما رآه الناس ، انقسموا إلى فريقين :**

١ - **فريق ينظر نظرة سطحية** ، فتعميه الدنيا وزخارفها عن الوضع السليم ، والطريق المستقيم ، وهؤلاء من يريدون الحياة الدنيا ، ويميلون إلى زخارفها وزينتها ، تمنوا أن لو كان لهم مثل الذى أعطى قارون .. قالوا : ﴿ يالَيْتَ لَناَ مِثْلَ مَا أُوتِى قَارُون ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾ - أى ذو حظ وافر من الدنيا ، **فتمنوا أن يكونوا مثل قارون فى غناه وأبهته** ، ونسوا أن الله فى خلقه شئونا ، وأن السعادة والخير ليس فى المال الكثير ، والجاه العريض ، وإنما الخير والسعادة شيء وراء ذلك كله ، ما دام العبد موصولا برّبه ، راضيا مرضيا .

وهذه النقطة عالجها القرآن علاجا حاسما ، لأن الحق - تبارك اسمه - يعلم خطرها ، إذ من يمد عينيه إلى مال غيره ويتمناه ، يعود وقد امتلأ قلبه حسداً وحقداً ، وناهيك بهذه الأخطار التى ينشأ عنها معظم الجرائم ، اقرأ قول الله تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ماَ مَتَّعْناَ بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُم زهْرَةَ الحَيَاةَ الدُّنْياَ لِنَفْتِنَهُم فِيهِ ، ورزق رَبِّكَ خَيْرٌ وأَبْقَى ﴾ [طه : ١٣١]

٢ - **وفريق آخر** - قد نوّر الله بصيرته - **فهو ينظر الدنيا بعين العبرة والعظة** ، عين الفاهم للحقائق التى لا تخدعه المظاهر الخلابة ، وهؤلاء هم أهل العلم النافع ، لذلك فهم لما سمعوا مقالتهم ، قالوا لهم : ﴿ وَيْلَكُمِ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ أى جزاء الله لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة خير مما ترون - كما جاء فى حديث الصادق المصدوق - ﷺ - يقول الله تعالى : « أَعْدَدْتُ لِعِباَدِىَ الصَّالِحين ماَلَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَر عَلَى قَلْبِ بشر » واقرأوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ماَ أُخْفِىَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِماَ كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [السجدة : ١٧]

وقول الفريق الثانى للفريق الأول ﴿ وَيْلَكُم ﴾ فيها زجر وتأثيم ، يقصدون – أن ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ، فالسعادة فيه ، والخير لصاحبه ، إذ هو دائم ، لا تعب معه ولا ضرر فيه ، وهذا المال مصدر تعب وشقاء لصاحبه فى الواقع ، ونفس الأمر .

* ﴿ ولَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُون ﴾ أى ولا يلقّى هذه الحقائق ، ولا يعمل بها إلا الصَّابِرون .

• ولاشك أن هذه الحقائق هى **الإيمان** ، **والعمل الصالح** ، **وإدراك ما يوصل إلى خيرى الدنيا والآخرة** .

• ﴿ فَخَسَفْناَ بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ – لما ذكر الحق سبحانه اختيال قارون فى زينته ، وتعاليه على قومه ، وبغيه عليهم ، عقّب ذلك بأنه خَسَفَ به وبداره الأرض ، **كما ثبت فى الصحيح عند البخارى** ، من حديث الزهرى عن سالم – أنا أباه حدثه ، أن رسول الله – ﷺ – قال : « بَيْنَماَ رَجُلٌ يَجُرّ إِزَارَهُ إِذْ خُسِفَ بِهِ ، فَهُو يَتَجَلْجَلُ في الأَرْضِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَة » .

• **وفى حديث أبى سعيد** : قال النبى المصطفى ﷺ :

« بَيْنَماَ رَجُلٌ مِمَّنْ كاَنَ قَبْلكُمْ خَرَجَ في بُرْدَينِ أَخْضَرَيْن يَخْتَالُ فِيهِمَا أَمَرَ اللهُ الأَرْضَ ، فأَخَذَتْه فإنَّه لَيَتَجَلْجَل فِيهاَ إِلَى يَوْمِ القِيَامَة » .

* **أسباب هلاك قارون :**

وقد ذكرت المصادر أن هلاك قارون كان من دعوة موسى نبى الله عليه [١]

فعن ابن عباس والسدّى .. أن قارون أعطى امرأة بغيًا مالا على أن تبهت موسى بحضرة الملأ من بنى إسرائيل ، وهو قائم فيهم ، يتلو عليهم كتاب الله تعالى ،

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٠١/٣

فتقول يا موسى : إنك فعلت بى كذا وكذا ، فلما قالت ذلك فى الملأ لموسى عليه السلام أرعد من الفَرَق ، وأقبل عليها بعد ما صلى ركعتين ، ثم قال : أنشدك بالله الذى فرّق البحر وأنجاكم من فرعون ، وفعل كذا وكذا ، لما أخبرتنى بالذى حملك على ما قُلْتِ ؟ فقالت : أما إذا أنشدتنى فإن **قارون** أعطانى كذا وكذا – على أن أقول ذلك لك . وأنا أستغفر الله وأتوب إليه .

فعند ذلك خَرَّ موسى لله عز وجل ساجداً ، وسأل الله فى قارون ، **فأوحى الله إليه أن قد أمرت الأرض أن تُطيعك فيه ، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه وداره ، فكان كذلك .**

• **وفى رواية أخرى** : أن قارون لما خرج على قومه فى زينته تلك ، وهو راكب على البغال الشهب ، وعليه وعلى خدمه ثياب الأرجوان المصبغة ، فمر فى محفله ذلك على مجلس نبى الله موسى عليه السلام ، وهو يذكرهم بأيام الله ، فلما رأى الناس قارون ، انصرفت وجوههم نحوه ينظرون إلى ما هو فيه ، فدعاه موسى – عليه السلام – **وقال : ما حملك على ما صنعت ؟**

فقال يا موسى : أما لئن كنت فُضِّلت علىّ بالنبوّة ، فلقد فُضّلت عليك بالدنيا ، ولئن شئت لتخرجنّ فلتدعونّ علىّ ، وأدعو عليك .

فخرج موسى ، وخرج قارون فى قومه ، فقال موسى – عليه السلام – تدعُو أو أدْعُو أنا ؟ فقال : بل أدعو أنا ، **فدعا قارون فلم يجب له** ، ثم قال موسى أُدْعُ ؟ فقال : نعم ، فقال موسى : اللهم مُرْ الأرض أن تطيعنى اليوم .. فأوحى الله إليه أنى قد فعلت – فقال موسى : **يا أرضُ خُذِيهم فأخذتهم إلى أقدامهم ، ثم قال خُذيهم .. فأخذتهم إلى رُكَبِهم .. ثم إلى مناكبهم .. ثم قال : أقبلى بكنوزهم وأموالهم ، قال : فأقبلت بها حتى نظروا إليها ، ثم أشار موسى بيده ، ثم قال : اذهبوا بنى لاَوَى ، فاستوت بهم الأرض** . قال ابن عباس : خُسف بهم إلى الأرض السابعة .

* وقوله تعالى : ﴿ فَماَ كاَنَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَماَ كاَنَ مِنَ المُنْتَصِرِين ﴾ [القصص : ٨١] أى ما أغنى عنه ماله ولا جمعه ولا خدمه ولا حشمه ، ولا دفعوا عنه نقمة الله وعذابه ونكاله ، ولا كان هو فى نفسه منتصرا لنفسه ، فلا ناصر له من نفسه ، ولا من غيره .

وهكذا جاءت نهاية قارون الأليمة ، مؤيدة لما ذهب إليه العلم والبصر بالدنيا والآخرة ، فخَسَفَ الله بقارون وبداره وبماله وبجموعه الأرض ، فما كان له فئة ينصرونه من دون الله ، ويمنعون عنه بأس الله وبطشه ، حيث لم يعمل عملاً صالحا يقربه من الله ، ولم يحصِّن ماله بالصدقة والزكاة ، ولم يتقرب إلى الله بترك الكفر ، ولم يتواضع إلى الناس بترك الغرور والغطرسة .. ولهذا كله كانت النتيجة أن ضاعت دنياه ، وخسف الله به الأرض ، والله على كل شىء قدير ، وبعباده خبير بصير ، ﴿ وأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مكَانَه بالأَمْسِ ﴾ – أى الذين لما رأوه فى زينته ﴿ قالُوا ياَلَيْتَ لَناَ مِثْل ما أوتى قاَرُون ﴾

فلما خُسف به أصبحوا يقولون ﴿ وَيكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاَءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِر ﴾ أى ليس المال بدالّ على رضا الله عن صاحبه ، فإن الله يعطى ويمنع ، ويضيق ويوسع ، ويخفض ويرفع ، وله الحكمة التامة ، والحجة البالغة ، وهذا كما فى الحديث المرفوع عن ابن مسعود : « إنَّ الله قَسَّم بينكم أَخْلاَقكم كما قسّم بينكم أرزاقكم ، وإن الله يعطى المال من يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الايمان إلّا من يحب » .

نعم الله وحده هو الذى يعطى ويمنع ، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقتر ، فلم يَعْط إنساناً لعقله وعلمه ، ولم يحرم آخر لجهله وسوء رأيه ، بل الأمر كله لله .

وإذا كان ذلك كذلك – فالواجب هو امتثال أمر الله ومخالفة النفس الأمارة بالسوء ، وترك الغرور والتكبر ، فإن الأمر بيد الله ، وهو صاحب الأمر ،

لولا أن مَنّ الله علينا لأصابنا ما أصاب قارون . وى (كلمة تفيد معنى التعجب) كأنه لا يفلح الكافرون حقيقة ، وما هم فيه فى الدنيا فهو استدراج لهم ، وفتنة لغيرهم .

• ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولَا فَسَاداً . والعَاقِبةُ للمُتَّقِين ، مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْها ، ومَنْ جاءَ بالسَّيئة فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إلَّا ماَ كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [القصص : ٨٣ ، ٨٤]

فهذا إخبار من الحق عز شأنه ، أن الدار الآخرة ، ونعيمها المقيم ، الذى لا يحول ولا يزول ، جعلها الله لعباده المؤمنين ، المتواضعين ، الذين لا يريدون عُلُوًّا فى الأرض ، أى ترفعا على خلق الله ، وتعاظما عليهم ، وتجبراً بهم ، ولا فساداً فيهم .

قال المفسرون : العلو فى الأرض التكبر بغير حق ، والفساد أخذ المال بغير حق .

• عن على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – أنه قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك نعل صاحبه ، فيدخل فى قوله تعالى : ﴿ تلكَ الدَّارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فساداً ، والعاقبة للمتقين ﴾ . وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فإن ذلك مذموم ، كما جاء فى الحديث الصحيح عن النبى ﷺ – أنه قال : « إنه أُوحِىَ إلَىّ أن تَوَاضَعُوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد ».

* **وأما إذا أحب المرء ذلك لمجرد التأمل فهذا لا بأس** ، فقد ثبت أن رَجلاً قال : يا رسول الله : إنى أحب أن يكون ردائى حسنا ، ونعلى حسنة ، أفمن الكبر ذلك ؟ فقال : لا .. « إنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَال » . (رواه مسلم)

وقال تعالى : ﴿ مَنْ جاءَ بالحسَنَةِ ﴾ أى يوم القيامة ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ منْهاَ ﴾ أى ثواب الله خير من حسنة العبد ، فكيف والله يضاعفه أضعافاً كثيرة ، وهذا مقام الفضل .

* ثم قال : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئةِ فلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ إلّا ما كانُوا يَعْمَلُون ﴾ – كما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئةِ فكُبَّتْ وُجُوهُهُم فى النَّارِ ، هَلْ تُجْزَونَ إلَّا ما كُنْتُم تَعْمَلُون ﴾ [النمل : ٩٠] وهذا مقام الفضل والعدل .

• **وخلاصة المعنى** : تلك الدار الآخرة وما فيها نعيم مقيم دائم ، لا تعب ولا مشقة معه يجعلها ربك للذين لا يريدون علواً فى الأرض على غيرهم ، ولا يريدون فساداً ، والعاقبة للمتقين .

وتأمل قول الحق سبحانه : ﴿ لَا يُرِيدُونَ عُلُواً فى الأَرْضِ ولَا فَسَاداً ﴾ حيث علّق الوعد بترك **إرادة العلو** ، **والفساد** ، وميل القلب إليها ، لا بفعلها مبالغة فى تحذير المؤمنين ، وإبعادهم عن هذه الأمراض الخطيرة ، التى تبيد الأمم ، وتهلك الأفراد والجماعات .

ولا غرابة فى ذلك كله ، فإن هناك قانونا وسنة لا تتخلّف هى : من جاء بالحسنة فله خير منها أى ثواب خير منها وهو عَشْر أمثالها ، والله يضاعف لمن يشاء . ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلّا مثلها فقط ، جزاء عمله ، وربك ذو فضل عظيم ، إذ لا يجزى بالسيئة إلا مثلها ، ويجزى بالحسنة عشرة أمثالها ، إن ربك واسع المغفرة .

* * *

الفصل الحادى عشر

نبى الله داود .. وقضية الإبتلاء

اختار الله – سبحانه وتعالى – داود – عليه الصلاة والسلام ، ليكون **نبيا مرسلا ، وملكا قويا** عزيزاً ، وسبب له الأسباب ، ويسّر له السُبُل ، وأعده لكى يضطلع بالدور الكبير ، الذى رسمه له وأراده ربّ العزّة .

قال محمد بن إسحاق ، عن وهب بن منبه :

« لما قتلَ داودُ جالوتَ ، وكان قتله له – فيما ذكر ابن عساكر – عند قصر أم حكيم ، بقرب مرج الصفر ، فأحبته بنو إسرائيل ، ومالوا إليه ، وإلى ملكه عليهم ، فكان من أمر **طالوت** ما كان ، وصار المُلْك إلى داود – عليه السلام ، **وجمع الله له بين الملك والنبوة** ، بين خير الدنيا والآخرة ، وكان المُلْك فى سبط ، والنبوة فى آخر ، فاجتمعا فى داود هذا » [1]

وهذا كما قال تعالى : ﴿ وقَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ ، وآتَاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ ، وعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ، ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضَ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِين ﴾ [البقرة : ٢٥١] – أى لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس ، لأكل قوى النأسِ ضَعِيفهم ، ولهذا جاء فى بعض الآثار : « السلطان ظلّ الله على أرضه » .

• وقد وضّح ابن جرير – فى تاريخه – هذا الحادث ، فذكر أن جَالُوتَ لما بارز طالوتَ ، فقال له أخرج إلىّ ، وأخرجُ إليك ، فندب طالُوت الناس ،

---

(١) ابن كثير ، قصص الأنبياء ٤٨٨ ط . بيروت .

فانتدب داود ، فنازل جالوت ، ثم قتله . قال وهب بن منبه : فمال الناسُ إلى داوود حتى لم يكن لطالوت ذِكْر ، وخلعوا طالوت ، وولوا عليهم داود .

وروى ابن عساكر - بإسناده - أن قتله جالوت كان عند قصر أم حكيم ، وأن النهر الذى هناك هو المذكور فى الآية : ﴿ فَلَماَّ فَصَلَ طَالُوتُ بالجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى .. الآية ﴾ [البقرة : ٢٤٩]

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْناَ دَاوُد مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ والطَّيْر ﴾ [سبأ : ١٠] ويقول عز وجل : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الجِباَلَ يُسَبِّحْنَ والطَّيْرَ ، وكُنَّا فاَعِلِين ﴾ [الأنبياء : ٧٩]

وزيادة فى تكريم داود - عليه السلام - وتدعيما لدعوته ، وتصديقا لنبوته ، اختصه الله بأمور لم تكن لغيره من أنبياء الله .

١ - اختصه الله بالحكمة وفصل الخطاب .

قال تعالى : ﴿ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ [سورة ص الآية : ٢٠]

قال الراسخون فى العلم : فأما **الحكمة** .. **فهى النبوّة** والفهم ، والإصابة فى الأمور .

وأما **فصل الخطاب** : فعلم الحُكْم ، والنظر فى القضاء .

• **قال ابن مسعود** : كان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس ، يعنى إصابة القضاء وفهمه . ففصل الخطاب - الذى أكرمه الله به : هو الكلام البيّن الواضح ، الذى يفهمه كل مَنْ يخاطب به . وأضاف القرطبى : البيان الفاصل بين الحق والباطل[1] .

---

(١) الجامع للأحكام ج١٥ ص١٦٢

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون : أن مُلك داود كان قويا عزيزاً ، لأنه كان يسوسه بالحكمة والقوة معا ، ويقطع ويجزم برأى لا تردّد فيه ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أى قويناه .

• **قال ابن عباس** : كان أشد ملوك الأرض سلطانا ، وكان يحرس محرابه كل ليله ثلاثة وثلاثون ألف رجل .

• **روى عكرمة عن ابن عباس** : أن رجلا من بنى إسرائيل تعدى على رجل من عظمائهم ، فاجتمعا على داود – عليه السلام – فقال المعتدى : إن هذا قد غصبنى بقرتى ، فسأل داوود الرجل عن ذلك فجحد – أى أنكر ، وسأل الآخر البينة ، فلم يكن له بينة ، فقال لهما داود : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فقاما من عنده ، **فأوحى الله تعالى إليه فى منامه .. أن يقتل الرجل الذى تعدى** ، فقال : هذه رؤيا ولست أعجل حتى أتبين ، فأوحى الله تعالى إليه مرة أخرى أن يقتله ، فقال : هذه رؤيا ، فأوحى الله تعالى إليه مرة ثالثة أن يقتله ، فأرسل داود إلى الرجل ، فقال له : إن الله تعالى قد أوحى إلى أن أقتلك ، فقال له الرجل : تقتلنى بغير ذنب ؟ ولابيّنة ؟ فقال داود : نعم ، والله لأنفذن أمر الله فيك . فلما عرف الرجل أنه قاتله ، قال : لا تعجل علىّ حتى أخبرك ، إنى والله ما أخذت بهذا الذنب ، ولكنى كنت اغتلت ولد هذا فقتلته ، فأمر به داود فقتل ، فاشتدت هيبة بنى إسرائيل عند ذلك لداود ، واشتد له ملكه . فذلك قوله تعالى : ﴿ وشَدَدْنَا مُلْكَه ﴾ [1] فعظم أمر داوود فى بنى إسرائيل جدا ، وخضعوا له خضوعا عظيما .

٢ – **ويتصل بفصل الخطاب ، تأييد الله له بالسّلسلة** . تلك التى أعطاها الله تعالى له ، ليعرف المحقّ من المبطل فى المحاكمة إليه .

---

(١) العرائس : للثعالبى ص٣٠٨ نشر مكتبة الجمهورية بمصر .

• **روى الضحاك عن ابن عباس** – رضى الله عنهما – قال : « إن الله – تعالى – أعطاه سلسلة موصولة بالمجرة والفلك ، ورأسها عند محراب داود – عليه السلام – حيث يتحاكم الناس إليه ، وكانت قوتها قوة الحديد ، ولونها لون النار ، وحلقتها مستديرة ، مفصلة بالجوهر ، ومدسّرة بقضبان اللؤلؤ الرطب ، فلا يحدث فى السماء حادث إلّا صلصلت السلسلة ، فيعلم داود ذلك الحادث ،ولا يمسها ذو عاهة إلّا برأ ، وكان علامة دخول قومه فى الدين أن يمسوها بأيديهم ، ثم يمسحوا بأكفهم على صدورهم ، وكانوا يتحاكمون إليها ، فمن اعتدى على صاحبه وأنكر ماله من حق أتى السلسلة ، فمن كان صادقا محقا مدّ يده إلى السلسلة فينالها ، ومن كان كاذبا ظالما لم ينلها .

وقال وهب بن منبه : لما كثر الشر وشهادات الزور فى بنى إسرائيل ، أعطى داود سلسلة لفصل الخطاب ، فكانت ممدودة من السماء إلى صخرة بيت المقدس ، وكانت من ذهب ، فإذا تشاجر الرجلان فى حق ، فأيهما كان محقا نالها ، والآخر لا يصل إليها ، فلم تزل كذلك حتى أودع رجل رجلا لؤلؤة فجحدها منه ، وأخذ عكازاً وأودعها فيه ، فلما حضرا عند الصخرة تناولها المدعى ، فلما قيل للآخر خذها بيدك ، عمد إلى العكاز فأعطاه المدعى ، وفيه تلك اللؤلؤة ، وقال : اللهم إنك تعلم أنى دفعتها إليه ، ثم تناول السلسلة فنالها ، فأشكل أمرها على بنى إسرائيل ، ثم رفعت سريعا من بينهم .[1]

٣ – واختصه الله – عز وجل – بالقوة فى العبادة ، وشدة الاجتهاد .

كما قال سبحانه : ﴿ واذْكُر عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ﴾ [سورة ص ١٧] يعنى القوة فى العبادة ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يعنى توّاب مسبح مطيع ، كان يصوم يوما ، ويفطر يوما .

---

(١) ابن كثير : قصص الأنبياء ٤٨٨

• **قال ابن عباس** : (الأيد) قوة فى الطاعة ، يعنى ذا قوة فى العبادة والعمل الصالح .

• **وقال قتادة** : أعطى قوة فى العبادة وفقها فى الدين . وقد ذُكر لنا أنه كان يقوم الليل ، ويصوم نصف الدهر . وقد ثبت فى **الصحيحين** : أن رسول الله – ﷺ – قال :

« أحب الصلاة إلى الله صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله صيام داوود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ، ويفطر يوما ولا يفر إذَا لاقى » .

٤ – واختصه الله – جل جلاله – بنزول كتابه « الزَّبُور »

أنزله الله على داود **بالعبرانية** ، مائة وخمسون سورة ، فى خمسين منها ذكر ما يكون من بختنصّر وأهل بابل ، وفى خمسين منها ذكر ما يلقون من الروم من أهل إيران ، وفى خمسين منها موعظة وحكمة ، ولم يكن فيها حلال ولا حرام ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْناَ دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ [النساء : ١٦٣]

٥ – واختصه الله – عز شأنه – بالصوت الطيب ، والنغمة اللذيذة ، والترجيع والألحان .

ولم يعط الله أحداً من خلقه مثل صوته ، كان يقرأ الزبور بسبعين لحنا ، بحيث يعرق المحموم ، ويفيق المغمى عليه ، وكان إذا قرأ الزبور برز إلى البرية ، فيقوم وتقوم معه علماء بنى إسرائيل خلفه ، وتقوم الناس خلف العلماء ، وتقوم الجن خلف الناس ، وتقوم الشياطين خلف الجن ، وتدنو الوحوش والسباع ، ويؤخذ بأعناقها ، وتظله الطيور مضحية ، ويركد الماء الجارى ، ويسكن الريح ، وما صُنعت المزامير والبرابط والصنوج إلّا على صوته . وتسخر معه الجبال . وذلك قوله تعالى : ﴿ إناَّ سَخَّرْناَ الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإشْرَاقِ . والطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩]

كما قال عز شأنه : ﴿ ياَ جِباَلُ أَوِّبِي مَعَهُ والطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠]

قال ابن عباس – فى تفسير هذه الآية ﴿ إناَّ سَخَّرْناَ الجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بالعَشِيِّ والإِشْرَاقِ ﴾ أى عند آخر النهار وأوله ، أو عند الغروب والشروق ، وذلك أنه كان الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعطه أحد ، بحيث أنه كان إذا ترنم بقراءة كتابه يقف الطير فى الهواء يرجِّع بترجيعه ، وتسبح بتسبيحه ، وكذلك الجبال تجيبه ، وتسبح معه كلما سبح بكرة وعشيا .

وقال الأوزاعى : بإسناده – أُعطى داود من حُسن الصوت مالم يعط أحد قط ، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله حتى يموت عطشا وجوعا ، وحتى أن الأنهار لتقف .

وقال وهب بن منبه : كان لا يسمعه أحد إلّا حجل كهيئة الرقص ، وكان يقرأ الزبور بصوت لم تسمع الآذان بمثله ، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته ، حتى يهلك بعضها جوعا .

روى عن عائشة – رضى الله عنها – أنها قالت : سمع رسول الله – ﷺ – صوت **أبى موسى الأشعرى** ، وهو يقرأ فقال : « لقد أوتى أبو موسى من مزامير آل داود » وفى رواية : « لقد أعطى أبو موسى من مزامير داود »[1]

٦ – واختصه الله بالقوة الجسدية والعضلية ، التى يسَّرت له إلآنة الحديد .

قال الحق – تبارك وتعالى : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ . أَنِ آعْمَلْ سَابِغَاتٍ وقَدِّرْ فى السَّرْدِ ﴾ [سبأ : ١٠ ، ١١] أعانه الله – سبحانه – على عمل الدروع من الحديد ،

---

(١) رواه أحمد .

ليحصن المقاتلة من الأعداء ، وأرشده إلى صنعها وكيفيتها ، فقال : ﴿ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ﴾ أى لا يجعل المسامير دقاقا فتفلق ، ولا غلاظا فتكسر الحلق .

وكان سبب ذلك ما روى فى الأخبار :[1]

« أن داود – عليه السلام – لما ملك بنى إسرائيل ، كان من عادته أن يخرج إلى الناس متنكراً ، فإذا رأى رجلا لا يعرفه ، تقدم إليه فيسأله عن داود ، فيقول له : **ما تقول فى داود واليكم** ؟ فيثنى عليه ، ويقول خيرا ، فبينما هو كذلك يوما من الأيام إذ قيض الله له **مَلَكا** فى صورة الآدميين ، فلما رآه تقدم داود على عادته فسأله ، فقال له المَلَك : **نعم الرجل هو .. لولا خصْلة فيه .** فراع داود ، فقال : ما هى يا عبد الله ؟ فقال : إن داوود يأكل ويطعم عياله من بيت المال ، فتنبّه لذلك ، وسأل الله تعالى ، أن يسبب له سببا يستغنى به عن بيت المال ، فينفق ويطعم عياله ، **فألاَنَ الله له الحديد ، فصار فى يده مثل الشمع والعجين ، والطين المبلول** .

قال الحسن البصرى : كان يصرفه بيده كيف يشاء من غير إدخال نار ، ولا ضرب بحديد ، أى دون حاجة إلى تسخين ولا مطرقة .

وقال الحق سبحانه : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٠]

أى وعلمه الله – تعالى – صنعة الدروع ، فكان يتخذ الدروع ، **وهو أول من عملها من زرد** ، وكانت قبل ذلك صفائح ، فيقال :إنه كان يبيع كل درع منها بأربع آلاف درهم ، فيأكل ويطعم عياله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين .

---

(١) ابن كثير : قصص الانبياء ٤٨٩ .

وقد ثبت فى الصحيح : « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه ، وأن نبى الله داود كان يأكل من كسب يده » .

٧ – **هذا إلى جانب ما وهبه الله من جمال الخَلْق والخُلُق** ، فقد كان داود أزرق العينين ، « وزُرْقة العينين يُمْن » – كما قال الصادق المصدوق ﷺ [١] .. أحمر الوجه ، دقيق الساقين ، سبط الشعر ، أبيض الجسم ، طويل اللحية فيها جعودة ، حسن الخُلق ، طاهر القلب نقيه .

ذلك هو نبى الله ، وخليفته ، داود بن إيشا ، بن عويد ، بن عابر سلمون ، بن يخشون ، بن عويناذب ، بن ارم ، بن حصرون ، بن فرص ، بن يهوذا ، ابن يعقوب ، بن إسحاق ، بن إبراهيم الخليل ، عبد الله ونبيه ، وخليفته فى أرض بيت المقدس [٢] .

هذا النبى الكريم ، الذى اختصه الله بهذه الهبات ، وجمع له بين الدين والدنيا ، بين النبوة والملك ، تعرض **لامتحان رهيب** ، أورد العلماء أخباره ، وإن اختلفوا فى كنهه وأسبابه ..

فقال قوم : كان سبب ذلك ، أنه تمنى يوما من الأيام على ربه – تعالى – منزلة آبائه ، إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وسأله أن يمتحنه بمثل الذى كان يمتحنهم ، ويعطيه من الفضل مثل الذى أعطاهم ، **فروى السدى ، والكلبى ، ومقاتل عن أشياخهم فقالوا** :

« كان داود – عليه السلام – قد قسم الدهر ثلاثة أيام ، يوما يقضى فيه بين الناس ، ويوما يخلو فيه بنسائه ، ويوما لعبادة ربه ، وقراءة الكتب ، وكان يجد

---

(١) صحيح البخارى ، ورواه أبو هريرة .

(٢) ابن كثير : قصص الأنبياء ص٤٨٨

فيما يقرأ من الكتب فضل إبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب عليهم السلام ، فيقول : يارب .. أرى الخير قد ذهب به آبائى ، الذين كانوا قبلى .. فأوحى الله – تعالى – إليه : إنهم ابتلوا ببلايا لم يبتل بها أحد ، فصبروا عليها .. ابتلى إبراهيم – عليه السلام – بنار النمروذ ، وبذبح ولده ، وابتلى يعقوب بالحزن وذهاب بصره على يوسف ، وإنك لم تبتل بشىء من ذلك » .

• فقال داود – عليه السلام – يارب فابتلينى كما ابتليتهم ، وأعطنى كما أعطيتهم ..

• فأوحى الله تعالى إليه : إنك مبتلى فى شهر كذا .. فى يوم كذا ، فاحترس على الصبر ..

• فلما كان اليوم الذى وعده الله ، دخل داود محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلى ، ويقرأ الزبور ، استعداداً للأمر .

– فماذا كان نوع الابتلاء العظيم .. والامتحان الرهيب ؟

• **ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والبغوى ، والسيوطى** [1] ، من الأخبار والوقائع ما تقشعر منه الأبدان .

قالوا : « بينما داود فى محرابه يصلى ، إذ جاءه الشيطان ، وتمثل فى صورة حمامة من ذهب ، فيها من كل لون حسن ، فوقعت بين يديه ، فمدّ يده ليأخذها – وفى بعض الروايات : ليدفعها إلى ابن له صغير ، فلما أهوى إليها ، طارت غير بعيد ، من غير أن تؤيسه من نفسها ، فامتد إليها ليأخذها ، فتنحّت فتبعها ، فطارت فوقعت فى كوّة المحراب ، فذهب ليأخذها ، فطارت من الكوة ، فنظر داود أين تقع ، فيبعث إليها من يصيدها ، فإذا هو **بامرأة** فى بستان على شط بركة تغتسل . هذا قول الكلبى .

---

(١) الدر المنثور ج٥ ص٣٠٠

قال السدى : رآها تغتسل على سطح لها ، فرآها من أحسن النساء خَلْقا ، فتعجب داود من حُسنها ، وحانت منها التفاتة ، فأبصرت المرأة ظل داود – عليه السلام – فنشرت شعرها ، فغطى بدنها كله ، فزادِ بذلك إعجابا بها ، فسأل عنها ، فقيل له :

هى سابع بنت شائع ، امرأة أورياء بن حنان ، وزوجها فى غزاة البلقاء مع أيوب بن صوريا ، ابن أخت داود .

فكتب داود إلى ابن أخته أيوب ، صاحب بعثة بلقاء ، أن أبعث **أورياء** إلى موضع كذا وكذا ، **وقدّمه على التابوت** – وهو صندوق فيه بعض مخلفات أنبياء بنى إسرائيل ، فكانوا يقدمونه بين يدى الجيش ، كى يُنْصَروا ، وكان المقدم على التابوت لا يحل له أن يتقهقر إلى ورائه ، حتى يفتح الله على يديه ، أو يستشهد ، فبعث به ففتح له ، فكتب إلى داود بذلك ، فكتب إليه داود أيضا .. أن ابعثه إلى غزوة كذا ، وكان رئيسها أشد منه بأساً ، فبعثه فقتل فى المرة الثانية .. فلما انقضت عدّتها ، تزوجها داود ، فهى أم سليمان – عليه السلام [١] .

فلما دخل داوود بامرأة أورياء ، لم يلبث إلا يسيرا حتى بعث الله **مَلَكين فى صورة رجلين** ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى يوم عبادته ، فمنعهما الحراس أن يدخلا عليه ، فتسوّرا المحراب وهو يصلى ، فما شعر إلّا وهما بين يديه جالسان ، فذلك قوله تعالى :

• ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ . إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ [سورة ص ٢١ ، ٢٢] ففزع منهم حين هجما عليه فى محرابه بغير

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ٣١٠ ، والدر المنثور للسيوطى ج٥ ص٣٠٠ ، وقصص الأنبياء لابن كثير ٤٩٠

إذنه ، لأنه كان فى محرابه ، وهو أشرف مكان فى داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلّا بشخصين قد تسوّرا عليه المحراب ، أى احتاطا به يسألانه عن شأنهما .

• ﴿ قَالُوا : لا تَخَفْ . خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ ، فاحْكُمْ بَيْنَنَا بالحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾

أى لا تخف منا فنحن فوجان مختصمان تعدَّى بَعْضُنا على بعض ، فاحكم بيننا بالعدل ، ولا تَجُرْ ، ولا تفرط ، ولا تظلم فى الحكم ﴿ واهْدِناَ إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴾ أى وأرشدنا إلى وسط الطريق ، يعنى إلى الطريق الحق ، المستقيم الواضح .

وهنا نكون قد وصلنا إلى موضوع القضية .. بداية قصة الخصمين المتخاصمين ..

قال أحدهما : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ [سورة ص : ٢٣]

• **قال بعض المفسرين : وهذا من أحسن التعريض** ، حيث كنَّى بالنعاج عن النساء . والعرب تفعل ذلك كثيرا ، تورِّى عن النساء ، وتكنى عنها بألقاب كالظباء ، والنعاج ، والبقر ، وهو كثير فاشى فى أشعارهم . فقد يكون هذا كناية عن النساء ، فيكون الغرض : إن عنده تسعا وتسعين امرأة ، وعندى امرأة واحدة .

فقال : ﴿ أَكْفِلْنِيهاَ ﴾ أى اعطنيها ، وتحول لى عنها ، ملِّكني إياها ، واجعلها تحت كفالتى .

﴿ وعَزَّنِي فى الخِطاَبِ ﴾ أى غلبنى فى الخصومة ، وكان أفصح منىّ ، وشدّد علىّ فى القول وأغلظ ، وإن حارب كان أبطش منى .

فقال داود : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤَالِ نَعْجتِكَ إلَى نِعَاجِه ﴾ **أى لقد ظلمك** بهذا الطلب حين أراد انتزاع نعجتك منك ليكمل ما عنده إلى مائة .

قال السدّى – باسناده – إن أحدهما لما قال : ﴿ إنَّ هَذَا أُخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةٌ ﴾ قال داود للآخر : **ما تقول** ؟ . قال : إن لى تسعا وتسعين نعجة ، وله نعجة واحدة ، فأريد أن آخذها منه ، وأكمل نعاجى مائة ، قال : وهو كاره ؟ .. قال : نعم .

قال داود : **إذًا لا ندعك ، وإن رُمْت ذلك ضربنا منك هذا وهذا** ، يعنى طرف الأنف ، وأصل الجبهة .

فقال الرجل : يا داود .. أنت أحق بضرب هذا منى ، حيث كان لك تسع وتسعون امرأة ، ولم يكن لأورياء إلا امرأة واحدة ، فلم تزل تعرضه للقتال حتى قُتل ، وتزوجت امرأته .

فهذا هو وجه الآية .. وقصة الإمتحان ، إلّا أن داود حَكَم قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر .

قيل : ثم إن داود نظر فلم ير أحداً ، فعرف ما قد وقع فيه ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أنَّما فَتَنَّاهُ ﴾ [سورة ص ٢٤] أى ابتليناه ، أى علم وأيقن إنما **اختبرناه بهذه الحادثة ، وتلك الحكومة .**

قال سعيد بن جبير : إنما كانت فتنة داود النظر ، ولم يتعمد داوود – عليه السلام – النظر إلى المرأة ، ولكنه أعاد النظر إليها ، فصارت عليه وبالا . لذلك حث رسول الله – ﷺ – على عدم تعدد النظر ، فقال : « لا تتبع النظرة ، فإن لك الأولى ، وعليك الآخرة » .

هذه القضية – **قضية الابتلاء** ، بهذه الأحداث والوقائع ، كانت مثار نقاش كبير ، وجدل كثير ، منذ قديم الزمان ، وخبّ فيها ووضع القُصّاص ونقلة الأخبار والرواة الكثير من الأقوال . وقد ساعدهم على ذلك ، أن فى **التوراة والانجيل** ، ما يثبت لبعض الأنبياء كداود ، ما يترفع عنه عامة الناس ، فكيف الحال مع الأنبياء والمرسلين ؟

ونحن المسلمين ، المتمسكين بالكتاب والسنة ، نقول **بعصمة الأنبياء** ، وترفعهم عن الدنايا والسقطات ، وبُعدهم عن سفاسف الأمور قولا وعملا ، فإننا نرى أن زعماء الإصلاح ، على مر الدهور ، قوم غير عاديين ، يكونون غالبا بعيدين عن الدنيا ، والأنبياء – عليهم رضوان الله وسلامه – أولى بذلك منهم ، لأنهم قوم اصطفاهم الله ، واختارهم ، وصنعهم على يده ، فأرواحهم طاهرة ، ونفوسهم عالية ، **يستحيل عليهم ما ذكره أحبار اليهود فى حقّهم ، ونقله بعض علماء المسلمين ، ورووه على ألسنتهم ، ودونوه فى كتبهم بحُسن نية .**

ولم يقف الأمر عند هذه الروايات الموقوفة عن بعض الصحابة والتابعين – من أمثال **ابن عباس** ، **وابن مسعود** ، **وأنس بن مالك** ، **ومجاهد** ، **والسدّى** ، وغيرهم .. **بل جاء بعضها مرفوعا إلى النبى المصطفى** – ﷺ .

• **قال السيوطى** – فى الدر المنثور [١] ، وأخرج الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول ، وابن جرير بسنده ، عن أنس بن مالك – رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : « إن داوود – عليه السلام – حين نظر إلى المرأة ، قطع على بنى إسرائيل ، وأوصى صاحب الجيش ، فقال : إذا حضر العدو فقرّب فلانا بين يدى التابوت ، وكان التابوت فى ذلك الزمان يستنصر به ،

---

(١) ج٥ ص٣٠٠

من قدم بين يدى التابوت لم يرجع حتى يقتل ، أو ينهزم معه الجيش ، فقتل ، وتزوج المرأة ، ونزل الملكان على داود – عليه السلام – فسجد ، فمكث أربعين ليلة ساجداً ، حتى نبت الزرع من دموعه على رأسه ، فأكلت الأرض جبينه ، وهو يقول فى سجوده :

« ذل داود ذلة هى أبعد مما بين المشرق والمغرب ، ربّ إن لم ترحم ضعف داود ، وتغفر له ذنبه ، جعلت ذَنْبه حديثا فى الخلائق من بعده ، فجاء جبريل – عليه السلام – بعد أربعين ليلة ، فقال : يا داود إن الله تعالى قد غفر لك الهم ، الذى هممت به ، فقال داود : قد علمت أن الله قادر على أن يغفر الهمّ الذى هممت به » ..

وقوله تعالى : ﴿ فاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وأَنَابَ ﴾ [سورة ص : ٢٤] – أى طلب المغفرة من الله ، وخر ساجداً لله تعالى ، ورجع إليه بالتوبة والندم على ما فرط منه ، فاستغفر ربه مما ألم به ، وتاب ، وخر راكعا ، وصلى لله قائما وساجداً ، وأناب ، وقد ذكر أنه استمر ساجداً أربعين يوما .

*** وروى عن كعب الأحبار ، وعن وهب بن منبه ، وغيرهما ، قالوا جميعا :**

« إن داود – عليه السلام – لما دخل عليه الملكان ، وقضى على نفسه ، تحوَّلا فى صورتهما فعرجا ، وهما يقولان : قضى الرجل على نفسه ، وعلم داود أنما فتناه ، فخرّ ساجداً أربعين يوما ، لا يرفع رأسه إلا لحاجة لابد منها ، أو صلاة مكتوبة ، ثم يعود فيسجد .. لا يأكل ولا يشرب ، وهو يبكى حتى نبت العشب حول رأسه ، وهو ينادى ربه تعالى ، ويسأله التوبة ، وكان يقول فى سجوده :

• سبحان الملك الأعظم ، الذى يبتلى الخلائق بما يشاء .

• سبحان خالق النور ، سبحان الحائل بين القلوب ، إلهى .. خليت بينى وبين عدوى إبليس فلم أتنبه لفتنة إذ زلَّ بى قدمى .

• سبحان خالق النور ، إلهى – يغسل الثوب فيذهب درنه ووسخه ، والخطيئة لازمة لى ، لا تذهب عنى .

• سبحان خالق النور ، إلهى .. أمرتنى أن أكون لليتيم كالأب الرحيم ، وللأرملة كالزوج العطوف ، فنسيت عهدك .

• سبحان خالق النور : إلهى .. خلقتنى وفى سابق علمك كان ما أنا صائر إليه .

• سبحان خالق النور ، إلهى .. بأى عين أنظر إليك يوم القيامة ، وإنما ينظر الظالمون من طرف خفى .

• سبحان خالق النور ، إلهى .. برحمتك اغفر لى ذنوبى ، ولا تباعدنى من رحمتك لهوانى ، فإنك أرحم الراحمين .

• سبحان خالق النور ، إلهى .. إنى أعوذ بك من دعوة لا تستجاب ، وصلاة لا تقبل ، وذنب لا يغفر ، وعذاب لا يفتر .

• سبحان خالق النور ، إلهى ، فررت إليك من ذنوبى ، واعترفت بخطيئتى ، فلا تجعلنى من القانطين ، ولا تخزنى يوم يبعثون .

قالوا : فأتاه النداء .. أجائع أنت فتطعم ، أو ظمآن أنت فتسقى ، أو مظلوم أنت فتنصر ؟ ولم يجبه فى ذكر خطيئته بشىء ، فنادى .. ياربّ « **الذنب** » الذى أصبته .

– فنودى : **يا داود .. ارفع رأسك ، فقد غفرت لك** ، فلم يرفع رأسه حتى أتاه جبريل فرفعه .

* قال وهب بن منبه : إن داود – عليه السلام – أتاه نداء : « **إنى قد غفرت لك** » ..

فقال : يارب .. كيف وأنت لا تظلم أحداً ، فقال : إذهب إلى قبر أورياء فنادِه ، وأنا أُسْمِعْه نداءك ، فتحلّل منه .

فانطلق داود ، حتى أتى قبره ، ثم ناداه : **يا أورياء** .. فقال : **لبيّك** .. من هذا الذى قطع عليّ لذتى وأيقظنى ؟ قال : أنا داود ، قال : ما جاء بك يا نبى الله ؟ قال : جئت أتحلل مما كان منى إليك ، قال : وما كان منك إليّ ؟ قال : عرّضتك للقتل ، قال : عرضتنى للجنة ، وأنت فى حل .

• **فأوحى الله إلى داود : ألم تعلم أنى حَكَم عدل ، لا أقضى إلا بالحق ؟ ألا أعلمته أنك تزوجت امرأته ؟**

قال : فانطلق داود إليه فناداه : **يا اورياء** .. فأجابه ، فقال : من هذا الذى قطع على لذّتى ؟

فقال : أنا داود ، قال : يا نبى الله ما حاجتك ؟ أليس قد عفوت عنك ؟ ، قال : نعم .. لكن أنا ما فعلت بك ذلك إلا لمكان امرأتك ، وإنى قد تزوجتها ...

فسكت **أورياء** ولم يجب ، فدعاه .. ولم يجبه ، فقام عند قبره ، وحثا التراب على رأسه ، ثم نادى : الويل .. ثم الويل لداود .

• سبحان خالق النور .. الويل لداود ، ثم الويل الطويل له ، إذا نُصبت الموازين القسط ليوم القيامة .

• سبحان خالق النور .. الويل لداود ، ثم الويل الدائم له ، يؤخذ برقبته ، ثم يدفع إلى المظلوم .

• سبحان خالق النور .. الويل لداود ، ثم الويل الطويل له حين تقربه الزبانية مع الظالمين إلى النار .

فأتاه النداء من السماء : يا داود . قد غفرت لك ذنبك ، ورحمتُك ، ورثيت لطول مكانك ، واستجبت دعاءك ، وأقلت عثرتك ..

قال داود : يارب .. كيف لى أن تعفو عنى وصاحبى لم يعف عنى ؟

قال : يا داود : وإن يَعْفُ ، أو لم يعف ، فأنا أعطيه يوم القيامة ما لم ترعَيْناه ، ولم تسمع أذناه ، فأقول له : قد رضيت عبدى ؟ فيقول : يارب من أين هذا ولم يبلغه عمل ؟ فأقول : هذا عوض من أجل عبدى داود فاستوهبك منه ، فيبك لى . فقال داود : يارب الآن قد عرفت أنك قد غفرت لى ، فذلك قوله عز وجل ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ أى فسامحناه ، وعفونا عنه ، وغفرنا له ما كان منه مما يقال فيه : « حسناتُ الأبرار سيئات المقربين » [1] .

• وقد روى البغوى أيضا ، عن طريق الثعلبى رواية مماثلة .

والذى لاشك فيه ، أن **هذه الرواية وأمثالها منكرة ، ومختلقة** على رسول الله - ﷺ .

وقد فطن إلى ذلك العلامة ابن كثير السلفى ، فقال فى تفسيره :

« وقد ذكر المفسرون ههنا قصة ، أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده ، لأنه من رواية **يزيد الرقاشى** ، عن أنس - رضى الله عنه - **ويزيد** - وإن كان من الصالحين ، لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة .

ومن ثم يتبين لنا كذب رفع هذه الرواية المنكرة إلى رسول الله - ﷺ ، ولا نكاد نصدق ورود هذا عن نبى الله داود ، الذى مدحه الله بخصال جمة ، واختصه بهبات لم يخص بها غيره ، وإنما هى اختلاقات وأكاذيب من إسرائيليات أهل الكتاب .

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ٣١١ ، قصص الأنبياء لابن كثير ٤٨٩

• وهل يشك مؤمن عاقل ، يقر بعصمة الأنبياء فى استحالة صدور هذه الواقعة عن داود – عليه السلام – ثم يكون على لسان من ؟ .. على لسان من كان حريصا على تنزيه إخوانه الأنبياء ، عما لا يليق بعصمتهم ، وهو نبينا محمد – ﷺ [١] .

ولو أن القصة كانت صحيحة ، لذهبت بعصمة داود ، ولنفرت منه الناس ، ولكان لهم العذر فى عدم الإيمان به ، فلا يحصل المقصد الذى أراده رب العزة من بعث الرسل ، وكيف يكون على هذه الحال ، من قال الحق تبارك وتعالى فى شأنه :

﴿ وإنَّ لَهُ عِنْدَناَ لَزُلْفَى وحُسْنَ مَآب ﴾ [سورة ص : ٢٥]

• قال ابن كثير فى تفسيرها : وإن له يوم القيامة لقُرْبة ، يقربه الله – عز وجل – بها ، وحُسن مرجع ، وهو الدرجات العالية فى الجنة ، لنبوته ، وعدله التام فى ملكه ، **كما جاء فى الصحيح** : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين ، الناس يقسطون فى أيديهم وماولوا » .

وقال رسول الله – ﷺ – : « إن أحب الناس إلىّ يوم القيامة ، وأقربهم منى مجلسا : إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلىّ يوم القيامة ، وأشدهم عذابا إمام جائر » [٢]

ولكى يستقيم هذا الباطل للوضاعيين ، قالوا : **إن القصة خرجت مخرج الرمز والإشارة ، واستخدم فيها أسلوب المجاز ، وأنه كُنى عن المرأة بالنعجة .**

---

(١) الشيخ محمد أبو شهبة : الإسرائيليات والموضوعات ص٣٦٩ طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) رواه أحمد والترمذى .

ورووا : أن المَلَكين لما سمعا حكم داود ، وقضاءه بظلم صاحب التسع والتسعين نعجة ، لصاحب النعجة ، قالا له : **وما جزاءُ من فعل ذلك ؟** قال : يقطع هذا ، وأشار إلى عُنُقه ، وفى رواية : يضرب من ههنا ، وههنا ، وههنا ، وأشار إلى جبهته وأنفه وما تحته ، فضحكا وقالا : أنت أحق بذلك منه ، ثم صعدا .

• وذكر البغوى فى تفسيره ، عن وهب بن منبه :

أن داود لمّا تاب الله عليه ، وغفر له ، بكى على خطيئته ثلاثين سنة ، لا يرقأ دمعه ليلا ولا نهاراً ، وكان أصاب الخطيئة وهو ابن سبع وسبعين سنة ، فقسم الدهر بعد الخطيئة على أربعة أيام : يوم للقضاء بين بنى إسرائيل ، ويوم لنسائه ، ويوم يسيح فى الفيافى والجبال والسواحل ، ويوم يخلو فى دار له فيها أربعة آلاف محراب ، فيجتمع إليه الرهبان ، فينوح معهم على نفسه ، فيساعدونه على ذلك ، فإذا كان يوم نياحته ، يخرج فى الفيافى ، فيرفع صوته بالمزامير فيبكى ، ويبكى معه الشجر ، والرمال ، والطير ، والوحش ، حتى يسيل من دموعهم مثل الأنهار ، ثم يجيىء إلى الجبال ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى ، وتبكى معه الجبال ، والحجارة ، والدواب ، حتى تسيل من بكائهم الأودية ، ثم يجيىء إلى الساحل ، فيرفع صوته بالمزامير ، فيبكى وتبكى معه الحيتان ، ودواب البحر ، وطير الماء ، والسباع [1]

والحق أن الآيات ليس فيها شيء مما ذكروا ، وليس هذا فى شيء من كتب الحديث المعتمدة ، وهى التى عليها المعول ، **وليس هناك ما يصرف لفظ النعجة من حقيقته إلى مجازه ، ولا ما يصرف القصة عن ظاهرها إلى الرمز والاشارة .**

---

(١) تفسير البغوى على هامش ابن كثير ١٩٥/٧

• ويعجبنى فى هذا المجال ، ما قاله الإمام القاضى عياض :

« لا تلتفت إلى ما سطره الاخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدلوا وغيروا ، ونقله بعض المفسرين ، ولم ينص الله تعالى على شىء من ذلك فى كتابه ، ولا ورد فى حديث صحيح ، والذى نص عليه فى قصة داود ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّما فَتَنّاه ﴾ وليس فى قصة داود وأورياء خبر ثابت » [1] .

والمحققون ذهبوا إلى ما ذهب إليه القاضى عياض ، **قال الداودى** : ليس فى قصة داود وأورياء خبر يثبت ، ولا يظن بنبى محبة قتل مسلم ، وقد روى عن على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – أنه قال : « من حدّث بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة ، وذلك حدّ الفرية على الأنبياء » وهو كلام مقبول من حيث المعنى إلا أنه لم يصح عن الإمام علىّ ذلك – كما قال العراقى .

• وقال القائلون بتنزيه المرسلين : فى هذه القصة أن لا ذنب ، إنما كان تمنى أن تكون له امرأة أورياء حلالا ، وحدث نفسه بذلك ، فاتفق له غزوه ، فأرسل أورياء ، فقدمه أمام الحرب فاستشهد ، فلما بلغه قتله لم يجزع عليه ، ولم يتوجع عليه كما كان يجزع على غيره من جنده إذا هلك ، ووافق قتله مراده ، ثم تزوج امرأته ، **فعاتبه الله على ذلك** ، لأن ذنوب الأنبياء ، وإن صغرت فهى عظيمة عند الله .

• وقال بعضهم : كان ذنب داود ، أن أورياء كان قد خطب تلك المرأة ، ووطن نفسه عليها ، فلما غاب فى غزاته خطبها داود ، **فآثره أهلها عليه** ، وقد كانت الخطبة على الخطبة حرام فى شريعتهم ، كما هى حرام فى شريعتنا ،

---

(١) الشفا فى التعريف بحقوق المصطفى ج٢ ص١٨٥

فتزوجت من داود – برغبتها – لجلالته . فاغتم لذلك أورياء غماً شديداً ، فعاتب الله داود على ذلك ، حيث لم يترك هذه الواحدة لخاطبها الأول ، وقد كان عنده تسع وتسعون امرأة . ولذلك قال النبى – ﷺ :

« لا يبيع أحدكُم على بيع أخيه ، ولا يخطب على خطبة أخيه »

• **وقيل** : إنه طلب من زوجها أورياء أن يتنازل له عنها ، وقد كان هذا فى شريعتهم ، ومستساغا عندهم .

وقال القاضى عياض : « إنما أوخذ داود – فى هذه القضية ، **لأنه حكم بمجرد سماعه لكلام أحد الخصمين ، وكان عليه أن يسمع كلام الخصم الآخر** .[1] وقد قيل : إذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له لجواز أن يكون خصمه فقد فقئت عيناه .

فالقضية – كما عرضها أحد الخصمين تحمل ظلما صارخا مثيرا ، لا يحتمل التأويل ، ومن ثَمَّ اندفع داود يقضى على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثا . ولم يطلب إليه بيانا ، ولم يسمع له حُجة ، ولكنه مضى يحكم بقوله ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعاَجِهِ ﴾ إلى آخر الآيات . فعاتبه الله على ذلك ، ونبَّهه إلى ضرورة تثبت القاضى من حكمه ، وسماعه للخصم الآخر .

• **وفى ذلك يقول الأستاذ محمد أبو زهرة** : [2]

يبين الله سبحانه وتعالى ، بطريق القصص القرآنى – لأنه من تصريف البيان – أن مقياس الحكم العادل إدراك الحق ، وألا يجعل القاضى ، أو الحاكم للهوى سلطانا فى الحكم ، فإن كان الهوى ، كان الشطط فى الحكم ، ومظنة

---

(١) الشفا ١٥٨/٢

(٢) المعجزة الكبرى ص٢١١

الوقوع فى الظلم ، وإن كان الحاكم لابد أن يكون مدركا للحق ، فلابد من عنصر العلم ، وإبعاد الهوى .

واقرأ قصة داود – عليه السلام – الذى أعطاه الله الملك والحكمة ..

﴿ وهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ .. ﴾ الآيات . هنا نجد القصة عن نبى الله داود – عليه السلام . تتضمن ثلاثة أمور ، فى التنبيه على كل واحدة منها ، تنبيه إلى أمثل الطرق للوصول إلى العدل فى الأحكام .

أولها : أنه سبق إلى الحكم من غير أن يستمع إلى كلام الخصم ، فقضى لأحد الخصمين ، قبل أن يستمع إلى كلام الآخر ، فإن ذلك مدرجة فى الظلم ، بل قد يكون ظلما .

ثانيا : أنه لم يكتف بالحكم فى القضية المعروضة ، بل **عمم الحكم** ، والقضاء يكون فى القضية المدروسة ، ولا يتجاوزها .

الأمر الثالث : وهو يفصل التفرقة بين الحكم الظالم ، والحكم العادل – أن الحكم العادل لا يكون بالهوى والشهوة ، وأما الحكم الظالم فإنه يكون تحت سلطان الهوى والشهوة ، وأن الملوك والحكام المستبدين يكون مصدر شرهم أهواؤهم . فهم يتبعون أهواءهم فيما يحكمون به ، وما ينزلونه بالناس ، فهم يسنون النظم تبعا لأهوائهم ، ويطبقونها تبعا لأهوائهم ويجعلون شيعتهم تسارع إلى تنفيذ أهوائهم ، ولا يفهمون المصلحة إلا تابعة لأهوائهم ، فإذا نهى الله تعالى نبيه داوود عن اتباع الهوى ، وهو خليفة حاكم ، فإنما نهاه عما يؤدى إلى فساد الحكم .

وبهذا يتبين أن حكم الهوى كان مصدر فساد الحكم فى الماضى ، كما هو مصدر الفساد فى كل الأزمان ، وذكر ذلك فى قصة من قصص القرآن ، يزيد المبدأ تبيينا وتأكيداً . وقد بيّنا أن ذكر أى أمر فى قصته يجعله يسرى فى النفوس ، ويدخل إلى الضمائر إن كان فيها استعداد للحق .

ولاشك أن هذا كله يدل على أن القرآن يصرف فيه – سبحانه – البيان تصريفا ، ليكون أقرب إلى التأثير ، والدفع إلى العمل ، وليس ذكر القصص للعبرة فقط ، بل هو مرشد وهاد مع ذلك إلى أقوم السبيل .

إن قول داود – متسرعا – قبل أن يسمع جواب الخصم الثانى .. ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِه .. ﴾ لعل هذا هو الذنب الذى ألم به داود .

وظن داود أنما فتناه بهذه الحادثة ، فاستغفر ربه مما ألم به ، وخر راكعا ، وصلى لله قائما وساجداً وأناب ، فغفر له ربه ذنبه ، **فهذا رأى يستند إلى سرعة الحكم** .

• **على أن لأبى حيان رأيا آخر ، قال :**

« والذى يدل عليه ظاهر الآية : من أن المتسورين المحراب كانوا من الإنس ، ودخلوا عليه من غير المدخل ، وفى غير وقت جلوسه للحكم ، **وأنه فزع منهم ظنا منه أنهم يغتالونه** ، إذ كان منفرداً فى محرابه ، لعبادة ربه ، فلما اتضح له أنهم جاءوا فى حكومة ، وبرز منهم إثنان للتحاكم – كما قص الله تعالى – فاستغفر من ذلك الظن ، وخرّ ساجداً لله عز وجل [(١)]

أما ما قاله البعض اعتماداً على بعض الروايات الإسرائيلية – مما ذكرناه وحذرنا منه – فإنه لا يصح بالنسبة إلى عوام المسلمين ، وجهلة الفساق ، فما بالك بالأنبياء ، بل بخواص الأنبياء ؟

إننا نعلم قطعا – أن الأنبياء معصومون من الخطايا ، إذ لو جوّزنا عليهم شيئا من ذلك لبطلت الشرائع ، ولم نثق بشيء مما يذكرون ، فما حكى الله فى

---

(١) البحر المحيط ٣٩٣/٣ بشيء من الاختصار .

كتابه يُمَرّ على ما أراده الله ، وما حكى القصاص مما فيه غضٌّ من منصب النبوة طرحناه [(١)]

* **والدليل على أن داود كان معصوما من الخطايا** ، قول الحق سبحانه — بعد ذلك :

﴿ يا دَاوُودُ إناَّ جَعَلْنَاكَ خَليفَةً في الأَرْضِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] — أى استخلفناك على الناس لتدبير شئونهم ومصالحهم ﴿ فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحَقّ ﴾ أى فاحكم بينهم بالعدل ، وبشريعة الله التى أنزلها عليك .

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ الله ﴾ أى لا تتبع هوى النفس فى الحكومات وغيرها ، فيضلك إتباع الهوى عن دين الله القويم ، وشرعه المستقيم .

ومضمون الآية : يا داود إنا جعلناك خليفة الله فى أرضه ، خليفة لله على عباده ، تقيم حكمه ، وتدعو إلى شرعه ، وتثبت دعائم عدله ، وتقضى بين الناس ، فاحكم يا داود بينهم بالحق ، ولا يحملنك شنآن قوم على عدم العدل ، فأنت خليفة أحكم الحاكمين ، وأعدل العادلين .

• ياداود لا تتبع الهوى ، فإن من اتبع هواه ضل ، ومن انحرف عن الصراط وقع فى الهاوية ، لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، وهو الصراط المستقيم .

﴿ إنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيد ﴾ [سورة ص : ٢٦] أى إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه ، لهم عذاب شديد يوم القيامة ﴿ بِماَ نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب ﴾ أى بسبب نسيانهم وتركهم سلوك سبيل الله ، وعدم إيمانهم بيوم الحساب .

---

(١) انظر ما كتبه الأستاذ محمد على الصابونى فى كتابه النبوة والأنبياء . طبع مكة المكرمة .

قال عكرمة : هذا من المقدم والمؤخر ، لهم عذاب شديد يوم الحساب بما نسوا .

• **وهذا تعليل لما قبله** : إن الذين يضلون عن سبيله لهم عذاب شديد وقعه ، بسبب أنهم نسوا يوم القيامة ، ولم يعلموا لذلك اليوم ، أولئك الذين نسوا الله فأنساهم العمل لخيرهم ، فكان جزاؤهم النار وبئس القرار .

• **قال ابن كثير** : هذه وصية من الله عز وجل ، لولاة الأمور ، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزّل من عنده – تبارك وتعالى – ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد تبارك وتعالى من ضَلَّ عن سبيله ، وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد ، والعذاب الشديد .

• **قال ابن أبى حاتم – بإسناد – حدثنى إبراهيم أبو زرعة** ، وكان قد قرأ الكتاب : أن الوليد بن عبد الملك قال له : **أيحاسب الخليفة ؟** فإنك قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن ، وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قُلْ فى أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ؟ إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده فى كتابه ، فقال تعالى :

﴿ يَاَ دَاوُدُ إِناَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ ، فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾ الآية . [١]

• **قال أبو حيان** : وجعلُه تعالى داود خليفة فى الأرض يدل على مكانته – عليه السلام – واصطفائه له ، ويدفع فى صدر من نسب إليه شيئا مما لا يليق بمنصب النبوة . [٢]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣١/٤

(٢) البحر المحيط ٣٩٤/٧

بقى أن نوضح ما يتصل بالسجدة ، التى سجدها داود – عليه السلام .

• **هل هى من عزائم السجود ، أم هى للشكر .. وما رأى الأئمة فيها ؟**

* **وقف الأئمة من سجدة داود – عليه السلام – عند رأيين :**

– الجديد من **مذهب الشافعى** – أنها ليست من عزائم السجود ، بل هى سجدة شكر .

والدليل على ذلك ، ما رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا إسماعيل – بإسناد – عن ابن عباس : أنه قال فى السجدة (صٓ) ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله – ﷺ – يسجد فيها [1] .

وقال النسائى – عند تفسير هذه الآية : أخبرنى إبراهيم بن الحسن – بإسناد – عن ابن عباس ، قال : إن النبى – ﷺ – سجد فى (صٓ) وقال : سجدها داود – عليه السلام – توبة ، ونسجدها شكراً .

• **وروى عن ابن عباس** – بإسناد – قال : جاء رجل إلى النبى – ﷺ – فقال : يا رسول الله .. إنى رأيت فيما يرى النائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودى ، فسمعتها تقول وهى ساجدة : « **اللهم اكتب لى بها عندك أجراً ، واجعلها لى عندك ذخراً ، وضع بها عنى وزراً ، واقبلها منى كما قبلتها من عبدك داود** » . قال ابن عباس : فرأيت النبى – ﷺ – قام فقرأ السجدة ، ثم سجد ، فسمعته يقول وهو ساجد – كما حكى الرجل من كلام الشجرة [2] .

---

(١) رواه البخارى وأبو داود .

(٢) رواه الترمذى عن قتيبة – وابن ماجه .

– **وقال البخارى** عند تفسير الآية – برواية عن العوام ، قال : سألت مجاهد عن **سجدة (صٓ)** فقال : سألت ابن عباس من أين سجدت ، فقال : أو ما تقرأ ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِه دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ ﴾ [الأنعام : ٨٤] ... ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِه ﴾ [الأنعام : ٩٠] . فكان داود – عليه الصلاة والسلام – من أمر نبيكم – ﷺ ، أن يقتدى به ، فسجدها داود ، فسجدها رسول الله – ﷺ

– **وروى أبو داود** – عن أبى سعيد الخدرى ، قال : قرأ رسول الله – ﷺ – وهو على المنبر (صٓ) فلما بلغ السجدة ، نزل فسجد وسجد الناس معه ، فلما كان فى يوم آخر قرأها ، فلما بلغ السجدة تشرف الناس للسجود ، فقال – ﷺ – « إنما هى توبة نبى ، ولكنى رأيتكم تشرفتم ، فنزل وسجد » [1]

إن لداود – عليه السلام – عند ربه لقُربة يقرّبه بها الله عز وجل ، وحُسن مرجع ، وهو الدرجات العالية فى الجنة لنبوته ، وعدله التام فى ملكه .

قال مالك بن دينار – عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

يقام داود يوم القيامة ، عند ساق العرش ، ثم يقول الله : يا داود .. مجّدنى اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم ، الذى كنت تمجّدنى فى الدنيا ، فيقول : وكيف وقد سلبته ؟

فيقول الله : إنى أرده عليك اليوم ، قال : فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان .

* * *

---

(١) رواه أبو داود .

الفصل الثانى عشر

المسيح عيسى ابن مريم .. رسول الله وكلمته .. وقصة المائدة

الباحث المتأمل فى ما جاء فى القرآن العظيم متصلا برسول الله « **المسيح عيسى ابن مريم** » ، يجد أن قصته تعانقت فيها المعجزة الإلهية مع الإنسانية ، منذ البدء والتكوين ، حتى الرفع إلى أعلى علّيين ، وتعانق فيها الاضطهاد فى سبيل الإيمان – حتى الزعم بالصلب والقتل ، مع التأليه والارتفاع به من مرتبة النبوة إلى منزلة الألوهية .

حرص القرآن الكريم على أن يقدم للبشرية جمعاء ، قضية المسيح كاملة ، بكل عناصرها وتفاصيلها ، لأنها كانت وسيلة أهل الكتاب للجدل والمناقشة فى دين الإسلام .

ولما كان أهل الكتاب قد حرّفوا كتبهم ، فانحرفت عقائدهم ومفاهيمهم ، فقد أخذوا يستدلون بهذا التحريف للطعن فى دين الإسلام ، ونبى الإسلام ، وكتاب الإسلام .

من هنا تصدى لهم القرآن ، وأخذ يفنّد مزاعمهم ، ويضع أمام الناس جميعا ، المؤمنين والكافرين على السواء ، **قضية رسول الله وكلمته ، قول الحق ، المسيح عيسى ابن مريم البتول** ، ويفصل حقيقتها ، ويلقى المزيد من الضوء على سيرته ، بوصفه أحد الرسل المجاهدين المناضلين فى سبيل الدعوة ، المبعوث من قِبَل الحق لهداية بنى إسرائيل ، وليزيل عنه وعن سيرته الخرافات والتزايدات ، التى قام بها النصارى .

إن قصة البدء تطلعنا على مجموعة من الحقائق عن رسول الله عيسى ابن مريم ..

• أنه هبة من روح الله .. ولد بغير أب :

– يقول الحق – تبارك وتعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يا مَرْيَم : إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابن مَرْيَمُ ، وَجِيهاً فى الدُّنْيَاَ والآخِرَةِ ومِنَ المُقَرَّبِين . ويُكَلِّمُ النَّاسَ فى المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِين . قالَتْ : رَبِّ أَنَّى يكُونُ لي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ؟ قال كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ ماَ يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّماَ يقُولُ لَهُ كُنْ فيكُونُ ﴾ [آل عمران : ٤٥ – ٤٧]

– ويقول عز وجل : ﴿ وَآذْكُرْ فى الكِتَابِ مَرْيَمُ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهاَ مَكَاناً شَرْقِيًّا . فاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فأَرْسَلْناَ إِلَيْهاَ رُوحَناَ فَتمثَّل لَها بَشَراً سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِياً . قال : إِنَّماَ أَناَ رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زكِيًّا . قالت : أَنَّى يكُونُ لي غُلاَمٌ ولَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ولَمْ أَكُ بَغِياً . قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ،وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلناَّسِ وَرَحْمةً مِنَّا ، وكان أمراً مَقْضِيًّا ﴾ [مريم : ١٦ – ٢١]

﴿ فأَرْسَلْناَ إِلَيْهاَ رُوحَناَ ﴾ أى أرسلنا إليها جبريل – عليه السلام – ﴿ فَتَمَثَّل لَهاَ بَشَراً سَوِيًّا ﴾ أى تصور لها فى صورة البشر ، التام الخلقة .

قال ابن عباس : جاءها فى صورة شاب أبيض الوجه ، جَعْد الشعر ، مستوى الخلقة .

قال المفسرون : إنما تمثل لها فى صورة الإنسان لتأنس لكلامه ، ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها فى الصورة الملائكية لنفرت ، ولم تقدر على السماع لكلامه ،

ودلّ على عفافها وورعها أنها تعوّذت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة فى الحسن [١] .

وقالوا أيضا : إن جبريل نفخ فى جيب درعها فدخلت النفخة فى جوفها فحملت به ، وتنحّت إلى مكان بعيد ، وكان هذا الأمر **حكم الله** بمجيىء عيسى ، وإن لم يكن لها زوج ، فإن ذلك على الله سهل يسير ، وليكون مجيؤه آية للناس ، ودلالة على قدرة الله العجيبة ، ورحمة لهم ببعثه نبياً يهتدون بإرشاده .

• وأنه كان يكلّم الناس فى المهد إثباتا للمعجزة الإلهية :

قال تعالى : ﴿ ويُكَلِّم النَّاسَ في المَهْدِ وكَهْلاً ومِنَ الصَّالِحِين ﴾ [آل عمران : ٤٦]

كلّم أمه أثناء المخاض والوضع :

قال عز وجل : ﴿ فَحملَتْهُ فانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيًّا . فأَجَاءَهَا المَخَاضُ إلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ : يَا لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا وكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهاَ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا . وهُزِّى إلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا . فكُلِى واشْرَبِى وَقَرِّى عَيْناً ﴾ [مريم : ٢٢ - ٢٦]

﴿ فأَجَاءهاَ المَخَاضُ إلى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ أى فألجأها ألم الطّلق ، وشدة الولادة إلى ساق نخلة يابسة لتعتمد عليها عند الولادة . ﴿ قالَتْ : ياَ لَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَذَا ﴾ أى قالت : يا ليتنى كنت مت قبل هذا اليوم ، وكنت شيئا تافها لا يعرف ولا يُذكر .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ج٦ ص١٨٠

قال ابن كثير : عرفت أنها ستبلى وتمتحن بهذا المولود ، فتمنت الموت ، لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها فى خبرها ، وبعد ما كانت عندهم عابدة ناسكة ، تصبح عاهرة زانية ، ولذلك قالت ما قالت . ﴿ فناداها من تحتها ﴾ **قال مجاهد** : عيسى ابن مريم . وقال **الحسن** : هو ابنها [1] . قال : أَوَ لم تسمع الله يقول : ﴿ فأَشَارَتْ إِلَيْه ﴾ .

• وكلّم أهله وقومه ليدفع عن أمه الفِرْية ، ويظهر المقدرة الربانية :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهاَ تَحْمِلُهُ ، قَالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا ، يا أُخْتَ هَارُونَ ماَ كَانَ أَبُوكِ آمْرَأَ سَوْءٍ وَماَ كاَنَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا . فأَشَارَتْ إِلَيْهِ – قَالُوا : كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كاَنَ في المَهْدِ صَبِيًّا ، قَاَلَ : إِنِّى عَبْدُ اللهِ ، آتَانِىَ الكِتاَبَ ، وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ، وجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ ما كُنتُ ، وأَوْصَانِى بالصَّلاَةِ والزَّكَاةِ ماَ دُمْتُ حَيًّا ، وَبَرًّا بِوَالِدَتي ولَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّاراً شَقِياً ، والسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ، ويَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٢٧ - ٣٣]

أى أتت به قومها بعد أن طهرت من النفاس ، تحمل ولدها عيسى على يديها ، فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها واستنكروه ، وقالوا لها : لقد جئت شيئا عظيما منكرا ، ﴿ فأَشَارَتْ إِلَيْه ﴾ أى لم تجبهم ، وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ، فقالوا متعجبين : كيف نكلم طفلا رضيعا ، لا يزال يغتذى بلبان أمه .

قال الرازى : روى أنه كان يرضع ، فلما سمع ذلك ترك الرضاع ، وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغا يتكلم فيه الصبيان[2].

---

(١) هذا ما اختاره ابن جرير فى تفسيره .

(٢) التفسير الكبير ٢٠٨/٢١

• **فعيسى ليس ابنا لله ، كما يزعم الزاعمون ، ولكنه – باعترافه – عبد الله .**

ذكر القرآن على لسانه ﴿ قَالَ : إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ أى قال عيسى – فى كلامه حين كلمهم – أنا عبد الله ، خلقنى بقدرته من دون أب ، فقدم ذكر العبودية ، ليبطل قول من ادعى فيه الربوبية .

وقال : ﴿ وَإِنَّ اللهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوه ﴾ [مريم : ٣٦]

قيل : عهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ، ومولده ، وموته ، وبعثه ، إن الله ربى وربكم فاعبدوه .

• **وأن الله آتاه الكتاب ، وكلفه الرسالة ، وجعله نبيا ..**

قال تعالى : ﴿ آتَانِيَ الكِتَابَ ، وجَعَلَني نبياً ﴾

أى قضى ربى أن يؤتينى الإنجيل ، ويجعلنى نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضى لإفادة تحققه ، فإن ما حكم به الله أزلا لابد إلّا أن يقع .

ولقد اختص الحق – سبحانه وتعالى – غيسى ابن مريم – عليه السلام – بمجموعة من الخصائص ، وأيده بالمعجزات الحسية ، التى يفهمها ويقدّرها هؤلاء القوم فى عصره . منها :

١ – تأييد الله إياه بروح القُدُس :

قال عز من قائل : ﴿ وَآتَيْناَ عِيسَى ابنَ مَرْيَمَ البَيِّنَاتِ وَأَيَّدنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾ [البقرة : ٨٧]

وقال جل جلاله : ﴿ إِذْ قَالَ اللهُ ياَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ ﴾ [المائدة : ١١٠]

أى واذكر يا عيسى ابن مريم نعمتى عليك حيث اصطفيتك بالرسالة ، وشرفتك بالنبوة ، وكنت من غير أب ، فكنت آية على قدرة الله ، واذكر نعمتى على والدتك النقية الطاهرة ، مريم البتول ، التى برأتها مما نُسب إليها ، وشرفتها بنسبة عيسى لها .

واذكر يا عيسى نعم الله عليك ، إذ أيدك بروح القدس ، وعلمك وثبتك ولقّنك الحجة بأمر الله وإذنه ، وأيدك بروح طاهرة قوية .

• **قال الربيع بن أنس** : هو الروح الذى نفخ فيه الروح . أضافه سبحانه إلى نفسه تكريما وتخصيصا ، والقدس ، هو الله تعالى ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ ورُوحٌ مِنْه ﴾ [النساء : ١٧١]

وقوله عز وجل : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهاَ فَنَفَخْناَ فِيهاَ مِنْ رُوِحِنَا ﴾ [الأنبياء : ٩١]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الّتي أَحْصَنَتْ فَرْجَهاَ فَنَفَخْناَ فِيهِ مِنْ رُوحِناَ ﴾ [التحريم : ١٢]

• **وقال آخرون** : أراد بالقدس الطهارة ، أى الروح الطاهرة ، وسمى عيسى – عليه السلام – روحا ، لأنه لم تتضمنه أصلاب الفحول ، ولم تشتمل عليه أرحام الطوامث ، إنما كان أمراً من الله تعالى .

• **وقال السدى وكعب** : روح القدس : جبريل ، وتأييد عيسى بجبريل – عليهما السلام – هو أنه كان قرينه ورفيقه ، يعينه ويسير معه حيثما سار إلى أن صعد به إلى السماء .

• **وقال سعيد بن جبريل** : القدس : اسم الله الأعظم ، وبه كان يُحيى الموتى ، ويرى الناس تلك العجائب .

والمعنى : وآتينا عيسى ابن مريم البتول المعجزات الواضحة ، دليلا على صدقه ، وقويناه بجبريل ، وخص عيسى بتأييد روح القدس لكرامته .

٢ - **تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة** ..كان يقرأهما من حفظه .

كما قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنْجِيل ﴾ [المائدة : ١١٠]

وقال تعالى : ﴿ ويُعَلِّمُهُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنْجِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨]

قيل : الكتاب هو الخط ، قيل : الخط عشرة أجزاء ، فتسعة منها لعيسى ، والحكمة والتوراة والإنجيل .

والمعنى : واذكر نعمتى عليك إذ علمتك قراءة الكتاب ، وعلمتك الحكمة ، والعلم النافع فى الدنيا والآخرة ، وخاصة التوراة والإنجيل .

٣ - **خلقه الطير من الطين** .

كما قال تعالى مخبرا عنه : ﴿ أَنِّى أَخْلُقُ لكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئةِ الطَّيْرِ فأَنْفُخُ فِيهِ فيَكُونُ طَيراً بِإذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

وقال جل جلاله : ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْني ، فَتَنْفُخُ فِيهاَ فتكُونُ طَيْراً بِإِذْني ﴾ [المائدة : ١١٠]

فكان - عليه السلام - يصور من الطين كهيئة الطير ، ثم ينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله .

قال المفسرون : ولم يخلق غير **الخُفّاش** ، وإنما خصَّ بالخفاش لأنه أكمل الطير خلقا ، فيكون أبلغ فى القدرة ، لأن له ثديا وأسنانا ، ويلد ويحيض ويطير .

قال وهب : كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه ، فإذا غاب عنهم سقط ميتا ، ليتميّز فعل الخلق ، عن فعل الله تعالى ، وليعلم أن الكمال لله عز وجل .

٤ – إبراء الأكمه والأبرص :

كما قال الحق سبحانه – على لسانه – ﴿ وأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص ﴾
[آل عمران : ٤٩]

وقال عز وجل : ﴿ وَتُبْرِىءُ الأَكْمَهَ والأَبْرَصَ بإذْني ﴾ [المائدة : ١١٠]

والأبرص : الذى به وَضَح ، **والأكمه** : الذى ولد أعمى ، ولم ير ضوءًا قط ، ولم يكن فى الإسلام أكمه غير **قتادة** ، وإنما خص هذين لأنهما أعيا الأطباء ، وكان الغالب على زمان عيسى الطب ، فأراهم المعجزة من جنس ذلك .

ويروى أن عيسى – عليه السلام – مرّ بدير فيه عميان ، فقال : **ما هؤلاء ؟** فقيل : هؤلاء قوم طلبوا للقضاء فطمسوا أعينهم بأيديهم ، فقال : ما دعاكم إلى ذلك ؟ قالوا : خفنا عاقبة القضاء ، فصنعنا بأنفسنا ما ترى ، فقال : أنتم العلماء والحكماء ، والأحبار الأفاضل .. امسحوا أعينكم بأيديكم ، وقولوا : (**باسم الله**) ففعلوا ذلك ، فإذا هم جميعا قيام ينظرون [١]

٥ – إحياء الموتى بإذن الله .

- كما قال الحق على لسانه : ﴿ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : ٤٩]
- وقال عز شأنه : ﴿ وإذْ تُخرِجُ المَوْتَى بِإذْني ﴾ [المائدة : ١١٠]

أحيا عيسى – عليه السلام – أمواتا بإذن الله ، منهم **العَاذِر** ، وكان صديقا له ، فأرسلت أخته إلى عيسى ، أن أخاك العاذر يموت ، فأتى إليه ، وكان بينه وبينه مسيرة ثلاثة أيام ، فأتاه هو وأصحابه فوجدوه قَدْ مات منذ ثلاثة أيام ، فقالوا لأخته : انطلقى بنا إلى قبره ، فانطلقت معهم إلى قبره ، وهو فى صخرة مطبقة ، فقال عيسى – عليه السلام –:

---

(١) قصص الأنبياء للثعالبى ص٤٢٢

« اللهم رب السموات السبع ، والأرضين السبع ، إنك أرسلتنى إلى بنى إسرائيل ، أدعوهم إلى دينك ، وأخبرتهم أن أحيى الموتى بإذنك ، فأحْيِ العاذر ، فقام العاذر ، وخرج من قبره ، وبقى ووُلد له » .

قال الكلبى : كان عيسى – عليه السلام – يحيى الموتى بكلمة : « **يا حَىُّ يا قَيُّوم** »

٦ – الإخبار عن الغيوب :

كما قال الله عز وجل – إخباراً عنه : ﴿ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

قال الكلبى : لما أبرأ عيسى الأكمه والأبرص وأحيا الموتى ، قالوا : هذا ساحر ، ولكن أَخْبِرنا بما نأكل ، وبما ندخر ، فكان يخبر الرجل بما يأكل فى غدائه ، وبما يأكل فى عشائه .

* **ومع كل هذه المعجزات والمؤيدات الإلهية ، فعيسى ابن مريم من البشر ، كآدم ، خلقه الله من تراب ، ثم قال له كن** . قال الحق – عز شأنه :

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ ، خَلَقَهُ من تُرَابٍ ثم قَالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩]

• **ثم كلفه الله بالرسالة ، لكى يكون رسوله لبنى إسرائيل** ، يهديهم ويخرجهم من ظلمات جهلهم وعنتهم كما قال جل وعلا : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الكتَابَ والحِكْمَةَ والتَّوْرَاةَ والإنجِيلَ . وَرَسُولاً إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ [آل عمران : ٤٨ ، ٤٩]

وقال عز شأنه على لسانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف : ٦]

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ ﴾ [النساء : ١٧١]

* **والرسالة ميثاق من الله** : يأخذه على رسوله بتبليغ رسالته ، والدفاع عنها ، ليسألهم عن ذلك يوم القيامة . وقد أخذ الله على عيسى عهداً ، كما أخذه على الأنبياء من قبله .

يقول تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ ، وَمِنْ نُوحٍ ، وَإِبْرَاهِيمَ ، وَمُوسَى ، وَعِيسَى ابنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِيثَاقاً غَلِيظاً . لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِم ، وَأَعَدَّ لِلكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الأحزاب : ٧ ، ٨]

ولقد أوتى عيسى **الرسالة** ، وأمر بالتبليغ ، وكانت الرسالة هى **الآية الثانية** لعيسى – عليه السلام . وقد قام بتبليغ ما كُلّف به ، فكانت المشاكل التى صادفها كل الأنبياء السابقين مع أقوامهم ، حين دعوهم إلى الإيمان . ولن يبلغ الإيمان ذروته – فى قلب نبى أورسول – ما لم يناضل ، ويجاهد فى سبيل رسالته ودعوته . وكان عيسى من هؤلاء الأنبياء المناضلين المجاهدين فى سبيل دعوة الله ، والإيمان به . وفى ذلك يقول القرآن :

• ﴿ وَلَماَّ جَاءَ عِيسَى بالبَيِّنَاتِ قَالَ : قَدْ جِئْتُكُم بالحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لكُمْ بَعْضَ الَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . إِنَّ اللهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوه ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ [الزخرف : ٦٣ – ٦٥]

ودعا عيسى – عليه السلام – الحواريين والأنصار ليكونوا معه عنصر تأييد وقوة ، لينتصرَ بهم فى دعوته : كما قال القرآن :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللهِ – كما قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ للْحِوَارِيِّين : مَنْ أَنْصَارِى إِلَى اللهِ قَالَ الحَوَارِيُّون : نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ . فَآمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ ، فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ ، فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِين ﴾ [الصف : ١٤]

ولكن دعوته مرّت بنفس التجربة ، التى مرت بها دعوة الرسل من قبله ، فقد أخذوا يجادلون فى آيات الله . ولم يكن ذلك الجدل من أجل المعرفة ،

وإدراك اليقين ، بل كان جدل المكابرة والعناد ، والكفر ، والرغبة فى إبطال الدعوة ..

كان الجدل للجدل فحسب ، ولحب الإطلاع على أسرار الألوهية ، وهى ليست من اختصاص الأنبياء ، ولا الرسل ، ولكنهم يهدفون إلى التعجيز .

ولم يقف الأمر عند الكافرين المعاندين ، بل وجدنا **الحواريين** يشاركون فيه ، ويلحّون فى جدل عقيم ، رغم ادعائهم الإيمان والإسلام ، ولم يكونوا فى حقيقة أمرهم مسلمين .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وبِرسُولِي قَالوا آمَنَّا واشْهَدْ بأَنَّنَا مُسْلِمُون ﴾ [المائدة : ١١١]

ومع هذا قالوا : ﴿ يَا عيسَى ابْن مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيُع رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ؟ ﴾ [المائدة : ١١٢]

وهذا سؤال لا يليق بهم قطعا ، ولذا خرّجه العلماء على وجوه ، أحسنها : أن يستطيع بمعنى (يطيع) كاستجاب بمعنى (أجاب) – أى : هل تستطيع أمر ربك ؟

وقيل : إنه سؤال عن الاستطاعة على حسب الحكمة الإلهية . **أى هل ينافى الحكمة إنزال المائدة أم لا ؟** فإن ما ينافى الحكمة لا يقع قطعا ، وإن كان ممكنا . ولهذا قالوا معتذرين عن إيراد السؤال بهذه الصورة ، وبعد أن قال لهم عيسى : ﴿ اتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾

قالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهاَ ﴾ فنحن فى حاجة إليها ، ونحن إذا أكلنا تطئمن قلوبنا ، وتهدأ نفوسنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، فى أن الله تعالى أرسلك نبيا ، واختارنا أعوانا لك ، وقد رَضِيَ عنا بإجابة سؤالنا ، ونكون عليها من الشاهدين بالوحدانية ، ولك بالرسالة والنبوة ، إذ هذه كالدليل على ذلك .

فتضرع عيسى ابن مريم إلى الله عز وجل ، لتلبية طلبهم قائلا : ربنا .. يا مالك أمرنا ، ومتولى شئوننا ، أنزل علينا مائدة من عندك لتكون لنا مؤشرا على رضاك عنا ، ومبعث فرح وسرور ، ويوم نزولها نتخذه عيداً نجتمع فيه للعبادة والشكر ، ويعود علينا فى كل عام باليمن والإقبال ، لأولنا وجوداً ، وآخرنا كذلك ، وتكون آية منك ، ودلالة وحجة ترشد القوم إلى دعوتى ، وصدق رسالتى ، وارزقنا بما به نقيم أودنا ، ونغذى أجسامنا ، فأنت خير الرازقين ، ترزق من تشاء بغير حساب .

● قال الله تعالى : ﴿ إِنِّى مُنَزِّلُهاَ عَلَيْكُم ﴾ وقد نزلت إذ وعده الحق ، وقوله الصدق .

فمن يكفر بعد نزول هذه الآية المقترحة ، فإنى أعذبه عذابا شديداً ، لا أعذب هذا العذاب لأحد من العالمين ، إذ اقتراح آية بعد الآيات الكثيرة ، التى نزلت – كهذه المائدة – آية يشترك فى إدراكها كل الحواس ، ثم بعد هذا يُكفر بها ، فإنه يستحق من الله عذابا دونه عذاب الكفار جميعا .

هذا الجدل يراد به التعجيز ، بل إنه ليحمل معنى الشك والسخرية ، وعمى البصيرة عن إدراك معنى **الألوهية** ، فقد أصبحت الألوهية فى نظرهم ، مجردة عن معناها الحقيقى ، وأصبحت آية وجود الله هى أن يُنَزّل مائدة من السماء إن استطاع ، وأصبح اطمئنانهم وعلمهم بصدق دعوة الإيمان ، وشهادتهم بذلك ، متوقفة على نزول هذه المائدة من السماء .

كان هذا إحراج لنبى الله عيسى – عليه السلام – كان يدعوهم إلى ما هو أسمى من ذلك وأعظم ، ومع ذلك استجاب عيسى لإلحاحهم عساه يبلغ من نفوسهم ما يريد ، فطلب من الله أن ينزل هذه المائدة ، حتى تكون عيداً وآية فى نفس الوقت .

وقد أحيطت قصة المائدة بأخبار كثيرة ، رويت عن وهب بن منبه ، وكعب ، وسلمان ، وابن عباس ، بل لقد رووا فى ذلك حديثا ، عن عمار بن ياسر ، عن النبى – ﷺ – أنه قال : « إنها نزلت خبزا ولحما ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدَّخروا لغد » – وفى رواية بزيادة : « ولا يخبّئوا ، فخانوا وادخروا ، ورفعوا لغد ، فمسخوا قردة وخنازير » .

ورفع مثل هذا الحديث – إلى النبى ﷺ ، غلط ووهم من أحد الرواة على ما أرجح .

• وروى العوفى ، عن ابن عباس : « أنها خوان عليه خبز وسمك ، يأكلون منه أينما نزلوا ، إذا شاءوا »

• وقال عكرمة ، عن ابن عباس : « كانت المائدة سمكة وأريغفة » .

• وقال سعيد بن جبير ، عن ابن عباس : « أنزل على المائدة كل شىء إلا الخبز واللحم » .

• وقال كعب الأحبار : « نزلت المائدة تطير بها الملائكة ، بين السماء والأرض ، عليها كل الطعام إلا اللحم » .

• وقال وهب بن منبه : « أنزلها من السماء على بنى إسرائيل ، فكان ينزل عليهم فى كل يوم ، فى تلك المائدة من ثمار الجنة ، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى ، فكان يقعد عليها أربعة آلاف ، وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم ، فلبثوا على ذلك ما شاء الله – عز وجل » .

• وقال وهب أيضا : نزل عليهم أقرصة من شعير ، وأحوات (جمع حوت وهو السمك) وحَشاَ الله بين أضعافهن البركة ، فكان قوم يأكلون ، ثم يخرجون ، ثم يجيىء آخرون فيأكلون ، ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا .

• وذهب الحسن ومجاهد ، إلى **أن المائدة لم تنزل** ، وذلك لأن الله - سبحانه - لمّا توعدهم على كفرهم - بعد نزولها - بالعذاب البالغ غاية الحد ، خافوا أن يكفر بعضهم ، فاستعفوا وقالوا : لا نريدها ، فلم تنزل [١] .

وهذا القول مخالف لظاهر النص القرآنى : ﴿ قَالَ اللهُ : إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيكُم ﴾ ولا أدرى ما الحامل لهما على هذا .

إن الأمر الواضح من هذه الأقوال ، وغيرها ، أن الرواة لم يتفقوا على شيء . وهذا يدل دلالة واضحة على أنها من **الإسرائيليات المبتدعة** ، ولا يمكن أن يكون مرجعها إلى النبى المصطفى المعصوم - ﷺ .

• وفى رواية ذكرها ابن أبى حاتم فى تفسيره ، بسنده ، عن وهب بن منبه ، عن أبى عثمان النهدى ، عن **سلمان الفارسى** - خلاصتها :

أن الحواريين لما سألوا عيسى ابن مريم - عليه السلام - المائدة ، كره ذلك ، خشية أن تنزل عليهم فلا يؤمنوا بها ، فيكون فيها هلاكهم ، فلما أبوا إلّا أن يدعو لهم الله كى تنزل ، دعا الله ، فاستجاب له ، فأنزل الله سفرة حمراء ، بين غمامتين ، غمامة فوقها ، وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها فى الهواء ، منقضّة من السماء ، تهوى إليهم ، وعيسى - عليه السلام - يبكى **خوفا من الشرط الذى اتخذ عليهم فيها** ، فمازال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه ، والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة ، لم يجدوا رائحة مثلها قط ، وخرَّ عيسى - عليه السلام - والحواريون سجداً ، شكرا لله ، وأقبل اليهود ينظرون إليهم ، فرأوا ما يغمهم ،

---

(١) انظر تفسير ابن جرير عند هذه الآيات ، وتفسير السيوطى الدر المنثور ، وتفسير الزمخشرى ، والفخر الرازى ، وأبى السعود عند تفسير الآيات ، وانظر تفسير ابن كثير ١١٦/٢ ، والبغوى ٢٧٤/٣ - والألوسى ٦٢/٧-٦٥ ، والقرطبى ج٦ ص٣٦٩-٣٧٢

ثم انصرفوا ، فأقبل عيسى ومن معه ينظرونها ، فإذا هى مغطاة بمنديل ، فقال عيسى – عليه السلام : من أجرؤنا على كشفه ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاء عند ربه ، حتى نراها ، ونحمد ربنا – سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذى رزقنا ؟.

فقالوا : يا روح الله وكلمته ، أنت أولى بذلك ، فقام واستأنف وضوءاً جديداً ، ثم دخل مصلاه ، فصلى ركعات ، ثم بكى طويلا ، ودعا الله أن يأذن له فى الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقا ، ثم انصرف وجلس حول السفرة ، وتناول المنديل ، وقال : « **بسم الله خير الرازقين** » ، وكشف عنها ، فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير (أى قشر) ، وليس فى جوفها شوك ، يسيل السمن منها ، فقد نضد حولها بُقُول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذيلها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر تمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات .

● **وفى رواية** : « على واحد منها زيتون ، وعلى الثانى عسل ، وعلى الثالث سمن ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد » .

فقال شمعون ، رأس الحواريين ، لعيسى : يا روح الله وكلمته : أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟

فقال عيسى : أماَ آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفنى عليكم أن تُعَاقبوا فى سبب نزول هذه الآية .

فقال شمعون : لا وإله إسرائيل ما أردت بهذا .. السؤال يا ابن الصدِّيقة .

فقال عيسى : ليس شىء مما ترون من طعام الدنيا ، ولا من طعام الجنة ، إنما هو شىء ابتدعه الله فى الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة .

فقالوا : يا روح الله وكلمته .. إنا نحب أن يرينا الله آية فى هذه الآية !

فقال عيسى – عليه السلام – سبحان الله تعالى ، أما اكتفيتم ؟

ثم قال : يا سمكة عُودِى بإذن الله حية كما كنت ؟ فأحياها الله ، وعادت حية طرية .

ثم قال : يا سمكة عُودى بإذن الله – كما كنت مشوية ، فعادت !

ثم دعاهم إلى الأكل فامتنعوا ، حتى يكون هو البادىء فأبى ، ثم دعا لها الفقراء والزمنى .

• **وقال : كُلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله – تعالى – الذى أنزلها لكم** ، فيكون مهنؤها لكم ، وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم « **باسم الله** » ، واختتموه « **بحمد الله** » ، ففعلوا .

فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان ، بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها ، كل واحد شبعان يتجشّأ ، ونظر عيسى والحواريون ، فإذا ما عليها كهيئته إذ نزلت من السماء ، لم ينقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء ، وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرىء كل زمنٍ أكل منها ، وندم الحواريون وأصحابهم ، الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة ، سالت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتهم فى قلوبهم إلى يوم الممات .

* **والأمر الواضح الذى يُضعف هذه الرواية ، ويدل على اختلاق هذه القصة .. هو ما ورد من امتناعهم عن الأكل من المائدة ، وإلا فكيف يطلبونها .. ثم إذا نزلت من السماء يمتنعون عن الأكل ، لأن عيسى – عليه السلام – لم يبدأ به ؟**

* **وتقول بعض الروايات** : « وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك ، أقبل إليها بنو إسرائيل يسعون من كل مكان ، يزحم بعضهم بعضا ، فلما رأى ذلك ،

جعلها ثوبا تنزل يوما ولا تنزل يوما ، ومكثوا على ذلك أربعين يوما ، تنزل عليهم غِباً ، عند ارتفاع النهار ، فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالُوا (من القيلولة) ارتفعت عنهم إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها فى الأرض حتى تتوارى .

فهل معنى ذلك أن المائدة نزلت أكثر من مرة ؟

• إن القرآن الكريم يدل دلالة واضحة على أن المائدة لم تنزل إلا مرة واحدة ، وهذه الرواية تدل على تكرر نزولها ، وهذا بالتالى يدل على اختلاق تفاصيل القصة ، وأنها من تزيدات بنى إسرائيل .

* وجاء فى بعض الروايات : فأوحى الله إلى عيسى ، أن اجعل رزق لليتامى والمساكين ، والزّمنى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء ، وغمصوا ذلك حتى شكوا فى أنفسهم ، وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا فى أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وساوسه فى قلوب المرتابين ، فلما علم عيسى ذلك منهم ، قال : **هلكتم وإله المسيح** ، سألتم نبيكم أن يطلب المائدة لكم من ربكم ، فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقا ، وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها ، وشككتم فيها فأبشروا بالعذاب ، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله .

وأوحى الله إلى عيسى : إنى آخذ المكذبين بشرطى ، فإنى معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها ، عذابا لا أعذبه أحداً من العالمين ، فلما أمسى المرتابون بها ، وأخذوا مضاجعهم فى أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان فى آخر الليل .. **مسخهم الله خنازير** ، فأصبحوا يتتبعون الأقذار فى الكناسات .

* إن الأمر الذى يجب أن نتنبّه له **أن أصل قصة المائدة ثابت بالقرآن المتواتر ، الذى لاشك فيه** ، وإنما موضع الشك – فى كل هذه التزايدات التى نفثها الإسرائيليون .

وقد ذكر المفسرون جميعا كل ما يدور حول هذه القصة ، وإن اختلفوا فى ذلك قلة وكثرة ، والعجب أن أحداً لم ينبه على أصل هذه المرويات الدخيلة ، والمنبع الذى نبعت منه ، حتى الإمامين **ابن كثير السلفى** ، **والألوسى** [1] – وإن كان **ابن كثير** قد أشار من طرف خفى إلى عدم صحة معظم ما روى ، كما شكك **القرطبى** فى هذه القصة الطويلة ، فقال : قلت فى هذا الحديث مقال ، ولا يصح من قِبَل إسناده .[2]

ثم تأتى **المحنة** ، أو قل : **الامتحان الرهيب** ، الذى تعرض له عيسى ابن مريم – من فرط **تقديم المعجزات إليهم لقد تجاوزوا حدود الإيمان برسالته ، وأخذوا يؤلهون عيسى المسيح نفسه** .

وهل هناك محنة أشق على نفس نبى الله ، من تأليهه هو مع ربّه ، فى نفس الوقت الذى يدعو فيه إلى وحدانية الله ؟

إنها محنة نفسية أشد وأقوى من إصرارهم على عبادة الأصنام وتأليهها ، لأن الداعى إلى الإيمان – فى هذه الحالة – يصبح بذاته سبيل كفرهم .

وقد صور القرآن العظيم هذا الامتحان النفسى ، فنجد أن الله – جل جلاله – يسأل عيسى ابن مريم **هل هو الذى دعاهم إلى هذا الإشراك ؟**

---

(١) ابن كثير ١١٦/٢ ، وتفسير الألوسى ج٧ ص٦٢ ، ٦٥

(٢) تفسير القرطبى ج٦ ص٣٦٩ – ٣٧٢

﴿ وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قال : سُبْحَانَكَ ما يكُونُ لي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَه ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ . مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ [المائدة : ١١٦ ، ١١٧]

• هذا سؤال من الله عز وجل – لعيسى ابن مريم خاصة ، حتى يجيب ، فتكون إجابته توبيخا لمن ادعى غير إجابته ، ودليلا على أن قومه غيروا بعده وبدلوا ، وادعوا عليه كذبا وبهتانا لم يَقُلْه ، **وإنكاره بعد سؤاله أشد فى التوبيخ ، وأبلغ فى التكذيب .**

وإذْ قال الله لعيسى ابن مريم ، أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين ، متجاوزين بذلك توحيد الله ، وإفراده بالعبادة والتقديس ؟ . فالله يسأل للإنكار والتوبيخ ، أقالوا هذا القول ، وافتروا هذه الفرية بأمر منك ، أم هو إفتراء وإختلاق من عند أنفسهم ، واتخاذ الآلهة من دون الله ، يكون بعبادتهم ، أو إشراكهم فى العبادة ، على معنى أن لهم تصريفا ، أو أنهم يقربون إلى الله زلفى ..

قال عيسى : سبحانك يارب ، وتنزيها لك وتقديسا ، ما يكون لى ، ولا ينبغى لى أن أقول ما ليس بحق أصلا ، وكيف يصدر منى هذا وقد عصمتنى بروح من عندك ، إن كنت قلته فقد علمته ، فأنت تعلم الغيب والشهادة ، وتعلم سرى وضميرى ، وأنا لا أعلم شيئا مما استأثرت به من بحار علمك ، إنك أنت علام الغيوب .

لقد جاء هذا التوضيح القرآنى **للحقيقة** فى صورة هذا الحوار بين الله ورسوله عيسى ، بعد أن وضع بنو إسرائيل رسولهم فى **المحنة** ، وعرضّوه للإمتحان الرهيب أمام الله ، وأمام نفسه .

فقالوا مرة : **إنه (الله)**[١] ، وقالوا فى أخرى (**ابن الله**) ، وقالوا ثالثة **بعقيدة التثليث** (الأب ، والابن ، والروح القدس) [٢] . **ولقد كفّرهم القرآن بزعمهم ، وحرم عليهم الجنة .**

فقال عز من قائل : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ المَسِيحُ ابنُ مَرْيَم .. قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أن يُهْلِكَ المَسِيحَ ابنَ مَرْيَم وأُمَّهُ وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً . ﴾ [المائدة : ١٧]

إن القرآن الكريم يبطل تلك العقيدة الوثنية .. فيقول الحق سبحانه : يا أيها الرسول .. قل لهؤلاء الذين تجرءوا على مقام الألوهية : من يملك من الله شيئا إذا أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ؟ من يمنع الله إذا أراد أن يميت المسيح وأمه ، لا أحد يقدر على هذا ، فالله لا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، بل لا يستطيع أحد أن يشفع عنده إلا بإذنه وأمره ، وها هو ذا المسيح وأمه ، قد حصل لهما ما حصل لبقية الخلق ، فهل منعا عن أنفسهما شيئا .

وإذا كان المسيح لم يستطع أن يدفع شيئا عن نفسه ، ولا عن أمه ، ولم يستطع أحد أن يدفع عن المسيح شيئا ، فهل يكون هو الله ، الذى بيده ملكوت كل شيء ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

---

(١) المسيحيون المعاصرون – خصوصا الكاثوليك والأرثوزكس ، لا يعدّون الموحّد مسيحيا ، ويقولون بألوهية المسيح ، وأن الله هو المسيح عيسى ابن مريم ، **وأساس هذه العقيدة عبارة وردت ف انجيل لوقا** (فى البدء كانت الكلمة ، والكلمة كانت عند الله ، والله هو الكلمة) وقد أطلقوا لفظ الكلمة على المسيح ، فصار معنى الفقرة : الله هو المسيح – كما وصفهم القرآن الكريم .

(٢) ذكر الدكتور **بوست** فى تاريخ الكتاب المقدس : (طبيعة الله ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر ، الله الأب ، والله الإبن ، والله روح القدس ، فإلى الأب الخلق ، وإلى الإبن الفداء ، وإلى روح القدس التطهير ، غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء)

● وقال عز شأنه : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إنّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ، وَمَا مِنْ إلَهٍ إلَّاإلَهٌ واحِدٌ وإنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٧٣]

إن فكرة **التثليث** – **أو البنوة** ، **أو قُلْ الإشراك** ، أى جمع الأب ، والابن ، والروح القدس ، بوصفه إله واحد ، لم تخترع – فيما نعتقد – زيادة فى تقديس عيسى ، وإنما هى محاولة لإفساد دعوته بين الذين يصدقونه ، فحين يسمعون أنه (**الله**) ، أو أنه (**ابن الله**) أو (فكرة التثليث) تختلط عليهم الحقيقة ، ويشكّون فى دعوته ، فينفرون منه ومن دعوته .

* **ويؤكد ذلك ما جاء فى سورة التوبة :**

﴿ وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ الله ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا إلَهاً وَاحِداً ، لَا إلَهَ إلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠ ، ٣١]

فهم محتارون فى المسيح عيسى ابن مريم ، بين أن يجعلوه (الله) وبين أن ينسبوه (ابن الله) **وفضح القرآن هذا الادعاء** ..بقوله تعالى :

﴿ ما كَانَ للهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إذَا قَضَى أَمْراً يَقُولُ لَهُ كُنْ فيكُون ﴾ [مريم : ٣٥]

ونعى عليهم مغالاتهم فى الدين وتعنتهم فى الرأى والقول .. فى آية جامعة مانعة بقول رب العزة :

﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ، وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الحَقَّ ، إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ ، أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ، ولا تقُولُوا ثَلاَثَةٌ .. انْتَهُوا خَيْراً لكُمْ ، إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يكُونَ لَهُ وَلَدٌ . لَهُ ماَ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء : ١٧١]

يقول جل جلاله : يا أهل الكتاب لا تكونوا مغالين فى الدين ، ومتجاوزين الحدود ، فلا تعظموا المسيح عيسى ابن مريم وتقدسوه حتى تجعلوه إلها ، أو ابن إله – كما فعلت النصارى ، ولا تكفروا بعيسى وتبهتوا أمه ، أو تحقروه وتهينوه – كما فعلت اليهود ..

يا أهل الكتاب – ولا تقولوا على الله إلا القول الحق الثابت بالنقل المتواتر ، الذى يستحيل معه الكذب ، أو المؤيد بالحجج الدامغة ، أما القول بالحلول ، واتخاذ الصاحبة والولد ، فكذب وبهتان وخرافة وشرك .

إنما المسيح – عيسى ابن مريم – رسول الله ، وكلمته التى ألقاها إلى مريم ، وهو مكون بكلمة (كُنْ) التكوينية ﴿ إِذَا قَضَى أَمْراً فإِنَّماَ يقُولُ لَهُ كُنْ فيَكُون ﴾ .. نعم كل مولود له سبب ظاهر ، وهو اتصال الجنسين ، وله سبب حقيقى ، وهو **إرادة الله** ، المعبر عنها بكلمة (**كن**) ، فلما انتفى مع عيسى السبب الأول بالبرهان ، ثبت أن عيسى خلق بالسبب الثانى ، وهو كلمة (**كن**) أوصلها الله إلى مريم بواسطة جبريل وقوله تعالى : ﴿ ورُوحٌ مِنْه ﴾ .. أى هو مؤيد بروح كائنة منه – سبحانه وتعالى – لا بعضا منه ، كما فهمتم – وإلا لكان كل شيء بعضا من الله ، بدليل قوله : ﴿ وَسَخَّر لَكُمْ ماَ في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ ﴾ [الجاثية : ١٣] وكونه مؤيداً برُوح منه يؤيده قول الحق سبحانه ﴿ وأيدناه برُوح القدس ﴾

إن المسيح عيسى ابن مريم . رسول الله وكلمته ، ألقاها إلى مريم ، ورحمة منه ، يقويه قوله تعالى : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلناَّسِ وَرَحْمَةً مِناً وكاَنَ أُمْراً مَقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٢١]

ومن الغريب ، أن بعض النصارى يفهمون قول الحق سبحانه ﴿ وروحٌ منه ﴾ أن عيسى ابن الله ، أو جزء الإله أو ثالث ثلاثة ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً ، والذى أوقعهم فى هذا التشابه فى التوراة والإنجيل ، وما وصل إليهم عن طريق الوثنيين من اليونان والرومان ، والمصريين القدماء ، والبراهمة .

إن الدين المسيحى الصحيح ، مبنى على أساس **التوحيد** البرىء لله سبحانه ، **ذاتا وصفة وفعلا** ، ولكن الكنيسة أدخلت هذه العقائد الزائفة فى عقول أبنائها ، لأمر فى نفوس القوم ، ولما رأوا القرآن يعارضهم فى ذلك ، كذبوه وأنكروه ، وهو الذى برأ مريم من قول اليهود ، ووضع عيسى الموضع اللآئق وفى أقوال الأحرار من المسيحيين ما يؤيد هذا (١) .

ويخاطب القرآن أهل الكتاب – بعد أن فند مزاعمهم – قائلا : وإذا كان الأمر كذلك ، فآمنوا بالله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، وآمنوا برسله جميعا ، لا فرق بينى نبى ونبى ، ولا تقولوا الآلهة ثلاثة : الأب ، والابن ، وروح القدس ، أو الله أقانيم ثلاثة ، كل منها عين الآخر ، وكل منها إله كامل ، ومجموعها إله واحد . فإن هذا إشراك بالله ، وترك التوحيد ، الذى هو ملة أبيكم إبراهيم . وهذا كلام ينافى العقل الراجح ، والفكر السليم ، إذ كيف يكون واحداً وثلاثة ، **وكيف يحل الإله فى بعض خلقه ؟**

---

(١) انظر ما كتبه الشيخ رشيد رضا – تفسير الشيخ محمد عبده – الجزء السادس – فى تفسير الآيات . وانظر كتاب إظهار الحق .

وكيف يتّحد ، وهل طبيعة الإله كطبيعة البشر ؟ بالطبع لا .. بل إن طبيعة البشر تتناف مع طبيعة المَلَك ، فهذا لا يأكل ولا يشرب ، وعيسى وأمه كانا يأكلان ويشربان .. ثم ما ميزة عيسى على غيره من الأنبياء ؟ أرسل مثلهم مؤيداً بالمعجزات ، وكانت كغيرها لم تجر على سنن الطبيعة ، بل بقدرة الله وقوته ، كما نص القرآن الكريم . فكيف تقولون عيسى إله ؟ ﴿ انْتَهُوا خيراً لكم ﴾ وقولوا قولا حسنا يكن خيرا لكم وأجدى من هذا العبث ، والشرك ، والعصبية الحمقاء ..

﴿ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ لا إله إلا هو ، سبحانه وتعالى عما تشركون ، سبحانه أن يكون له ولد ، فليس المسيح ابنه ، إذ الولد يقتضى إتصالا جنسيا بالأم ، وحاجته إليه ، وإلى أمه ، حتى يبرز إلى الوجود ، أفيليق هذا ؟

إن الله له ما فى السموات وما فى الأرض ، مَلَكا ، وخَلْقا ، وعبيداً وتصريفا .. ﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ والأَرْضِ إِلَّا آتي الرَّحْمَنِ عَبْداً . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَرْداً ﴾ [مريم : ٩٣ - ٩٥] .. لا فرق فى ذلك بين الملائكة والنبيين والناس أجمعين . وهل الإله فى حاجة للولد ؟ .. ليقيم اسمه ، ويحفظ ذكره ، ويرثه بعد موته ؟ .. وهل هو فى حاجة إلى الولد ليعينه ؟..

كلا فالله قوى ، قادر ، مالك الملكوت ، حيّ دائم ، باق بعد فَنَاء خلقه ، صاحب الأمر والتصريف ، وكفى بالله وكيلا . **وهذا عيسى نفسه يقول فى إنجيل يوحنا :**

(وهذه هى الحياة الأبدية ، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته)

فهذا نص صريح فى أن المسيح رسول الله فقط .

وفى الإنجيل أيضا : (من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الله الذى أرسلنى ، لن يتكبر المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة ، الذين هم أعظم من المسيح خلقا وقوة ، فهم أعلم بذات الله ومكانته)

ومن يستنكف عن عبادة الله وحده ، ويتكبر ، ويدعى الإشراك أو التثليث ، فسيحشرهم إليه جميعا ، ويجازيهم على كل ذلك .

* وتأتى بعد محنة التأليه ، **محنة التعذيب والمطاردة ، حتى أنهم هَمُّوا بقتله وصَلبه** ، وشُبِّه لهم فزعموا أنهم قتلوه حقا ، وكادوا يفعلون لولا أن الله رفعه إليه ، فأنقذه من أيديهم .

قال تعالى : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ، وقَوْلِهِم إنَّا قَتَلْناَ المَسِيحَ عِيسَى ابن مَرْيَمَ رَسُول اللهِ وَمَا قَتَلُوه ، وما صَلَبُوهُ ، وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ ، وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِنْهُ ، مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ، وما قَتَلُوهُ يَقِيناً . بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء : ١٥٦ – ١٥٨]

وفى خبر رفعه إلى السماء ، يروى الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس :

« أن عيسى – عليه السلام – استقبل رهطا من اليهود ، فلما رأوه قالوا : قد جاء الساحر ابن الساحرة ، الفاعل ابن الفاعلة ، فقذفوه وأمه ، فلما رأى ذلك عيسى دعا عليهم ، فقال : « اللهم العن من سّبنى وسبّ أمى ، فاستجاب الله دعاءه ، ومسخ الذين سبوه وأمه خنازير ، فلما رأى ذلك رأس اليهود وأميرهم ، فزع لذلك ، وخاف دعوته ، فاجتمعت كلمة اليهود على قتل عيسى ،

فاجتمعوا عليه ذات يوم ، وجعلوا يسألونه ، فقال : يا معشر اليهود ، **إن الله يبغضكم** ، فغضبوا من مقالته غضبا شديداً ، وثاروا عليه ليقتلوه ، فبعث الله - تعالى - إليه جبريل - عليه السلام - فأدخله خوخة وواراه فى سقفها ، ورفعه الله تعالى من روزنته ، فأمر رأس اليهود رجلا من أصحابه ، يقال له **فلطيانوس** أن يدخل الخوخة ، فيقتله ، فلما دخل فلطيانوس لم ير عيسى ، فأبطأ عليهم ، فظنوا أنه يقاتله فيها ، فألقى الله عليه شبه عيسى ، فلما خرج ظنوا إنه عيسى ، فقتلوه وصلبوه . وفى ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يا عِيسَى إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ومُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [آل عمران : ٥٥]

صدق الله العظيم

* * *

الفصل الثالث عشر

مع أصحاب الكهف .. فى رحلة الإيمان

من أروع قصص الإيمان ، التى تهدف إلى تثبيت العقيدة ، والتى لا تزال تستبد بأفكار المفكرين ، **قصة أصحاب الكهف** . وهذه القصة من أعظم القصص القرآنى ، المصور فى صدقه ، وسرد حقائقه ، قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة . وقد ذكرها القرآن فى معرض الرد على منكرى البعث والنشور يوم القيامة ، كما ذكرها ردًّا على سؤال مشركى قريش ، الذين استمدوه من أحبار اليهود .

- **ذكر محمد بن إسحاق بإسناد عن ابن عباس قال :**

« بعثت قريش النَّضر بن الحارث ، وعُقْبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سَلُوهم عن (**محمد**) وصِفُوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار يهود عن رسول الله – ﷺ – ووصفوا لهم أمره ، وبعض أقواله ، وقالا إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، قال : **فقالوا لهم سلوه عن ثلاث نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبىّ مُرْسَل ،** وإلّا فَرَجلٌ متقوّل تروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب ؟ .. وسلوه عن رجل طوّاف ، بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، ما كان نبؤه ؟ .. وسلوه عن الروح ما هو ؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقوّل ، فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم [١] . فنزل قول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيم كانوا من آياَتِناَ عَجَباً . إذْ أَوَى الفِتْيَةُ إِلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّناَ آتِناَ مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وهَيِّىءْ لَناَ من أَمْرِناَ رَشَداً ، فَضَرَبْناَ عَلَى آذَانِهِمْ فِي الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً . ثُمَّ بَعَثْناَهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِماَ لَبِثُوا أَمداً ﴾ [الكهف : ٩ - ١٢]

فهذا إخبار من المولى عز وجل عن قصة أصحاب الكهف على سبيل الإجمال والاختصار ، ثم بسطها بعد ذلك ، يقول تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾ يامحمد ﴿ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ والرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آياَتِناَ عَجَباً ﴾ أى ليس أمرهم عجيبا فى قدرتنا وسلطاننا ، فإن خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب ، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالة على قدرة الله تعالى ، وأنه على ما يشاء قادر ، ولا يعجزه شىء ، أعجب من أخبار أصحاب الكهف .

قال مجاهد : أى قد كان من آياتنا ما هو أعجب من ذلك .

وقال ابن عباس : الذى آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم .

والرقيم .. هو الحجر الذى رُقّم عليه أنه رمز لمأواهم ، ليكونوا عبرة ، وليكونوا دليلا ناطقا على الإيمان بالبعث والنشور ، وإن الذين يجحدون بهما يرونهما عيانا فيهم ، إذ بعثهم الله سبحانه وتعالى ، وقد حسبوا أنهم مضى عليهم يوم أو بعض يوم .

---

(١) انظر السيرة النبوية ، وابن كثير فى تفسيره لسورة الكهف ، وانظر تفسير الطبرى فى تفسير السورة .

﴿ إذْ أَوَى الفِتْيَةُ إلَى الكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾

يُخبر تعالى عن أولئك الفتية ، الذين فرُّوا بدينهم من قومهم لئلا يفتنوهم عنه ، فهربوا منهم فَلَجئوا إلى غار فى جبل ، ليختفوا عن قومهم ، فقالوا حين دخلوا سائلين من الله تعالى رحمته ولطفه بهم .. ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ﴾ أى هب لنا من عندك رحمة ترحمنا بها وتسترنا عن قومنا .

﴿ وهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴾ أى وقدّر لنا من أمرنا هذا رَشَداً ، أى اجعل عاقبتنا رشداً .

• كما جاء فى قول النبى المصطفى – ﷺ : « ومَا قَضَيْتَ لَنَا مِنْ قَضَاءٍ فاجْعَل عَاقِبَتَه رَشَداً » وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربّه : « اللَّهُمْ أَحْسِن عَاقِبَتَنَا فى الأُمورِ كلّها وأَجِرْنا مِنْ خِزْى الدنيا وعذاب الآخرة » .

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فى الكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴾ أى ألقينا عليهم النوم حين دخلوا إلى الكهف فناموا سنين كثيرة ﴿ ثُمّ بَعَثْنَاهُم ﴾ من رقدتهم تلك ، وخرج أحدهم بدراهم معه ليشترى لهم بها طعاما يأكلونه ، ولهذا قال : ﴿ ثُمّ بَعَثْنَاهُم لِنَعْلَمَ أَىّ الحِزْبَيْن ﴾ أى المختلفين فيهم ﴿ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمداً ﴾ أى عدداً وغاية .

هذا إجمال القصة كما لخصها القرآن الكريم . ثم شرع القرآن فى بسط القصة وشرحها ، فذكر تعالى : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بالحَقِّ ، إنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إذْ قَامُوا فَقَالُوا : رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إذًا شَطَطَاً . هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً . وإذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إلَّا الله ، فَأْوُوا إلَى الكَهْفِ يَنْشُرْ لكُمْ رَبُّكُم مِنْ رَحْمَتِهِ ، ويُهَيِّئْ لكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا ﴾ [الكهف : ١٣ – ١٦]

يقول : إنهم فتية وهم الشباب ، وهم أقبل للحق وأهدى للسبيل من الشيوخ ، الذين قد عتَوا وانغمسوا فى دين الباطل ، ولهذا كان أكثر المستجيبين لله تعالى – ولرسوله ﷺ شباباً ، وأما المشايخ من قريش ، فعامتهم بقوا على دينهم ، ولم يسلم منهم إلا القليل .

وهكذا أخبر الله عن أصحاب الكهف ، أنهم كانوا فتية شبابا ، فألهمهم الله رشدهم وآتاهم تقواهم ، **فآمنوا بربهم ، واعترفوا له بالوحدانية ، وشهدوا أنه لا إله إلّا هو** .

﴿ وَزِدْنَاهُم هُدًى ﴾ .. استدل بهذه الآية وأمثالها غير واحد من الأئمة – كالبخارى – ممّن ذهب إلى زيادة الإيمان وتفاضله ، وأنه يزيد وينقص ، ولهذا قال سبحانه ﴿ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ كما قال : ﴿ والَّذِينَ اهْتَدُوا زَادَهُم هُدًى وآتَاهُم تَقْواهُم ﴾

وقد ذُكر أنهم كانوا على **دين المسيح عيسى ابن مريم** . والظاهر أنهم كانوا قبل ملّة النصرانية بالكلية ، فإنهم لو كانوا على دين النصرانية لما اعتنى أحبار اليهود بحفظ خبرهم وأمرهم ، لمخالفتهم لهم . وقد ذكرنا – من قبل – أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله – ﷺ ، فبعثوا إليه أن يسألوه عن أمور ثلاثة ، من بينها خبر هؤلاء الفتية ، فدلّ هذا على أن هذا أمر محفوظ فى كتب اليهود ، وأنه مقدم على دين النصرانية ، والله أعلم .[١]

وقوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير ٧٤/٣

أى وصبّرناهم على مخالفة قومهم ومدينتهم ، ومفارقة ما كانُوا فيه من العيش الرغيد ، والسعادة والنعمة ، فإنه قد ذكر غير واحد من المفسرين ، أنهم كانوا من أبناء ملوك الروم وسادتهم ، وأنهم خَرجوا يوما فى بعض أعياد قومهم ، وكان لهم مجتمع فى السنة يجتمعون فيه فى ظاهر البلد ، وكانوا يعبدون الأصنام والطواغيت ، ويذبحون لها ، وكان لهم ملك جبّار عنيد يقال له « **دقيانوس** » ، وكان يأمر الناس بذلك ، ويحثهم عليه ويدعوهم إليه ، فلما خرج الناس لمجتمعهم ذلك ، وخرج هؤلاء الفتية مع آبائهم وقومهم ، ونظروا إلى ما يصنع قومهم بعين بصيرتهم ، عرفوا أن هذا الذى يصنعه قومهم من السجود لأصنامهم ، والذبح لها لا ينبغى إلّا لله ، الذى خلق السموات والأرض ، فجعل كل واحد منهم يتخلص من قومه ، وينحاز منهم ، ويبتعد عنهم من ناحية ، فكان أول من جلس منهم أحدهم ، جلس تحت ظل شجرة ، فجاء الآخر فجلس إليها عنده ، وجاء الآخر فجلس إليهم ، وجاء الآخر .. وجاء الآخر – ولا يعرف واحد منهم الآخر ، وإنما جمعهم هناك الذى جمع قلوبهم على الإيمان – كما جاء فى الحديث الذى روته أم المؤمنين عائشة – رضى الله عنها : قالت : « قال رسول الله ﷺ : الأرواح جُنُودٌ مجنّدة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف » .

والغرض .. أنه جعل كل أحد منهم يكتم ما هو عليه عن أصحابه خوفا منهم ، ولا يدرى أنهم مثله ، حتى قال أحدهم : تعلمون والله يا قوم إنه ما أخرجكم من قومكم ، وأفردكم عنهم إلا شيء ، فليظهر كل واحد منكم بأمره ، فقال آخر : أما أنا فإنى والله رأيت ما قومى عليه فعرفت أنه باطل ، وإنما الذى يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به شيئا هو « **الله** » الذى خلق السموات والأرض وما بينهما .

وقال الآخر : وأنا والله وقع لى كذلك ، وقال الآخر : كذلك ، حتى توافقوا كلهم على كلمة واحدة ، فصاروا يداً واحدة ، وإخوان صدق ، فاتخذوا

لهم معبداً يعبدون الله فيه ، فعرف بهم قومهم فوشوا بأمرهم إلى ملكهم ، فاستحضرهم بين يديه ، فسألهم عن أمرهم ، وما هم عليه فأجابوه بالحق ، ودَعُوهُ إلى الله عز وجل ، ولهذا أخبر تعالى بقوله :

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِم إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهاً ﴾ أى لا يقع منا هذا أبداً ، لأنا لو فعلنا ذلك لكان باطلا ، ولهذا قال عنهم ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطاً ﴾ أى باطلا وكذباً وبهتانا .

﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ أى هلا أقاموا على صحة ما ذهبوا إليه دليلا واضحا صحيحا ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً ﴾ يقولون بل هم ظالمون كاذبون فى قولهم ذلك ...

فيقال : إن ملكهم لما دعوه إلى الإيمان بالله أَبَى عليهم ، وتَهَدَّدهم وتوعَّدهم ، وأمر بنزع لباسهم عنهم ، الذى كان عليهم من زينة قومهم ، وأجَّلهم لينظروا فى أمرهم لعلهم يرجعون عن دينهم الذى كانوا عليه .. **وكان هذا من لطف الله بهم** . فإنهم فى تلك الفترة توصَّلُوا إلى الهرب منه ، والفرار بدينهم من الفتنة ..

وهذا هو المشروع عند وقوع الفتن فى الناس ، أن يفر العبد منهم خوفا على دينه ، كما جاء فى حديث رسول الله ﷺ :

« يوشك أن يكون خير مال أحدكم غَنَم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطْر يفر بدينه من الفتن » ففى هذه الحال يشرع العزلة عن الناس .

فلما وقع عزمهم على الذهاب والهرب من قومهم ، واختار الله تعالى لهم ذلك ، وأخبر عنهم بذلك فى قوله تعالى : ﴿ وإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُم وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ ﴾ أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم بأديانهم فى عبادتهم غير الله ، ففارقوهم أيضا بأبدانكم . ﴿ فأْوُوا إِلَى الكَهْفِ يَنْشُر لكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ أى يبسط عليكم رحمة يستركم بها من قومكم ﴿ وَيُهَيِّىءْ لكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً ﴾ أى أمراً ترتفقون به .

فعند ذلك خرجوا هِرَاباً إلى الكهف ، فآووا إليه ، ففقدهم قومهم من بين أظهرهم ، وتطلّبهم الملك فلم يظفر بهم ، وعمّى الله عليه خبرهم - **كما فعل بنبيّه محمد** - ﷺ - **وصاحبه الصدّيق** حين لجأ إلى غار « **ثور** » ، وجاء المشركون من قريش فى طلبهم ، فلم يهتدوا إليه ، مع أنهم يمرّون عليه ، وعندها قال النبى - ﷺ - حين رأى جزع الصدّيق فى قوله : يا رسول الله : لو أن أحدهم نظر إلى موقع قدميه لأبصرنا .. فقال : يا أبا بكر .. ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟ .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُماَ فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ : لَا تَحْزَنْ إِنّ اللهَ مَعَنَا فأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْه وأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وكَلِمَةُ اللهِ هِىَ العُلْياَ ، واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٤٠]

*** فقصة غار ثَوْرَ أشرف وأجل وأعظم وأعجب من قصة غار أصحاب الكهف** المسمى (حيزم)

وقد قيل : إن قومهم ظفروا بهم ، ووقفوا على باب الغار الذى دخلوه ، فقالوا : ما كنا نريد منهم من العقوبة أكثر مما فعلوا بأنفسهم ، فأمر الملك بردم بابه عليهم ليهلكوا مكانهم ، ففعلوا ذلك .

ويبدو أن ذلك ليس صحيحا ، لأن القرآن الكريم قد أخبر أن الشمس كانت تدخل عليهم فى الكهف بكرة وعشيّا .

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ اليَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبتَ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ، مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِداً ﴾ [الكهف : ١٧]

فهذا فيه دليل على أن باب الكهف كان من نحو الشمال ، لأن الله تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه (ذات اليمين) أى يتقلص الفىء يمنة ، كما قال ابن عباس (تزاور) أى تميل ، وذلك أنها كلما ارتفعت فى الأفق تقلص شعاعها بارتفاعها حتى لا يبقى منه شىء عند الزوال فى مثل ذلك المكان . ولهذا قال سبحانه : ﴿ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ذَاتَ الشِّمَال ﴾ أى تدخل إلى غارهم من شمال بابه ، وهو من ناحية المشرق ، فدل على صحة ما قلناه .

وهذا بيّن لمن تأمله وكان له علم بمعرفة الهيئة وسير الشمس والقمر والكواكب .

وبيان ذلك : أنه لو كان باب الغار من ناحية **الشرق** لما دخل إليه منها شىء عند الغروب ، ولو كان من ناحية القِبْلَة لما دخل منها شىء عند الطلوع ، ولا عند الغروب ، ولا تزاور الفىء – أى مال – يمينا وشمالا ، ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ، ولم تزل فيه إلى الغروب ، فتعيّن ما ذكرناه [1] وهنا مجموعة من الأسئلة تطرح نفسها ...

*** أين مكان هذا الكهف .. ولماذا لم يحدد القرآن مكانه ؟**

* لم يخبرنا الحق سبحانه بمكان هذا الكهف فى أى البلاد من الأرض – **إذ لا فائدة لنا فيه ، ولا قصد شرعى** . ولو كان لنا فيه مصلحة دينية ، لأرشدنا الله تعالى ، ورسوله – ﷺ – إليه ، فقد قال النبى المصطفى ﷺ : « مَا تَرَكْتُ شَيْئاً يُقَرّبكُم إلى الجنّة ويُبَاعِدُكُم مِنَ النَّار إلَّا وقَدْ أَعْلَمتكُم بِه » .

---

(١) ابن كثير ٣/٧٤

فأعلَمنا الله سبحانه وتعالى بصفة الكهف ولم يُعْلِمنا بمكانه ، فقال سبحانه :

﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ﴾ أى تميل ﴿ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُم ﴾ أى تتركهم ﴿ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فى فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ أى فى متسع منه داخلا بحيث لا تصيبهم ، إذ لو أصابتهم لأحرقت أبدانهم وثيابهم .

﴿ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ ﴾ حيث أرشدهم إلى هذا الغار ، الذى جعلهم فيه أحياء ، والشمس والريح تدخل عليهم لتبقى أبدانهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ من آيَاتِ اللهِ ﴾ ثم قال : ﴿ مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ المُهْتَدِ ﴾ .. الآية .. أى هو الذى أرشد هؤلاء الفتية إلى الهداية من بين قومهم ، فإنه من هداه الله اهتدى ، ومن أضله فلا هادى له .

هذا وقد تكلّف بعض المفسرين ، فذكروا أقوالا عن مكان الكهف ..

فقد قيل : إنه قريب من **أيلة** ، وقيل : هو عند **نينوى** ، وقيل : فى بلاد الروم ، وقيل : ببلاد البلقاء ، والله أعلم بأى بلاد الله هو .

*** لماذا لم تُبْلَ أجسامهم وعيونهم ؟**

ذكر بعض أهل العلم أنه لما ضَرَب الله على آذانهم بالنوم ، لم تنطبق أعينهم لئلا يُسرع إليها البلى ، فإذا بقيت ظاهرة للهواء كان أبقى لها ، ولهذا قال سبحانه ﴿ وتَحْسَبُهُم أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾

وقد ذكر عن الذئب أنه ينام فيطبق عينا ويفتح عينا ، ثم يفتح هذه ويطبق هذه ، وهو راقد ، كما قال الشاعر :

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْلَتَيْه وَيَتَّقِي بِأُخْرَى الرَّزَايَا فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمُ

وقوله تعالى : ﴿ ونُقَلِّبُهُم ذَاتَ اليَمِينِ وذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ قال بعض السلف : يقلبون فى العام مرتين ، لأنهم لو لم يُقلبوا لأكلتهم الأرض .

وقوله ﴿ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْه بالوَصِيد ﴾ قال ابن عباس : الوصيد : الفناء وهو الباب ، أى ربض كلبهم على الباب ، كما جرت به عادة الكلاب .

• قال ابن جريج : يحرس عليهم الباب ، وهذا من سجيته وطبيعته ، حيث يربض ببابهم كأنه يحرسهم وكان جلوسه خارج الباب ، لأن الملائكة لا تدخل بيتا فيه كلب – كما ورد فى الصحيح – ولا صورة ولا جُنب ولا كافر . وشملت بَرَكتُهم كلبهَم ، فأصابه ما أصابهم من النوم على تلك الحال ، وهذا فائدة صحبة الأخيار ، فإنه صار لهذا الكلب ذِكْر وخبر وشأن .

وقد قيل إنه كان **كلب صيد** لأحدهم – وهو الأشبه – وقيل كلب طباخ الملك ، وقد كان وافقهم على الدين وصحبه كلبه .

ويذكر المفسرون للكلب إسما ..

فقد روى عن الحسن البصرى أنه قال : « كان اسم كبش إبراهيم عليه الصلاة والسلام « **جَرِير** » واسم هُدْهُد سليمان عليه السلام « **عُنْفُر** » واسم عجل بنى إسرائيل الذى عبدوه « **يهموث** » ، واسم كلب أصحاب الكهف « **قطمير** » وقد سماه شعيب الجبائى « **حمران** » .

واختلفوا فى لونه على أقوال .. لا حاصل لها ، ولا طائل تحتها ، ولا دليل عليها ، ولا حاجة إليها ، بل هى مما ينهى عنه ، فإن مستندها رجم بالغيب .

*** لماذا ألقى الله المهابة عليهم ؟**

إن الحق سبحانه وتعالى ألقى عليهم المهابة بحيث لا يقع نظر أحد عليه إلّا هابهم لما ألبسوا من المهابة والذعر لئلا يدنو منهم أحد ، ولا تمسهم يد لامس حتى

يبلغ الكتاب أجله ، وتنقضى رقدتهم التى شاء تبارك وتعالى فيهم ، لما له فى ذلك من الحكمة والحجة البالغة ، والرحمة الواسعة . وفى ذلك يقول سبحانه : ﴿ لَوْ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾ [الكهف : ١٨]

ثم كان مبعثهم على صورتهم الحقيقية كما كانوا ؟

يقول تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُم لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُم قَالَ قَائِلٌ مِنْهُم كَمْ لَبِثْتُم قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِماَ لَبِثْتُم ﴾ أى كما أرقدناهم بعثناهم ، صحيحة أبدانهم وأشعارهم وأبصارهم ، لم يفقدوا من أحوالهم وهيآتهم شيئا ، وذلك بعد ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، ولهذا تساءلوا بينهم ﴿ كَمْ لَبِثْتُم ﴾ أى كم رقدتم ، ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأنه كان دخولهم إلى الكهف فى أول نهار ، واستيقاظهم كان فى آخر نهار ، ولهذا استدركوا فقالوا : ﴿ أو بَعْضَ يَوْمٍ – قَالُوا رَبُّكُم أَعْلَم بِماَ لَبِثْتُم ﴾ أى الله أعلم بأمركم ، وكأنه حصل لهم نوع تردد فى كثرة نومهم .

* **ثم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم** : إذ ذاك وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب ، فقالوا : ﴿ فابْعثُوا أَحَدَكُمْ بوَرِقِكُمْ هَذِه إِلَى المَدِينَةِ ، فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ برِزْقٍ منْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحداً ﴾ [الكهف : ١٩]

أى فابعثوا أحدكم بنقودكم الفضية هذه ، وذلك أنهم كانوا قد استصحبوا معهم دراهم من منازلهم لحاجتهم إليها ، فتصدّقوا منها ، وبقى منها ، فلهذا قالوا ﴿ فابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِه إِلَى المَدِينة ﴾ أى مدينتكم التى خرجتم منها – والألف واللاّم للعهد – ﴿ فَلْيَنْظُر أَيُّهاَ أَزْكَى طَعَاماً ﴾ أى أطيب طعاما .

﴿ ولْيَتَلَطَّفْ ﴾ أى فى خروجه وذهابه وشرائه وإيابه ، يقولون وليختف كل ما يقدر عليه

﴿ وَلَا يُشْعِرَنَّ ﴾ أى ولا يعلمن ﴿ بِكُمْ أحداً ، إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُم في مِلَّتِهِمْ ولَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَداً ﴾ [الكهف : ٢٠]

أى إن علموا بمكانكم ﴿ يَرْجُمُوكُمْ أو يُعيدُوكُم فى مِلَّتِهم ﴾ يعنون أصحاب « **دقيانوس** » ، يخافون منهم أن يطلعوا على مكانهم ، فلا يزالون يعذبونهم بأنواع العذاب إلى أن يعيدوهم فى ملتهم ، التى هم عليها ، أو يموتوا – وإن وافقتموهم على العود فى الدين فلا فَلاَح لكُم فى الدنيا ولا فى الآخرة ، ولهذا قال ﴿ ولَنْ تُفْلِحُوا إذًا أبداً ﴾ .

والسؤال الآن : ما الحكمة فى أن الحق سبحانه بعثهم على هذه الحالة ؟

يجيب سبحانه : ﴿ وكَذَلِكَ أَعْثَرنَا عَلَيْهم لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهاَ ﴾ أى أطلعنا عليهم الناس ليعلموا أن البعث حق ، والنشور حق ، والحساب حق ، وأن القيامة لا ريب فيها ، ذكر بعض السلف : أنه كان قد حصل لأهل ذلك الزمان شك فى البعث ، وفى أمر القيامة ، وكان منهم طائفة قد قالوا تبعث الأرواح ولا تبعث الأجساد ، فبعث الله أهل الكهف – بأرواحهم وأجسادهم ، حجة ودلالة وآية على ذلك .

ذكروا .. أنه لما أراد أحدهم الخروج ليذهب إلى المدينة فى شراء شيء لهم ليأكلوه ، تنكر وخرج يمشى فى غير الجادة ، حتى انتهى إلى المدينة ، وذكروا أن اسمها (أُفِسُوس) وهو يظن أنه قريب العهد بها ، وكان الناس قد تبدلوا قرنا بعد قرن ، وجيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة ، وتغيرت البلاد ومن عليها ، فجعل لا يرى شيئا من معالم البلد التى يعرفها ، ولا يعرف أحداً من أهلها – لا خواصها ولا عوامها ، فجعل يتحيّر فى نفسه ، ويقول لعل بى جنونا أو مسًّا أو أنا حالم ، ويقول :

والله ما بى شيء من ذلك ، وإن عهدى بهذه البلدة عشية أمس على غير هذه الصفة ، ثم قال : إن تعجيل الخروج من ههنا لأولى لى ، ثم عمد إلى

رجل ممن يبيع الطعام ، فدفع إليه ما معه من النقود ، وسأله أن يبيعه بها طعاما ، فلما رآها ذلك الرجل أنكرها ، وأنكر ضربها ، فدفعها إلى جاره ، وجعلوا يتداولونها بينهم ، ويقولون .. لعل هذا وجد كنزا ، فسألوه عن أمره ، ومن أين له هذه النقود ، لعله وجدها من كنز ، وممن أنت ؟ .. فجعل يقول : أنا من أهل هذه البلدة ، وعهدى بها عشية أمس ، وفيها دقيانوس ، فنسبوه إلى الجنون ، فحملوه إلى ولىّ أمرهم ، فسأله عن شأنه ، وخبره ، حتى أخبره بأمره ، وهو متحيّر فى حاله ، وما هو فيه .

فلما أعلمهم بذلك قاموا معه إلى الكهف – ملك البلد وأهلها – حتى انتهى بهم إلى الكهف ، فقال لهم **دعونى حتى أتقدمكم فى الدخول لأعلم أصحابى** ، فدخل ، فيقال إنهم لا يدرون كيف ذهب فيه ، وأخفى الله عليهم خبره .

ويقال : بل دخلوا عليهم ورأوهم ، وسلم عليهم الملك ، واعتنقهم – وكان مُسْلما فيما قيل ، واسمه « **تندوسيس** » ففرحوا به وآنسوا بالكلام ، ثم ودّعوه وسلموا عليه ، وعادوا إلى مضاجعهم ، وتوفاهم الله عز وجل .

فقوله سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عليهم .. ﴾ الآية – أى كما أرقدناهم وأيقظناهم بهيآتهم ، أطلعنا عليهم أهل ذلك الزمان ﴿ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ ، وأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ، إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ فى أمر القيامة ، فمن مثبت لها ، ومن منكر ، فجعل الله ظهورهم على أصحاب الكهف حجة لهم وعليهم . ﴿ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانَاً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ﴾ أى سدوا عليهم باب كهفهم وذروهم على حالهم .

*** ما عددهم ؟**

يقول الحق سبحانه مخبرا عن اختلاف الناس فى عدة أصحاب الكهف ، فحكى ثلاثة أقوال ، فدَلَّ على أنه لا قائل برابع .. ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَابِعُهُم كَلْبُهُم ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُم رَجْماً بالغَيْبِ ، ويَقُولُونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُم كَلْبُهُم ﴾ [الكهف : ٢٢]

ولما ضعَّف القولين الأولين بقوله عز وجل ﴿ رَجْماً بالغَيْبِ ﴾ أى قول بلا علم ، كمن يرمى إلى مكان لا يعرفه ، فإنه لا يكاد يصيب ، وإن أصاب فبلا قصد .

ثم حكى القول **الثالث** ، وسكت عليه وقرره بقوله ﴿ وَثَامِنُهُم كَلْبُهُم ﴾ فدل على صحته ، وأنه هو الواقع فى نفس الأمر .

ذكروا أن المعاصرين للنبى - ﷺ - اختلفوا فى عددهم ، فقال جماعة : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت جماعة أخرى هم خمسة سادسهم كلبهم ، وهم فى هذا يقذفون بالغيب على غير هدى ظنًّا منهم لا يقين معه ، وقال جماعة (سَبْعةٌ وثَامِنُهُم كَلْبُهُم) قل يا محمد لهم : ربى أعلم بعددهم لا يعلمه إلا القليل ، وأكثر علم أهل الكتاب على ظن وتخمين .

قال الزمخشرى فى كشافه : (فما هذه (**الواو**) الداخلة على الجملة الثالثة (سبعة وثِامنهم كلبهم) ولِمَ دخلت عليها دون الجملتين الأوليين ؟ **الجواب : هى الواو التى تدخل لتأكيد إتصال ما بعدها بما قبلها** ، وللدلالة على أن الذين قالوا (سبعة وثامنهم كلبهم) قالوه عن ثبات وعلم وطمأنينة ، لم يرجموا بالظن كما فعل غيرهم . وأصحاب هذا الرأى مؤمنون ، قالوه مستندين إلى الوحى بدليل عدم سلكه فى سلك الرجم بالغيب ، وتغير النظم بزيادة الواو .

وقوله عز وجل ﴿ قُل رَّبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم ماَ يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً ، ولا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾ [الكهف : ٢٢]

فهذا إرشاد إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، لكن إذا اطلعنا على أمرٍ قلنا به ، وإلّا وَقَفْنَا .

وقوله ﴿ ما يَعْلَمُهُم إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ أى من الناس ، فما تمار فيهم ، ولا تجادلهم إلا جدالاً ظاهراً لا عمق فيه ، ولا تستفت فى شأنهم أحداً منهم ، ولا تقولن لأجل شيء تعزم على فعله إنى فاعله غداً ، لا تقولن ذلك فى حال من الأحوال ، إلا فى حال ملابسته بمشيئة الله تعالى على الوجه المعتاد – على معنى سأفعل ذلك غدا – إن شاء الله .

* وسؤال أخير : كم لبثوا فى كهفهم هذا ؟

أجاب الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعاً ﴾ [الكهف : ٢٥] أى أنهم لبثوا فى كهفهم ، منذ أرقدهم الله إلى أن بعثهم أحياء ، وأعثر عليهم أهل ذلك الزمان أعواما مقدارها (ثلاثمائة سنة) تزيد (تسع سنين) بالهلالية – أى القمرية ، وهى ثلاثمائة بالشمسية ، فإن تفاوت ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية **ثلاث سنين** ، فلهذا قال سبحانه بعد الثلثمائة ﴿ وازْدَادُوا تِسْعاً ﴾ – ثم قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِماَ لَبِثُوا ﴾ أى إذا سئلت عن لبثهم وليس عندك علم فى ذلك وتوقيف من الله تعالى ، فلا تتقدم فيه بشيء ، بل قل فى مثل هذا ﴿ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا – لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ﴾ أى لا يعلم ذلك إلّا هو أو من أطلعه عليه من خلقه .

* فهذه قصة فريدة من نوعها فى التاريخ ، أراد القرآن منها تجسيد التجربة الإيمانية فى الفتية ، الذين فروا بإيمانهم إلى الكهف ، ولبثوا فيه مئات السنين ،

وكانوا دليل التجربة للآخرين – إذ بعثهم الله من مرقدهم على خلاف العادة ، والطبيعة الإنسانية ، فلم يسبق أن نهض أحد من مرقده بعد سنوات معدودات ، فكيف بمئات السنين ، ليؤكد الحق سبحانه قضية البعث والنشور .

إن الباحث المتأمل فى كتاب الله الكريم – يجد لهذه القصة المثيرة مشاهد تُذكر وكأنها تُرى وكأن الإنسان يُعاين وقائعها ، فى أسلوب قرآنى قصصى ، تؤخذ منه مغزى القصة فى غير التباس ولا ارتياب .

* **المشهد الأول** : إيواء فتية آمنوا بربهم ، وزادهم الله تعالى هدى ، وقد فروا من الوثنية إلى الوحدانية ، ومن الوثنيين إلى جوار ربهم ، وقد ربط الله على قلوبهم ، فاستمسكوا بإيمانهم ، واعتصموا بربهم ، وكان الإيمان قد سكن وعاء القلوب ، فربط الله تعالى بالصبر حتى لا يخرج من وعائه الذى استقر فيه ، واطمأن ، فلا يتشعع أمام أى حادث ، وإن الإيمان إذا سكن ، واطمأنوا ، كانت رحمة الله تعالى أن ضرب على آذانهم ، بمعنى أنه خيّم عليها ، فأصبحت لا تسمع لغو الحديث ، وإنهم إذْ آووا إلى الكهف ، قطعهم الله تعالى عن لغو الوثنية ، وظلم أهلها ، فاجتمع لهم الإنزواء عن الناس ، والبعد عنهم بالحسّ ، فلا يرون الناس ، ولا يسمعون عنهم ، وصاروا فى غيبوبة كأنهم الموتى ، وليسوا أمواتاً ، قال فيهم الحق سبحانه : ﴿ وَتَحْسَبُهم أَيقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ . وكل ذلك فى تصوير قصصى ، كأن التالى للقرآن يراهم ، وهم يهرعون إلى الكهف ، يأوون راجين الرحمة والرشاد ، مبتعدين عن الآثام ، وما فى الدنيا ، وقد زادهم الله تعالى ﴿ فجعلهم رقوداً ﴾ .

وهنا نجد الصورة واضحة .. أن أناساً يظن أنهم أيقاظ ، وهم رقود ، وقد بقوا على ذلك سنين عدداً تجاوزت الثلاثمائة .. هذا عن المشهد الأول .

* **أما المشهد الثانى** : فهو بعثهم أحياء ، وقد اختلف الناس فى أمر المدة التى استمروها فى الكهف ، وقد مرت الأجيال ، وهم يحسبون أنهم أيقاظ ، فقد استمروا كما ذكر القرآن ﴿ ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعا ﴾ .

ويجىء بعد البعث الكلام فى المدة التى مكثوها ، والسبب فى اختيارهم مأواهم . فقصّ الله خبرهم بالحق تفصيلا ، بعد أن ذكره إجمالا ، لقد قاموا من نومهم ، وهم يرددون إيمانهم بالله تعالى ، واعتراضهم على أقوامهم ، ويحكون ما كان منهم مع أقوامهم : ﴿ هَٰؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ ، وأن قومهم اعتزلوهم ، وهم لا يعبدون إلّا الله تعالى .

ونرى الصورة القصصية واضحة بيّنة ، هادية مرشدة ، تصور الملاحاة بينهم وبين أقوامهم ، حتى اعتزلوهم معتصمين بربهم مؤمنين به ، وهذا المشهد كل أجزائه واضحة ، حتى إنه يصور الكهف ومن فيه ، وخرجوا منه فى مشهد واضح بيّن ، هو كالعيان بتصوير القرآن الكريم

* **والمشهد الثالث** : هو منظرهم داخل الكهف ، وهم رقود ، وحال الكهف وصورته ..

فهم فى فجوة منه ، يتجهون فيه إلى الشمال والشمس تخرج لهم من الشرق يمينا ، وتودع الكون فى غربهم ، فالشمس والهواء يحيطان بهم ، وذلك أصلح مكان ، إذ يستقبل الشمس فى غدوها طالعة وفى غروبها رائحة ، والهواء من البحر يجىء إليهم فينعشهم نسيمه العليل .

فأسباب الحياة الطيبة قائمة ومهيأة لهم وهم رقود ، وإن كان الرائى يحسبهم أيقاظاً . والوصف القصصى مصوراً للمكان ، كأن القارىء للقرآن يراه ، وهو يتلو كتاب الله تعالى .

• ثم إنهم فى هذه المنامة يتقلّبون كالأيقاظ الأحياء ، بإرادة الله تعالى ، وأمره الكونى .

﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ اليَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ .

• ولا يترك القرآن العظيم من الصور المكانية شيئاً إلّا بيّنه وصوّره ، فيذكرهم وكلبهم يحرسهم ، وهو بالوصيد ، وهى فجوة بالجبل الذى فيه الكهف .

فالتصوير القرآنى لهذا المشهد .. كامل ، يرى فيه القارىء صورة للمكان ، وكأنها مصورة بصورة باهرة ، وليست كلاما متلو ، ولكنه كلام الله العزيز الحكيم . وإن المكان فيه رهبة ، وحالهم فيه هيبة ﴿ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴾

* **أما المشهد الرابع والأخير** – الذى تصوره القصة ، وقصص القرآن كله حق لا ريب فيه ، فهو مشهد التيقظ بعد الرقدة ، مشهدهم وقد رأوا الحياة اللاّغبة التى كانوا عنها غافلين ، وكانوا فيها راقدين ، وأول سؤال توجهوا به – سألوا به أنفسهم ، **كم لبثوا فى منامهم** ؟ وقد سألهم هذا السؤال واحد منهم ، فقالوا كأنهم مجمعون – لبثوا ﴿ يَوْماً أو بَعْضَ يوم ﴾ ولكنهم كشأنهم لم يتخبطوا ، ولعلهم ظنوا أن المدة أطول من ذلك ، ولذلك قالوا ﴿ ربُّكم أَعْلَمُ بما لبثتم ﴾

• وهنا نجدهم يتجهون إلى الحياة ، يطلبون رزقهم ، ومعهم نقود فضية ، قد ضربت منذ تسع وثلاثمائة سنة ، تكشف للناس عن أمرهم ، وكانوا ككل أهل الإيمان أهل تسامح ، فقد طلبوا من مبعوثهم أن يتلطف ، وألا يُشعر بهم أحداً ، حتى لا يكون منهم أذى . ويظهر أنهم بهذه النقود عثر الناس على أمرهم ، وعرفوا حقيقتهم ، وكان إلهام الله بذلك ، ليعرف الناس حقيقتهم ، وتكون حياتهم فى الكهف ، ورقدتهم فيه ، دليلا محسوساً على أن وعد الله بالقيامة حق ، وهذه كلها مشاهد فى القصة تعاين فيه أحداثها فى قصص محكم .

● أن قصة أصحاب الكهف فريدة فى نوعها – فى تاريخ العقيدة ، سجلها القرآن ، إثباتا للبعث والنشور .. وأنه حق .. بعث بالأجسام والأرواح .. وكان أصحاب الكهف هم البرهان الأكيد على أن الله يبعث من فى القبور .

بقى أن نقول إن السورة التى احتفلت بقصة أصحاب الكهف ، قد سميت باسمهم تكريما وتخليداً ، وقد فضلها رسول الله ﷺ ، وقال فى فضلها – فيما رواه عنه ابن عمر : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة سطع له نور من تحت أقدامه إلى عنان السماء ، يضيىء له يوم القيامة ، وغفر له ما بين الجمعتين » . وقال ﷺ – فيما رواه عنه أبو سعيد الخدرى : « من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق » .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

رَسُولُ الله .. وَرِسَالَته .. فى القُرْآن

جرت سُنّة الله تعالى فى خَلقه ، أن يبعث **رُسله** حين تشتد حاجة البشرية إليهم ، وحين يضلّ الناس عن سبيل الله ، وعن صراطه المستقيم ، الذى يصلهم بربهم ، ويعرفهم ما ينجيهم فى دنياهم وأخراهم .. فإنهم لا يهتدون إلى ما يفيدهم فيهما ، وهى مغيّبة عنهم إلا **برسول** ، كما لا يهتدون فى الدنيا إلى ما ينجيهم من سمومها إلا بطبيب .

وجريا على هذه السنة ، أرسل الحق سبحانه **رسوله محمداً** – ﷺ – إلى العالم كله ، وإلى الناس كافة ، بعد أن فسدوا وضلّوا ، واختلفوا وتقاطعوا وتخاصموا ، وبعد أن اشتدت الحاجة إلى **رسالة** تصلح العقائد ، وتداوى النفوس ، وتؤلف بين القلوب ، وتربط الناس بعضهم ببعض ، وتوجههم جميعا فى وحدة منسجمة متآلفة إلى بارئهم ، وخالقهم ، ليقوموا بواجب الشكر له على ما أنعم به عليهم ، وأسداه إليهم ، وما أرسل به رسوله من عقائد صافية ، وعبادات هادية ، ومعاملات حكيمة ، وأخلاق كريمة ، وتشاريع قويمة ، تقوم على أساس من الحق والخير والفضيلة .

ومنذ بداية البعثة المحمدية .. إلتزم القرآن العظيم بالتحدث عن شخصية هذا الرسول ، المبعوث رحمة للعالمين ، والتعريف به ، وبمهمته ، وبرسالته ، **حتى لقد كان الرسول جزءاً لا يتجزأ من الرسالة ، والرسالة صورة ناصعة لما أهَّل الله به رسوله النبى الأمىّ** – ﷺ .

* ارتبط التعريف برسول الله - ﷺ - بأمور :

- ارتبط أولا : بنوعية القوم الذين يتحدث إليهم القرآن .
- وارتبط ثانيا : بموقفهم من دعوته ، ومبلغ تصديقهم أو تكذيبهم برسالته .
- وارتبط ثالثا : بمبلغ ما يذيعونه ويفترونه لتشويه الدعوة ، وإثارة الشكوك فى نفوس الناس .

- فنقطة البداية .. التعريف بالرسول فى نطاق الصراع العقيدى مع القوم الذين بُعث إليهم ، وهم أبناء عشيرته الأقربون . لذلك جاء التعريف ليس لمجرد الذكر ، وإنما لهدف أسمى وهو : **تأييد الدعوة ، وتأكيد الرسالة .. وإظهار الحجة** :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨]

فالآية الكريمة تقرب الرسول محمداً من المخاطَبين ، فتقول إنه من أنفُسِكم ، ثم تجمع بينه وبينهم فى هذا الجانب العاطفى ، من أنه يخشى عليكم العنت ، ويحرص عليكم ، ويرأف بالمؤمنين برسالته الجديدة ويرحمهم ، وهذه السمات المميزة لا تراد لذاتها - كما هو واضح - ولكنها تمكين الدعوة من نفوس المخاطبين .

- **ويقدم القرآن صورة واضحة عن مهمته ورسالته :**

﴿ هُوَ الّذِى بَعَثَ فى الأُميِّينَ رَسُولاً مِنْهُم يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ ، وإنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلاَلٍ مُبِين ﴾ [الجمعة : ٢].

إن رسول الله - ﷺ - من الأميين أنفسهم ، ميزته أنه يتلو عليهم آيات الله ، ويزكهم ويعلمهم القرآن والسنة ، لأنهم كانوا فى ضلال .

• ويزيد القرآن فى توضيح صورة هذا النبى وتحديد شخصيته :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً . رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾

[الطلاق : ١٠ ، ١١]

• ثم يوضح القرآن الكريم **الصورة** أكثر وأكثر ، بتسليط الضوء على المؤمنين الذين معه حتى يكونوا المثل للذين يوجه إليهم الدعوة ..

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُم ، تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُود .. ﴾ [الفتح : ٢٩]

فالرسالة التى يحملها محمد – رسول الله – تنوير للقلوب ، وتربية للنفوس ، والمؤمنون مع محمد – ﷺ – يعبدون الله بالصلاة ، ولكنهم مع الكفار تجدهم أشداء عليهم ، ورحماء مع المؤمنين ، أشداء فى الحق ، رحماء فى العلاقة الإنسانية بينهم وبين من تجمعهم بهم وحدة العقيدة ..

فصورة المؤمنين – كما يرسمها القرآن – صورة مستمدة منه – ﷺ – باعتباره رسول الله .

• ومن زيادة التعريف بالرسول محمد ، والتكريم له ، أن الله جعله شاهداً على أمته ، وهذه مهمة كبرى حمّلها الحق سبحانه لرسوله ..

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِليكُم رَسُولاً شَاهِداً عَلَيكُم ﴾ [المزمل : ١٥]

• ويؤكد ذلك أنه جعل شهادته على أمته هى شهادة على الناس .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، ويكُونَ الرسُولُ عَلَيْكُم شَهِيداً ﴾ [البقرة : ١٤٣]

﴿ هُوَ سَمَّاكُما المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وتكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨]

هذه الصورة الواضحة لشخصية محمد كإنسان وكرسول يحمل رسالة من عند الله ، تزداد وضوحا فى الصراع الذى صوره القرآن بينه – ﷺ – وبين الكافرين والمشركين والمنافقين . هذا الصراع الذى وضح فيه جانب التشكيك .. إما بالكذب ، أو بمحاولة التعجيز ، أو التنكر لإنسانيته ، تمهيداً للتنكر لرسالته .

لقد بلغ العجب بأهل مكة أنهم يفكرون فى فرض اختيارهم على الله ، حتى أنهم ليتساءلون – لماذا لم ينزل القرآن على رجل عظيم ؟ . فأجابهم القرآن ، وهو يصور هذه الوضعية . ويعرف بمكانته ﷺ . ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ ورَسُولٌ مُبِينٌ . ولمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وإنَّا به كَافِرُونَ . وقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ؟ ﴾ [الزخرف : ٢٩ – ٣٢]

ففى سياق الاحتجاج عليهم بأنهم لا يقسمون رحمة الله ، وليس من حقهم أن يختاروا على الله أين يضع رسالته ، يعرّف محمداً بأنه (**رسول مبين**) ، وليس من عظماء مكة أو الطائف ، كما يعرفون هم العظماء .

* والمكيون – كما سجل القرآن ، كانوا شديدى العداوة لدين محمد ، وشديدى الجدل الذى يبعد كثيرا عن المنطق ، وفى هاته الصورة التى يحكيها القرآن عنهم ، وعن مجابهتهم ، والفكرة التى يتصورونها عن **النبوة** .. بل الإغراق فى الجدل ، ومحاولة التعجيز .. فى هذه الصورة ما ينبىء بما كان النبى يلقاه منهم حينما كانوا يريدون أن يخرجوه عن طبيعته ، فلا يريدون أن يقبلوا منه دعوة رسول ، ولكن يريدون أن يروه فى صورة أخرى لا تستند إلى الطبيعة البشرية :

﴿ وقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَناَ مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً . أَوْ تكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ ، فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَها تَفْجِيراً . أو تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَماَ زَعَمْتَ عَلَيْناَ كِسَفاً . أَوْ تَأْتِي باللهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً . أَوْ يكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ .. أو تَرْقَى فى السَّمَاءِ .. وَلَن نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْناَ كِتاَباً نَقْرَؤُه .. **قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً** ﴾ [الإسراء : ٩٠ – ٩٣]

إنهم يريدون من رسول الله أشياء تخرجه عن نطاق بشريته ..

يريدون منه أن يفجر الأرض .. وأن تكون له جنات من النخيل والعنب ، تجرى حولها الأنهار ، وذلك أقصى ما يصل إليه خيالهم من التعجيز لأنهم يفتقدون الماء . وكل المعجزات التى يتصورونها إنما تنحصر فى تفجير الينابيع ، وفى جنات النخيل والأعناب التى تجرى من حولها الأنهار .

وهى صورة أبلغ ما تكون فى قصر النظر ، وفى ربط الدعوة الفكرية بالمصالح المادية ، التى تطمح إليها نفوسهم .

● ثم يذهب بهم التعجيز أن يتحدّوه فى أن تنفذ فيهم الآية ، التى يقول فيها الله تعالى :

﴿ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [سبأ : ٩]

● بل يتحدُّونه فى أن يأتى بالله والملائكة ليشهدُوا بصحة ما يقول ..

ويختلط التحدى بالرغبة فى الحصول على مَبَاذِلِ الدُّنيا : ﴿ أَوْ يكونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرفٍ ﴾

• ثم تتطور الفكرة فيتحدُّونه أن يرقى فى السماء ..

ولكن القرآن العظيم يخسف بكل هذه التحديات .. فيعرف بالرسول فى كلمات معدودات تزرى بكل هذا الذى يطلبونه ويتحدون به .. ﴿ قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّى هلْ كُنتُ إلَّا بَشَراً رَسُولا ؟ ﴾

* وهم يستنكرون من الرسول أن يكون بشراً يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق :

﴿ وقَالُوا مَالِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فى الأسواقِ ﴾ [الفرقان : ٧]

بل يرجون فيه بعقلية التحدى المعروفة عنهم أن ينزل ﴿ إليه مَلَكٌ فيكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أو يُلْقَى إلَيْه كَنزٌ . أو تكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يأكُلُ مِنها وقالَ الظَّالِمُون إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً . انْظُر كيفَ ضَرَبُوا لَكَ الأمْثَالَ فَضَلُّوا فلا يَسْتَطِيعُون سَبِيلاً ﴾ [الفرقان : ٧ - ٩]

وهم لم يطلبوا ذلك تعظيما لأمر رسالته ، وإنما هو نوع من التحدى والسخرية - كما هو واضح من التعبير القرآنى .

ولم يفضح القرآن كل هذه التحديات السخيفة إلا ليؤكد **بشرية الرسول** ، ولينفى عن الرسالة الإلهية كل بُعْد عن النطاق البشرى ، فلا الملائكة يمكن أن يكونوا رسلا إلى جميع البشر ، ولا الرسول مفضل على بنى قومه بالكنوز والجنان ، ولا الرسالة الإلهية تحتمل السحر أو تفجير الأرض بالينابيع أو غيرها من الأعمال التى تخرج عن طاقة البشر ..

فإثبات بشرية الرسول - ﷺ - من الأهداف التى توخاها القرآن .

والقرآن إذ يؤكد على بشرية محمد - ﷺ ، فإنه يرمى من وراء ذلك أن لا يقع المسلمون مرة أخرى فيما سقط فيه النصارى ، حين ألَّهُوا

المسيح عيسى ابن مريم ، واعتبروه تارة هو الله ، وتارة ابن الله ، ولهذا ورد فى القرآن التأكيد القاطع على بشرية رسول الله ، وأنه يجرى عليه ما يجرى على سائر البشر .

* وإلى جانب المشركين .. كان هناك **أهل الكتاب** ، الذين يعارضون رسول الله – ﷺ – بكل أساليب المعارضة . وقد اتجه القرآن إلى أقوى دليل يؤكد خطأهم ، حينما يُعارضون – ويتحدّون وجود رسول الله .. رغم أنه مذكور عندهم فى التوراة والإنجيل . بيد أن تحريفهم لهذين الكتابين هو الذى أبعدهم عن روح الكتابين السماويين ، وهو الذى جعلهم لا يصدقون رسول الله ، ولا يدينون بدينه الجديد . يقول القرآن :

• ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسأَكْتُبُهاَ لِلّذِينَ يَتَّقُونَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والَّذِينَ هُمْ بآيَاتناَ يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَه مكْتُوباً عِنْدَهُم فى التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ ، يأْمُرُهُمْ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهاَهُم عَنِ المُنْكَرِ ويُحِلُّ لهُمُ الطَّيِّباتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الخَبائِثَ ، وَيَضَعُ عَنْهُمْ إصْرَهُم والأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ .. ﴾ [الأعراف : ١٥٦ – ١٥٧]

فرسول الله – النبى الأمى – لم يأت على غير موعد ، وخاصة عند الذين كانوا يدينون بشريعة سماوية أخرى نزل بها كتاب ، فقد تحدثت عن مجيئه التوراة والإنجيل ، ثم هو قد جاء ليطهر الإنسانية – ومنها اليهود والنصارى – من كل منكر ، فيحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث التى ابتدعوها ونسبوا بعضا منها إلى الدين – كما هو معروف عن السيئات التى يرتكبها اليهود وينسبونها إلى الدين – والدين منها براء .. ثم هو يحللهم من الإصر والأغلال التى ربطوا أنفسهم بها اعتقاداً منهم أنها من الدين ، وما هى من الدين فى شىء ..

• ويؤكد القرآن العظيم .. أن الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على النبيين والمرسلين ، أنهم يؤمنون برسوله محمد ﷺ حينما يبعث مصدقا لما معهم من دعوة وكتب سماوية ..

﴿ وإذْ أَخَذَ اللهُ ميثَاقَ النَّبِيِّينَ لَماَ آتَيْتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِماَ مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به وَلَتَنصُرُنَّهُ .. قَالَ : أأَقْرَرْتُم وأَخَذْتُمْ عَلَى ذلِكُم إصْرِى ؟ قَالُوا : أَقْرَرْنَاَ . قال : فَاشْهَدُوا وأَنَاَ مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِين ﴾
[آل عمران : ٨١]

• فرسالة رسول الله ، ودعوته – ﷺ – لم تبلّغ فقط إلى أهل الكتاب فى عصره ، ولكنها قبل ذلك أُخذت ميثاقاً على النبيين أن يصدقوه ، ويؤمنوا به ، وينصروه ، وقد أخذت بالتالى على أتباع هؤلاء الأنبياء ، ولن يكون هؤلاء يهوداً حقا ، ولانصارى حقا ، حتى يؤمنوا برسول الله ، لأن أنبياءهم آمنوا به ، وتعهدوا بتصديقه ونصرته ، وأخذوا بذلك عهداً لله على أنفسهم ، فأشهدهم الله على عهدهم وكان الله معهم من الشاهدين .

– فكيف يجوز بعد هذا أن يتنكر اليهود والنصارى لرسول الله – محمد ﷺ – ويناصبونه العداء ، وهم يزعمون أنهم متمسكون بالتوراة والإنجيل ، متَّبعُون لموسى وعيسى عليهما السلام ؟

وقد كانوا يزعمون – هم والمشركون – أنهم لن ينفكُّوا عن عقيدتهم إلى أن تأتيهم البيِّنة ، وهى النبى الموعود فى التوراة والإنجيل .. ولكنهم لم يلتزموا بهذا الوعد .. وهذا ما فضحه القرآن ..

﴿ لَمْ يكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتاَبِ والمُشْرِكينَ مُنْفَكِّينَ حتَّى تَأْتِيَهُمُ البيِّنَة . رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُطَهَّرَة . فيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتاَبَ إلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَة ﴾ [البينة : ١ – ٤]

• فى هذه الآيات ردّ للتحدى ، وإبراز لشخصية الرسول ورسالته ، وإضفاء الصورة الحقيقية على العلاقة بين رسول الله ورسالته .. وبين أهل الكتاب .

هذا هو رسول الله .. النبى الأمى ، وهذه هى شخصيته كما رسمها القرآن فى مواجها لخصوم رسالته المشركين منهم وأهل الكتاب .

فما هى الرسالة ؟

إن الرسالة السماوية التى كُلّف بها رسول الله .. هى أن يربط بين الناس وإله الناس عن طريق العقيدة الصحيحة ، والعبادة الخالصة ، ودعوتهم إلى الإيمان بالله وحده ، وإخلاص العبادة له .

إن الرسالة السماوية التى كُلف بها رسول الله أن يكون مبلغا وهاديا ورائدا ومبشرا ..

ولم تكن طبيعة هذه الرسالة لتخرجه عن كونه بَشَراً ، ولا ترفعه إلى مقام الألوهية ، وإنما هى رسالة من عند الله – إذا اكتسب صاحبها سمو المكانة ، والثقة المثلى من الله ، فليس ذلك بمخرجه عن طبيعته وبشريته .

ثم إنها تكليف محدود ، فليس من طبيعة الرسالة أن يكون صاحبها مسئولا عن النجاح فيها ، بل إن الله ليأمره أن يتقدم إلى مَنْ يُوَجِّه إليهم رسالته .. بأن يؤمنوا بهذه الرسالة ، أو لا يؤمنوا – لأن الله غنى عن العالمين ، وإيمانهم مصلحة لهم ، وكفرهم خسارة عقيدية وروحية ونفسية لهم .

رسالة رسول الله .. تبليغ للقرآن ، ودعوة للهداية ، وتبشير وقيادة وريادة .. يحدد القرآن كل ذلك :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتَابُ وَلَا الإيمَانُ ولكن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى به مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٢،٥٣]

فالوحى روح من أمر الله ، وتعليم للكتاب ، ونور وهداية ، وتوجيه لهداية الآخرين ، ورسالته وضحت فى كتاب يقرأ ، يحمله الرسول ، ويقرأه على الناس ، ويبلغهم دعوته وتعاليمه .

﴿ وبالحقِّ أَنْزَلْنَاهُ وبالحقِّ نَزَلَ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً ونَذِيراً . وقُرْآناً فَرَقْنَاه لتَقْرَأَه عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ ونَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً ﴾ [الإسراء : ١٠٥،١٠٦]

● ويزيد القرآن فى تعريف هذه الرسالة القرآنية ، وهو يرد على الذين زعموا أن محمداً مجرد شاعر أو كاهن أو ساحر ، ويؤكد المعنى الحقيقى لرسالة رسول الله ..

﴿ فَلاَ أُقْسِمِ بِماَ تُبْصِرُون . وَمَا لَا تُبْصِرُون . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وماَ هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً ماَ تُؤْمِنُون . وَلَا بقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً ماَ تَذَكَّرُون . تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِين ﴾ [الحاقة : ٣٨ - ٤٣]

معنى الرسالة إذن – أنها روح من أمر الله ، ثم قرآن نزل بالحق ، يتلى من عند الله .

ولكن القرآن لم ينزل للتلاوة والتبرك ، وإنما نزل **للهداية** ، وذلك يعطى معنى آخر للرسالة ، يزيد فى تحديدها ، وأكثر ما يحددها أنها عامة للناس جميعا ، للبشر كافة . تبشير وتحذير ..

﴿ ومَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً للنَّاسِ بَشِيراً ونَذِيراً ﴾ [سبأ : ٢٨]

﴿ ياَ أَيُّها النبىُّ إناَّ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونذيراً . ودَاعِياً إلَى اللهِ بإذْنِهِ وسِرَاجاً مُنيراً . وبَشِّرِ المُؤْمنينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾

[الأحزاب : ٤٥ – ٤٧]

والرسالة ليست قرآنا يتلى فحسب ، ولا تبشيرا ونذيرا فحسب ، ولكنها توجيه دعوة إلى الإيمان ، وتعليم للإيمان والدين والسلوك والخلق القويم ...

﴿ كَماَ أَرْسَلْناَ فيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيكُمْ آياَتِنا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتاَبَ والحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم ما لَم تكُونُوا تَعْلَمُون ﴾ [البقرة : ١٥١]

رسالة رسول الله محمد .. دعوة للناس كافة . والقرآن يقدم هذه الدعوة ، ويقدم محمداً الذى جاء بها :

﴿ قُلْ : يا أَيُّها النَّاسُ إنِّى رَسُولُ اللهِ إلَيكُمْ جَمِيعاً ، الَّذِى له مُلْكُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ ، لَا إلَهَ إلَّا هُوَ يُحْيِى ويُمِيتُ ، فآمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ النَّبِىِّ الأُمِّى الَّذِى يُؤْمِنُ باللهِ وكَلِماَتِهِ ، واتَّبِعُوه لَعلَّكُمْ تَهْتَدُون ﴾ [الأعراف : ١٥٨]

● ورسالة الرسول ليست قبلية ولا قومية ولا انعزالية .. فبما أنه بعث – ﷺ – للناس كافة ، فالإيمان برسالته يتطلب الإيمان بكل الرسالات السماوية ، وبكل الرسل الذين بعثوا قبله ، وذلك يعطى طابعا خاصا للرسالة المحمدية ..

﴿ آمَنَ الرَّسُول بَمَا أُنْزِل إلَيْه مِنْ رَبِّه والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وكُتُبِه ورُسُلِه لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٨٥]

من طبيعة الرسالة أنها هداية ولا تتحمل مسئولية الذين لم يهتدوا بعد أن تَبَيَّن لهم الطريق ، وتهديهم سواء السبيل :

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِين إِلَّا مُبَشِّرِينَ ومُنْذِرِينَ ، فَمَنْ آمَنَ وأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . والَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ العَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . قُلْ : لَا أَقولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحَى إِلَىَّ ﴾ [الأنعام : ٤٨ - ٥٠]

هذه الآيات تسلط الأضواء كاملة على معنى الرسالة ، ثم علاقة الرسالة بالذين توجه إليهم ، إنها تبشير وإنذار ، ولكنها تترك الحرية لضمير الآخرين ، إن شاءوا آمنوا ، وإن شاءوا لم يؤمنوا - إن شاءوا أصلحوا وعند ذلك لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وإن شاءوا كذبوا فسيلقون جزاءهم ..

ثم تتحدى الآية هؤلاء المكذبين لتوضيح جوانب كثيرة من طبيعة الرسالة .. فالنبى لا يملك خزائن الله ، وهو لا يعلم الغيب ، وليس مَلَكاً ، وإنما هو متَّبع لما يوحى إليه ..

الرسول لا يملك غير ذلك ، ولهذا أكدت آيات كثيرة الأمر بالتبليغ ثم تنتهى مسئوليته ..

﴿ يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ [المائدة : ٦٧]

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاَغُ ، واللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة : ٩٩]

﴿ وإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا البَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ [العنكبوت : ١٨]

هذه طبيعة الرسالة التى تحملها الرسول - يبذل كل جهده فى تبليغ رسالة ربه ، ثم يتركهم وضميرهم بعد أن يوضح لهم طريق الخير ، وطريق الشر ، وسواء عليه بعد ذلك آمنوا أو لم يؤمنوا ، فإن الله غنى عن العالمين .

هذه هى صورة الرسول .. وهذه هى صورة الرسالة .. صورة الرسول هى نفسها صورة الرسالة ، الرسول لا ينفك عن الرسالة ، والرسالة لا تنفصم عن الرسول ، إذ تحدث القرآن عن الرسول ، قرن إلى صورته تعاليم الرسالة ، وإذا تحدث عن الرسالة شمل الحديث شمائل الرسول ..

من هنا قلنا – إن الرسول والرسالة أمران لا ينفصلان ، عنصران مترابطان متلازمان ، الرسول جزء من الرسالة ، والرسالة مرآة تعكس صورة الرسول ، وتعكس المنهج الإلهى الذى وضعه الله لرسوله المصطفى المختار لكى يخاطب البشر ، ويهدى البشر إلى صراط العزيز الحميد .

وهكذا كانت مشيئة الله – العلى القدير ، أن يجعل منهج رسالته الإلهية ، منهجا عمليا تطبيقيا ، فاختار من البشر إنسانا يحمل هذا المنهج الإلهى ، ويحوله إلى حقيقة ، لكى يعرف الناس أصول العقيدة ، وأنها أحق بالاتباع ، فقدّم لهم القدوة ، وقدم لهم الأسوة ، وكان ذلك فى بعث الرسول النبى الأمى ..

ووضع الحق سبحانه فى شخصه العظيم الصورة الكاملة للمنهج الإلهى ، الصورة الحيّة للمنهج القرآنى الصورة الخالدة على مدار الزمن .. فكان الرسول الترجمة الحية لروح القرآن ، وحقائق القرآن ، وتوجيهات القرآن ، ودعوة القرآن – ومن ثمَّ كان كالقرآن قوة كونية عظمى ، قوة من صنع الله ، تتكامل فيها القوى وتتناسق فى محيطها الشامل ، وتتألف منها نفس واحدة تجمع كل النفوس ، تجمعها فى توازن واتساق .

ذلك هو محمد بن عبد الله – رسول الله ، النبى الأمىّ – ﷺ ، النور الكونى الذى بهر العالمين وحق للناس أن يحبوه كل ذلك الحب ، ويعجبوا به كل هذا الإعجاب ، ويتبعوه .

* * *

خاتمة البحث وأهم نتائجه

وبعد .. فهذه دراسة موضوعية لبعض القصص القرآنى ، أردنا من خلالها أن نلقى الضوء على **أهمية التفسير الموضوعى** ، وإبراز خصائصه وسماته فيما يتصل بالقصة الواحدة ، وكما قلنا فى صدر البحث – فى حديثنا عن المنهج – كان القصد الأول هو دراسة **نقطة معينة ، أو موقف محدد ، أو حدث معين** ، حدث لنبى من أنبياء الله ، ولم يكن القصد دراسة القصة بأكملها دراسة حصرية . وإنما كان الهدف دراسة واقعة محددة دراسة موضوعية .

وقد كانت حتمية الموضوع وطبيعة المنهج ، تفرض علينا أن تكون هذه الدراسة – كما ذكرنا – فى فصول ، كل فصل يتناول قصة من القصص القرآنى .

وقد فرض علينا الموضوع والمنهج ، أن نقدم لفصول الدراسة بتمهيد عن التفسير ومناهجه ..

● **فى هذا التمهيد** .. عرّفنا بالتفسير لغة واصطلاحا ، وأوضحنا كيف أن التفسير منذ القديم كان مجالاً رئيسيا التقت عليه كل الطوائف والاتجاهات الإسلامية .

فإذا ما انتقلنا إلى العصر الحديث ، وجدنا من يرفض تعريفات القدماء السابقين للتفسير ، ويرى أن مجهودهم لا مبرر له ، لأن القرآن لا يحتاج إلى تفسير شامل – كما فهم الأقدمون – وإنما يحتاج إلى توضيح بعض الألفاظ الغريبة على القارىء ، وقد أوضحنا وجهة نظرهم هذه ، ذلك أن المفسرين القدماء قد توسعوا توسعا كثيرا فى عرض القضايا النحوية والصرفية ، وحشوا تفاسيرهم بالعديد من المسائل ، التى أثقلت التفسير ، بحيث جعل القارىء يتوه فى خضم هذه الآراء .

ولقد وجدنا من يقول أن القرآن **للعبادة والتلاوة** ، ولا تتعرف معانيه إلّا بتعريف من النبى – ﷺ – وقد فندنا هذا الزعم ، وأوضحنا أن هؤلاء يتوقفون خشية أن ينحرف بهم الفكر . فيصرفوا معانى القرآن إلى غيرها لانحراف فى التفكير ، أو تزيد عليه ، فرأوا أن يكتفوا بالتلاوة والتعبد ، واقفين عند هذا الحد ، حتى لا يقولوا على الله بغير علم .

ثم انتقلنا لنبين ، أن التفسير علم قديم ، كان أستاذه الأول رسول الله – ﷺ – وكان علما يُدرس ، أقرّ به الصحابه ، وتدارسوه ومارسوه ، وكان على رأسهم حَبْر الأمة عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبى بن كعب ، وعلى بن أبى طالب ، وظل هذا العلم قائما يتوارث ويتناقل ، منذ عهد الصحابة والتابعين ، تشهد بذلك المصنفات الضخمة ، التى صُنفت فى التفسير ، سواء بالمأثور والرواية ، أو بالمعْقول والدراية . ثم وجدنا من المفيد أن نذكر أهم العناصر التفسيرية ، التى يجب أن يشملها التفسير إذا أراد المفسر أن يسلك الطريقة المثلى .

ثم رأينا أن نضيف إلى مفهوم التفسير القديم مفهوم التفسير الموضوعى ، الذى لا يزال يجد طريقه فى عالمنا الحديث . وتتبعنا بذوره منذ عهد رسول الله – ﷺ ، وعهد صحابته ، ووقفنا أمام تفسيرات عدة تتناول الجانب الموضوعى ، وتربط بين أجزاء القرآن وموضوعاته ، واجتهاد بعض الصحابة فى ربط الموضوع بالموضوع ، والآية بما يرتبط بها من آيات توضح المعنى وتدعمه ، ثم تتبعنا حركة التأليف فى موضوعات القرآن منذ القديم حتى العصر الحديث .

وتعرضنا لمنهج ابن تيمية ، وحملته الشعواء على الإسرائيليات المدسوسة فى التفاسير ، وخلوصه إلى أن خير طرق التفسير **أن يفسر القرآن بالقرآن** ؛ فما أُجمل فى موضع ، بُسِط فى موضع آخر ، وما ذُكر موجزاً فى آية ، جاء مفصلا فى آية أخرى ، وإن لم يف القرآن أحيانا بالمراد ، رجع إلى الحديث النبوى ،

وأقوال الصحابة . وانتهى ابن تيمية فى منهجه التفسيرى ، أن يفتح الأبواب أمام المفسر ، ليجتهد ويستنبط ، بعد أن يكون قد استوفى العُدة للتفسير .

وأوضحنا أن ابن تيمية مضى يطبق منهجه التفسيرى هذا على بعض **السور القرآنية** ، وفى مقدمتها **سورة النور** ، وبعض سور قصار من جزء عم ، وخص المعوذتين برسالة مستقلة .

وأوضحنا – أن هذا المنهج عينه – هو الذى اتبعه ابن قيم الجوزية (ت ٧٢١هـ) فى تفسير أقسام القرآن ، وفى تفسيره للمعوذتين .

ثم انتقلنا إلى العصر الحديث ، لنثبت أن التفسير ظل واقفا ، وقفة الركود والجمود ، لا يتعداها حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة ، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير ، إلى أن يتحرروا من قيد هذا الركود ، ويتخلصوا من نطاقه ، فنظروا فى كتاب الله نظرات – وإن كانت تعتمد على ما دوّنه الأوائل – إلا أنها أثرت فى الاتجاه التفسيرى للقرآن ، وألبسته أثوابا أدبية واجتماعية وموضوعية ، أظهرت روعة القرآن .

ولقد تحدثنا عن **التفسير الموضوعى** ، وأوضحنا ملامحه ، وقلنا إنه نشأ مقترنا وممتزجا بالتفسير الأدبى ، ذلك التفسير الذى تظهر فيه ذاتية المفسر ، وشخصيته ، وملكته الأدبية ، وقدرته على بلورة الأفكار ، وتقديم التصورات الممكنة ، والمحتملة ، والجائزة ، فى غلاف من الأسلوب الأدبى المؤثر ، المحرك لمشاعر القارىء والسامع ، المؤثر فى وجدانه . وقد ألمحنا إلى أن هذا اللون من التفسير إنما بدأ فى **نهاية القرن التاسع عشر** تقريبا ، بجهود الإمام الشيخ محمد عبده ، الذى رأيناه على هدى من قراءاته لابن تيمية ، يعرض تفسيرا دقيقا للجزء الثلاثين من القرآن الكريم ، أخلاه من كل الشوائب العقيدية والإسرائيلية ، ومكّن فيه لرفض البدع والخرافات ، واستخدام الفكر الحر فى فهم معانى القرآن .

وقد دعم الشيخ محمد عبده – فى تفسيره – **فكرة وحدة السياق فى السورة الواحدة** ، وأن المدار على عموم اللفظ ، لا على خصوص السبب . ولقد سار على نفس منهجه علماء كثيرون ، ذكرنا منهم :

الشيخ سيد قطب فى تفسيره « فى ظلال القرآن » والشيخ أمين الخولى – رحمه الله – فى محاضراته وكتاباته ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن فى التفسير البيانى للقرآن . والدكتور شوقى ضيف فى تفسير سورة الرحمن وقصار السور ، والدكتور محمد خلف الله أحمد فى تفسير سورة الرعد .

وبعد أن حللنا منهج كل عالم من هؤلاء العلماء ، رأينا من المفيد أن نتعرض **لمناهج البحث فى التفسير الموضوعى** .

* وبعد إذ انتهينا من الدراسة التمهيدية ، انتقلنا بعد ذلك إلى دراسة أهم القصص القرآنى لأنبياء الله ورسله ، مراعيا الجانب الزمنى ، والترتيب الإلهى الوارد فى القرآن .

ولقد خصصنا **الفصل الأول** للحديث عن أنبياء الله ورسله . فتحدثنا عن النبوة ، وفرقنا بين النبى والرسول ، وعرّفنا بالأنبياء المرسلين ، ثم تحدثنا عن سماتهم وشمائلهم ، ثم حددنا استناداً إلى قول الرسول – ﷺ – من أول رسول أرسله الله .. وما عدد الرسل ، وأين ديارهم ومواطنهم .

ثم أجبنا على السؤال الحائر : هل كانت المنطقة العربية وحدها هى موطن النبوات ؟ ..

كما حددنا من هم أولو العزم من الرسل ، وأوضحنا معنى الإيمان بالرسل ، وأبرزنا المؤيدات الإلهية لهؤلاء الرسل . ثم ألمحنا إلى أن الإيمان بالرسل كل لا يتجزأ ، فلا يصح الإيمان ببعضهم ، والكفر بالبعض الآخر . وذكرنا إن الإيمان

بالرسل يستتبعه حتما الإيمان بالرسول المصطفى محمد - ﷺ - الذى احتفل القرآن الكريم بذكر الأدلة على رسالته ، والأدلة على نبوته ، وأشرت إلى البشارات الكبرى التى ورد ذكرها فى الكتب السماوية السابقة .. التوراة والإنجيل ، وبشرت بنبوّته وبعثته ودعوته .

ثم أتبعت ذلك بشهادة الحق تبارك وتعالى وملائكته لمحمد بالنبوة والرسالة ، ثم تناولت بالحديث المؤيدات الإعجازية ، **المعنوية والحسية** ، التى أيد الله بها نبيه - ﷺ - وختمت هذا الفصل بتوضيح أن الرسول - ﷺ - لم يترك شيئا غامضا - يتصل بدعوته وشريعته - إلا وضحه وكشف غموضه .

* **وفى الفصل الثانى** - درسنا **قضية استخلاف آدم فى الأرض** ، فعرضنا أولا لخلق الكون ، خلق السموات والأرض وما فيهن ، وكيف أعد الله كل هذه الخلائق من أجل آدم ، الذى أراده الله أن يكون خليفته على الأرض ثم تحدثنا عن قضية الاستخلاف ، وإعلام الله ملائكته بذلك ، وأمره لهم بالسجود له ، فسجدوا كلهم إلا إبليس ، ثم تحدثنا عن سكنى آدم وزوجه الجنة ، ثم خطيئته التى وقع فيها ، بالأكل من الشجرة ، التى حرمها الله عليه ، وعلى زوجه .

ولقد تعرضنا فى هذا الفصل لمجموعة من القضايا الهامة .. منها : قضية خلق حواء ومتى وكيف وأين ؟ وهل الجنة التى أدخلها آدم كانت فى السماء أم فى الأرض ؟ ومعاتبة الله - سبحانه - لآدم وحواء نتيجة للغواية ، ثم إهباط الله لهما من الجنة .

ثم كان المجال فسيحا لمناقشة قضية الاستخلاف نفسها ، فعرفنا بالتفصيل ما المراد **بالخلافة** ، ومن أين علمت الملائكة أن هؤلاء الخلق الجديد سيفسدون فى الأرض .. ثم تناولنا احتفال القرآن بذكر شرف آدم على الملائكة ، وحكمة استخلافه ، وألمحنا أن إرادة الحق إنما كانت من أجل عمارة الأرض ، التى خلقها له ولذريته ، واستثمار خيراتها .

* **وفى الفصل الثالث** – درسنا **قصة قابيل وهابيل** ، وهى **قصة أول** جريمة قتل وقعت على الأرض ، كما قصها القرآن ، وحددنا أسباب نزولها ومواضعها فى القرآن ، وحددنا حقيقة الصراع بين الأخوين ، ولماذا أدى إلى القتل ، وأشرنا إلى إرادة هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله ، وإثم نفسه ، وأوضحنا الطريقة التى قتل بها الأخ أخاه ، وماذا حدث بعد القتل .

ثم أوضحنا أن القرآن الكريم ما كان ليذكر مثل هذه القصة إلّا لغرض إلهى ، **وحكمة إلهية** . هذه الحكمة تنجلى فى **إنزال قانون السماء فى القصاص** ، ثم تحديد الأحكام الشرعية التى تتصل بقتل النفس . وبالسعى فى الأرض فساداً ، وأن ذلك كله إنما جاء على وجه من التصريف البيانى .

* **وفى الفصل الرابع** تناولنا بالدراسة **قصة نوح** – عليه السلام – وسفينته والطوفان . وقلنا إن هذه القصة من القصص القرآنى الكبير ، الذى احتل مكانا بارزا فى القرآن ، شغل حيّزاً كبيرا من سوره وآياته ، بالإضافة أن القرآن – الجلالة قدره – خصص سورة بأكملها للحديث عنه ، وهى « **سورة نوح** » .

ولقد تجلت فى قصة نوح – عليه السلام – أمور ، أهمها الاهتمام برسيخ العقيدة ، كأصول التوحيد ، وإثبات البعث والنشور ، والجزاء والحساب ، والثواب والعقاب ، وإثبات دلائل النبوة . كل ذلك ورد فى قصته عليه السلام ، ولقد تتبعنا قصته فى القرآن الكريم متابعة دقيقة أوضحنا فيها أهداف رسالته ، وأنه مكث ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه بلا مستجيب ، ثم يأسه وشكواه إلى ربه عصيان قومه ، وكان نتيجة ذلك – كما أوضحنا – أن جاءه وحى ربه بصنع السفينة ، ثم كان الطوفان وغرق المكذبون وأخيرا تعرضنا لقضية التفاعل بين الإيمان وبين العاطفة الأبوية ، فى دراسة تحليلية خاصة .

* **وفى الفصل الخامس** ، تناولنا **قصة الذبيح** – ولد إبراهيم ، فدرسنا فكرة أن الدين أساسه الفطرة ، وأساس الفطرة **التوحيد** ، وأثبتنا أن التوحيد قديم منذ الأزل ، وهو أساس كل دين ، ثم تحدثنا عن قضية التوحيد التى نادى بها إبراهيم أبو الأنبياء ، وأثبتنا أن دعوته كانت صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، وأنها كانت نبوة بعدها نبوات ، هذه الدعوة ، وهذه النبوة ، هى **الحنيفية السمحة** ، التى تحدث عنها الرسول – ﷺ – وهى الملة التى اعتنقها الحنفاء ، منذ عهد إبراهيم الخليل وحتى مبعث المصطفى – ﷺ – .

كل هذا كان منطلقا للإجابة على السؤال الحائر ، **من هو الذبيح ؟** إسماعيل أم إسحاق ؟ وأثبتنا أن المفسرين الذين زعموا أنه إسحاق ، إنما تأثروا بأهل الكتاب ، خاصة بنى إسرائيل ، ونقلوا عنهم بلا دراية ، ثم ناقشنا الآراء التى جاءت بها الروايات المختلفة ، وفندناها ، وبيّنا زيفها ، استناداً إلى ما جاء فى التوراة والقرآن العظيم ، ثم قدمنا الدليل على أن الذبيح هو **إسماعيل** ، استناداً إلى كتاب الله الكريم ، وإلى الأقوال الصحيحة لرسول الله ، وآراء العلماء الكبار ، من أمثال ابن القيم ، وابن كثير وغيرهما .

كما فندنا مزاعم المستشرقين الذين أيدوا ما ذهب إليه اليهود ، واستناداً إلى فكرة خاطئة ، وهى عدم ظهور نبوة عند العرب الجاهليين قبل الرسول محمد – ﷺ . وبرهنّا على أن النبوات كانت موجودة ، حيث تحدث القرآن الكريم عن هود ، وعن صالح – عليهما السلام – وهما نبيان عربيان أرسلا إلى عرب هم من العاربة الأولى ، فليس من المعقول أن يحدّث القرآن العرب عن أنبياء لا يعرفونهم .

* **وفى الفصل السادس** ، **درسنا قصة ذى القرنين** وبناء سد يأجوج ومأجوج ، فعرّفنا بذى القرنين ، ولماذا سمى بذلك ، ثم تحدثنا عن مسيرته فى

سبيل الله ، وأهدافها ، وأوضحت أن هذه المسيرة كانت تستهدف هدفين :

أولهما : إعلاء كلمة الله ، ونشر عقيدة التوحيد فى كل مكان ، ومن أجل ذلك اتجه نحو المغرب زمنا ، ثم اتجه نحو المشرق زمنا آخر .

وأما الهدف الثانى ، فهو حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة المفسدة المخربة ، ومن أجل ذلك بنى السد ليحمى الفئة المؤمنة من هجمات قوم يأجوج ومأجوج . وتعرضنا بعد ذلك إلى كيفية بناء السد ومواصفاته ، وكيف أن هذا السد كان نعمة من الله ، وكان منيعا ، جعله الله دليلا على قوة الإيمان ، من أجل ذلك لم يمكّن قوم يأجوج ومأجوج من خرقه ، بل لقد جعل الحق سبحانه وتعالى – خرقه أو إنهياره من علامات الساعة .

* **وفى الفصل السابع** : درسنا **قصة الصدّيق يوسف** – عليه السلام – ومحنة المراودة ، وأشرنا إلى أن هذه القصة – بشهادة القرآن ، أحسن القصص ، لأنه ليس فى القرآن قصة تتضمن من العِبر والحِكَم ، والعجائب واللطائف ، ما تضمنت هذه القصة ، ولأن فيها ذكر العفة والتوحيد ، وعلم السير ، وتعبير الرؤيا ، وآداب السياسة والمعاشرة ، وتدبير المعاش ، فصارت أحسن لما فيها من المعانى الجزيلة ، والفوائد الجليلة التى تصلح للدين والدنيا .

ولقد عايشنا يوسف – عليه السلام – فى محنه الثلاث ، محنة إلقائه فى غيابة الجب ، ومحنة الاسترقاق ، لنصل إلى أكبر محنة صادفته ، وهى **محنة المراودة** . فتحدثنا عن معنى المراودة ، وجدل العلماء حولها ، وما قيل فيها من آراء ، ثم أبرزنا الاضطراب الواضح فى المرويات ، وتحدثنا عن البرهان الذى رآه ، والمفاجأة العجيبة التى حدثت أثناء المراودة ، وعللنا للأسباب التى من أجلها حدثت المراودة . ثم ختمنا هذا الفصل بدراسة توضح حقيقة الأمر ، وأن كثيراً

من المزاعم كانت محمّلة على يوسف – عليه السلام ، ثم برزنا للأسباب التى من أجلها ورد ذكر قصة يوسف فى القرآن مرة واحدة .

* **وفى الفصل الثامن** : درسنا **قصة شعيب** – عليه السلام – مع أصحاب الأيكة ، الذين فَشَت فيهم منكرات عديدة ، أبرزها : التطفيف فى المكاييل والموازين ، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم ، ويفسدون فى الأرض ، ويأكلون أموال الناس بالباطل ، فأرسل الله إليهم نبيّه الضرير – خطيب الأنبياء شعيبا ، ليقوّم أخلاقهم ، ويرشدهم إلى العقيدة الصحيحة ، ويحثهم على عدم الإفساد فى الأرض ، وعدم الظلم والرشوة ، وعدم القعود فى الطرقات . وأبرزنا أن شعيبا – عليه السلام – عانى كثيرا من العنت والاضطهاد ، وتحمل كثيرا من الصعاب ، وأنه دخل مع قومه فى مناقشات من أجل إقناعهم بعبادة الله ، والالتزام بالأخلاق القويمة ، ولكنهم هدّدوه بالإخراج من بلده .. كما هددوه بالرجم .

ولقد أتبعنا دراستنا لقصة شعيب ، بتوضيح نظام الله فى كونه ، وسنته مع خلقه قديما وحديثا ومآل كل الظالمين .

* **وفى الفصل التاسع** : درسنا **قصة موسى** – عليه السلام – مع صاحبه الخضر . فعرّفنا أولا من هو الخضر ؟ ولماذا سمى بذلك ؟ ثم أوضحنا قصته مع موسى عليه السلام ، استناداً إلى ما جاء عن رسول الله – ﷺ – وحددنا الأسباب الأساسية التى من أجلها أرسل الحق تبارك وتعالى – موسى إلى الخضر ، ليتعلم منه ، وسؤال موسى له تلطفا أن يتّبعه ليقتبس من علمه الإلهى .

ولقد أشرنا إلى الأمور التى اختبر الخضر فيها موسى ، كغرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، ثم عرضنا للمبررات التى من أجلها فعل الخضر ما فعل ، واعترافه بأن ما فعله ليس عن رأيه أو اجتهاداً منه ، وإنما تنفيذا لإرادة الله

وإلهامه ، وألحقت بهذه الدراسة ما يستفاد من الحكم والعبر التى ساقها الله ، ثم أجبنا على السؤال المطروح وهو : هل كان الخضر نبيا ؟

* **وفى الفصل العاشر** ، درسنا **قصة قارون وطغيانه بالمال ، وغروره بالعلم** ، وكيف أن ذلك كله كان مآله إلى الفناء ، **فعرّفنا بقارون** ، وكم كان ثراؤه ، وكيف كان سلوكه مع قومه ، ومع موسى – عليه السلام ، وكيف تكبّر وتجبّر ، لما أتاه الله من الأموال المنقولة والثابتة ما إنّ علمه والإحاطة به ، والمحافظة عليه ، لتنوء به العصبة من أولى القوة ، وأوضحت أن قومه نصحوه كثيرا ، بيد أنه أَبَى أن يقبل هذا النصح ، وازداد غروراً بما أعطاه الله من مال وعلم ، حتى كان **يوم الزينة** ، فدعا موسى ربه فخَسَف بقارون وبداره وبماله وبجموعه الأرض .

* **أما الفصل الحادى عشر** : فقد خصصناه لدراسة **قصة نبىّ الله داود** – عليه السلام – **وقضية الابتلاء** فأوضحت أن الحق سبحانه اختار داود ليكون نبيا مرسلا ، وملكا قويا ، واختصه بأمور لم تكن لغيره ، كالحكمة وفصل الخطاب ، والتأييد بالسلسلة ، ونزول **الزبور** ، كما اختصه بالصوت الطيب ، والنغمة اللذيذة ، والترجيع والألحان ، والقوة الجسدية ، بالإضافة إلى جمال الخَلْق والخلق . ثم أوضحنا ما كان من تعرضه للامتحان الرهيب ليصل إلى ما وصل إليه آل داود .. فكان الابتلاء العظيم .

ولقد تعرضنا لموضوع القضية ، قضية الخِصْمين المتخاصمين ، ثم حكم داود قبل سماع الخصم الآخر ، وأوضحنا أن قضية الابتلاء بالمرأة ، كانت مثار جدل كبير ، ونقاش مثير ، خاض فيها كثير من المفسرين والعلماء ، نتيجة لدخول الكثير من **الإسرائيليات** فيها ، ثم ألمحت إلى أن هذه القصة بعناصرها العديدة كانت من تصريف البيان القرآنى .

* **وأما الفصل الثانى عشر** : فقد درست فيه جزءاً من **حياة المسيح عيسى ابن مريم** ، **وقصة المائدة** وهى قصة حرص القرآن على إبرازها وتقديمها للبشرية جمعاء ، بكل عناصرها وتفاصيلها ، لأنها كانت وسيلة أهل الكتاب للجدل والمناقشة فى دين الإسلام .

وقد مهدت لهذه القصة بعرض مجموعة من الحقائق عن المسيح ، وكيف أن الله سبحانه أيده بالمعجزات الحسية التى تتناسب مع عصره ، مثل تأييده بروح القدس ، وخلقه الطير من الطين ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وإحياء الموتى بإذن الله .

ثم انتقلت إلى قصة المائدة ، وأوضحت الظروف التى من أجلها طلبها عيسى – عليه السلام – من الله ، وأشرت إلى ما احتوته من طعام ، والمعجزات التى واكبت نزولها ، وانتقام الله من المكذبين ، وأخيرا أشرت إلى محنة تعذيبه ومطاردته حتى رفعه الله – سبحانه – إلى السماء .

* **والفصل الثالث عشر** درسنا فيه **قصة أصحاب الكهف ورحلتهم الإيمانية** . وهذه القصة من أعظم القصص القرآنى ، المصور فى صدقه وسرد حقائقه ، قصة التضحية بالنفس فى سبيل العقيدة .

وأوضحت أن القرآن الكريم ذكرها فى معرض الرد على منكرى البعث والنشور يوم القيامة .

لقد عرّفت مَنْ هم أصحاب الكهف ، وفى أى عصر عاشوا ، ولماذا هربوا من قومهم ، ثم دخلوا الكهف ليلوذوا به خوفا من الغدر ، ولقد ذكرت أهم المواصفات التى وردت للكهف استناداً إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة . كما عللت للأسباب التى بسببها لم يحدد القرآن مكان الكهف . ثم تعرضت لبعض المسائل الهامة المرتبطة بهم ، منها .. لماذا لم تُبْلَ أجسامهم وعيونهم ، ولماذا ألقى الله

عليهم المهابة .. وصورت كيف أن مبعثهم كان على صورتهم الحقيقية كما أرادها الله . ثم ألمحت إلى الحكمة التى من أجلها بعثهم الله على هذه الحالة . كما حددت عددهم ، وكم لبثوا فى كهفهم هذا ، وأشرت إلى أن القرآن صوّر هذه القصة فى صورة مشاهد تلفت النظر . وتبهر العقول ، من أجل الإيمان بإمكان البعث والنشور .

* **والفصل الأخير** ، خصّصناه **لقصة رسول الله مع الكافرين والمشركين** بما وضح ذلك القرآن فبينّا كيف التزم القرآن بالتحدث عن شخصية الرسول – ﷺ – والتعريف به فى مجال الصراع العقيدى . فأوضحت أن القرآن رسم صورة واضحة عن الرسول ومهمته ورسالته ، وأبرزت كيف أن المشركين كانوا يريدون أن يخرجوا الرسول عن طبيعته البشرية ، ويتحدونه فى أن يأتى بالله والملائكة ليشهدوا بصحة نبوته . وقد ألمحت إلى أن القرآن الكريم وقف أمامهم بالمرصاد ، وقف ليخسف بكل تحدياتهم ، ويؤكد بشريّة الرسول ، ويعارض أهل الكتاب ، ويحدد مهمة الرسول ، وقيمة الرسالة .

وهنا تتجلى أمام أذهاننا بعض الحكم التى أرادها الله – سبحانه – من قصّ هذه القصص وغيرها على نبيه المصطفى ﷺ :

• **الحكمة الأولى** : أنه **إظهار لنبوته – ﷺ –** ودلالة على رسالته ، وذلك أن النبى – ﷺ – كان أميا ، لم يختلف إلى مؤدب ، ولا إلى معلم ، ولم يفارق وطنه بمدة يمكنه فيها الانقطاع إلى عالم يأخذ عنه علم الأخبار ، ولم يعرف له طلب شيء من العلوم إلى أن كان من أمره ما كان . فنزل جبريل – عليه السلام – ولقّنه ذلك ، فأخذ يحدّث الناس بأخبار ما مضى فى القرون ، وسير الأنبياء ، والملوك المتقدمين ، فمن كان من قومه عاقلا موفقا صدَّق بما يوحى إليه ، وإخباره إياه بذلك ، فآمن به وصدقه ، وكان ذلك معجزة له ، ودليلا على صحة نبوته ،

ومن كان منهم عدوًّا معانداً حسده وأنكر ما جاء به ، وقال كما أخبر الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وأَصِيلاً ﴾

[الفرقان : ٥]

وقال الله تعالى **تكذيبا لهم** وتصديقا للنبى – ﷺ :

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِى يَعْلَمُ السِّرَّ في السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الفرقان : ٦]

• **الحكمة الثانية : أنه إنما قصَّ عليه القصص ليكون له أسوة وقدوه بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين** – فيما أخبر الله تعالى عنهم ، وأثنى عليهم ، ولتنتهى أمته عن أمور عوقبت أمم الأنبياء بمخالفتها إليها ، واستوجبوا من الله – بذلك – العذاب والعقاب ، فيتمم الله بذلك معالى الأخلاق ، فلما امتثل أمر الله تعالى ، واستعمل أدب الأنبياء ، أثنى الله عليه ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وإنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤]

• **الحكمة الثالثة : أنه إنما يقص عليه القصص تثبيتاً له ، وإعلاما بشرفه ، وشرف أمته ، وعلو أقدارهم** ، وذلك أنه لما نظر إلى أخبار الأمم قبله ، عَلِم أنه عُوفى هو وأمته من كثير مما أمتحن الله به الأنبياء والأولياء ، وخفف الله عنهم فى الشرائع ، ورفع عنهم الأثقال والأغلال ، التى على الأمم الماضية ، كما قال بعض المفسرين ، فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾

[لقمان : ٢٠]

فأما النعمة الظاهرة ، فهى تخفيف الشرائع ، وأما **الباطنة** ، فهى تضعيف الصنائع .

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥]
وقال عز شأنه : ﴿ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُم وخُلِقَ الإنْسَانُ ضَعِيفاً ﴾
[النساء : ٢٨]

فلما قص الله هذه القصص على نبيّه ، رأى فضل نفسه ، وفضل أمته ، وعلم أن الله خصّه هو وأمته بكرامات لم يخص بها أحداً من الأنبياء والأمم ، فوصل قيام ليله بنهاره ، وصيامه بقيامه ، لا يفتر عن عبادة ربه أداء لشكره ، حتى تورّمت قدماه ، فقيل يا رسول الله : « أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ »

• **الحكمة الرابعة : أنه إنما قص عليه القصص تأديبا وتهذيبا لأمته** ، وذلك أنه ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم ، ثم ذكر تحذيره إياهم عن صنع الأعداء ، وحثهم على صنع الأولياء ، فقال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١]

• **الحكمة الخامسة : أنه قص عليه أخبار الأنبياء والأولياء والماضين إحياء لذكرهم وآثارهم** ، ليكون المحسن منهم – فى إبقائه ذكره – مثبتا له تعجيل جزائه فى الدنيا ، حتى يبقى لذكره وآثاره الحسنة إلى قيام الساعة ، كما رغب خليل الرحمن – عليه الصلاة والسلام – فى إبقاء الثناء الحسن . فقال :

﴿ واجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ ﴾ [الشعراء : ٨٤] .

* * *

(أهم مصادر البحث)

١ • **الإتقان فى علوم القرآن** . جلال الدين السيوطى (ت ٩١١هـ) الطبعة الثالثة – ط مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٠هـ

٢ • **الإكيل فى استنباط التنزيل** . جلال الدين السيوطى . مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٨٩)

٣ • **الآثار المرفوعة فى الأحاديث الموضوعة** . الشيخ اللكنوى ط . الهند

٤ • **أحكام القرآن** . الجصّاص ط . البهية المصرية سنة ١٣٤٧هـ

٥ • **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم** . أبو السعود العمادى (ت ٩٨٢هـ) ط . دار العصور سنة ١٣٤٧هـ

٦ • **الإسرائيليات والموضوعات** . الشيخ محمد أبو شهبة . ط . مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٧١م

٧ • **أساس البلاغة** . الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) ط . الشعب سنة ١٩٦٠م

٨ • **أسباب النزول** . السيوطى . مطبوع على هامش تفسير الجلالين .

٩ • **الإصابة فى تمييز الصحابة** . ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢هـ) ط . السعادة سنة ١٣٢٨هـ

١٠ • **إعجاز القرآن** . الباقلانى – تحقيق السيد صقر . ط . دار المعارف سنة ١٩٦٣م

١١ • **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية** . مصطفى صادق الرافعى . ط . الاستقامة سنة ١٣٨١هـ

١٢ • **الأعلام** . خير الدين الزركلى . الطبعة الثانية سنة ١٣٧٤هـ

١٣ • **إعلام الموقعين** . لابن القيم (ت ٧٥١هـ) مطبعة فرج الله الكردى سنة ١٣٢٥هـ

١٤ • **إمعان فى أقسام القرآن** . المعلم عبد الحميد الفراهى الهندى ط . المطبعة السلفية سنة ١٣٤٩هـ

١٥ • **أنوار التنزيل وأسرار التأويل** . القاضى البيضاوى (ت ٦٨٥هـ) ط . مطبعة المشهد الحسينى سنة ١٩٦٧م

١٦ • **البحر المحيط** . أبو حيان (ت ٧٥٤هـ) ط . مطبعة السعادة سنة ١٣٢٨هـ

١٧ • **البداية والنهاية** . ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) الطبعة الأولى سنة ١٩٦٦م

١٨ • **البرهان فى علوم القرآن** . الزركشى (ت ٧٩٤هـ) تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم – ط . عيسى الحلبى سنة ١٣٧٦هـ

١٩ • **بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز** . الفيروزابادى (ت ٨١٧هـ) – تحقيق الشيخ محمد على النجار . ط . مطابع شركة الإعلانات سنة ١٣٨٣هـ

٢٠ • **البيان فى علوم القرآن** . الشيخ عبد الوهاب عزلان . ط . مطبعة دار التأليف سنة ١٣٨٤هـ

٢١ • **تأويل مشكل الحديث** – لابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) ط . المطبعة الأزهرية .

٢٢ • **تأويل مشكل القرآن** – ابن قتيبة . تحقيق الأستاذ السيد صقر . ط . عيسى الحلبى .

٢٣ • **تاريخ القرآن** – أبو عبد الله الزنجانى . ط . مطبعة لجنة التأليف سنة ١٣٥٤هـ

٢٤ • **تبصير الرحمن وتيسير المنان** لبعض ما يشير إلى إعجاز القرآن – المخدوم المهايمى (ت ٨٣٥هـ) ط . المطبعة المصرية سنة ١٢٩٥هـ

٢٥ • **التبيان فى آداب حملة القرآن** . محيى الدين يحيى النووى – على هامش منار الهدى للأشمونى . المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٧هـ

٢٦ • **التبيان فى أقسام القرآن** – ابن القيم (ت ٧٥١هـ) ط . دار الطباعة المحمدية سنة ١٣٨٨هـ

٢٧ • **تحذير الخواص من أكاذيب القصاص** . السيوطى – طبع مصر .

٢٨ • **التذكار فى أفضل الأذكار** . أبو عبد الله القرطبى (ت ٦٧١هـ) تحقيق الغمارى – ط . الخانجى سنة ١٣٥٥هـ

٢٩ • **التفسير – معالم حياته ، منهجه اليوم** – الشيخ أمين الخولى . ط . دار المعلمين للطبع والنشر سنة ١٩٤٤م

٣٠ • **التفسير البيانى للقرآن الكريم** – الدكتورة عائشة عبد الرحمن ط . دار المعارف بمصر .

٣١ • **التفسير والمفسرون** – الدكتور حسين الذهبى ط . دار الكتب الحديثة سنة ١٩٧٦م

٣٢ • **التفسير الموضوعى للقرآن** – الدكتور أحمد السيد الكومى ط . دار الهدى سنة ١٩٨٠م

٣٣ • **تفسير القرآن العظيم** – ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ط . الاستقامة .

٣٤ • **تفسير القرآن الحكيم** – محمد رشيد رضا . ط . محمد صبيح سنة ١٣٧٣هـ

٣٥ • **تفسير جزء عم** – الشيخ محمد عبده . ط . المطبعة الأميرية سنة ١٣٧٢هـ

٣٦ • **تفسير الأجزاء العشرة الأولى** . الشيخ محمود شلتوت . ط . دار القلم سنة ١٩٦٦م

٣٧ • **تفسير جزء تبارك** ، الشيخ عبد القادر المغربى . ط . مطبعة الشعب .

٣٨ • **تناسق الدرر فى تناسب السور** . السيوطى (٩١١هـ) طبع القاهرة سنة ١٩٧٦م

٣٩ • **تنزيه القرآن عن المطاعن** . القاضى عبد الجبار (ت ٤١٥هـ) ط . مطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩هـ

٤٠ • **جامع البيان فى تفسير القرآن** . ابن جرير الطبرى (ت ٣١٠هـ) ط . الأميرية سنة ١٣٢٣هـ

٤١ • **الجامع لأحكام القرآن** . القرطبى (٦٧١هـ) ط . دار الكتاب العربى سنة ١٩٦٧م .

٤٢ • **جواهر البيان فى تناسب سور القرآن** – عبد الله محمد الصديق العمارى . ط . القاهرة

٤٣ • **الجواب المنيف فى الرد على مدعى التحريف فى الكتاب الشريف** – يوسف الدجوى . ط النهضة الأدبية سنة ١٣٣١هـ

٤٤ • **درة التنزيل وغرة التأويل** – أبو عبد الله الإسكافى (ت٤٢١هـ) ط . السعادة سنة ١٣٢٦هـ

٤٥ • **روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى** – الألوسى (ت ١٢٧٠هـ) إدارة الطباعة المنيرية

٤٦ • **سورة الرحمن وقصار السور** . الدكتور شوق ضيف – ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧م

٤٧ • **سيرة ابن هشام** – تحقيق مصطفى السقا وآخرين . ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٥٥هـ

٤٨ • **الشعراء الحنفاء** – الدكتور أحمد جمال العمرى – ط . دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٠م

٤٩ • **الشفا للتعريف بحقوق المصطفا** – القاضى عياض . ط . المطبعة العثمانية سنة ١٣١٢هـ

٥٠ • **الصافى فى تفسير القرآن المجيد** – محمد بن المرتضى (الفيض الكاشانى) ط . المطبعة الإسلامية بطهران سنة ١٣٧٤هـ

٥١ • **طبقات الشافعية الكبرى** – ابن تقى الدين السبكى . ط . المطبعة الحسينية .

٥٢ • **طبقات المفسرين** – جلال الدين السيوطى . ليدن سنة ١٨٣٩م

٥٣ • **العقيدة والشريعة فى الإسلام** – لجولدتسيهر ، ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى وآخرين . ط . دار الكتاب العربى .

٥٤ • **عمدة القارى وشرح صحيح البخارى** – للعينى (ت ٨٥٥هـ) إدارة الطباعة المنيرية .

٥٥ • **غرائب القرآن ورغائب الفرقان** . نظام الدين النيسابورى (ت ٧٢٨هـ) على هامش الطبرى . ط . بولاق سنة ١٣٢٣هـ

٥٦ • **فتح البارى** . ابن حجر (ت ٨٥٢هـ) ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٨هـ

٥٧ • **فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير** ، الشوكانى . ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٤٩هـ

٥٨ • **الفصل فى الملل والأهواء والنحل** . ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) ط . مصر سنة ١٣١٧هـ

٥٩ • **فضائل القرآن** . ابن كثير . ط . عيسى الحلبى سنة ١٣٧١هـ

٦٠ • **فى ظلال القرآن** . الشيخ سيد قطب . طبع دار الشروق ببيروت سنة ١٩٨٠م

٦١ • **القاموس المحيط** . الفيروزابادى (ت ٨١٧هـ) ط . دار المأمون سنة ١٣٥٧هـ

٦٢ • **قصص الأنبياء – المسمى بالعرائس** . النيسابورى الثعلبى (ت ٤٢٧هـ) نشر مكتبة الجمهورية العربية .

٦٣ • **قصص الأنبياء** . ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) نشر دار عمر بن الخطاب . الاسكندرية

٦٤ • **قصص الأنبياء** . عبد الوهاب النجار . ط . دار الكتاب العربى

٦٥ • **الكشاف عن حقائق التنزيل** .الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) ط . المطبعة العامرة سنة ١٣٠٨هـ

٦٦ • **كشف الظنون** . حاجى خليفة . ط . استانبول سنة ١٣٦٢هـ

٦٧ • **لباب النقول فى أسباب النزول** . السيوطى . ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٧٣هـ

٦٨ **مجموعة الرسائل الكبرى** . ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط . العامرة الشرفية سنة ١٣٢٣هـ

٦٩ • **مجمع البيان لعلوم القرآن** . أبو الفضل الطبرسى (ت ٥٤٨هـ) إخراج الشيخ محمد المدنى وآخرين طبعة سنة ١٣٧٨هـ

٧٠ • **مذاهب التفسير الإسلامى** . جولدتسيهر – ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار – طبع السنة المحمدية سنة ١٣٧٤هـ

٧١ • **مسائل الرازى وأجوبتها فى غرائب آى التنزيل** . محمد بن أبى بكر الرازى (ت ٦٦٦هـ) ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٨١هـ

٧٢ • **المستدرك على الصحيحين** . الحاكم النيسابورى (ت ٤٠٥هـ) ط . مطابع النصر الحديثة بالرياض .

٧٣ • **معالم التنزيل** . الحسينى بن مسعود البغدادى . ط . المنار سنة ١٣٤٥هـ

٧٤ • **المعجزة الكبرى** . الشيخ محمد أبو زهرة . ط . دار الفكر العربى سنة ١٩٧٠م

٧٥ • **مفاتيح الغيب – أو التفسير الكبير** . فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) ط . العامرة الشرفية سنة ١٣٢٤هـ

٧٦ • **المفردات فى غريب القرآن** ، الراغب الأصفهانى (ت ٥٠٢هـ) تحقيق محمد سيد الكيلانى . ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٨١هـ

٧٧ • **مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى** ، الدكتور أحمد جمال العمرى . طبع دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤م

٧٨ • **مقدمتان فى علوم القرآن** . ابن عطية (٥٤٦هـ) وآخر – نشر المستشرق آرثر جفرى – ط . السنة المحمدية سنة ١٩٥٤م

٧٩ • **مقدمة فى أصول التفسير** . ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) ط . المطبعة السلفية سنة ١٣٧٠هـ

٨٠ • **مقدمة المصحف المفسر** . محمد فريد وجدى . دائرة معارف القرن العشرين . طبع سنة ١٣٤٩هـ

٨١ • **الملل والنحل** . الشهرستانى (ت ٥٤٨هـ) تحقيق الدكتور محمد فتح الله بدران . مطبعة مخيمر سنة ١٩٥٦م

٨٢ • **منهاج السنة** .ابن تيمية . تحقيق محب الدين الخطيب . ط . السلفية سنة ١٣٧٤هـ

٨٣ • **منهج الفرقان فى علوم القرآن** . الشيخ محمد على سلامة . ط . مطبعة شبرا سنة ١٩٣٩م

٨٤ • **الموافقات فى أصول الشريعة** . أبو إسحاق الشاطبى (ت ٧٩٠هـ) شرح الشيخ عبد الله دراز . المطبعة الرحمانية .

٨٥ • **ميزان الاعتدال فى نقد الرجال** . الحافظ الذهبى (ت ٧٤٨هـ) ط . السعادة سنة ١٣٢٥هـ

٨٦ • **النبأ العظيم** . الدكتور محمد عبد الله دراز . ط . السعادة سنة ١٩٦٠م

٨٧ • **نظرة العجلان ، فى أغراض القرآن** . ابن شهيد ميسلون . ط . العصرية بدمشق .

٨٨ • **نظم الدر فى تناسب الآيات والسور** . البقاعى (ت ٨٨٥هـ)

٨٩ • **نيل الأوطار** . الشوكانى . ط . مصطفى الحلبى سنة ١٣٨٠هـ

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس التحليلى للموضوعات

– **مقدمة** (٣ – ١٤)

الموضوع .
المنهج .
المصادر .

– **تمهيد : دراسة تمهيدية** (١٥ – ١٧)

(أ) – فى التفسير ومناهجه

– التفسير فى مفهوم القدماء ، التفسير فى الاصطلاح ، تعريف القدماء للتفسير .
– تفسير القرآن كان مجالا رئيسيا التقت عليه كل الطوائف والاتجاهات .
– اتجاهات التفاسير .
– مفهوم التفسير عند العلماء المحدثين .
– المفسرون المحدثون يرفضون تعريفات السابقين .
– وجهة نظرهم فى أن القرآن يفسر بعضه بعضا .
– مفهوم الذين يرون أن القرآن يتعبد به فقط .
– رد القاضى عبد الجبار فى بطلان هذا الرأى .
– التفسير علم قديم – أستاذه الأول رسول الله .
– الصحابة والتابعون يرثون تفسيرات القرآن .

– العملية التفسيرية ، وما تشتمل عليه :

– العمل على ربط معانى القرآن بما ورد فى السنة المطهرة – مراعاة القراءات – إبرازا الجوانب الجمالية – معرفة أسباب النزول – معرفة علم القصص – معرفة الناسخ والمنسوخ – علم الموهبة ، رأى الشيخ رشيد رضا فى العملية التفسيرية – علم الأساليب – علم أحوال البشر – العلم يوجه هداية البشر كلهم بالقرآن .

– أين مكان التفسير الموضوعى .

– ألوان التفسير

– التفسير التحليلى
– التفسير الإجمالى
– التفسير الموضوعى

(ب) – التفسير الموضوعى بين الماضى والحاضر (٤٧ – ٧٥)

– بذور من التفسير الموضوعى فى عهد رسول الله .
– على بن أبى طالب يضع لبنات من التفسير الموضوعى .
– تطور الحياة العلمية وما أنتجته من مؤلفات تتصل بعلوم القرآن
– منهج ابن تيمية فى التفسير
– منهج ابن قيم الجوزية فى التفسير .
– التفسير فى العصر الحديث .

– نشأة التفسير الموضوعى واقترانه بالتفسير الأدبى .

– منهج الشيخ محمد عبده .
– منهج الشيخ سيد قطب

- منهج الشيخ أمين الخولى
- منهج الدكتورة عائشة عبد الرحمن
- منهج الشيخ محمود شلتوت
- منهج الدكتور محمد خلف الله أحمد
- منهج الدكتور شوقى ضيف
- حاجتنا إلى التفسير الموضوعى اليوم

- مناهج البحث فى التفسير الموضوعى .

(أ) - منهج اعتبار السورة القرآنية هى الوحدة الموضوعية
(ب)- المنهج التجميعى التكاملى للموضوع الواحد من القرآن كله

الفصل الأول : أنبياء الله ورسله (٧٦ - ١٠٨)

ما النبوة ؟

- ما الفرق بين النبى والرسول ؟
- من هم الأنبياء المرسلون ؟
- سمات الأنبياء وشمائلهم
  - الصدق - القدرة على حمل الأمانة - القدرة على التبليغ - الفطنة .
- مؤهلات خاصة :
  - عراقة النسب - المثالية - حاجة البيئة .
- من هو أول رسول أرسله الله ؟ .. وما عدد الرسل ؟
- أين مواطن هؤلاء الرسل ؟ وأين ديارهم ؟
- هل كانت المنطقة العربية وحدها هى موطن النبوّات ؟
- أولو العزم من الرسل .
- معنى الإيمان بالرسل .
- تأييد الله لهم فى دعواتهم بالآيات البينات .

- الإيمان بالرسل يستتبعه الإيمان بالرسول المصطفى ﷺ
- احتفال القرآن بذكر الأدلة التى تشهد بنبوته .
- بشرى الكتب السماوية ببعثه ونبوته .
- تسجيل القرآن شهادة النصارى بنبوة محمد ﷺ
- شهادة الحق – تبارك اسمه – وملائكته – لمحمد بالنبوة والرسالة .
- المؤيدات الإعجازية التى أيد الله بها نبيه .
- الرسول لم يترك شيئا غامضا ملتبسا على أمته .

الفصل الثانى : آدم أبو البشر – عليه السلام – وقضية الاستخلاف فى الأرض (١٠٩–١٥٦)

- **خلق الله للكون**
- **خلق السماوات وتزيينها** : الشمس – القمر – الكواكب – العرش – الكرسى – اللوح المحفوظ – القلم – البيت المعمور – سدرة المنتهى – الجنة .
- **خلق الأرض**
- المدة التى استغرقتها عملية الخلق .
- خلق آدم عليه السلام .
- نفخ الروح فيه .
- **قضية الاستخلاف**
- إخبار الملائكة بخلق آدم . سجود الملائكة له – وامتناع إبليس .
- هل كان إبليس من الملائكة ؟
- سكنى آدم وزوجه الجنة .

– متى خلقت حواء وكيف ؟
– خطيئة آدم بالأكل من الشجرة .
– قضية هامة – هل الجنة التى أدخلها آدم فى السماء أو فى الأرض ؟
– معاقبة الله لآدم وحواء .
– إهباطهما من الجنة .
– الحكمة فى تكرير ذكر الإهباط فى سورة البقرة .
– أين هبط آدم وزوجه .
– إبتلاء آدم نتيجة لخطيئته بعشرة أشياء .
– تحليل ودراسة :
– ما المراد بالخلافة ؟
– سؤال الملائكة ليس على وجه الاعتراض .
– من أين علمت الملائكة أن هؤلاء الخلق الجديد سيفسدون فى الأرض ؟
– احتفال القرآن بذكر شرف آدم على الملائكة .
– ذكره فى الملأ الأعلى واستخلافه
– تعليمه الأسماء كلها .
– إسجاد الملائكة له .
– من حكم استخلاف آدم – عمارة الأرض ، استثمار خيراتها .
– ليس السعى فى الأرض وطلب المعاش عقوبة على خطيئة آدم .
الفصل الثالث : قابيل .. أين أخوك (١٥٧–١٧٥)
– مضمون قصة قابيل وهابيل .
– لماذا وردت القصة فى القرآن ؟

– وما السبب فى نزولها ؟
– حقيقة الصراع بين الأخوين . ولماذا أدى إلى القتل ؟
– كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه ؟
– كيف قتل قابيل أخاه ؟
– ماذا حدث بعد القتل ؟

–قصة قتل قابيل لهابيل من التصريف البيانى .

– نزول قانون السماء فى القصاص .
– الأحكام الشرعية التى تتصل بقتل النفس ، وبالسعى فى الأرض فساداً .
– الأحكام الشرعية فى بيان القصاص فى الأطراف مع النفس .

الفصل الرابع : نوح – عليه السلام – وسفينته والطوفان (١٧٦–٢٠٤)

– القصة تشغل حيزاً كبيرا فى القرآن الكريم .
– القرآن خصص سورة بأكملها للحديث عن نوح هى **« سورة نوح »**
– قصة نوح سيقت من أجل ترسيخ العقيدة :

(أصول التوحيد – إثبات البعث والنشور – والجزاء والحساب – والثواب والعقاب – إثبات دلائل النبوة)

– الحديث عن رسالته .
– مكث نوح ألف سنة إلا خمسين عاما يدعو قومه .
– يأسه وشكواه إلى ربه عصيان قومه .
– وحى الله له بصنع الفلك .
– مواصفات سفينة نوح
– حمله معه فى السفينة من كل زوجين اثنين من المخلوقات ذات الأرواح .

- كم كان عدد المحمولين ؟
- التفاعل بين الإيمان وبين العاطفة الأبوية .
- الطوفان .
- أمر الله للأرض بابتلاع الماء .
- دراسة وتحليل .

الفصل الخامس : خليل الرحمن .. أبو الأنبياء .. وولده الذبيح(٢٠٥-٢٢٠)

- أساس الفطرة « التوحيد »
- دعوة إبراهيم هى الفتح الجديد .
- شرائع الحنيفية - ملة إبراهيم .
- من هو الذبيح ؟ **هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟**
- المفسرون يروون أن الذبيح هو إسحاق .
- مناقشة هذه الآراء والروايات وتفنيدها .
- تحليل ما جاء فى التوراة حول إسحاق .
- الدليل على أن الذبيح هو إسماعيل .
- رأى ابن كثير .
- ابن القيم ينقل رأى ابن تيمية حول هذا الموضوع .

الفصل السادس : ذو القرنين .. وبناء سد يأجوج ومأجوج(٢٢١-٢٣٥)

- من هو ذو القرنين ولماذا سُمّى بذلك ؟
- مسيرته فى سبيل الله وأهدافها .

* إعلاء كلمة الله ونشر عقيدة التوحيد فى كل مكان .

- اتجاهه نحو المغرب .
- اتجاهه نحو المشرق .

* حماية الأقليات المؤمنة من طغيان الأكثريات الكافرة المفسدة .

- من هم يأجوج ومأجوج ؟
- كيف بنى ذو القرنين السدّ ؟
- مواصفات السدّ
- انكسار سد يأجوج ومأجوج من علامات الساعة .

الفصل السابع : الصدِّيق يُوسف - عليه السلام - ومحنة المراودة (٢٣٦-٢٥٨)

سورة يوسف « أحسن القصص »

- المحن التى وقعت ليوسف .
- المحنة الأولى : محنة إلقائه فى غيابة الجب .
- المحنة الثانية : محنة الاسترقاق .
- المحنة الثالثة : محنة المراودة .
- معنى المراودة .
- جدل العلماء حول قضية المراودة .
- البرهان الذى رآه .
- الاضطراب الواضح فى المرويات .
- تفسير لغوى لآية المراودة .
- المفاجأة العجيبة أثناء المراودة .
- لماذا كانت المراودة .. ولماذا عذر العزيز زوجه ؟
- موقف نساء المدينة من بنات الكبراء فى الطعن عليها .
- إعداد الوليمة .
- رؤية النساء ليوسف وإكبارهن له .
- ظاهرة واضحة فى قصة يوسف عليه السلام .

الفصل الثامن : نبى الله شعيب .. وأصحاب الأيكة (٢٥٩-٢٧٩)

- من هم أصحاب الأيكة ؟
- ماذا تعنى قصة شعيب ؟
- شعيب يدعو إلى عدم الظلم والرشوة . وعدم أكل أموال الناس بالباطل .
- شعيب ينهى عن القعود فى الطرقات .
- مناقشة قومه له .
- رد شعيب عليهم .
- تهديد شعيب بالإخراج من بلده .. وبالرجم .
- العقاب ، ووقوع العذاب مآل الكافرين .
- أخذتهم الرجفة .
- مناقشة حول سُنّة الله فى خلقه .

الفصل التاسع : نبىُّ الله موسى .. وصاحبه الخِضْر (٢٨٠-٢٩١)

- من هو الخضر ؟ ولماذا سمى بذلك ؟
- قصته مع موسى .
- ذهاب موسى إليه ومعه الحوت .
- سؤال موسى أن يصحبه ويرافقه .
- قضية السفينة
- قتل الغلام .
- إقامة الجدار .

تفهيم موسى المبررات التى من أجلها فعل الخضر ما فعل .

- ماذا كان فى الكنز ؟
- هل كان الخضر نبيا ؟
- عبر وحكم فى قصة موسى والخضر .

الفصل العاشر : قارون وكنوزه إلى الفناء (٢٩٢-٣٠٦)

- قصة قارون تمثل جانب الطغيان بالمال ، والغرور بالعلم .
- من هو قارون ؟
- ما حجم ثراؤه ؟
- ماذا حدث يوم الزينة ؟
- بماذا نصحه قومه على سبيل الوعظ والإرشاد ؟
- ما نوع العلم الذى عنده ؟
(الكيمياء - السحر - معرفة الإسم الأعظم)
- أسباب هلاك قارون .
- نهاية أليمة .
- خَسْف الله بقارون وبداره وبماله .

الفصل الحادى عشر : نبى الله داود وقضية الإبتلاء (٣٠٧-٣٣٣)

- اختيار الله داود ليكون نبيا مرسلا ، وملكا قويا .
- **اختص الله داود بأمور لم تكن لغيره** .
  - الحكمة وفصل الخطاب .
  - فصل الخطاب والتأييد بالسلسلة .
  - القوة فى العبادة ، وشدة الاجتهاد .
  - نزول الزَّبور .
  - الصوت الطيب ، والنغمة اللذيذة ، والترجيع والألحان .
  - القوة الجسدية وإلانة الحديد .
  - جمال الخَلْق والخُلُق .
- تعرضه لامتحان رهيب .
- ماذا كان نوع الابتلاء العظيم .

- **موضوع القضية** . قصة الخصمين المتخاصمين .
- حكم داود قبل سماع الخصم الآخر .
- قضية الابتلاء كان مثار نقاش كبير وجدل كثير .
- رأى البغوى .
- رأى القاضى عياض .
- آراء للعلماء .
- قصة داود من تصريف البيان .
- رأى أبى حيّان .
- سجدة داود هل هى من عزائم السجود – أم هى للشكر ؟

الفصل الثانى عشر : المسيح عيسى ابن مريم ، رسول الله وكلمته ، وقصة المائدة . (٣٣٤-٣٥٩)

- **حقائق عن رسول الله عيسى ابن مريم :**
  - هبة من روح الله . ولد بغير أب .
  - كان يكلم الناس فى المهد إثباتا للمعجزة الإلهية .
  - كلم أهله وقومه ليدفع عن أمه الفرية .
  - عيسى ليس ابنا لله . ولكنه باعترافه – عبد الله .
  - وأن الله أتاه الكتاب ، وكلفه بالرسالة ، وجعله نبيا .
- **تأييد الله له بالمعجزات الحسية :**
  - تأييد الله إياه بروح القدس .
  - تعليم الله إياه الإنجيل والتوراة .
  - خلقه الطير من الطين .
  - إبراء الأكمه والأبرص .
  - إحياء الموتى بإذن الله .
  - الإخبار عن الغيوب .

- عيسى ابن مريم من البشر ، كآدم خلقه الله من تراب .
- تكليفه بالرسالة لبنى إسرائيل .
- دعوة عيسى للحواريين لتأييده ونصرته

قصة المائدة

- ماذا حوت المائدة ؟
- معجزات حول المائدة .
- هل نزلت المائدة أكثر من مرة ؟
- انتقام الله من المكذبين .
- محنة تأليه عيسى - عليه السلام .
- سؤال الله لعيسى عن إشراكهم .

- **توضيح القرآن لحقيقة عيسى ابن مريم**

- القرآن يكفر أصحاب فكرة التثليث .
- القرآن ينعى على أهل الكتاب المغالاة فى الدين .
- حقيقة الدين المسيحى مبنية على التوحيد .
- نص المسيح - عيسى ابن مريم - على أنه رسول الله .

- **محنة التعذيب والمطاردة**

- رفعه إلى السماء .

الفصل الثالث عشر : مع أصحاب الكهف فى رحلة الإيمان (٣٦٠-٣٧٨)

- قصة أصحاب الكهف .
- مناسبة ذكرها فى القرآن .
- القرآن يبسط القصة ويشرحها .

- من هم أصحاب الكهف ؟
- لماذا هربوا من قومهم ؟
- مواصفات الكهف كما ذكرها القرآن .
- لماذا لم يحدد القرآن مكان الكهف ؟
- لماذا لم تُبل أجسامهم وعيونهم ؟
- لماذا ألقى الله المهابة عليهم ؟
- مبعثهم على صورتهم الحقيقية كما كانوا .
- ما الحكمة فى أن الحق سبحانه بعثهم على هذه الحالة ؟
- خروج أحدهم إلى المدينة فى شراء طعام لهم .
- معرفة الناس سره - ومتابعتهم له .
- ما عددهم ؟
- كم لبثوا فى كهفهم هذا ؟
- مشاهد القصة كما صورها القرآن .

الفصل الرابع عشر : رسول الله .. ورسالته فى القرآن (٣٧٩-٣٩١)

- إلتزام القرآن بالتحدث عن شخصية الرسول .
- التعريف بالرسول فى نطاق الصراع العقيدى .
- القرآن يقدم صورة واضحة عن مهمته ورسالته .
- القرآن يسلط الضوء على المؤمنين الذين معه .
- جعله الله شاهداً على أمته .
- القرآن يعرف بالرسول بأنه « **رسول مبين** »
- المشركون يريدون أن يخرجوا الرسول عن طبيعته البشرية .
- يتحدونه فى أن يأتى بالله والملائكة ليشهدوا بصحة نبوته .

- القرآن يخسف بكل التحديات .
- القرآن يؤكد بشرية الرسول .

معارضة أهل الكتاب للرسول .

- القرآن يقدم الدليل على خطئهم .
- الكتب السماوية تحدثت عن الرسول .
- الله أخذ الميثاق على النبيين والمرسلين أن يؤمنوا برسوله محمد .
- تنكر اليهود والنصارى للرسول .
- مهمة الرسالة المحمدية .
- القرآن يعرف برسالة محمد .
- الرسول والرسالة أمران لا ينفصلان .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الموضوعات

صفحة

* – مقدمة :الموضوع والمنهج ٣
* دراسة تمهيدية ١ – التفسير ومناهجه ١٥
٢ – التفسير الموضوعى بين الماضى والحاضر ٤٧
الفصل الأول : أنبياء الله ورسله ٧٦
« الثانى : آدم أبو البشر وقضية الاستخلاف ١٠٩
« الثالث : قابيل .. أين أخوك ؟ ١٥٧
« الرابع : نوح – عليه السلام – وسفينته والطوفان ١٧٦
« الخامس : خليل الرحمن – أبو الأنبياء – وولده الذبيح ٢٠٥
« السادس : ذو القرنين .. وبناء سد يأجوج ومأجوج ٢٢١
« السابع : الصديق يوسف – عليه السلام – ومحنة المراودة ٢٣٦
« الثامن : نبى الله شعيب وأصحاب الأيكة ٢٥٩
« التاسع : نبى الله موسى وصاحبه الخضر ٢٨٠
« العاشر : قارون وكنوزه إلى الفناء ٢٩٢
« الحادى عشر : نبى الله داود وقضية الابتلاء ٣٠٧

صفحة

الفصل الثانى عشر : المسيح عيسى ابن مريم – رسول الله
وكلمته وقصة المائدة ٣٣٤
« الثالث عشر : مع أصحاب الكهف فى رحلة الإيمان . ٣٦٠
« الرابع عشر : رسول الله ورسالته فى القرآن ٣٧٩

خاتمة البحث ٣٩٣

– أهم مصادر البحث ٤٠٧
– الفهرس التحليلى للموضوعات ٤١٧

فهرس الموضوعات ٤٣١

رقم الإيداع
٤٣٧٧ / ٨٦
الترقيم الدولى ٩ – ٠٢١ – ٥٠٥ – ٩٧٧